التيسير في التفسير

تأليف الإمام

أبي حفص النسفي

نجم الدين عمر بن محمد بن أحمد النسفي الحنفي

٤٦١ - ٥٣٧ هـ

يطبع أول مرة محققاً على ثلاث نسخ خطية

تحقيق وتعليق

فادي المغربي

المجلد الخامس

دار اللباب

بسم الله الرحمن الرحيم

التيسير
في
التفسير

(٥)

الطبعَة الأولىٰ

١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

9 786052 279311

دار اللُّباب
للدِّراسَاتِ وتحقِيق التُّراث

DAR-ALLOBAB

Lubab Yazma Eserleri İhya ve İlmi Araştırma Yayınları

اسطنبول - تركيا
00905454729850
00902125255551
info@allobab.com

بيروت - لبنان
009615813966
0096170112990
Www.allobab.com

İskenderpaşa mh. Kıztaşı cd. No:7 D:5 Fatih (Özel Fatih Hastanesi Karşısı)

سُورَةُ النِّسَاءِ

(٣٢) ـ ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾: وأكثر ما ينشأ قصدُ أخذِ مال الغير بالباطل، وقتلُ النفس بغير حقٍّ، وإهلاكُ نفسه في الخوض في المخاوف، يكون بتمنِّي مال الغير وحالِ الغير، فنهاهم الله تعالى عن ذلك قطعًا لِمَا يَبتني عليه، فقال: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟﴾؛ أي: ولا تشتهوا ﴿مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ﴾؛ أي: الشيءَ الذي فضَّل الله به[1] ﴿بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾: الأغنياءَ على الفقراء والرجالَ على النساء.

قال عكرمةُ ومجاهد: نزلت في قولِ أم سلمة: يغزو الرجال ولا نغزو[2]، ولنا نصف الميراث، فنزلت: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[3] بالذكورة

---

(١) في (أ): «بذلك».

(٢) في (أ): «تغزو» وفي (ف): «تغزو النساء».

(٣) رواه عنهما مختصراً الطبري في «تفسيره» (٦/ ٦٦٥)، ورواه بنحوه عن عكرمة ابن المنذر في «تفسيره» (١٦٧٩)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ١٥٠). ورواه بنحوه أيضاً الترمذي (٣٠٢٢)، والإمام أحمد في «المسند» (٢٦٧٣٦)، من طريق مجاهد عن أم سلمة رضي الله عنها، وفيه انقطاع بينهما، نبه عليه الترمذي.

والجهاد ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ﴾ من الخير ﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾ أيضًا من الخير، فلا حرمان لهنَّ من الثواب بأنوثتهن ومنعِهن عن الجهاد، ولهن خيراتٌ أُخَرُ يُجازَينَ عليها.

وقال قتادة: كان أهل الجاهلية لا يورِّثون المرأة ولا الصبيَّ شيئًا، ويجعلون الميراث لمن يَحترِف، فجعل الله تعالى الميراثَ للمرأة والصبيِّ، وجعل للذكَر مثلَ حظ الأنثيين، فقالت النساء: لو جُعل نصيبنا كنصيب الرجال، وقالت[١] الرجال: إنا لنرجو أن يحاسبنا الله في الآخرة كما فضَّلنا في الدنيا في الميراث[٢]، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[٣]؛ أي: الرجالَ بالميراث، **وقوله تعالى:** ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ﴾ يجزي الرجلَ بالحسنة عشرًا ﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾ ويجزي المرأة بالحسنة عشرًا، وليس ذلك على حسب[٤] الميراث.

وقال السدِّي: تمنَّى الرجال أن لا يكونَ عليهم جهادٌ، وتمنَّى النساء أن يكنَّ مثلَ الرجال في الجهاد في سبيل الله تعالى، فنُهوا جميعًا عن تمنِّي ذلك[٥].

وقال مقاتل بن حيان: تمنى النساء أن يكنَّ مثلَ الرجال في المواريث[٦]، فنُهين

---

(١) في (أ) و(ف): «فقال».

(٢) في (ر) و(ف): «بالميراث». ولفظ الطبري: (وقال الرجالُ: إنَّا لنرجو أنْ نُفضَّل على النساء بحسناتنا في الآخرة، كما فضِّلْنا عليهنَّ في الميراثِ).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٦/ ٦٦٧).

(٤) في (ف): «حساب».

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (٦/ ٦٦٧).

(٦) في (أ): «الميراث».

عن ذلك، فقلن عند ذلك: فلهم[١] من الوِزر على قَدْرِ ما فضِّلوا به من[٢] الميراث، فنزل: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾[٣].

وقال قتادةُ: لمَّا جُعل حظُّ الذكر مثلَ حظِّ الأنثيين في الميراث قال الرجال: نرجو أن تكون حسناتُنا مثلَي حسناتهنَّ، وقالت النساء: نرجو أن تكون سيئاتُنا على النصف من سيئاتهم، فنُهوا جميعًا عن ذلك، فنزلت الآية[٤].

وقيل: هذا لطفٌ في النهي، وتنبيهٌ أنه لا يضرُّهم تفضيل بعضهم على بعضٍ في الأموال إذا كانوا متساوينَ في ثواب الأعمال.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: يحتمِل أن يكون هذا التمنِّي في الدِّيانة، ويحتمِل أن يكون في النِّعم الدنيوية:

أمَّا في الديانة: فأنْ يتمنَّى أحدٌ أن يكون قَدْره مِثْلَ قَدْرِ آخَرَ عند الناس من العلم والزهد[٥] وغيرِ ذلك، فنهي أن يتمنَّى ذلك؛ إذ لم يبلغ هو ذلك المبلَغَ إلا لاحتمال المكاره والمشاقِّ والجهد[٦].

وفي الدنيوية: هو أن يتمنَّى مالَ أخيه وزوجتَه وخدَمه، وهو كفرانٌ بما أنعم الله تعالى عليه من سائر النعم.

ويحتمِل أن يكون هذا على ما خاطَب به رسولَ الله ﷺ بقوله: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ

---

(١) في (أ) و(ف): «لهم».

(٢) في (أ): «بعض»، بدل: «به من».

(٣) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٩٣٦)، وانظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٣٦٩).

(٤) انظر: «تفسير الثعلبي» (٣/ ٢٩٩).

(٥) في (ر) و(ف): «من الدين والعلم».

(٦) في (ر) و(ف): «والمشاق وغير ذلك من الجهد» والمثبت من (أ) و«التأويلات».

﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١] فأَخبر أنه لم يعطِ للكرامة لكن للفتنة، والعقل[١] يأبى الرغبة فيما يُفتَن[٢] به دون ما يُكرم به.

ثم بيَّن الذي هو أولى بالتمنِّي، وهو قوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾[٣].

ثم أمر بالسؤال من فضله لتوفيق ذلك، وهو قوله تعالى:

﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾: فإنه هو الموفِّق، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١].

وقيل: واسألوا من أفضاله مثل[٤] ما أعطى فلانًا الذي تتمنَّونه.

ثم إذا تمنى الرجل أن تزول نعمة الغير إليه فقد حسده، وإذا تمنى أن يبقى للغير ذلك ويكونَ له مثلُه فقد غبطه، والأول حرام، والثاني ضارٌّ لو لم يدفعه عن نفسه، ودفعُه: أن يرى فضل الله على فلان، وأنه لا يَشُقُّ عليه ولا يَنْقُص من ملكه لو أعطى للمتمنِّي، فيرغب إلى الله في سؤاله أن يعطيه مثله.

قال سفيان بن عيينة: لم يأمر بالمسألة إلا ليعطيَ[٥].

وقال الحسن: قال النبيُّ ﷺ: «إن الله تعالى لَيُمْسِكُ الخيرَ الكثيرَ عن عبده، ويقول: لا أعطي عبدي حتى يسألَني»[٦].

---

(١) في (ر): «والعاقل»، والمثبت من (أ) و(ف) و«التأويلات».

(٢) في (ر): «يفتتن».

(٣) انظر: «تأويلات اهل السنة» (٣/ ١٤٨ ـ ١٥٠).

(٤) «مثل» من (أ).

(٥) انظر: «تفسير الثعلبي» (٣/ ٣٠٠).

(٦) أورده الديلمي في «الفردوس» (٦٣٢) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وقرأ ابن كثير والكسائي: ﴿وسلوا﴾ بغير همزٍ تخفيفاً لكثرة الاستعمال، والباقون بالهمز على الأصل(١).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾: أي: بمواضع الاستحقاق لفضل النعم والأرزاق.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: على لسان أهل المعاملة أن الأمر بالتَّعنِّي لا بالتمنِّي، وعلى لسان أهل التوحيد أن الأمر بالقضاء والتقدير لا بالتمنِّي في الضمير(٢).

وقال في قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾: أي: لا تتمنَّ نيلَ العطاء، واسأل الله من فضله الرضا بفقد العطاء، وذلك أتمُّ العطاء، فإن التحرُّر عن رقِّ(٣) الأشياء أتمُّ مِن تملُّك الأشياء(٤).

* * *

(٣٣) - ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ ووجه الانتظام: ولا تتمنوا كثرة الأموال فإنها تصير بعدكم(٥) لغيركم بالميراث.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٢٣٢)، و«التيسير» (ص: ٩٥).

(٢) في «اللطائف»: (أن الأمر بالحكم والقضاء لا بالإرادة والمنى).

(٣) في (ر): «فإن التحرز عن فقد».

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٣٢٨ - ٣٢٩).

(٥) في (أ): «عنكم»، وفي (ف): «عليكم».

قوله[1]: ﴿وَلِكُلٍّ﴾ منوَّن على تقدير المضاف؛ أي: ولكلِّ ميت، وقيل: لكلِّ مورِّث ﴿جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾؛ أي: ورثةً يَلُونه؛ أي: يَقربون منه، جمعُ مولًى.

وقوله تعالى: ﴿مما ترك الوالدان والأقربون﴾ (مِن) في ﴿مِمَّا﴾ صلة، و(ما ترك) اسم للترِكة الموروثة، و﴿مَوَالِيَ﴾ بمعنى الورثة، وتقع وراثتهم على ما ترك.

وقيل: ﴿وَلِكُلٍّ﴾ هو داخل في المال؛ أي: ولكلِّ مالٍ مما تركه الأبوان وسائرُ القرابات جعلنا[2] لذلك المال ورثةً.

وقيل على الوجه الأول: ولكلِّ ميت جعلنا ورثةً، ثم يضمر هاهنا: يُعطون مما ترك.

وقيل: أو[3] الكلام يتمُّ بـ ﴿مِمَّا تَرَكَ﴾، ثم قوله: ﴿ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ ابتداءٌ على وجه التفسير للموالي؛ كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [الحج: ٧٢].

وقوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ عَاقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ**﴾[4] قرأ ابن كثير وأهلُ المدينة وأبو عمرٍو و[ابن] عامر[5]: ﴿عاقَدَتْ﴾ بالألف لأنها بين اثنين، والباقون: ﴿عَقَدَتْ﴾[6] وهو أصل الفعل[7].

---

(١) «قوله» من (أ).

(٢) في (ر): «جعلت»، وسقطت الجملة من (ف).

(٣) في (أ): «أول».

(٤) في (أ): «﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾»، وهما قراءتان سبعيتان كما سيأتي.

(٥) كلمة: «وعامر» سقطت من (أ)، وكلمة «ابن» سقطت من النسخ.

(٦) هي قراءة حمزة والكسائي وعاصم. انظر: «السبعة» (ص: ٢٣٣)، و«التيسير» (ص: ٩٦).

(٧) في (ر): «العقد».

وقرأت أمُّ سعدٍ بنتُ سعدِ بن الرَّبيع: (عَقَّدت) بالتشديد[١]، وهو للتوثيق والتأكيد[٢].

و﴿أَيْمَٰنُكُمْ﴾: جمع يمين، وهي اليد التي أُضيفت المعاقَدةُ إليها كما تضاف سائر الأفعال إلى اليد[٣]، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٢].

وقيل: كانوا يصفِّقون بالأيدي عند العقود والعهود؛ أي: يأخذون الأيدي بالأيدي، فلذلك أضيفت إليها.

وقيل: هذه الأيمان هي الأقسام، وكانوا يؤكِّدون العهود بالأيمان، ولذلك سمِّيت محالفةً وحِلفاً، وتقديره: والذين عقَدَت لكم أيمانكم، وهو[٤] عقدُ الموالاة، وهي مشروعةٌ، والوراثةُ بها ثابتةٌ عند عامة الصحابة والعلماء، وهو قولنا[٥]، وتفسيره: إذا أسلم رجل أو امرأة لا وارث له، فيقول لآخر: والَيْتُك على أن تَعْقِلني وتَرِثَني، ويقول الآخر: قبلتُ، انعقد ذلك[٦]، ويرث به الأعلى من الأسفل، ولا يرث به الأسفل من الأعلى[٧]، وله أن ينتقل بولائه عنه إلى غيره ويفسخَه بحضرته ما لم يَعقل عنه جنايتَه، فإذا عَقَل فلا فسخ ولا انتقال،

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٣٢)، وزاد نسبتها لمبشر بن عبيد، ورويت عن حمزة في غير المشهور عنه. انظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٤٦).

(٢) في (أ): «والتوكيد».

(٣) «إلى اليد» ليس في (أ) و(ف).

(٤) في (ر) و(ف): «وهي».

(٥) عند أبي حنيفة: إذا تعاقدا على أن يتعاقلا ويتوارثا صح وورث بحق الموالاة، خلافاً للشافعي.

(٦) في (ر) و(ف): «قبلت العقد لذلك».

(٧) «ولا يرث به الأسفل من الأعلى» من (أ)، ووقع في (ف) بدلًا منه: «والأسفل من الأعلى».

وهـذا المولـى في الوراثـة [١] مؤخَّرٌ[٢] عـن ذوي الأرحام؛ لضعـف حاله لاختلاف النـاس فيـه، ومِـن شـرط صحة هـذا العقـد أن لا يكون للأسـفل نسـبٌ، ولا يكونَ لـه معتَـقٌ، ولا يكـونَ عربيًـا لأن العرب لا يُسترقُّون فـلا يكون عليهـم ولاءُ عتاقة، فكـذا ولاء المـوالاة وقـد بيَّنَّا[٣] هـذا كلَّه[٤] فـي «حصائل المسـائل».

وقوله تعالى: ﴿فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ﴾ أي: أعطُوا الموالِيَ بالقرابة والمواليَ بالولاء قسمتَهم[٥] من الميراث.

وقولـه تعالـى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا﴾: أي: هـو عالـم الغيب والشـهادة، وهـو أبلغ وعـد ووعيد.

* * *

(٣٤) ـ ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا﴾.

وقوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾[٦] انتظامُها بالآيةِ التي قبلها أنَّ النساءَ تمنَّينَ حالَ الرِّجال، فنُهينَ عن ذلك، وذكرَ في هذه الآيةِ تفضيلَ الرِّجالِ

---

(١) في (ف): «الورثة».

(٢) في (ر): «يؤخر».

(٣) في (ر) و(ف): «ذكرنا».

(٤) «كله» من (أ).

(٥) في (ر) و(ف): «قسمهم».

(٦) بعدها في (ف): «بما فضل الله».

عليهنَّ، واتصالُها بأوَّل السُّورة أنَّ اللهَ تعالى أمرَ بالعدلِ بينَ النِّساء، وبيَّن هاهنا أنَّ الأمرَ بالإحسان إليهنَّ لا يوجِبُ تركَ تقويمهنَّ.

وقولُه تعالى: ﴿قَوَّٰمُونَ﴾ قال ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما: أي: أمراء(١).

وقيل: مسلَّطون.

وقيل أي: قائمون بتأديبهنَّ وتَدبيرهنَّ.

وقوله تعالى: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾؛ أي: بتفضيلِ الله الرِّجالَ على النِّساءِ بالعقلِ، والقُوَّةِ، والجماعات، والجُمُعات، والولايات، والشَّهادات، والجهادِ وملكِ النِّكاح، وملكِ الطَّلاق، وتضعيفِ الميراث، وكونِ الأنبياء منهم.

وقوله تعالى: ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾؛ أي: وبأن نفقتهنَّ عليهم(٢)، ودلَّ على وجوب نفقاتِ الزَّوجاتِ على الأزواج.

وقال الشافعيُّ رحمه الله: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾؛ أي: الأولياءُ هم الذين يَلونَ تزويجهنَّ دونهنَّ(٣).

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ولا يَستقيمُ حملُها على الأولياء بدليل قوله تعالى: ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾، وذاك في حقِّ الأزواجِ دون الأولياء(٤).

ثمَّ بيَّن أنَّ النِّساءَ نوعان:

وذلك قولُه تعالى: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ﴾؛ أي: النِّساءُ

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٦/ ٦٨٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٩٣٩) (٥٢٤٥).

(٢) قوله: «أي: وبأن نفقتهن عليهم» ليس في (ف).

(٣) انظر: «الأم» للشافعي (٦/ ٣١ ـ ٣٣).

(٤) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٣/ ١٥٦).

الموصوفاتُ بالصَّلاح هنَّ المطيعاتُ لله تعالى، والرَّاعياتُ حقوق الأزواج في غيبتِهم، فيحفظنَ أنفسهنَّ عن الغيرِ، ويَحفظنَ أموالَ الأزواجِ أيضاً، ودلَّ على أنَّ الصَّلاحَ هو أداءُ حقِّ الله تعالى وحقِّ الخلق.

وقوله تعالى: ﴿بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: ذلك بحفظِ اللهِ وعونِه، كما في قوله تعالى: ﴿بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى﴾ [يس: ٢٧]؛ أي: بمغفرتِه، فإنَّ «ما» مع الفعل بمعنى المصدرِ، ودلَّ على صحَّة مذهب أهلِ السُّنَّة والجماعة في إثباتِ الفعلِ مِن العبدِ والمعونةِ من الله.

وقيل: ﴿بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: بما ألزمهنَّ اللهُ مِن حفظِ ذلك بأمرِه، وهو إضافةُ فعلِ الفاعلِ إلى الآمرِ به، وأضمر هاهنا: فأحسنوا إليهنَّ، وكذا هو في مصحفِ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه[1].

والنوع الثاني: وهو قوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾؛ أي: تَخشون ترفعهنَّ بالمخالفة؛ لعلمكم بالأعمال[2] المؤدِّيةِ إليه. قاله محمد بن كعب القرظيّ.

وقوله تعالى[3]: ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾ قال ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما: عظوهنَّ[4] بالكتابِ والسُّنَّة[5].

---

(١) روى الطبري في «تفسيره» (٦/ ٦٩٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٩٤١) (٥٢٥٨) عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قرأ: «فأصلحوا إليهن». قال أبو حيان في «البحر المحيط» (٧/ ٣٨): وينبغي حملُها على التفسير؛ لأنها مخالفةٌ لسواد الإمام، وفيها زيادة، وقد صحَّ عنه بالنقل الذي لا شك فيه أنه قرأ وأقرأ على رسم السواد، فلذلك ينبغي أن تُحمَل هذه القراءة على التفسير.

(٢) في (أ): «بالأحوال».

(٣) بعدها في (ف): «واللاتي تخافون نشوزهن».

(٤) لفظ: «عظوهن» من (ف).

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (٦/ ٦٩٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٩٤١، ٩٤٢) (٥٢٦١)، (٥٢٦٤)، واقتصر فيهما على ذكر الكتاب دون ذكر السنة.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: العظةُ كلامٌ يُلَيِّنُ القلوبَ القاسيةَ، ويُرَغِّبُ الطبائعَ النَّافرة، وهي بتذكيرِ العواقِب.

وقوله تعالى: ﴿وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ﴾؛ أي: إذا لم يَنفعِ الوعظُ فأدِّبوهنَّ بالهَجرِ، وهو القطعُ، ﴿فِي ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ جمعُ مضجع، وهو موضعُ وضعِ الجَنْبِ للنَّوم، وأصلُ التضجيع والإضجاع[١]: الإمالة.

قيل: هو ألَّا يضاجعَها في مضجعٍ.

وقيل[٢]: لم يُرِد به ليُبعِدها[٣] مِن مضجعِه؛ فإنَّه لم يقل: عن المضاجع، بل أرادَ أنَّهما يَجتمِعان في مضجعٍ، لكن يولِّيها ظهرَه، ولا يلازِمُها، ولا يَنبسِطُ إليها كما كان يفعلُهُ؛ إعلاماً بالعَتبِ والمؤاخذة[٤].

وقوله تعالى: ﴿وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ﴾؛ أي: إذا لم تقع الكفايةُ بالهجران، فأدبوهنَّ بالضَّرب، وهو ضربٌ غيرُ خادشٍ ولا جارِحٍ ولا شائن.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ﴾؛ أي: في الإجابةِ إلى الفِراش[٥]، ﴿فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ﴾؛ أي: لا تَطلُبوا العِلَلَ، ولا تَذكروا ما قد كان.

وقيل: أي[٦]: لا تُكلِّفوهنَّ محبَّةَ القلب[٧]، فليس ذلك بأيديهنَّ، واكتفوا منهنَّ بالطَّاعة، فللنَّاس مِن النَّاس ما يظهرون، ولله مِن النَّاسِ ما يُضمِرون.

---

(١) في (ر) و(ف): «والاضطجاع».

(٢) لفظ: «وقيل» من (أ).

(٣) في (أ): «تبعيدها» بدل: «ليبعدها».

(٤) في (ف): «والوجدة».

(٥) بعدها في (ف): «قوله تعالى».

(٦) لفظ: «أي» من (أ).

(٧) في (أ): «القلوب».

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾؛ أي: إنَّ اللهَ مع عُلُوِّه وكبريائِه لا يؤاخِذُ بأوَّل الحال، ويدعو[١] إلى التَّوبة، ويَقبلُ إذا تابَ[٢]، ولا يؤاخِذُ بما قد كان، فالعبدُ أحقُّ بذلك.

وقيل: ذكر[٣] علوِّه وكبرياءِه في آخرِ هذه الآية تنبيهٌ للعبدِ، ومنعٌ له عن مجاوزةِ الحدِّ فيما يُقيمُه عليها على وجهِ التَّأديب.

وقال مقاتل: نزلَت الآيةُ في سعدِ بن الرَّبيعِ بنِ عمرو، وهو مِن النُّقباء، وفي امرأته حبيبة بنتِ زيد بن أبي زُهير، وهما من الأنصار ـ وقال الكلبيُّ: بل امرأتُه بنتُ محمَّد بنِ مسلمة[٤] ـ وذلك أنَّه لطمَها، فانطلقَ أبوها معها إلى النبيِّ ﷺ، فقال: أنكحتُه كريمَتي، فلطمها، فأمرَها النبيُّ ﷺ بالاقتصاصِ، فلمَّا همَّت بالاقتصاص، أبصر[٥] النبيُّ ﷺ جبريلَ يَنزل، فقال لها: كُفِّي، حتَّى انظرَ ما جاءَ به جبريلُ في أمرِك، فنزلَ بهذه الآية، فقال النبيُّ ﷺ: «أردنا أمراً، وأراد اللهُ أمراً، والذي أرادَ اللهُ خيرٌ ممَّا أردناه»[٦].

* * *

(٣٥) ـ ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾[٧] الخطابُ لولاة الأمرِ، ولقُضاة العصر.

---

(١) في (ف): «يؤاخذنا... ويدعونا».

(٢) في (ف): «تبنا».

(٣) في (ر) و(ف): «ذكره».

(٤) انظر: «تفسير الثعلبي» (٣/ ٣٠٢).

(٥) في (أ): «أخبر».

(٦) في (أ): «أردنا». وانظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٣٧٠).

(٧) بعدها في (ف): «شقاق بينهما».

وقيل: لعشائرِ الزَّوجينِ، أو لجيرانِهما، يقول: إنْ لم يَصلح الأمرُ بالوعظِ والهِجرانِ والضرب حالَ نشوزِها، أو اشتبهَ الأمر أن الإساءةَ منها أو منه، وخفتُم؛ أي: خشيتُم، أو علمتُم الخلافَ والنِّفارَ[١] بين الزَّوجين[٢]، وذلك قولُه تعالى:

﴿شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾، وأصلُ الشِّقاقِ: أنْ يصيرَ أحدُهما في شِقٍّ والآخرُ في شقٍّ[٣]؛ بالمخالفة والمباعدة والمعاداة. و﴿بَيْنِهِمَا﴾ خفضَ بالإضافة، ومعناه الوصل، كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ [الكهف: ٧٨]، وقال الله تعالى: ﴿لقد تقطع بينكم﴾ [الأنعام: ٩٤] على قراءة الرفع[٤].

وقوله تعالى: ﴿فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾؛ أي: أرسِلوا متوسِّطاً مِن عشيرة الزَّوج[٥]، ومتوسِّطاً مِن عشيرةِ المرأة[٦]؛ لينظرا مَن الظَّالم منهما فيؤمَرَ بترك الظلم، فيخلو حكمُ الرَّجل بالرَّجل ويتفحَّصُ عن رأيه في إمساكِها ومفارقتِها، ويخلو حكمُ المرأة بالمرأة، ويفعل كذلك، ثمَّ يلتقيان، فيقبلان على الظَّالمِ منهما، فيحملانِه على العدل.

وقوله تعالى: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا﴾[٧] قيل[٨]: أرادَ به الحكمين.

---

(١) في (أ): «والبعاد».

(٢) بعدها في (ف): «يقول: إن لم يصطلح الأمرُ بالوعظ».

(٣) بعدها في (ر): «آخر».

(٤) هي قراءة ابن كثير وأبي عمرو وابن عامر وحمزة. انظر: «السبعة» (ص: ٢٦٣)، و«التيسير» (ص: ١٠٥).

(٥) في (ف): «الرجل».

(٦) في (ر): «متوسطان من عشيرة المرأة والرجل» بدل: «متوسطاً من عشيرة الزوج ومتوسطاً من عشيرة المرأة».

(٧) بعدها في (ف): «يوفق الله بينهما».

(٨) لفظ: «قيل» ليس في (ف).

وقوله تعالى: ﴿يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾؛ أي: يؤلِّفْ ببركةِ ذلك بين الزَّوجين، والتَّوفيقُ مِن الموافقة.

ولـمَّا أثَّرَتْ إرادةُ الصَّلاحِ منهما في غيرهما، فإرادةُ الإنسانِ الصَّلاح في نفسِه أولى أن تُؤثِّرَ فيه.

وقيل: أرادَ به[١] أن يوفِّقهما ويسدِّدهما للخيرِ في باب الزَّوجين[٢].

وقيل: أرادَ به إرادةَ الصَّلاح مِن الزَّوجين، ووعدَ عليها[٣] التَّأليفَ بينهما، والتَّسديدَ إيَّاهما.

وفيه حجَّةُ أهل السُّنَّةِ والجماعة في إثبات الفعلِ من العبد، والتوفيقِ مِن الله تعالى.

ورويَ أنَّ عمرَ رضي الله عنه بعثَ الحكمين بين الزَّوجين، فلم يتَّفق لهما الإصلاحُ بينهما، فعلاهما بالدِّرَّة وقال: إنَّ الله تعالى يقول: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ وإنَّكما لم تريدا إصلاحاً[٤].

وروي أنَّهما تابا، وعادا إلى الزَّوجين، فوجداهما قد اصطلحا، وأغلقا البابَ على أنفسهما[٥].

وقال عَبيدة السلماني: شَهِدت عليًّا رضي الله عنه، إذ جاءت[٦] امرأةٌ وزوجُها، مع كلِّ واحد منهما جماعةٌ مِن النَّاس، فأخرجَ هؤلاءِ حكماً، وهؤلاءِ حكماً، فقال

---

(١) بعدها في (ف): «إرادة الصلاح».

(٢) من قوله: «وقيل أراد به أن يوفقهما» إلى هنا ليس في (أ).

(٣) في (ر) و(ف): «عليه».

(٤) في (أ): «الإصلاح».

(٥) انظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٦/ ٤٩٧ ـ ٤٩٨).

(٦) في (أ): «فجاءت» بدل من «إذ جاءت».

عليٌّ رضي الله عنه: أتدريان[١] ما عليكما؟[٢] عليكُما إنْ رأيتُما أن تجمعا أن تجمعا، وإن رأيتُما أنْ تُفرِّقا أن تُفرِّقا، فقالت المرأةُ: رضيت بما في كتاب الله عليَّ ولي، وقال الرَّجل: أمَّا الفرقةُ فلا، فقال علي رضي الله عنه: كذبتَ، حتَّى تُقِرَّ بمثل الذي أقرَّت به[٣].

تَعلَّقَ بعضُ العلماء بظاهرِه، وقال: للحكمَين الجمعُ والتَّفريق.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ليس لهما التَّفريق، وهذا الحديثُ دليلُنا؛ لأنَّ الزَّوجَ لـمَّا لم يَرضَ به، لم يقل عليٌّ: هو لازمٌ عليك؛ رضيتَ به أو لم ترض، بل قال: لا، حتَّى تُقِرَّ به. فدلَّ أنَّه لا يلزمُ[٤] إلا بأمره.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾؛ أي: بإرادة الحكَمين، ﴿خَبِيرًا﴾؛ أي: بمعاملة الزوجين.

وقيل: أي: يَعلمُ، ويُخبِرُ بما يَعلم.

* * *

(٣٦) ـ ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾.

ثمَّ ذكرَ بعد حقوقِ الزَّوجين حقوقَ عامَّةِ الخلق، فبدأ بحقِّ نفسِه، وذلك قوله

---

(١) في (أ): «تدريان».

(٢) بعدها في (ف): «أي».

(٣) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٥٧٧)، والطبري في «تفسيره» (٦/ ٧١٨)، وابن أبي حاتم (٣/ ٩٤٥) (٥٢٨٢).

(٤) في (ر) و(ف): «يلزمه».

تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ﴾[١] قال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: أي: وحدوا الله[٢].

وقيل: أطيعوا الله.

﴿وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ أي: الشِّركَ الجليَّ، وهو الكفرُ، والشِّركَ الخفيَّ، وهو الرِّياء، قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

وقوله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ قيل: ﴿إِحْسَانًا﴾[٣] نصب على الإغراء، وتقديرُه: وإحساناً بالوالدين، ولا إضمار.

وقيل: في أوَّلِه إضمار: وأحسنوا بالوالدين إحساناً، ومعناه: إلى الوالدين، والباءُ بمعنى: إلى، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي﴾ [يوسف: ١٠٠].

وبدأ بهما؛ لأنَّ حقَّهما أعظمُ حقوق البشر.

وقوله تعالى: ﴿وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ﴾[٤] أي: بصاحب القَرابة، وهو أمرٌ بصلةِ الأرحامِ المتَّصلين بك بالوالدين. ووحَّد ذا القربى؛ لأنَّه جنسٌ، فيَصلُحُ للجمعِ، أو هو أمرٌ لكلِّ فردٍ منهم بصلة الرَّحم[٥].

وقوله تعالى: ﴿وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ﴾ قد فسَّرناهما في سورة البقرة.

وقوله تعالى: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ قيل: الأوَّلُ هو الجارُ النَّسيب، والثاني هو الجارُ الأجنبيُّ.

---

(١) بعدها في (ف): «ولا تشركوا به شيئاً».

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٩٤٧) (٥٢٨٩).

(٣) قوله: «قيل إحساناً» من (أ).

(٤) «واليتامى والمساكين» زيادة من (ف).

(٥) في (أ): «رحمه».

وقيل: الأوَّل: هو الجارُ المسلِمُ، والثاني: هو الجارُ المشرِكُ المباعِد في الدِّين.

وقيل: الأول: هو الجارُ الملاصِق، والثاني: هو الجارُ الذي لا يُلاصق.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ قال ابنُ عباسٍ وجماعةٌ رضوان الله عليهم: هو الرَّفيق في السَّفر(١).

وقال عليٌّ وابنُ مسعودٍ رضي الله عنهما: هي الزَّوجةُ التي تكون معك، إلى جنبك(٢).

وقيل: هو الجليسُ، وهو مرويٌّ عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما في روايةٍ قال: إني لأستحيي أنْ يَطأ الرَّجلُ بساطي ثلاثَ مرَّات، ولا يَرى عليه أثرَ بِرِّي عليه(٣).

وقال النبيُّ ﷺ: «الجيرانُ ثلاثةٌ؛ جارٌ له حَقٌّ واحدٌ، وهو حَقُّ الجوار، وهو الجارُ المشركُ، وجارٌ له حقَّان؛ حَقُّ الجوارِ، وحَقُّ الإسلام، وهو الجارُ المسلم، وجارٌ له ثلاثةُ حقوق؛ حَقُّ الجوار، وحَقُّ الإسلام، وحَقُّ القرابة، وهو الجارُ المسلمُ القريب»(٤).

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٧/ ١٤).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٧/ ١١ ـ ١٣) عن ابن عباس ومجاهد والسدي وسعيد بن جبير والضحاك.

(٣) رواه الطبراني في «مكارم الأخلاق» (١٩٠).

(٤) رواه الخرائطي في «مكارم الأخلاق» (٢٤٧)، والطبراني في «مسند الشاميين» (٢٤٣٠)، وابن عدي في الكامل (٦/ ٢٩٢)، ومن طريق ابن عديٍّ البيهقيُّ في «شعب الإيمان» (٩١١٣) من حديث عبد الله بن عمرو. وفي إسناده سويد بن عبد العزيز وعثمان بن عطاء وأبوه، قال البيهقي: ضعفاء، غير أنهم غير متهمين بالوضع.
ورواه البزار كما في «كشف الأستار» (١٨٩٦) من حديث جابر رضي الله عنه، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ١٦٤): رواه البزار عن شيخه عبد الله بن محمد الحارثي، وهو وضاع. لكن رواه الطبراني في «مسند الشاميين» (٢٤٥٨)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ٢٠٧) من غير طريق الحارثي، وهو عندهم من طريق عبد الرحمن بن فضيل، عن عطاء الخراساني، عن الحسن البصري عن جابر، وعبد الرحمن بن فضيل لم أقف على ترجمته.

وقوله تعالى: ﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ هو الغريبُ، وقال قتادةُ والضَّحَّاكُ: هو الضَّيفُ[١].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾؛ أي: العبيدُ والإماء.

وقيل: يدخلُ فيه[٢] الحيواناتُ المملوكة؛ لعمومِ كلمة «ما»، ولا يجوزُ الإساءةُ إليها بمنع علفِها، وكثرةِ حملها، وعنفِ استعمالها.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا﴾؛ أي: متبختراً في مشيته[٣]، عظيماً في نفسِه، لا يقومُ بحقوق الله تعالى التي عليه، فخوراً يفخرُ على عبادِ الله بما خوَّلهُ الله تعالى مِن نعمتِه[٤].

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: العبوديَّةُ: معانقة[٥] الأمرِ، ومفارقةُ الزَّجرِ.

والشِّرك جليُّهُ: اعتقادُ معبودٍ سواهُ، وخفيُّه: ملاحظةُ موجودٍ سواه.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ قال: من جيرانِك: ملكاك[٦]، فلا تؤذِهما بعصيانِك، وراعِ حقَّهما بما تُملي عليهما مِن إحسانِك، وإذا كان جارُ دارِك مستوجباً للإحسان إليه، فجارُ نفسِك ـ وهو قلبك ـ أولى بألَّا تُضيِّعَهُ، ولا تغفلَ عن حلولِ الخواطرِ المرديةِ فيه، ثمَّ جارُ قلبك ـ وهو معرفتك[٧] ـ أولى أنْ تحاميَ على حقِّها،

---

(١) روى قوليهما الطبري في «تفسيره» (٧/ ١٨).

(٢) في (أ): «ويدخل فيه أيضاً» بدل: «وقيل يدخل فيه».

(٣) في (أ): «مشيه».

(٤) في (ف): «نعمه».

(٥) في (ف): «موافقة».

(٦) قوله: «ملكاك» وقع مكانها في «لطائف الإشارات» بياض، وعلق محققه أنها مشتبهة، فتثبت من هنا.

(٧) في (ر) و(ف): «معرفته»، وتحرفت في «لطائف الإشارات» إلى: «روحك».

فلا تُمَكِّنَ ما[١] يخالفُها مِن مساكنَتِها، ثمَّ جارُ روحِك ـ وهو سرُّكَ أولى أنْ تراعيَ حقَّه، فلا تمكِّنهُ مِن الغَيبةِ عن أوطان الشُّهود، ثمَّ الأولى من ذلك كلِّه أن لا تَغفُل عن قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤][٢].

* * *

(٣٧) ـ ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ نعتٌ لقوله: ﴿مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾؛ لأنَّه جنسٌ، فكان بمعنى الجمع، والبُخلُ: منعُ الفَضلِ عن ذي الحاجَّة، وأصلهُ: مشقَّةُ الإعطاء.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: هو على لسان أهل الحقيقة: تركُ الإيثارِ في زمان الاضطرار.

وقال: بخلُ الأغنياءِ بمنع النِّعمة، وبخلُ الفقراءِ بمنع الهمَّة[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ قرأ حمزةُ والكسائيُّ بفتح الباء والخاء، والباقون بضمِّ الباء وتسكين الخاء[٤]، وهما لغتان كالرُّشْدِ والرَّشَد والصَّرْف، من باب[٥] علم.

قال ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: نزلَت الآيةُ في رؤساء أهلِ الكتاب، قالوا لرجالٍ

---

(١) في (ر) و(ف): «أن».

(٢) «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٣٣١).

(٣) «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٣٣١، ٣٣٢).

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٢٣٣)، و«التيسير» (ص: ٩٦).

(٥) في (أ): «حد».

مِن الأنصار: لا تُنفِقوا أموالَكم، فإنَّا نَخشى الفقرَ عليكم، وما[١] تَدرون ما يكون، فنزلَت هذهِ الآيةُ[٢]: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ﴾ بأنفسهم، ﴿وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ﴾ بقولهم.

وقولُه تعالى: ﴿وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾؛ أي: يُخفونَ ما أنعمَ اللهُ عليهم به مِن المالِ وسَعَةِ الحال، وهم الذين قال الله تعالى فيهم[٣]: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطۡعِمُ مَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطۡعَمَهُۥٓ﴾ [يس: ٤٧]، ولـمَّا نزلَتْ آيةُ الاستقراض ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُ﴾، فهم في غاية البُخلِ بالمال.

وقيل: هو مرويٌّ عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما أيضاً أنَّ المرادَ به البخلُ بما علموا به في التَّوراة مِن نعت محمَّد عليه الصلاة والسلام، وحقِّيَّة[٤] الإسلام، وأمرُهم أصحابَهم بأن لا يُظهروه للمسلمين، وكتمانُهم ذلك[٥].

وقوله تعالى: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ أي: هم كافرون، وقد اعتدنا لهم عذاباً يُهانون به في الآخرة.

وقال طاوس: البُخلُ: هو أن يبخلَ الإنسانُ بما في يدِه، والشُّحُّ: أنْ يَشِحَّ بما في أيدي النَّاس[٦].

وقيل: البخلُ: هو أنْ يأكلَ بنفسِه، ولا يُؤكِلَ غيرَه، والشُّحُّ: ألَّا يأكلَ بنفسِه، ولا غيره[٧]، والسَّخاء: هو أن يأكلَ ويُؤكِلَ، والجودُ: أن يُؤكِلَ ولا يأكُلَ.

---

(١) في (أ): «حد».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٧/ ٢٤).

(٣) في (ف): «في حقهم».

(٤) في (ر) و(ف): «وحقيقة».

(٥) انظر: «تفسير الطبري» (٧/ ٢٤).

(٦) رواه الطبري في «تفسيره» (٧/ ٢١).

(٧) قوله: «والشح أن لا يأكل بنفسه ولا غيره» ليس في (ف)، وقوله: «ولا غيره» ليس في (أ).

(٣٨) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ عطفٌ على قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ ذمَّ قوماً منهم بالبُخل، وذمَّ قوماً بالإنفاق في غير الحقِّ.

والرِّياءُ مصدرٌ كالمراءاة، يقال: راءاه يُرائيه رياءً ومراءاةً، كما يُقال: ماراهُ يُماريهِ مراءً ومماراةً؛ أي: يَبذلون أموالَهم لوجوهِ النَّاس، لا لرضاءِ الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ ونفقةُ مَن لا يُؤمِنُ لا تكونُ لرضى اللهِ، بل تكون بتزيين الشيطان، ولذلك ختمَ الآيةَ به، وذلك قوله تعالى:

﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾ القرينُ: المقارِنُ، كالشَّريكِ هو المشارك، **وقوله تعالى:** ﴿فَسَآءَ قَرِينًا﴾؛ أي: بئس القرين[1] هو، وما أسوأهُ قريناً له، وهو يكون في الدُّنيا، كما قال تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ [فصلت: ٢٥]، وفي الآخرة أيضاً، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ [الزخرف: ٣٨]. وقال السُّدِّيُّ: نزلت[2] في المنافقين.

***

(٣٩) ـ ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾؛ أي: أيُّ شيءٍ عليهم، استفهامٌ بمعنى الاستنكار[3]، يقول: أيُّ مضرَّةٍ ومشقَّةٍ عليهم في الإيمان والإنفاق.

---

(١) قوله: «أي: بئس القرين» ليس في (أ).

(٢) في (أ): «الآية» وفي (ر): «نزل» بدل: «نزلت».

(٣) في (ر) و(ف): «الإنكار».

وقوله تعالى: ﴿وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾[١] أخبرَ أنَّهم ممتنعون عنه اختياراً[٢]، لا ممنوعون عنه إجباراً، فدلَّ على مذهب أهلِ السُّنَّة والجماعة[٣]، وهذا قطْعٌ للعُذر؛ لأنَّ تركَهم الإيمانَ وإنفاقَهم للرِّياء، كان لإبقاء الرياسة، فأخبرَ أنَّ إيمانَهم وإنفاقَهم[٤] لا يزيلُ ذلك، بل يزيدُها، كما كان لعبد الله بن سلام وأصحابه، وغيرُهم ماتوا وانقطعَ ذِكْرُهم أصلاً.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ قال الإمامُ أبو منصور رحمَه الله؛ أي: أنشأَهُم على علمِه بأنَّهم لا يؤمنون؛ ليعلمَ الخلائقُ أنَّ مخالفتَهم إيَّاه لا تَضرُّهُ[٥].

وقيل: قال ذلك تحذيراً لهم.

وقيل: أي: كان بهم عليماً أنَّهم لا يؤمنون؛ عناداً ومكابرةً، لا لقصور الدليل.

* * *

(٤٠) ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ أي: مقدارَ ذرَّةٍ في الثِّقل، والذَّرَّةُ عند ابنِ عبَّاس رضي الله عنهما: النَّملةُ الصَّغيرةُ الحمراء[٦] التي لا تكادُ تُرى مِن صغرِها،

---

(١) قوله: «وقوله تعالى: ﴿وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾» ليس في (أ).

(٢) لفظ: «اختياراً» ليس في (أ).

(٣) لفظ: «والجماعة» ليس في (أ).

(٤) في (ف): «نفاقهم»، ووقع بعدها في (ر) و(ف): «لله».

(٥) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٣/ ١٨٤).

(٦) روى الطبري في «تفسيره» (٧/ ٢٩) عن ابن عباس أنه قال في تفسيرها: رأس نملة حمراء.

وفي روايةٍ عنه أنَّه أدخلَ يدَهُ في التُّراب، ثمَّ رفعَها، ثمَّ نفخَ[١] فيها، وقال: كلُّ واحدةٍ من هذا ذرَّة[٢].

وقيل: الذَّرَّة: الواحدةُ مِن الأجزاء التي تَظهرُ في شُعاع الشمس، إذا وقعَت في الكوَّة.

واتِّصالُها بما قبلَها أنَّ قوله[٣]: وماذا عليهم لو آمنوا بالله، وأنفقوا، واللهُ لا يَظلِمُ مثقالَ ذرَّةٍ[٤]؛ أي: لا ينقصُ مِن أعمال العباد شيئاً.

وقيل: أي: لا يضعُ ذنبَ أحدٍ على أحدٍ وإنْ قلَّ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾ قرأ أهلُ المدينة: ﴿وإن تك حسنةٌ﴾ بالرفع[٥]؛ لأنَّها اسمُ كان، وقرأ أهلُ مكَّة بياء التذكير ورفعِ الاسم؛ لتقديم الفعل على الفاعل[٦]، وقرأ الباقون بتاء التأنيث ونصب الاسم، ومعناه: وإن تكُ زِنَةُ الذَّرَةِ حسنةً وقرأ ابنُ كثير ونافعٌ وابنُ عامر[٧]: ﴿يضعِّفْها﴾ بالتشديد[٨]، والباقون ﴿يُضَاعِفْهَا﴾.

---

(١) في (أ): «ونفخ».

(٢) رواه الثعلبي في «تفسيره» (١٠/ ٣٢٠ ـ ٣٢١) (١١٢٠) (طبعة دار التفسير).

(٣) قوله: «أن قوله» ليس في (أ).

(٤) قوله: «مثقال ذرة» ليس في (أ).

(٥) هي قراءة نافع من أهل المدينة، وقرأ بها أيضاً ابن كثير المكي. انظر: «السبعة» (ص: ٢٣٣)، و«التيسير» (ص: ٩٦).

(٦) لم أقف على من قرأ: «يك» بالياء، لا من أهل مكة ولا من غيرهم، وقراءة ابن كثير المكي: «وإن تك حسنةٌ» يعني بتاء التأنيث، كما ذكرت قريباً.

(٧) قوله: «ونافع وابن عامر» ليس في (أ).

(٨) هي قراءة ابن كثير وابن عامر، ولم أر من نسبها لنافع، والصواب أن قراءته المتواترة عنه كقراءة الجمهور، يعني: «يضاعفها». انظر: «السبعة» (ص: ١٨٥)، و«التيسير» (ص: ٨١).

وقرأ الحسنُ: «نُضاعفها» بالنون[١] الخفيفة؛ إخباراً[٢] مِن الله تعالى عن نفسِه بكلام الملوك على الجمع.

وقيل: الإضعافُ: إعطاءُ المثلَين، والتَّضعيفُ والمضاعفةُ: إعطاءُ الأمثالِ[٣]، يقول: وإنْ تكُ قدر الذَّرَّة حسنةً، فاللهُ تعالى يُعطِي ثوابَها أضعافاً، لا على قدرِ العمل، وهذا جزاءُ العمل، ثمَّ وراءَه زيادةٌ مِن عنده، وهو قوله تعالى:

﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: يعطِ مِن عنده ثواباً كثيراً كبيراً[٤]، وما وصفَهُ اللهُ تعالى بالعظيمِ[٥]، فمن يَعرِفُ مقدارَهُ مع أنَّه سَمَّى الدُّنيا وما فيها قليلاً، وسمَّى هذا الفضل[٦] عظيماً.

وقال عطاءٌ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ﴾ مِن منافقٍ إلَّا جازاهُ بها، ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً﴾ مِن مؤمنٍ ﴿يُضَٰعِفۡهَا﴾ الآية[٧].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ﴾ ذكرَ هذا ونحوَه؛ لئلَّا يَظُنَّ جاهلٌ إذا رأى ألمَ الأطفالِ، وما يَحُلُّ بهم أنَّ ذلك ظلمٌ منه لهم، لكن ذلك ليُعلَمَ أنَّ الصِّحَّةَ والسَّلامة إفضالٌ مِن الله تعالى عليهم، لا لحقِّهم عليه؛ إذ

---

(١) انظر قراءة الحسن في «تفسير الثعلبي» (٣/ ٣٠٩). ونسبها ابن خالويه في «مختصر في شواذ القرآن»: (ص: ٣٣) لابن هرمز.

(٢) في (أ): «يضاعفها خبراً» بدل: «نضاعفها بالنون الخفيفة إخباراً» ولفظ: «إخباراً» ليس في (ف).

(٣) قوله: «والتضعيف والمضاعفة إعطاء الأمثال» من (أ).

(٤) لفظ: «كبيراً» من (ف).

(٥) في (أ): «بالعظم».

(٦) في (ر): «الأجر».

(٧) لفظ: «الآية» من (أ). والأثر ذكره الواحدي في «الوسيط» (٢/ ٥٣) و«البسيط» (٦/ ٥١٥) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

له أنْ يَخلُقَ كيف شاء صحيحاً وسقيماً، ثمَّ مَن ظلمَ آخر[١] في الشَّاهدِ، فإنَّما يَظلِمُ لإحدى خَلَّتين؛ إمَّا لجهل بالعدل والحقِّ، وإما لحاجةٍ تَمسُّه يدفع ذلك به عن نفسِه، والله تعالى غنيٌّ بذاتِه، عالمٌ لم يزل، يتعالى عن أن تمسَّهُ حاجةٌ، أو يَخفي عليه شيءٌ، مع ما أنَّ الظُّلمَ في الشَّاهد هو تناولُ ما ليس له بغير إذنِ مَن هو له[٢]، وكلُّ الخلائقِ مِن كلِّ الوجوه له، فلا معنى للظُّلم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ وهذا يُبطِلُ قولَ المعتزلةِ: إنَّ مَن ارتكبَ كبيرةً يَخلُدُ في النَّار ومعه حسناتٌ كثيرةٌ، واللهُ تعالى يقول: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفۡهَا﴾[٣] الآية[٤].

* * *

(٤١) ـ ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ﴾؛ أي: فكيف حالُهم؟ وهذا استفهامٌ بمعنى التوبيخ؛ لأنَّه يقتضي إقرارَ العبد على نفسه بما كان من قبيحِ عملِه.

وقوله جلَّ جلاله: ﴿بِشَهِيدٖ﴾؛ أي: شاهدٍ عليهم، وهو نبيُّهم.

وقوله تعالى: ﴿وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا﴾؛ أي: أحضرناكَ، وقوله[٥]:

---

(١) في (ر) و(ف): «أحداً»، والمثبت موافق لما في «تأويلات أهل السنة».

(٢) بعدها في (ر): «ذلك».

(٣) قوله: «الآية» وقع مكانه في (أ): «ويؤت من لدنه أجراً عظيماً»، ووقع بعدها في (ر): «هذا يبطل قول المعتزلة».

(٤) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٣/ ١٨٤ ـ ١٨٥).

(٥) «وقوله» ليس في (أ).

﴿عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾؛ أي: هـذه الأمَّـة[١] ﴿شَهِيدًا﴾؛ أي: شـاهداً على مَن آمـنَ بالإيمان، وعلـى من كفـرَ بالكُفْر، وعلى مَـن نافقَ بالنِّفـاقِ؛ أي: بماذا[٢] يعتذرون، وبأيِّ شـيءٍ يَحتجُّـون، وإلى شـفاعةِ مَن يَلتجئـون، إذا أُمِرَ بهم إلـى النَّار؟

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: إذا كان الرَّسولُ هو الشهيدُ على أمَّتِه، وهو الشَّفيعُ لهم، فإنَّما يَشهدُ بما يُبقِي للشَّفاعة موضعاً[٣].

ورويَ أنَّ النبـيَّ ﷺ أمـرَ ابنَ مسـعودٍ رضـيَ الله عنه بقراءة[٤] هذه السـورة، فلمَّا انتهـى إلـى هـذه الآيـة، فاضَتْ عينـا رسـولِ الله ﷺ، وسـكتَ ابنُ مسـعودٍ رضي الله عنـه، ثـمَّ أمـرَهُ حتَّى أعادَ القـراءةَ مِـن أوَّلِ السُّـورةِ إلى هاهنـا، ففاضت عينـاه، حتَّى فعل ذلك ثلاثـاً[٥].

ورويَ أنَّه ما قرأ رسولُ الله ﷺ هذه الآيةَ قطُّ إلَّا بَكى.

وعن جابرِ بن عبد الله قال: بينا نحن جلوسٌ في مسجد رسولِ الله ﷺ وحذيفةُ يَقُصُّ عليهم ويقرأ، فدخلَ رسولُ الله ﷺ، فسكتَ حذيفةُ فقال له رسول الله ﷺ: «عُد يا حذيفة»، قال[٦]: وأنت حاضرٌ؟ قال: «وأنا حاضرٌ، والذي نفسي بيدِهِ، ما خرجتُ

---

(١) بعدها في (ر): «وقوله».

(٢) في (ف): «بما كانوا».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٣٣٤).

(٤) في (ر) و(ف): «يقرأ».

(٥) لم أقف عليه بهذا السياق، وأخرج البخاري في «صحيحه» (٥٠٥٠)، ومسلم (٨٠٠) عن ابن مسعود قال: قال لي النبي ﷺ: «اقرأ عليَّ»، قلت: يا رسول الله، أقرأ عليك، وعليك أنزل؟ قال: «نعم»، فقرأت سورة النساء، حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾، قال: «حسبك الآن»، فالتفتُّ إليه، فإذا عيناه تذرفان.

(٦) في (أ): «قال قال» وفي (ر): «فقال».

إليكم حتَّى رأيتُ أبوابَ السَّماء فُتِحَت، ورأيتُ الرَّحمةَ تَنزِلُ عليكم، والذي نفسُ محمَّدٍ بيدِه، ما خرجَ رجلٌ مِن بيتِهِ يؤمُّ بقعةً يُذكَر اللهُ تعالى فيها إلَّا بوَّأهُ الله بها بقعةً في الجنَّة، اقرأ يا حُذيفة سورة النِّساء»، فقرأها[1] حتَّى إذا بلغَ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ الآية، ففاضَت عينا رسولِ الله ﷺ حتَّى أخضلَ دمعُه لحيتَه، ثمَّ قال: «عُد»، فعاد، حتى قرأ سبعَ مرَّات[2].

***

(٤٢) ـ ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ نُصبَ على الظرف، وأضيف إلى «إذ»، وهي أداةٌ للظَّرف، واتِّصالُها بما قبلَها: إذا جئنا من كلِّ أمَّةٍ بشهيدٍ يومئذٍ. و﴿يَوَدُّ﴾؛ أي: يتمنَّى.

وقوله تعالى: ﴿وَعَصَوُا الرَّسُولَ﴾ أي: خالفوا أمرَ المصطفى ونهيَه، وضُمَّتِ الواو من «عصوا» عند التقاء السَّاكنين؛ لأنَّه واوُ جمعٍ، وهي أختُ الضمَّة، فسُكِّنَت للاعتلال، فإذا احتيجَ إلى تحريكها، حُركت إلى أصلها، بخلاف قوله تعالى: ﴿لَوِ اسْتَطَعْنَا﴾ [التوبة: ٤٢]، حيثُ كُسِرت لالتقاء الساكنين؛ لأنَّه سكونُ بناءٍ، واضطرُّوا إلى تحريكِها، والساكنُ الأصليُّ يُحَرَّكُ إلى الكسرِ عند الضَّرورة[3].

وقوله تعالى: ﴿لَوْ تَسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ قرأ نافعٌ وابن عامر بفتح التاء وتشديد السين، وأصلُه: تتسوَّى، أُدْغِمَت إحدى التَّاءين ـ وهي الأخيرة ـ في السِّين.

---

(١) في (ف): «فقرأ»، وليست في (ر).

(٢) لم أقف عليه.

(٣) من قوله: «أي خالفوا أمر المصطفى» إلى هنا ليس في (أ).

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ بفتح التَّاء، وتخفيف السِّين، على حذفِ التَّاء الثَّانية، كما في قوله تعالى: ﴿تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [الملك: ٨].

وقرأ الباقون: ﴿تُسَوَّىٰ﴾ برفع التَّاء وتخفيفِ السِّين، وهو فعلُ ما لم يسمَّ فاعلُه، من التَّسوية.

و«لو» كلمةُ تمنٍّ؛ أي: يتمنَّون لو سُوُّوا بالأرضِ، وسُوِّيَت بهم؛ أي: كانوا مِن جملةِ الأرض، تراباً غيرَ مكلَّفين، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا﴾ [النبأ: ٤٠]، وهذا لأنَّ الأرضَ إنَّما تُسوَّى بشيءٍ منها، فكأنَّهم تمنَّوا أن يكونوا منها[١].

وقيل[٢]: تسويتُهم بالأرض أنْ يُجعَلوا مثلَها، فكأنَّهم[٣] تمنَّوا أنْ يجعلَهُم اللهُ تراباً.

وفي قوله تعالى: ﴿يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا﴾ هذان الوجهان أيضاً[٤]: يا ليتني كنتُ تراباً في الأصلِ فلم أكلَّف، ويا ليتني صرتُ تراباً اليوم[٥] كما تصيرُ البهائمُ المحشورةُ بعد القصاصِ تُراباً، فلم أعذَّب.

وقيل: يودُّون لو لم يُبعَثوا مِن قبورِهم، أو أعيدوا فيها، فتستوي[٦] الأرضُ بهم، كما كانت قبلَ البَعثِ.

وقيل: يَودُّون لو أخذَتْهُم الأرضُ فوَارَتهم بما لحقَهم مِن الخزيِ يومئذٍ،

---

(١) في (أ): «فيها»

(٢) في (أ): «وصفة» بدل: «وقيل».

(٣) من قوله: «تمنوا أن يكونوا» إلى هنا ليس من (ف).

(٤) لفظ: «أيضاً» ليس في (أ).

(٥) «اليوم» ليس في (أ).

(٦) في (ر) و(ف): «فتسوى».

وهو كقول الرجل إذا افتَضَحَ مِن الشَّيء: ليتَ الأرضَ أخذَتني وخُسِف بي فيها، ولم تَنلْني هذه الفضيحةُ، وقد أخبَرَ اللهُ عن خزيِهم يومئذٍ، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة: ١٢]، ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ [الشورى: ٤٥].

وقيل: يَودُّون ما يعدلُ بهم ما في الأرضِ من شيءٍ فديةً، وهو كما قال تعالى: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ [المعارج: ١٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ قيل: هو متَّصِلٌ بقوله: ﴿لَوْ تُسَوَّىٰ﴾، والتَّمنِّي واقعٌ عليهما.

قال عطاء: لو تنطبقُ عليهم الأرضُ ولم[1] يكونوا كَتموا أمرَ محمَّدٍ، ولا كفروا به[2]، ولا نافقوا.

وقيل: هذا وصفُ حالهم يومئذٍ على الابتداء: أنَّهم لا يكتمون اللهَ شيئاً مِن حديثِهم الذي كانوا عليه، بل يُصدِّقونَ أنبياءَهم فيما شَهدوا عليهم مِن الكُفر والمعاصي، قال تعالى: ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ﴾ [الملك: ١١]، فأمَّا قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، فقد قيل: معناه: ما كنَّا عند أنفسِنا مشركين، بل توهَّمنا بإضلال الشيطانِ أيَّانا أنَّا مِن الموحِّدين، وكذا قوله تعالى: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ﴾ [النحل: ٢٨]؛ أي: كنَّا نَظن أنَّا محسنون.

وقيل: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾؛ أي: عَلِمَ اللهُ ما كان منهم في الدُّنيا، فلا يَسألُهم ليكتموه، وهو كقوله جلَّ جلالُه: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩]؛ أي: لا يُسألون: ما عملتم؟ لعلمِ الله تعالى به.

---

(١) في (ف): «ولا».

(٢) لفظ: «به» من (أ).

وقيل: يجحدون في الآخرة أوَّلاً، كما أخبرَ اللهُ تعالى عنهم، فإذا جَحدوا وشهِدَت جوارحُهم عليهم؛ افتَضَحوا، ووَدُّوا لو سُوِّيَت بهم الأرضُ، وألَّا يكونوا كتموا ذلك بجحودِهم.

وقال الحسنُ: إنَّها[1] مواطن، ففي موضعٍ لا يَتكلَّمون، ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨]، وفي موضعٍ يتكلَّمون فيكذبون، ويقولون: ما كنا نفعل[2]، وفي مواطن[3] يَعترفون وفي موضعٍ يسألون الرَّجعة إلى الدُّنيا، وإنَّ آخرَ تلك المواطن أنَّ أفواهَهم تُختَمُ[4]، وتَتكلَّم أيديهم وأرجلهم[5].

وقيل: هذا وصفُ أهلِ الكتاب، كتموا أمرَ محمَّدٍ، وقد علموا به في التَّوراة، قال تعالى: ﴿وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: ٣٧]، وكتابُ الله فضلُه وحديثُه، قال تعالى[6]: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣]، يقول: يَودُّون يومئذٍ لو تُسوَّى بهم الأرضُ، ولم يَكتموا في الدُّنيا ما أنزلَ اللهُ مِن حديثِه، ومن كتَمَ شيئاً من كتاب اللهِ، جازَ أن يُقالَ له[7]: كتمَ اللهَ؛ أي: كتم عباده[8]، وهو كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٤٠]، وكتمتُ فلاناً، وكتمتُ منه؛ بمعنى.

---

(١) بعدها في (ر): «من».

(٢) رسمها في (أ): «نعقل»، ولعل صوابه: «ما كنا نعمل» كما في «تفسير الثعلبي».

(٣) في (ر) و(ف): «موضع».

(٤) في (ف): «خرست».

(٥) «تفسير الثعلبي» (٣/ ٣١١).

(٦) في (ر): «وقوله»، وفي (ف): «وقول».

(٧) لفظ: «له» من (ف).

(٨) في (ف): «كتم الله عباده»، وبعدها فيها: «أي: منهم».

(٤٣) ـ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ ﴾ وانتظامُها بقوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾، والصَّلاةُ رأسُ العبادات بعدَ الإيمان.

ومعناه: لا تدنوا إلى مواضعِ الصَّلاة ـ وهي المساجدُ ـ حالةَ السُّكرِ، فذكرَ الصَّلاةَ، وأرادَ بها مواضعَها، كما في قوله: ﴿لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ ﴾، وهو قولُ عمر وابن مسعود[١]، ودليلُ هذا الإضمار أنَّه عطفَ عليه: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾، وهو نهيُ الجُنب عن قُربان المساجدِ، فإنَّه استثنى ﴿عَابِرِي سَبِيلٍ﴾، وذلكَ في حقِّ المساجدِ دون أعيان الصلوات[٢]، ثمَّ النَّهيُ عن قربانِ المساجدِ حالةَ السُّكرِ نهيٌ عن الصَّلاة في تلك الحالة أيضاً؛ لأنَّ النهيَ عن قُربان المساجدِ لحرمة الصَّلاة، فكان النهيُ عن هذا نهياً عن ذلك، ثمَّ النَّهيُ ليس عن عين الصَّلاة، فإنَّها عبادةٌ، فلا[٣] ينهى عنها، بل هو نهيٌ عن اكتساب السُّكْرِ الذي يَعجزُ به عن الصلاة على الوجهِ. قاله الإمام أبو منصور رحمه الله.

قال: وكذلك قولُ رسول الله ﷺ: «لا صلاة للعبدِ الآبقِ، ولا للمرأة الناشزةِ»[٤]،

---

(١) ذكره الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٣/ ١٨٧) عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) في (أ): «الصلاة».

(٣) في (أ): «لا».

(٤) كذا أورده أبو منصور الماتريدي بهذا اللفظ، وروى الترمذي في «سننه» من حديث أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا تجاوز صلاتهم آذانهم؛ العبد الآبق حتى =

ليس فيه النَّهيُ عن الصَّلاة، لكنَّ النهيَ عن الإباق والنُّشوز، وهذا لأنَّ الإباقَ والنُّشوزَ والسُّكْرَ ليست بالتي تَعملُ في إسقاط الفرض.

قال: وفي الآية دلالةٌ[1] أنَّ السَّكرانَ مخاطَبٌ؛ فإنَّه قال: ﴿لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ﴾، وإذا كان مخاطباً، عَمِلَ طلاقُه، ونَفذتْ عقودُه[2].

وقوله: ﴿وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ﴾ الواو للحال، والسُّكارى جمعُ السَّكران، كالكُسالى جمع الكسلان، والسُّكر من باب عَلِمَ، وهو انسدادُ طرقِ المعرفة مِن الشُّرب وغيره، مأخوذٌ من سَكْرِ الماء، وهو سدُّ مجراه، من باب دخل، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا﴾ [الحجر: ١٥]؛ أي: سُدَّت ومُنِعَتِ النَّظر، وسكراتُ الموت أُخِذَت منه، **وقولُه تعالى**: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ [الحج: ٢] هو تشبيهٌ بحالِ السُّكرِ مِن الشَّراب.

وأكثرُ المفسِّرين على أنَّ هذا مِن سُكْرِ الشَّراب.

وقال الضَّحَّاك: معناه: وأنتم سُكارى مِن النَّوم[3]، وهو كقول النَّبيِّ ﷺ: «إذا نَعَسَ أحدُكم في صلاتِه فلينصرف وليرقد؛ فإنَّه لا يَدري لعلَّه يستغفرُ[4]، فيسبُّ نفسه»[5].

= يرجع، وامرأة باتت وزوجها عليها ساخط، وإمام قوم وهم له كارهون» قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.

(١) بعدها في (ر) و(ف): «على».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٣/ ١٨٨ ـ ١٨٩).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٧/ ٤٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٩٥٩) (٥٣٥٦).

(٤) بعدها في (ر) و(ف): «ربه».

(٥) رواه البخاري في «صحيحه» (٢١٢)، ومسلم في «صحيحه» (٧٨٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

والأظهرُ الأشهرُ هو الأوَّل، ونزولُها في شأن عبدِ الرَّحمن بنِ عوف، صنعَ طعاماً فدعا إليه أبا بكرٍ وعمرَ وعثمانَ وعليًّا وسعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنهم[١] أجمعين، فأكَلوا، وسقاهم خمراً، وذلك قبل تحريمِها، فحضرَتْ صلاةُ المغربِ، فأمَّهم عبدُ الرَّحمن[٢]. وفي روايةٍ: فأمَّهم رجلٌ مِن خيارِهم[٣]، وفي روايةٍ: فأمَّهم عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه[٤]، فقرأ: «قل يا أيها الكافرون»، فطرح اللاءات، فنزلَت هذه الآيةُ.

وقد ذكرنا في سورة البقرة[٥] ترتيبَ الآياتِ في شأن[٦] الخمر، وأنَّها كيف حُرِّمَت قطعاً، وأنَّ هذه الحادثةَ كانت في وقتٍ لم يكن شربُها في غير أوقات الصَّلاةِ حراماً، وذكرنا معنى هذا النهي.

وقال الإمامُ القشيريُّ رحمه الله: السُّكر: ذهابُ العقلِ، ولا تَصلحُ معه المناجاة مع الحقِّ، والـمُصلِّي يُناجي[٧] ربَّه، فكلُّ ما أوجبَ للقلب الذُّهولَ عن الله تعالى، فهو ملتحقٌ به، ومِن أجلِ هذه الجملةِ حصل السُّكرُ على أقسام؛ فسُكرٌ مِن الخمرِ، وسكرٌ مِن الغفلةِ لاستيلاءِ حبِّ الدُّنيا، وأصعبُ السُّكرِ سكرُك مِن نفسِك، فإنَّ مَن سَكِر مِن الخمرِ، فإن لم يُغفَر له، فقُصاراهُ الحرقةُ[٨]، ومَن سَكِرَ مِن نفسِه ففي الوقتِ على الحقيقةِ له القطيعةُ والفُرقةُ.

---

(١) وقع تفصيل أسمائهم في «تفسير مقاتل» (١/ ٣٧٣).

(٢) رواها الطبري في «تفسيره» (٧/ ٤٥).

(٣) قوله: «وفي رواية فأمهم رجل من خيارهم» من (أ).

(٤) رواها الطبري في «تفسيره» (٧/ ٤٦).

(٥) عند تفسير الآية (٢١٩) منها.

(٦) في (ر) و(ف): «شارب».

(٧) في (أ): «مناج».

(٨) في (أ): «الحرمة».

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ بيَّنَ أنَّ السُّكرَ هو أنْ يصيرَ بحالٍ لا يَعلمُ ما يَقول، وحدُّ السُّكرِ عند أبي حنيفة رحمه الله: هو ألَّا يَعرف[١] الأرضَ مِن السَّماء، والرِّجالَ مِن النِّساء، وعند أبي يوسف ومحمد[٢] والشافعيِّ رحمهم الله: هو أنْ يَختلِطَ كلامُه[٣].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: في الآية دلالةٌ أنَّ في الصَّلاة قولاً فرضاً، نهى عن قربانها في حالةِ السُّكر مخافةَ تركه، أو خوفاً[٤] أن يُدْخِلَ فيها قولاً ليس منها. وفيه دليلُ فساد الصَّلاة بالكلام عمداً أو خطأ؛ لأنَّ السَّكرانَ غير عامد[٥].

وفيه دليلٌ على أنَّ الخطأ الفاحشَ في القراءةِ مفسدٌ للصَّلاة.

وفيه دليلٌ على أنَّ رِدَّةَ السَّكران ليست بردَّةٍ، وهي حجَّةٌ على أبي يوسف رحمه الله، فإنَّه يصحِّحُها كما يُصحِّحُ سائرَ تصرُّفاته، لكنَّ حديثَ قراءةِ بعضِهم سورةَ الكافرون بطرحِ اللاءات، مع أنَّ اعتقادها كفرٌ، ولم يكن كفراً مِن ذلك القارئ؛ حيث كان سكران: دليلٌ على ما قلنا.

وفيه دليلٌ على أنَّه إذا جرى الكفرُ على لسانهِ خطأً مِن غير عمْدٍ، لم يكفر به؛ لأنَّ ما يَجري على لسان السَّكران خطأٌ، فعلى ذلك غيرُ السكران، وهذا لأنَّ الكفرَ بالقلبِ، واللِّسانُ معبِّرٌ عنه، وفي هذه الحالةِ لا يكونُ دليلاً على اعتقادِ القلب، فلم يُجعَل كفراً[٦].

---

(١) في (أ): «يعلم».

(٢) لفظ: «ومحمد» من (أ).

(٣) انظر: «المبسوط» للسرخسي (٢٤/ ٣٠)، و«نهاية المطلب» للجويني (١٤/ ١٦٩).

(٤) في (ر): «وخوفاً».

(٥) في (ر) و(ف): «عاقل».

(٦) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٣/ ١٨٩ ـ ١٩٠).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ الجُنُب: الذي خالطَ أهلَه، أو خرجَ منه منيُّه بشهوةٍ واحتلام، ويَستوي فيه الذَّكرُ والأُنثى، والواحدُ والتَّثنيةُ والجمع؛ لأنَّه على صيغة المصدر، كالنُّكْر والنَّذْر[١] بمعنى الإنكار والإنذار، وقد أجنبَ إجناباً؛ أي: صار جُنُباً؛ سُمِّيَ به؛ لأنَّه يُجَنَّبُ عن المسجدِ والقراءةِ والصَّلاة ونحو ذلك، وهو نصبٌ على الحال؛ أي: لا تَقربوا المساجدَ وأنتم مجنبون، والجُنُبُ للجمع هاهنا.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا﴾ العبورُ: المرور، وقد عبرَ النَّهرَ عبوراً، وهو جمعٌ، وحذف النون للإضافة، وإعرابُه النَّصبُ بالاستثناء من الحال؛ أي: إلَّا أن تدخلوا المساجدَ للعبور[٢] لا للجلوس.

وقال الإمامُ أبو منصور رحمه الله: إنَّما كُرِه للجُنُب أنْ يَستوطِنَ المسجدَ، فمروره في المسجد إذا لم يجلس فيه كقراءتِه بعضَ الآية إذا لم يُتِمَّها[٣].

وقيل في نزوله: إنَّ رجالاً من الأنصار كانت أبوابهم في المسجد، فكانت تصيبُهم جنابةٌ، ولا ماءَ عندَهم، فيريدون الماءَ، فلا يَجدون ممرًّا إلَّا في المسجد، فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾[٤].

وقال عليٌّ وابنُ عبَّاس رضي الله عنهم في تأويل هذه الآية: أي[٥]: لا تصلوا

---

(١) قال الفيروزآبادي في «القاموس» (مادة: نذر): أنذره ينذره إنذاراً ونَذْراً ويُضم (يعني: نُذراً)، وبضمتين (يعني: نُذُراً).

(٢) في (أ): «للمرور».

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٣/ ١٩١).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (٧/ ٥٧) عن يزيد بن أبي حبيب.

(٥) في (أ): «أن».

﴿وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾؛ أي: في حال السكر من الشرب، ﴿وَلَا جُنُبًا﴾؛ أي[١]: في حالة الجنابة، ﴿إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾؛ أي[٢]: مسافرينَ غيرَ واجدين للماء، ﴿حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟﴾ فتزولَ الجنابةُ، وحتَّى تعلموا ما تَقولون فيزولَ السُّكرُ[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾ جمعُ مريضٍ، كالجرحى جمعُ جريح، والمراد منه[٤]: مرضٌ يُخافُ معه إذا استُعمِلَ الماءُ اشتدادُ المرض، أو امتدادُه، وهذا عندنا[٥].

وقال[٦] الشافعيُّ رحمه الله: إذا كان يخافُ تلفَ النَّفسِ أو طرفٍ منها[٧].

وقوله تعالى: ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ أي: مسافرين، وهو أن يكون ببُعدٍ مِن العمران ومواضعِ الماء، ولا يُرادُ به كمالُ مدَّةِ السَّفر في هذا الحكم، ولا مسافرٌ يَجِدُ الماءَ، ولـمَّا ثبتَ أنَّ الحكمَ لم يَتعلَّق بعينِ المرض والسَّفر، بل بمعنًى فيهما، وهو العجزُ عن استعمالِ الماء[٨]؛ ثبتَ أنَّ الحكمَ كذلك في كلِّ موضعٍ تَحقَّق العجزُ.

وثبت به صحَّةُ قول أبي حنيفة رحمه الله في إجازةِ التَّيمُّم للجنابة في المصر إذا

---

(١) بعدها في (ر): «ولا».

(٢) في (أ): «أو».

(٣) أخرج قوليهما الطبري في «تفسيره» (٧/ ٥٠ ـ ٥١).

(٤) في (أ): «به».

(٥) انظر: «المبسوط» للسرخسي (١/ ١١٣).

(٦) في (ف): «وعند».

(٧) قال النووي في «المنهاج» (ص: ٨٣) عند ذكر أسباب التيمم: مرض يخاف معه من استعمال الماء على منفعة عضو، وكذا بطءُ البرء، أو الشَّينُ الفاحشُ في عضوٍ ظاهرٍ في الأظهر.

(٨) من قوله: «ثبت أن الحكم» إلى هنا ليس في (أ).

عَدِمَ الماءَ الحارَّ، أشارَ إليه الإمام أبو منصورٍ رحمَه الله[١]، وإنَّما علَّق ذلك بالمرضِ والسَّفر ظاهراً؛ لأنَّ العجزَ عن استعمالِ الماء يقعُ فيهما غالباً.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ أي: وجاء، كما في قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾؛ أي: ويحدِثَ.

والغائط: المكانُ المطمئنُّ مِن الأرض، وكانوا يأتونَه لقضاء الحاجة قبل اتِّخاذِ الكُنُف في البيوت، وهو كنايةٌ عن الحدث.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ قرأ حمزةُ والكسائي والمفضل عن عاصم[٢]: ﴿لَمَسْتم﴾، والباقون[٣]: ﴿لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾[٤]؛ أي: جامعتُم، فأجنبتم.

قال ابنُ عباس رضي الله تعالى عنه: الملامسةُ واللَّمسُ والمسُّ والمباشرةُ والإفضاءُ والرَّفث كناياتٌ عن الوطء[٥].

وقوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً﴾؛ أي: لم تَقدروا على استعمالِه؛ لعدمِه، أو بُعده، أو لفقد[٦] آلةِ الوصولِ إليه، مِن الدَّلو والرِّشاء[٧]، أو لمانعٍ عنه، مِن حيَّةٍ أو سَبُعٍ أو عدوٍّ.

---

(١) في «تأويلات أهل السنة» (٣/ ١٩٢).

(٢) قوله: «والمفضل عن عاصم» ليس في (أ)، وفي (ف): «والمفضل وعاصم». وقراءة عاصم المتواترة عنه كقراءة الجمهور.

(٣) في (أ): «وقرأ الباقون أو» بدل: «والباقون».

(٤) انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٢٣٤)، و«التيسير» للداني (ص: ٩٦).

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (٧/ ٦٤)، ولم يذكر فيه: الملامسة والإفضاء والرفث.

(٦) في (أ): «فقد».

(٧) الرشاء: الحبل. انظر: «مختار الصحاح» (مادة: رشا).

وقوله تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُواْ﴾ الأَمُّ واليَمُ والتَّيمُّم والتأمُّمُ: القصد.

وقوله تعالى: ﴿صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ الصَّعيدُ: وجهُ الأرض؛ لأنَّه تصاعدَ عنها، أو لأنَّه يصعدُ عليها، والطَّيِّبُ: الطَّاهرُ.

ويجوز التَّيمُّم بكلِّ ما كان مِن أجزاء الأرض عندَ أبي حنيفة رضي الله عنه، لزقَ بالكفِّ أو لم يَلزق، وعند محمد كذلك، لكن إذا لزقَ بالكفِّ، وعند أبي يوسف رحمه الله الصعيد: هو التُّرابُ والرَّمل(١).

وعند الشافعيِّ رحمه الله هو الترابُ لا غير(٢)، والطَّيِّبُ المنبت عنده كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٨].

والصَّحيحُ ما قال أبو حنيفة رحمه الله، وعليه أهلُ التَّفسير وأهلُ اللُّغة رحمهم الله، ويؤيِّدُه النُّصوص، قال الله تعالى: ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ [الكهف: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿صَعِيدًا جُرُزًا﴾ [الكهف: ٨]، وقال النبيُّ ﷺ: «يُحشَرُ النَّاسُ في صعيدٍ واحد»(٣).

وقوله تعالى: ﴿فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ قيل: أي: فامسَحوا الصَّعيدَ بها.

وقيل: الباءُ زائدةٌ، كقوله: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠]، وتقديره: فامسحوا وجوهَكم وأيديكم.

وهذا تفسيرٌ للتيمُّم وبيانٌ له، وهو مشروعٌ في الجنابةِ والحدثِ جميعاً على قدرٍ واحدٍ.

---

(١) انظر: «المبسوط» للسرخسي (١/ ١٠٨ ـ ١٠٩).

(٢) في (ر) و(ف): «الأغبر».

(٣) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٢٩٧٤) من حديث أسماء بنت يزيد. وإسناده ضعيف.

والأيدي عند الزُّهريِّ إلى الآباط[١]؛ لأنَّ الاسمَ لكلِّها لغةً[٢]، وفي الوضوءِ اقتصرَ على المرافق؛ لأنَّ النَّصَّ مدَّه[٣] إليها.

وقال الأوزاعيُّ: إلى الأرساغ، كما في قوله تعالى: ﴿فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨].

وعندنا إلى المرافق معها[٤]؛ لأنَّ التَّيمُّمَ بدلٌ عن الوضوء، فيتقدَّرُ بتقدير الأصل، وفي قطع السَّرقةِ وردَ التَّقديرُ بذلك نصًّا.

وقال مجاهدٌ في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ﴾: نزلت في رجلٍ مِن الأنصار كان مريضاً، فلم يَستطع أنْ يقومَ فيتوضَّأ، ولم يكن له خادمٌ فيناولَه[٥] الماء، فأتيَ به[٦] رسولُ الله ﷺ، فذَكرَ ذلك له[٧]، فنزلَت الآيةُ[٨].

وقال مقاتل: نزلَت في عبد الرحمن بن عوف، أصابَته جنابةٌ وهو جريحٌ، فشَقَّ عليه الغُسلُ، وخافَ منه، فنزلت الآية[٩].

وتقدير[١٠] الآيةِ على قوله: وإن كنتم جُنباً مَرضى، وتركَ ذكرَ الجنابة؛ اكتفاءً بما

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٧/ ٩٠).

(٢) في (ف): «لفظاً».

(٣) كذا في (أ) و(ر)، ولعلها: «وحَدُّه»، ورسمها في (ف) محتمل.

(٤) في (ر): «بعدها»، وليست في (ف).

(٥) في (ف): «يناوله».

(٦) في (ر) و(ف): «فأخبر بذلك» بدل: «فأتى به».

(٧) قوله: «فذكر ذلك له» من (أ).

(٨) رواه ابن المنذر (١٨١٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٩٦١) (٥٣٦٥).

(٩) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٣٧٤).

(١٠) في (ف): «وقال مقاتل: تقدير» بدل: «وتقدير».

ذكرَ قبلَه: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾، وعلى هذا التَّأويل يكون قوله جلَّ جلاله: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ على حقيقة «أو»، مِن غير أنْ تُجعَل بمنزلة الواو، ومعناهُ: وإنْ كنتم جُنُباً، أو مُحْدِثين مرضى أو مسافرين، فتيمَّموا لهما[١] جميعاً على صفةٍ واحدةٍ. وكذا رُويَ عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما وابنِ مسعود وأبي مالكٍ والسُّدِّيِّ رضي الله عنهم أنَّهم حَملوا الآيةَ على الجُنبِ الجريح[٢]، وأوَّلوها على هذا الوجه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ العفوُّ: الكثيرُ العفوِ، وله معنيان:

أحدهما: التَّسهيلُ والتَّخفيف، قال النبيُّ ﷺ: «عفوتُ لكم عن صدقةِ الخيلِ والرَّقيق»[٣]، ومعناه أنَّه خفَّف عليكم بإقامةِ الصَّعيدِ الطَّيِّبِ مقامَ الماءِ. **وقوله تعالى:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ﴾ بيانُ أنَّ سنَّتَهُ كذلك في كلِّ عباده، **وقوله تعالى:** ﴿غَفُورًا﴾ أي: كثيرَ المغفرة للذُّنوب.

والمعنى الثاني: أنَّه الصَّفح والتَّجاوزُ، ويَرجِعُ إلى أوَّل الآية[٤]: ﴿لَا تَقْرَبُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾؛ أي: مَن فعلَ ذلك، ثمَّ رجعَ عنه، عفى الله عنه، وغفرَ له، ولم تزل سنَّتُه في عباده كذلك.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: جعلَ اللهُ التيمُّمَ بدلاً عن الطَّهارةِ بالماء عند

---

(١) في (ف): «لها».

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٧/ ٥٩ ـ ٦٠) عن أبي مالك والسدي، وأخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٩٦٠) (٥٣٦٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) رواه أبو داود (١٥٧٤)، والترمذي (٦٢٠)، والنسائي في «الكبرى» (٢٢٦٨)، وابن ماجه (١٧٩٠)، (١٨١٣) من حديث علي رضي الله عنه.

(٤) بعدها في (ر): «وهو قوله»، وفي (ف): «قوله تعالى».

إعوازِ الماء، كذلك النُّزولُ إلى ساحاتِ التَّفرقةِ عن[1] ارتقاءِ ذروةِ الجمع، بقدر ما يحصل من الضَّعف: بدلٌ لأهل الحقائقِ في الشَّرع.

ثمَّ التَّيمُّمُ الذي هو بدلُ الماءِ أعمُّ وجوداً مِن الماء، وأقلُّ استعمالاً، فكلُّ مَن كان أقربَ كانت المطالباتُ عليه أصعبَ.

ثمَّ في التَّيمُّم سقطَ استعمالُه في الرَّأسِ والقدم؛ صيانةً لك عن الهوانِ، وذلك لعزِّ الإيمانِ مع الإفلاس عن[2] الإحسان، ولئِن كان الإفلاسُ يُوجِبُ التَّذلُّل، فعرفانهُ بجلال سيِّدِه يوجبُ التَّعزُّزَ[3].

***

(٤٤) ـ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ قال الإمام أبو منصور رحمه الله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ كلمةُ تعجيبٍ[4]؛ عن أمرٍ قد بلغَهُ، فيَخرجُ مخرجَ التَّذكير، أو لم يبلغه، فيَخرُجُ مخرجَ التَّعليم[5]، وقد مرَّ تفسيرُه وإيضاحُه مرَّاتٍ، يقول: ألم تَنْتَهِ[6] رؤيةُ قلبك يا محمَّد إلى اليهود الذين أُعطوا حظًّا مِن التَّوراة، وهم الذين مرَّ ذكرُهم: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ ﴿وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ﴾؟

---

(١) في (ر) و(ف): «عند»، والمثبت من (أ)، وهو موافق لما في «لطائف الإشارات» (١/ ٣٣٦).

(٢) في (ف): «إلى».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٣٣٦).

(٤) في (ف): «تعجب».

(٥) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٣/ ١٩٧).

(٦) في (أ): «تنته».

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: ﴿أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ مكروا مكراً[١]، فغفلوا وما شعروا؛ أُعطوا الكتابَ، ثمَّ حُرِموا بركاتِ الفهم، فحرَّفوا، وخالفوا، ولم يَعملوا بالعلم[٢].

وقوله تعالى: ﴿يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ﴾؛ أي: بالهُدى، هذا مضمَرٌ، ومعناه: يختارون الغيَّ[٣] على الرُّشد، أو يستبدلونه[٤]، وقد مرَّ شرحُه في سورة البقرةِ مرَّات.

وقوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ أي: ويحبون أنْ تَضلُّوا أنتم سبيلَ الحقِّ كضلالِهم.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: إنَّما أرادوا ذلك؛ ليكونَ النَّاسُ كلُّهم على دينِهم، فتكونَ لهم الرياسةُ على الكلِّ، وأخذُ المرافقِ مِن[٥] الكل.

وقيل: هو كقوله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء: ٨٩].

وقال الكلبيُّ: هم اليهودُ ﴿يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ﴾؛ أي[٦]: اليهوديَّة. ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ كانوا يأتون عبدَ الله بنَ أُبيٍّ[٧] ومالكَ بن الدُّخْشم[٨]، فيثبِّطونَهم عن

(١) في (أ): «مكروا فمكروا»، وفي (ف): «فمكروا» بدل: «مكروا مكراً».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٣٣٧).

(٣) في (ر): «الضلال» وفي (ف): «الهدى».

(٤) في (أ): «ويستبدلونه».

(٥) في (أ): «عن».

(٦) في (أ): «يعني».

(٧) بعدها في (ر) و(ف): «أوفى».

(٨) مالك بن الدخشم صحابي أنصاري أوسي، شهد بدراً وما بعدها، وهو الذي أسر سهيل بن عمرو، وأرسله النبي ﷺ مع معن بن عدي فأحرقا مسجد الضِّرار، اتُّهم بالنفاق، وقال ابن عبد البر: لا يصح عنه النفاق، وقد ظهر من حسن إسلامه ما يمنع اتهامه. انظر: «الاستيعاب» =

الإسلام. يقول: ألم تتعجَّب مِن اليهود مع ادِّعائهم العلمَ، وتفضيلِهم أنفسَهم على غيرهم؛ يَختارون الضَّلالةَ على الهُدى، ولا يَرضون بالاقتصارِ على أنفُسهم في هذا الجهلِ حتَّى يريدوا منكم تركَ دينِكُم.

* * *

(٤٥) ـ ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡ﴾ قيل: أي: عالمٌ، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ﴾ [الروم: ٢٧]؛ أي: هين.

وقيل: أي: هو أعلمُ بهم منكم؛ لأنَّه يَعلمُ مِن باطنِهم ما لا تَعلمونه؛ أي: هؤلاء اليهودُ أعداؤكم، فلا تَثقوا بهم، ولا تَستعينوا بهم في شيءٍ.

أو معناه: فلا يَهولنَّكم أمرُهُم؛ فاللهُ أعلمُ بهم، وهو منتقمٌ مِنهم، ومجازيهم وناصركم.

وقال الكلبيُّ: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡ﴾ مالك بن الدُّخشم وعبد الله بن أُبَيٍّ.

وقال الحسن: ﴿بِأَعۡدَآئِكُمۡ﴾ اليهود، قال الله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ﴾ [المائدة: ٨٢].

وقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا﴾ قال الزَّجَّاج: الباءُ صلةُ الاكتفاء[1]؛ أي: وكفى بالله وليًّا، فاكتفوا به وليًّا؛ أي: مُحِبًّا. وقيل: متكفِّلاً.

وقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا﴾ أي: معيناً، وقيل: مانعاً.

* * *

= (٣/ ١٣٥٠ ـ ١٣٥١)، «الإصابة» (٩/ ٤٥ ـ ٤٦).

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٥٧).

(٤٦) ـ ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ قيل: أي: الذين أوتوا نصيباً من الكتاب من الذين هادوا.

وقيل: والله أعلم بأعدائِكم مِن الذين هادوا[1].

وقيل: وكفى بالله نصيراً مِن الذين هادوا؛ أي: لكم على الذين هادوا[2]، كما قال تعالى: ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾ أي: على القوم.

وعلى هذه الوجوه الثلاثةِ قولُه تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ لا يُضمَرُ فيه شيءٌ، ويَستقيمُ على ظاهره، ويكونُ هذا صفةً لهم.

وفي قراءة عبد الله: (ومِن الذين هادوا)[3]، وعلى هذا لا يَستقيم الوجوهُ الثلاثة، ويكون ابتداءً، وكذا مَن جعلهُ ابتداءً مِن غير واو الاستئناف، فإنَّه يقول: هاهنا مضمرٌ، وتقديره: مِن الذين هادوا مَن يحرِّفون الكَلِمَ. و«مِن» يكون للجمع، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٤٢]، وفي مصحف حفصة رضي الله عنها: (من الذين هادوا من يحرف الكلم[4] عن مواضعه)[5]، ونظيرُه في القرآن قوله

---

(١) قوله: «وقيل والله أعلم بأعدائكم من الذين هادوا» من (أ).

(٢) بعدها في (ر) و(ف): «وقيل وكفى بالله نصيراً».

(٣) ذكرها الماتريدي في «تأويلات أهل السنة»، لكن سقطت الواو من مطبوع دار الكتب العلمية (٣/ ١٩٨)! وهي مثبتة في طبعة الرسالة ناشرون (١/ ٤٣٠)، وطبعة دار الميزان التركية (٣/ ٢٥٢).

(٤) في (ر) و(ف): «الكلم».

(٥) ذكرها الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٣/ ١٩٨).

تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ﴾ [النساء: ١٥٩]؛ أي: إلَّا مَن، **وقوله تعالى**: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤]؛ أي: إلا من، وهو كقول الشاعر:

فظلُّوا ومنهمْ دَمعُهُ سابقٌ له ... وآخرُ يَثني دمعةَ العينِ بالمَهْلِ[١]

وقوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ أي: يحولون[٢]، و«الكلم» جمعُ كلمة، ولذلك قال تعالى: ﴿عَن مَّوَاضِعِهِ﴾، والتَّحريفُ نوعان:

أحدهما[٣]: صرفُ الكلامِ إلى غير المراد به بضربٍ من التَّأويلِ الباطل.

والثاني: تبديلُهم الكلمةَ بأُخرى، وكانوا يفعلون ذلك، قال تعالى: ﴿يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٩].

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا﴾ أي: قولَك، ﴿وَعَصَيْنَا﴾؛ أي: أمرَك[٤]، يُظهِرون الأوَّل، ويُضمرون الثاني خوفاً.

وقوله تعالى: ﴿وَاسْمَعْ﴾ أي: قولنا، ﴿غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ أي: لا أسمعَك اللهُ، وهذا كانوا يضمرونَهُ في أنفسهم.

وقيل: معناه: غير مسمَعٍ؛ أي: غيرَ مجابٍ، قاله الحسن[٥]، وتحقيقُه على وفق اللُّغة؛ أي: لا نُسمِعُكَ إجابتَنا، وهذا كانوا يضمرونَه أيضاً.

---

(١) البيت لذي الرمة، وهو في «ديوانه» (١/ ١٤١)، وسلف عند تفسير الآية (٩٦) من سورة البقرة.

(٢) في (ر) و(ف): «يحرفون».

(٣) لفظ: «أحدهما» ليس في (أ).

(٤) نص العبارة في (ر) و(ف): «﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾؛ أي: سمعنا قولك، وعصينا أمرك».

(٥) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٥٩٤)، ومن طريقه الطبري في «تفسيره» (٧/ ١٠٦)، وابن أبي حاتم (٣/ ٩٦٦) (٥٣٩٦).

وقيل: كانوا يُظهرونَ قولهم: غير مسمعٍ، وتأويلُه: غير مسبوب، يقال: أسمعتُ فلاناً؛ أي: سببته.

وقوله تعالى: ﴿وَرَٰعِنَا﴾ يوهمون بظاهره أنَّهم يطلبون مراعاتَه عند كلامِهم، وهو إمهالهم حتى يُتِمُّوا كلامَهم.

وقوله تعالى: ﴿لَيًّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ﴾ أي: تقليباً، وقد لَوى يَلوي ليًّا[١]؛ أي: يُظهِرون هذا، ويُريدونَ به السَّبَّ بالرُّعونة، وقد مرَّ شرحُه في سورة البقرة.

وقيل: ليُّهم بألسنتِهم إشباعُهم كسرةَ العين في ﴿وَرَٰعِنَا﴾، يريدون: راعينا؛ أي: أنت راعينا[٢]، يريدون وصفَهُ براعي[٣] الغنم.

وقوله تعالى: ﴿وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِ﴾ أي: يقولون: هو لا يَصلحُ للنُّبوَّة.

وقيل: كانوا يقولون له: السَّامُ عليك، فيقول: «وعليكم»[٤] فيخرجون ويقولون لو لا يعذبنا الله بما نقول؛ أي: لو كان هو على الدِّين الحقِّ، فلماذا لا يُعذِّبُنا اللهُ بهذا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا﴾؛ أي: قولَك، ﴿وَأَطَعۡنَا﴾؛ أي: أمرَك، ولا يقولون: وعصَينا في أنفسِهم.

وقوله تعالى: ﴿وَٱسۡمَعۡ﴾[٥]؛ أي: قولَنا، ولا يُلحِقونَ به: غيرَ مُسمَع.

﴿وَٱنظُرۡنَا﴾ مكان: راعنا، من غير تلبيس؛ أي: انتَظِرنا حتَّى نفرغَ من كلامِنا.

---

(١) بعدها في (ر) و(ف): «حتى يتموا كلامهم».

(٢) قوله: «يريدون راعينا أي: أنت راعينا» ليس في (أ).

(٣) في (ر) و(ف): «برعي».

(٤) رواه البخاري في «صحيحه» (٢٩٣٥)، ومسلم في «صحيحه» (٢١٦٥) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٥) بعدها في (ف): «وانظرنا واسمع».

وقيل: أي: راعنا: خطابُ الأعلى للأدنى، وانظرنا: خطابُ الأدنى للأعلى، فوُبِّخوا على تركِ الاحترام، ودُعوا إلى الاحترام.

وقوله تعالى: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ قالوا: لما لم يكن في الذي اختاروه خيرٌ أصلاً، لم جعلَ هذا خيراً من ذلك؟ وجوابه أنَّه كذلك على زعمِهم، فخُوطِبوا على ذلك، وهو كقوله: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩]، **وقوله تعالى:** ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: معناه[١]: لكان خيراً لهم في الدُّنيا والآخرة؛ أمَّا في الدُّنيا فدوامُ الرياسةِ التي خافوا فوتَها لو أطاعوهُ واتَّبعوه؛ إذ قد أطاعَ منهم قومٌ، فلم تذهب رياستُهم، بل ازدادَ شرفُهم وذكرهُم في الحياة وبعدَ الوفاة[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَأَقْوَمَ﴾؛ أي: أعدلَ، مِن القَيِّم، وهو[٣] المستقيم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾[٤]؛ أي: طردَهم وأبعدَهم عن رحمتِه بسبب اختيارِهم الكفرَ.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قال الكلبيُّ: أي: إلا قليلاً[٥]، منهم عبدُ الله ابنُ سلام وأصحابُه.

---

(١) لفظ: «معناه» من (أ).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٣/ ١٩٩).

(٣) في (ف): «أي» بدل: «وهو».

(٤) بعدها في (ف): «فلا يؤمنون إلا قليلًا».

(٥) قوله: «قال الكلبي أي إلا قليلًا» ليس في (ف).

وعن الكلبيِّ في رواية معمرٍ عنه: إلَّا بقليلٍ[١] ممَّا في أيديهم[٢]؛ أي: ببعضِ الكتب والأنبياء، كما قال خبراً عنهم: ﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ [النساء: ١٥٠].

وقيل: أي: إلَّا إيماناً قليلاً لا يَتِمُّ به الإيمان، وهو كإقرارهم بأنَّ خالقَهم اللهُ تعالى، ورازقَهم اللهُ تعالى، وتصديقِهم ببعض الكتب وببعض[٣] الأنبياء.

* * *

(٤٧) ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا﴾ وهو القرآن، ﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ أي: موافقاً للكتاب الذي أنزلَ على نبيِّكم، وهو التَّوراة.

وقال الإمامُ أبو منصور رحمه الله: كان موافقاً لما معهم بالمعاني المدرجةِ[٤] فيه والأحكام، لا بالنَّظمِ واللِّسان. وفيه دليلٌ لقول أبي حنيفة رحمه الله، حيث أجازَ الصَّلاة بالقراءة بالفارسيَّة؛ لأن تغيُّرَ النَّظم[٥] واختلافَ اللِّسان، لا يُوجِبُ تَغيُّر المعاني واختلافَ الأحكام[٦].

وقوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا﴾ الطَّمسُ: محوُ الأثر، قال تعالى: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ [المرسلات: ٨].

---

(١) في (ر): «قليل»، وفي (ف): «قليلًا».

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» عقب الأثر: (٥٩٨).

(٣) في (أ): «وبعض».

(٤) في (ر): «المذكورة»، وفي (ف): «المدركة».

(٥) في (ر) و(ف): «اللفظ».

(٦) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٣/ ٢٠٠)، وانظر: «المبسوط» للسرخسي (١/ ٢٧).

وقيل: هو التغيير[١]، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [يونس: ٨٨]، رويَ أنَّ ذهبَهم وفضَّتهم صارت حجارةً.

وقيل: هو الإغماء، قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ [يس: ٦٦].

وقوله[٢]: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا﴾؛ أي: نمحو ما على الوجهِ من العينين والأنفِ والفم، وسائر أجزاء الوجه، فيصيرَ الوجهُ كالقفا، وهو معنى قول ابن عباس رضي الله عنهما: نجعلها كخفِّ البعيرِ وحافر الدَّابَّة[٣].

وقوله تعالى: ﴿فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ﴾ أي: نردَّ الأشياءَ المصوَّرة في الوجوه ﴿عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ﴾ جمع دُبُر، وهو الخلفُ؛ لأنَّ الدُّبر ما أدبرَ مِن بدنِ الإنسان، والقُبُل: ما أقبلَ منه؛ أي: نَجعلَ ذلك في الأقفيةِ، وهو مسخُ الرَّأس والوجه، فتكونَ الأيدي والبطون والأرجل في مواضعها، والوجهُ بما فيه في القفا، وفيه مِن الخزيِ والقُبحِ ما لا يخفى.

وقوله: ﴿عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ﴾؛ أي: في أدبارِها، كما يقال: على وجه فلانٍ أنفٌ طويلٌ، وفمٌ واسعٌ؛ أي: في وجهه، و«نردَّها» بمعنى: نجعلَها ونخلقَها. ومعنى هذه الجملة عن قتادة رحمه الله[٤] وغيره من المفسِّرين.

وقيل: ﴿فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ﴾؛ أي: نغيِّرَ الوجوهَ[٥] على هيئة أدبارها؛ أي:

---

(١) في (ر) و(ف): «التغيير».

(٢) في (أ): «فقوله».

(٣) انظر: «تفسير الثعلبي» (٣/ ٣٢٤).

(٤) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٥٩٦)، ومن طريقه الطبري في «تفسيره» (٧/ ١١٢).

(٥) في (ر) و(ف): «نعيد الوجه» بدل: «نغير الوجوه».

أقفائها، لا عينَ فيها ولا أنفَ ولا فم، لا أن يجعلَ ذلك في الأقفية، بل يبعثَهم[١] عمياً وبكماً، ليس لهم عينٌ وأنفٌ وفم.

وقيل: أي: نجعل وجوهَهم بعد الطَّمس كأقفيتهم منابتَ للشَّعر[٢]، كوجوهِ القردة.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ﴾؛ أي: نمسخهم بالكلية كما جعلنا أصحاب السبت قردةً.

قال الكلبيُّ: لـمَّا نزلَت هذه الآيةُ قَدِم عبدُ الله بن سلام مِن الشَّام، وبلغَه ذلك، فأتى النبيَّ ﷺ، فأسلمَ قبل أن يأتيَ أهلهُ، وقال: يا رسولَ الله، ما كنتُ أرى أنْ أصلَ إليك حتَّى يتحوَّل وجهي في قفاي[٣]. وذكرنا القصَّة بطولها في أوَّل سورة البقرة عند قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ [البقرة: ١٣].

فإن[٤] قالوا: خوَّفهم اللهُ تعالى إنْ لم يبادِروا إلى الإسلامِ بالطَّمسِ والمسخ، ولم يسلموا، ولم يفعل!

قلنا: لأنَّه أسلمَ بعضُهم، وهو ابنُ سلام وأصحابُه، أو هو[٥] مطلقٌ، فيكونُ الوعيدُ باقياً إلى قيام السَّاعة؛ لأنَّه قال: ﴿وُجُوهًا﴾ على التَّنكير، لا على التَّعريف والتَّعميم.

---

(١) في (ف): «نبعثهم».

(٢) في (ر) و(ف): «الشعر».

(٣) هذا القول ذكره الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٣/ ٢٠١)، وأبو الليث في «تفسيره» (٢/ ٦٢)، والثعلبي في «تفسيره» (٣/ ٣٢٤)، دون نسبة.

(٤) في (ف): «فلما إن».

(٥) في (أ): «وهو».

وقيل: قوله: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ﴾ في الآخرة، وهو محوُ محاسنِ الوجوه، وإدخالُ الأيدي في الصُّدور، والإخراجُ إلى الظُّهور، وإعطاءُ الكتبِ بالشَّمائل ووراءَ الظُّهور، وأمَّا اللَّعن فهو المسخُ في الدُّنيا، ولعلَّه كان في بعضِهم ولم يُنقَل إلينا، أو هو إلى قيامِ السَّاعة.

وقيل: الوعيدان على التَّمثيل لا على[١] التَّحقيق، أشار إلى ذلك الإمامُ أبو منصورٍ رحمه الله[٢] وغيره، ومعنى قوله تعالى: ﴿نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا﴾ فيبصرون الحقَّ بغير صورتِه، والباطلَ بغير صورته، بعد أن كانوا يَرون كلَّ شيءٍ على ما هو به بالنَّظرِ في كتبِهم، رُويَ عن الحسن وابنِ أبي نَجيح والسُّدِّيِّ[٣] أنَّ معناه: نجعلَهم منصرفين عن الحقِّ، مُقبلينَ على الباطل.

وقيل: أي: نطمسَ وجوهَهم؛ أي: جاهَهم عند أتباعِهم الذين لأجلهم غيَّروا بما يُطلِعهُم على خيانتهم[٤]، وقد فعل ذلك.

وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أن المراد به الوعيد بالجلاء[٥] عن أوطانِهم[٦]، ويقال: لفلانٍ وجهٌ في بلدِه، وهو وجيهٌ عند النَّاس، ويَزولُ ذلك بالغربة، والرَّدُّ إلى الأدبار مجازٌ عن الرَّدِّ مِن الإقبال إلى الإدبار.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا﴾ الأمرُ هو المأمور به، والمصدرُ يُطلَقُ على

---

(١) في (أ): «دون» بدل: «لا على».

(٢) في «تأويلات أهل السنة» (٣/ ٢٠١).

(٣) روى أقوالهم الطبري في «تفسيره» (٧/ ١١٣)، وابن أبي نجيح يرويه عن مجاهد.

(٤) في (ف): «جنايتهم».

(٥) في (ف): «بالإجلاء».

(٦) رواه بنحوه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٩٦٩) (٥٤١٨).

المفعولِ به، كما يُقال: هذا الدِّرهمُ ضربُ الأمير؛ أي: مضروبُه؛ أي: عذابُ اللهِ الذي أمرَ بإنزالِهِ مُنزَلٌ بهم لا محالة.

* * *

(٤٨) ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾؛ أي: هؤلاء اليهود مشركون، واللهُ تعالى لا يغفر الشِّركَ لمن ماتَ عليه، فأمَّا إذا أسلمَ فقد قال: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

وقوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ وهو يَعُمُّ الكبائرَ والصَّغائر؛ أي: هي في جوازِ المغفرة، لكنَّه معلَّقٌ بالمشيئة، وإنْ ماتَ مُصِرًّا عليها[1] مِن غير توبةٍ. وهو ردٌّ على الخوارج والمعتزلة.

وذكر الكلبيُّ، عن أبي صالحٍ، عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما: أنَّ الآيةَ نزلتْ في وحشيّ، والقصَّةُ معروفةٌ؛ أنَّ قولَه: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ الآيات [الفرقان: ٦٨]، نزلَت أوَّلاً، ثمَّ هذه الآيةُ، ثمَّ قوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الزمر: ٥٣][2].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾؛ أي: اختلقَ أعظمَ الأكاذيب.

وقال القشيريُّ رحمَه الله: مَن توسَّل إلى الله بأعمالِه وصفاتِه، أو توهَّم أنَّ

---

(١) في (أ): «عليهما».

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (٣/ ٣٢٤). والكلبي متهم بالكذب، وأبو صالح باذام مولى أم هانئ ضعيف يرسل، كما ذكرناه قبل.

أحكامَ الله معلولةٌ بحركاتِه وسكناتِه أو رأى[١] خلقاً، أو لاحظَ نفساً، فوطنُه الشِّركُ عند أهل الحقائق[٢]، واللهُ تعالى لا يَغفرُ أنْ يُشرَكَ به، وكذا مَن توهم[٣] أنَّ مخالفاتِه حصلَتْ مِن غير تقديرِه، فهو ملتحِقٌ بهم[٤].

***

(٤٩) ـ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾؛ أي: اليهودُ يَمدحون أنفسهم فيقولون: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨]، و﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠]، و﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، وإنَّا نُعلِّمُ أبناءَنا الصِّغارَ التَّوراة، فنكفِّر بذلك ذنوبَنا، فنصيرُ كأنَّنا لا ذنبَ لنا.

وقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾؛ أي: ليس كذلك، وليس لهم أنْ يُزكُّوا أنفسَهم، واللهُ تعالى هو الذي يُزَكِّي مَن يَشاء، وهم الموحِّدون.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾؛ أي: لا يُنقِصُ اللهُ أحداً مِن عبادِه شيئاً يَستحِقُّه بعملِه، وإنْ قلَّ، ولو كنتُم مستَحِقِّين للتَّزكية، لما منعَكم ذلك.

وقال أهل اللُّغة ـ وهو قولُ الكلبيِّ أيضاً ـ: الفتيلُ ما يَحدثُ بفتل الأصابعِ مِن الوسخ.

---

(١) في «لطائف الإشارات»: «راعى» بدل: «رأى».

(٢) في (ف): «الحقيقة».

(٣) في (ف): «رأى» وفي (ر): «رأى توهم».

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٣٣٨).

وقال الحسنُ: الفتيلُ: ما يكونُ في شَقِّ النَّواةِ طُولاً، والنَّقيرُ: ما يكون في النُّقْرةِ التي في ظهرِ النَّواة، والقطميرُ: قشرها[١].

وقال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: إنَّ رجالاً مِن اليهودِ أتوا بأطفالِهم إلى النَّبيِّ ﷺ، فيهم بحريُّ بنُ عمرو، ونعمانُ بن أوفى، ومرحب بن زيد، فقالوا: يا محمَّد، هل على هؤلاءِ من ذنبٍ؟ فقال: لا، فقالوا: والله ما نحنُ إلَّا كهيئتِهم، ما عملناهُ بالليل كُفِّرَ عنَّا بالنَّهار، وما عملناه بالنَّهار، كُفِّرَ عنَّا بالليل، فكذبهم اللهُ تعالى بهذهِ الآية[٢].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: وقولُ الرَّجل: أنا مؤمنٌ، ليس بتزكيةٍ لنفسه، بل هو إخبارٌ عن شيءٍ أُكرِمَ به، والتَّزكيةُ هي أنْ يَرى كونَه برًّا تقِيًّا صالحاً من نفسه، ولأن الإيمان له حدٌّ معلومٌ لا يَتفاوتُ، وكلُّ عبادةٍ ذات حدٍّ فلا امتداحَ ممَّن قد أدَّاها، وأخبرَ بأدائِها، كقوله: صلَّيتُ الظُّهرَ، وأدَّيتُ الزَّكاة، وصُمتُ الشَّهرَ، وحَججتُ البيتَ، فأمَّا قوله: هو بَرٌّ، أو تقيٌّ، أو حبيبُ الله، ممَّا[٣] لا يُعرَفُ حدُّه؛ فهو بذلك يترفَّع على الأشكالِ، ويَفتخرُ عليهم، فإن كان صادقاً، فهو غفلةٌ عن رؤيةِ[٤] منَّةِ الله تعالى، وإن كان كاذباً، فهو مستَحِقٌّ لمقت الله تعالى ولعنته، وبالله العصمة[٥].

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: مَن ركنَ إلى تزكيةِ النَّاس له، واستحلى

---

(١) علقه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٩٧٣) عقب الأثر (٥٤٣٦) عن الحسن وغيره، وهو قول ابن عباس أيضاً، رواه عنه سعيد بن منصور (٦٥٠ ـ تفسير)، وابن المنذر (١٨٦١).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٣/ ٣٢٥ ـ ٣٢٦) عن الكلبي.

(٣) في (ر) و(ف): «فمما».

(٤) في (ر): «غافل عن» بدل: «غفلة عن رؤية».

(٥) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٣/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦).

قَبولَ(١) الخاصِّ له، فهو من زكَّى(٢) نفسَه، ورؤيةُ النَّفسِ أعظمُ حجابٍ، ومَن توهَّم أنَّه بتكلُّفِه يُزكِّي نفسه؛ بأورادِه، أو باجتهادِه أو حركاته(٣) أو سكناته، فهو في غطاءِ حجابِه(٤).

***

(٥٠) ـ ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثۡمٗا مُّبِينًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾ «كيف» كلمةُ تعجيبٍ، وافتراؤهم على الله تعالى ما ذَكرنا مِن كلماتِهم في تزكيةِ أنفُسِهم.

وقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثۡمٗا مُّبِينًا﴾ أي: ظاهراً.

وقيل: أي: مُظهَراً فحشُه ووبالُه، و«أبان» لازمٌ ومتعدٍّ، ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦٓ﴾ يُقصدُ بهذه الكلمة تعظيمُ الإثم، ويستعمل في المدح والذَّمِّ، وفي الحديث: «كفى بالموت واعظاً، وكفى بالعبادة شغلاً»(٥)، يعني: لو لم يكن لهم من الذُّنوب إلَّا هذا الافتراء، لكان إثماً عظيماً، لا يجوزُ أن يزكُّوا أنفسَهم معه، فكيف ولهم آثامٌ عظامٌ غيرُها؟!

***

---

(١) في (أ): «قبوله».

(٢) في (ر) و(ف): «مزك».

(٣) في (أ): «أو ببركاته». وفي «لطائف الإشارات»: «بحركاته» (دون «أو»).

(٤) في (ف): «فهو غطاء» بدل: «فهو في غطاء حجابه»، وفي «لطائف الإشارات» (١/ ٣٣٨): «فهو في غطاء جهله».

(٥) رواه أحمد في «الزهد» (٩٨٤) عن رجل عن عمار، فهو ضعيف لجهالة الراوي عن عمار، ورواه القضاعي في «مسند الشهاب» (١٤١٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٠٧٢) من طريق الحسن عن عمار، وفي إسناده الربيع بن بدر، وهو متروك. انظر: «ميزان الاعتدال» (٢/ ٣٧)، و«تقريب التهذيب». والحسن لم يسمع من عمار. انظر: «تهذيب الكمال» للمزي (٦/ ٩٨).

(٥١) ـ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ قال الكلبيُّ: انطلقَ كعبُ بن الأشرفِ اليهوديُّ[1] وحييُّ بنُ أخطبَ في ثلاثين مِن اليهود إلى مكَّة بعد بدرٍ، فبكيا على قتلى بدرٍ، ورَثياهم؛ يريدون بذلك إغراءَ المشركين وتأليبَهم[2] على رسولِ الله ﷺ، فقال كعبٌ: جئناكم لنعينكم على قتالِ محمَّدٍ، فأعجبهم ذلك، فقال له أبو سفيان: أنتم أهلُ كتابٍ وعلمٍ، ونحن أمَّةٌ أمِّيَّةٌ، وأحبُّ الناس إلينا مَن يُعينُنا على قتالِ هذا الرَّجل، فنزلَ كعبٌ على أبي سفيان، فأحسنَ مثواه، ونَزلتِ اليَهودُ في دورِ قريش، فقال كعبٌ لأبي سفيان: ليجئ منكم ثلاثون، ونحن ثلاثون، فنلزقَ أكبادَنا بالكعبة، فنعاهدَ ربَّ البيتِ لنجهدنَّ[3] على قتالِ محمَّدٍ، ففعلوا ذلك.

فقال أبو سفيان لكعبٍ: إنَّك امرؤٌ تَقرأ الكُتُبَ، فأيُّنا أهدى طريقاً، أنحن أم محمَّد؟ فقال كعب: إلى ما يدعوكم محمَّد؟ قالوا: إلى أن نعبدَ الله، ولا نشركَ به شيئاً، قال: فأخبروني، فما أمركم؟ قالوا: نحن ننحرُ الكُومَ، ونَقْري الضَّيفَ، ونَفكُّ العاني، ونَسقي الحاجَّ، ونَعمرُ بيتَ ربِّنا، ونَصِلُ أرحامَنا، ونحن أهلُ الحرم[4].

وزاد في حديث عكرمة هاهنا: ومحمد صُنبورٌ[5]، قطعَ أرحامَنا، واتَّبعَهُ سُرَّاقُ

---

(١) «اليهودي» زيادة من (ف).

(٢) في (أ): «وتحريضهم».

(٣) في (ف): «لنجتهدن».

(٤) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٣٧٩)، و«تفسير الثعلبي» (٣/ ٣٢٧ ـ ٣٢٨) دون نسبة الخبر للكلبي.

(٥) صنبور أي: أبتر لا عقب له. انظر: «النهاية» لابن الأثير (مادة: صنبر).

الحجيج، فقال كعب: أنتم والله أهدى سبيلاً ممَّا عليه محمَّدٌ، فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾[١]، الجبتُ: حُيَيُّ بن أخطب، والطَّاغوتُ: كعبُ بن الأشرف[٢]، فكانت اليهودُ تخاصِمُ إليهما، ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾؛ يعني: ديناً.

وقال عمرُ رضي الله عنه: الجِبتُ: السحر، والطَّاغوتُ: الشَّيطان[٣].

وقال أبو العالية: الجِبتُ: السَّاحر، والطَّاغوت: الكاهن[٤].

وقال عكرمة: هما[٥] صنمان[٦]، كانوا يتحاكمون إليهما[٧].

وقال أبو عبيدة: الجِبتُ والطَّاغوت: كلُّ معبودٍ دون[٨] الله تعالى؛ مِن حجرٍ أو مَدَرٍ أو صورةٍ أو شيطانٍ[٩].

وقيل: الجِبتُ: إبليس، والطَّاغوتُ: أولياؤه، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقد فسَّرنا الطَّاغوتَ في تلك الآيةِ على الوجه.

---

(١) رواه عن عكرمة ابنُ المنذر في «تفسيره» (١٨٨٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٩٧٤) (٥٤٤١).

(٢) وقع تفسير الجبت والطاغوت بكعب وحيي في قول ابن عباس رضي الله عنهما والضحاك. رواه عنهما الطبري في «تفسيره» (٧/ ١٣٩ ـ ١٤٠).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٧/ ١٣٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٩٧٤، ٩٧٥) (٤٥٥٣)، (٥٤٤٩).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (٧/ ١٣٧).

(٥) في (أ): «كانا».

(٦) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٦٠٤)، ومن طريقه الطبري في «تفسيره» (٧/ ١٣٤).

(٧) قوله: «كانوا يتحاكمون إليهما» ليس في (ف).

(٨) في (ر) و(ف): «سوى».

(٩) انظر: «مجاز القرآن» (١/ ١٢٩).

وقالوا: الجِبتُ ليس بعربيَّة محضة.

وقال سعيد بن جبير: هو السَّاحر بلغة الحبشة(١).

وقال عكرمةُ: إنَّ كعبَ بن الأشرف انطلقَ إلى المشركين(٢) مِن قريشٍ، فاستجاشهم على النبيِّ ﷺ، وقال لهم: إنَّا معكم نقاتلُه، فقالوا(٣): إنَّكم أهلُ كتابٍ، وهو صاحبُ كتابٍ، ولا نَأمنُ أن يكونَ هذا مكراً منكم، فإن أردتَ أنْ نخرجَ معك، فاسجُدْ لهذين الصَّنمين، وآمِن بهما، ففعلَ، ثمَّ قالوا: أنحنُ أهدى أم محمَّد؟ نحنُ نصِلُ الرِّحم، ونَقري الضَّيفَ، ونَطوفُ بالبيتِ، ومحمَّدٌ قطعَ رَحِمَهُ، وخرجَ مِن بلدِه، قال: بل أنتم خيرٌ وأهدى، فنزلت الآية(٤).

* * *

(٥٢) ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾(٥)؛ أي: هؤلاء اليهودُ طردَهمُ اللهُ تعالى وأبعدَهم مِن(٦) رحمته.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾؛ أي: معيناً، ومانعاً عنه عذابَ يوم القيامة.

وقال القشيريُّ رحمه الله: طاغوتُ كلِّ أحدٍ نفسُه، وصنمُه مقصودُه، فمن

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٧/ ١٣٧).

(٢) وقع في (ف) مكان قوله: «وقال عكرمة أن كعب... إلى المشركين»: «فلما فرغ كعب كلامه».

(٣) في (ف): «فقال له أبو سفيان» بدل: «فقالوا».

(٤) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٦٠٣)، ومن طريقه الطبري في «تفسيره» (٧/ ١٤٣ ـ ١٤٤).

(٥) بعدها في (ف): «ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً».

(٦) في (ف): «عن».

لاحظَ شخصاً، أو طالعَ سبباً، أو عَرَّجَ على علَّةٍ، أو تابعَ هوى، فذلك جِبتُه وطاغوتُه، وأصحابُ الجِبْتِ والطَّاغوتِ مستوجبون اللَّعنةَ، وهو الطَّردُ عن بساطِ العبوديَّة والحجاب عن شهودِ الربوبيَّة[١].

* * *

(٥٣) ـ ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ﴾ قيل: أي: ألهم؟ لأنَّه لم يسبقها ألفُ الاستفهام ليعطفَ عليها بـ «أم».

وقيل: يُقَدَّمُ عليها ألفُ الاستفهام ويقرَّرُ[٢] هذا على حقيقتِه، وتقديرُه: أهم أولى بالنبوَّة، أم لهم حظٌّ مِن الـمُلك والسَّلطنةِ، فتلزمَ النَّاسَ طاعتُهم، ويسوغَ لهم تفضيلُ أنفسِهم بالتَّزكِّي[٣]، وتفضيلِ المشركين على المسلمين، ولا يَتهيَّأ الرَّدُّ عليهم، وليس لهم ذلك، بل الملكُ لله تعالى، وله قسمةُ الفضائلِ[٤]، قال تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾ الآية [الزخرف: ٣٢].

وقوله تعالى: ﴿فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾؛ أي: ولو كان لهم هذا الملكُ والسُّلطان، لم يُعطوا أحداً مِن النَّاس شيئاً من الفضل، لا قليلاً ولا كثيراً؛ لبُخلِهم، وهو كقوله: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾ [المؤمنون: ٩١]؛ أي: لو كان معه إلهٌ غيرُه، لذهبَ كلُّ إلهٍ بما خلقَ[٥]، و«إذاً» بمعنى: إن كان

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٣٣٩).

(٢) في (ر) و(ف): «وتقدير».

(٣) في (ر) و(ف): «بالتزكية».

(٤) بعدها في (ف): «بل».

(٥) من قوله: «أي: ولو كان معه إله» إلى هنا ليس في (أ).

ذلك، يقول الرجل: زيدٌ يأتيك[1] فتقول: إذاً أكرمُه[2]؛ أي: إن كان ذلك أكرمتُه.

و«إذاً» لها ثلاثةُ أحوال:

إن ابتدأتَ بها مع المستقبل نصبتَه بها، تقول: إذاً أُكرِمَك.

وإذا توسَّطت لم تنصب، تقول: أنا إذاً أكرمُكَ، بالرَّفع لأن تقديره: أنا أكرِمُكَ إذاً.

وإذا أدخلت الفاءَ أو الواو فيها، ووصلتَ بها المستقبلَ، نصبتَ ورفعتَ، تقول: فإذاً[3] أكرمك، وإذاً أكرمك[4] بالنَّصب والرَّفع جميعاً، فالنَّصبُ على ظاهرِها أنَّها وليَتِ الفعلَ فعَمِلَت فيه، والرفعُ على المعنى؛ لأنَّ الفاءَ داخلٌ في الفعل، فيصيرُ في التَّقدير: فأكرمك إذاً، وأكرمك إذاً، فتتأخرُ «إذاً» فلا تعمل.

هذا معنى كلام الزجاج[5]، وعلى هذا قوله: ﴿فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ﴾ تقديرُه: فلا يؤتون إذاً فلم ينصب.

والنَّقيرُ فسَّرناهُ عند قوله: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٤٩].

* * *

(٥٤) ـ ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾.

---

(١) في (ر): «نريد نأتيك»، وفي (ف): «يريد يأتيك» بدل: «زيد يأتيك».

(٢) في (ر): «نكرمه».

(٣) في (أ): «إذاً».

(٤) «وإذا أكرمك» من (ر).

(٥) في «معاني القرآن» له (٢/ ٦٣) ونقله الزجاج عن سيبويه.

وقوله تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ ﴾ «أم» بمعنى «بل»، أو يضمَرُ فيه ألفُ الاستفهام، ثمَّ يُعطَفُ عليه بـ «أم» كما مرَّ.

والحسدُ: تمني زوالِ النِّعمة؛ أي[1] نعمةِ الغير إليه، وهو استفهامٌ بمعنى الإنكار، ومعناه: إن كانوا يَحسُدون المؤمنين، فيُفضِّلون عليهم المشركين بقولهم: هم أهدى منهم سبيلاً.

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾؛ يعني: مِن الدِّينِ الحقِّ، والكتابِ الصِّدق، فلا معنى لحسَدِهم؛ لأنَّ الحسدَ إنَّما ينبغي أنْ يقعَ في الشَّيء[2] الموضوعِ في غير موضع استحقاقِه، وليس كذلك.

وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾؛ أي: بيانَ الكتابِ، وآلُ إبراهيمَ[3]: أولادُه، وهم مُقِرُّون بذلك[4]، وقائلون باستحقاقِهم ذلك، ومحمَّدٌ ﷺ مِن أولادِه، فلِم يُنكِرون ذلك فيه، ولا يُنكِرون في بني إسرائيل، وهم مِن ولدِه.

وقال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله تعالى عنهما: ﴿ٱلنَّاسَ﴾: محمَّدٌ ﷺ وحدَه[5]، وذلك أنَّ اليهودَ قالوا: ما شأنُ محمَّدٍ، أُعطي النُّبوَّةَ بزعمِه وهو جائعٌ عارٍ، لا همَّ له إلَّا نكاحُ النِّساء، فحسدوه بنكاحِ النِّساء، وأحلَّ اللهُ له منهنَّ ما شاء أنْ ينكحَ، فذلك قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾، فالحكمةُ: النُّبوَّة.

---

(١) قوله: «النعمة أي» من (ف).

(٢) في (أ): «المعنى».

(٣) بعدها في (أ): «هو».

(٤) بعدها في (أ): «هم».

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (٧/ ١٥٤).

وقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ السَّلطنةُ لإبراهيم وداود وسليمان والملك: النبوَّةُ، عند مجاهد[١]، واليهودُ لا يَحسُدونَهُم بهذا كلِّه، فلم يَحسُدون محمَّداً به[٢]، وهو من آله.

وقال مقاتل: إنَّ اليهودَ قالوا: انظروا إلى هذا الذي لا يَشبعُ مِن الطَّعام، مالَهُ هَمٌّ إلَّا النِّساء، ولو كان نبيًّا لشُغِلَ عن النِّساء، فقال تعالى: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ يوسفَ وداودَ وسليمان، وكان لداودَ تسعٌ وتسعون امرأة مهريَّة، وثلاثَ مئة سرية، ولسليمان ثلاث مئة حرة، وسبعُ مئةِ سُرِّيَّة، فكيف يَحسدون محمَّداً في تسع نسوة، ولا يَذكرون ما كان لأولئك[٣].

وقال همَّامُ بنُ الحارث: ﴿مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ أُيِّدوا[٤] بالملائكة والجنود[٥].

وقال الإمامُ القشيري رحمه الله: ﴿مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ هو معرفةُ الملكِ، ويقال: هو المُلكُ على النَّفس. ويقال: هو الإشرافُ على أسرارِ المملكة[٦].

وقيل: ﴿ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ هو محمَّدٌ عليه الصلاة والسلام. ومعنى الآية: أتحسُدون العربَ على ما آتاهمُ اللهُ من فضله[٧]، فقد آتينا محمَّداً الكتابَ والحكمةَ وملكاً عظيماً إلى قيامِ السَّاعةِ، فلتَحسِدوه، وهذا على وجه[٨] الوعيد، وهو مضمر.

---

(١) رواه عنه الطبري في «تفسيره» (٧/ ١٥٩).

(٢) لفظ: «به» من (أ).

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٣٧٩ ـ ٣٨٠).

(٤) في (أ): «أمدوا».

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (٧/ ١٦٠).

(٦) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٣٣٩ ـ ٣٤٠).

(٧) قوله: «من فضله» ليس في (أ).

(٨) في (أ): «جهة».

(٥٥) ـ ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ قال مجاهد: أي: مِن اليهودِ مَن آمنَ بمحمَّدٍ عليه الصلاة والسلام(١).

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ﴾؛ أي: أعرضَ عنه.

وقيل: أي: منعَ الناسَ عن الإيمانِ به، وقد صدَّ صدوداً، وهو لازمٌ، وصدَّ صدًّا، وهو متعدٍّ، ومثله الوَقفُ والوقوف، والرَّجع والرُّجوع.

وقيل: أي: ومِن أسلافهم مَن آمنَ بإبراهيم، ومنهم مَن أعرضَ عنه(٢).

وقال مقاتل: يعني: مِن آلِ إبراهيمَ مَن آمنَ؛ صدَّقَ بالكتب التي جاؤوا بها، ومِنهم مَن أعرضَ عن الإيمانِ بها(٣).

وقال السُّدِّيُّ: زرعَ إبراهيمُ سنةً، وزرعَ النَّاسُ فيها، فهَلَكَت زروعُ النَّاس، وزكا زرع إبراهيم، فاحتاجَ النَّاسُ إليه، فكانوا يأتونَهُ ويسألونَه، فكان يقولُ لهم: من آمن بي أعطيتُه، ومَن أبى منعتُه، فمِنهم مَن آمنَ به فأعطاه، ومِنهم مَن أبى فلم يُعطِه، فذلك قولُه تعالى في هذه الآية(٤).

وقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾؛ أي: أعددتُ للصَّادِّين جهنَّمَ، وكفى بها ناراً مسعورةً؛ أي: موقَدة(٥)؛ أي: بها الكفايةُ في تعذيبِهم.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٧/ ١٦١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٩٨١) (٥٤٨٤).

(٢) في (ر): «عن الإيمان بها» بدل: «عنه».

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٣٨٠).

(٤) رواه ابن المنذر في «تفسيره» (١٩٠٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٩٨١) (٥٤٨٦).

(٥) في (ر) و(ف): «موقودة».

(٥٦) - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ وهم هؤلاء[١]، ﴿سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم﴾ أي: نُدخلُهم جهنَّم، ومعنى قوله: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم﴾ أي: احترقت.

وقوله تعالى: ﴿بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا﴾؛ أي: أعدنا[٢] تلك الجلودَ غيرَ محترقةٍ، فالغيريَّةُ[٣] على تغاير[٤] الهيئتين، لا تغاير الأصلين، كما تقول[٥] في خاتم انكسر: صُغ لي خاتماً غيرَهُ، وإنَّما هي فضَّةٌ واحدةٌ، وقد يقولُ الرَّجلُ لآخر إذا رآه متغيِّراً عما[٦] كان يراه: جئتني بغير ذلك الوجه الذي فارقتني عليه.

وقيل: «غير» في كلام العرب على وجهين؛ «غير» تضادٍ وتنافٍ، و«غير» تغيُّرٍ واختلافٍ، كقولك لآخر[٧]: كيف أنت؟ فيقول: أنا غيرُ الذي عهدتَ.

وقال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [إبراهيم: ٤٨]: إنَّ الأرض[٨] تلك الأرض، ....

---

(١) بعدها في (ر) و(ف): «قوله تعالى».

(٢) في (أ) و(ر): «أعددنا».

(٣) في (ر): «فالتغيير به»، وفي (ف): «فالتغييرية».

(٤) في (أ): «نظائر».

(٥) في (ف): «يقال».

(٦) في (أ): «متغيراً عما» بدل من «صغيراً كما».

(٧) من قوله: «إذا رآه متغيراً» إلى هنا ليس في (ف).

(٨) بعدها في (ف): «ليس غير».

لكن بُدِّلَت آكامُها وجبالُها وأنهارُها وأشجارُها[١]، وأنشد[٢]:

فمـا النـاسُ بالنَّـاسِ الذيـن عَهدتَهُـم ولا الـدَّار بالـدَّار التـي كنتَ تَعـرِفُ[٣]

وإنما احتجنا إلى هذا التأويل؛ لأنَّ الإنسانَ هو المعاقبُ المعذَّب على المخالفةِ، والمثابُ[٤] المنعَّمُ على الموافقة، والإنسانُ هو هذا[٥] الذي يُشاهد[٦]، فلا يَقعُ العذابُ على جلدٍ لم يُعصَ اللهُ فيه.

وما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه موقوفاً ومرفوعاً: أنَّ جلدَ الكافرِ أربعون ذراعاً، وضرسَه مثلُ أحد[٧]، وشفته العليا تضرب سُرَّته[٨]، وبين جلدِه ولحمِه

---

(١) هو في رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، كما ذكر الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (١١/ ٣٧٦)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٨/ ٥٧٧) للبيهقي في «البعث»، ولم أقف عليه في مطبوعه.

(٢) بعدها في (أ): «شعر».

(٣) نسبه الجرجاني في «الوساطة بين المتنبي وخصومه» (ص: ١٩٩)، والعسكري في «ديوان المعاني» (١/ ٧٨)، وابن حمدون في «التذكرة الحمدونية» (٩/ ٢٩٦)، والقزويني في «الإيضاح» (ص: ٤١٤) للفرزدق، وذكروا أن الفرزدق أخذه من قول العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه: وما الناس... تعلم (فاختلفت قافيته).

وهو دون نسبة في «مجالس ثعلب» (ص: ٤٩)، و«تفسير الثعلبي» (٣/ ٣٣١).

(٤) في (ف) و(أ): «على المخالفة والمثاب».

(٥) لفظ: «هذا» ليس في (ف).

(٦) في (أ): «نشاهد».

(٧) رواه الترمذي في «سننه» (٢٥٧٧) مرفوعاً، وفيه أن غلظ جلده اثنان وأربعون ذراعاً.

(٨) روى الترمذي في «سننه» (٢٥٨٧) من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٤] قال: «تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه وتسترخي شفته السفلى حتى تضرب سرته».

ديدان كحُمر الوحش تركضُ بين لحمِه وجلدِه، وحيَّاتٌ كأعناقِ البُخْتِ، وعقاربُ كالبِغال[١]، فليس ذلك بزيادة تُخلَق وتُعذَّبُ مِن غيرِ معصيتِه[٢]، لكن إذا زيدَ ذلك في صورتِه، كان ذلك زيادةَ ثقلٍ على العبد، ويكونُ نفسُ الثِّقل عقوبةً عليه، كسائرِ عقوبات جهنَّم مِن السَّلاسلِ والأغلال، والعقارب والحيَّات.

وقيل: معنى قوله: ﴿بَدَّلْنَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾؛ أي: سرابيلَ مِن قطِران، سُمِّيَت جلوداً؛ للزومِها جلودَهم، على المجاورة، فكلَّما احترقَت، أُعيدَت أمثالَها.

وقال الحسن: أُعيدَت جلودُهم على[٣] حالها الأول كل يوم سبعين مرة[٤]، وفي روايةٍ سبعين ألف مرةٍ[٥]، وعن النبيِّ ﷺ[٦]: كلَّ يومٍ سبعَ مرَّاتٍ[٧].

وقوله تعالى: ﴿لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ أي: ليَخلُصَ ألمُه[٨] إليهم على نهاية ما يكونُ فيه، كما قال تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]، ولم يُرِد به أقلَّ ما يَقعُ به الذَّوقُ، إنَّما أُريدَ به التَّناهي، وذكر الذَّوقَ؛ لأنَّ إحساسَهم

---

(١) روى أحمد في «مسنده» (١٧٧١٢)، وابن حبان في «صحيحه» (٧٤٧١) من حديث عبد الله بن الحارث بن جزء قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في النار حيات كأمثال أعناق البُخت، تلسع إحداهن اللسعةَ فيجد حَموتها أربعين خريفاً، وإنَّ في النار عقارب كأمثال البغال الموكَفة، تلسعُ إحداهنَّ اللَّسعة، فيجد حموتها أربعين سنة».

(٢) في (ر): «معصية».

(٣) في (أ): «إلى».

(٤) ذكرها الزمخشري في «الكشاف» (١/ ٥٢٢).

(٥) رواها الطبري (٧/ ١٦٤)، وابن المنذر (١٩١٤)، وابن أبي حاتم (٣/ ٩٨٣) (٥٤٩٦).

(٦) بعدها في (ر): «في».

(٧) قال الحافظ ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص: ٤٥): لم أجده.

(٨) في (أ): «ألماً».

بـه فـي كلِّ حـالٍ كإحسـاسِ الذَّائقِ فـي تجديد الوجـدانِ مِن غيـر نقصان.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا﴾[1] أي: لا يُمنَعُ[2] عمَّا يوقِعُه بالكفَّارِ مِن العذاب، ﴿حَكِيمًا﴾ فيما يفعلُه بالعباد.

وقيل: ﴿عَزِيزًا﴾ منتقماً ممَّن عصاه، ﴿حَكِيمًا﴾ في تعذيبِ مَن عاداهُ.

وقيل: ﴿عَزِيزًا﴾ لا يُغَالبُ، ﴿حَكِيمًا﴾ لا يُسَوِّي بين الوليِّ والعدوِّ.

* * *

(٥٧) ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾ بيَّنَ جزاءَ الأولياء بعد جزاءِ الأعداء، وقد مرَّ تفسيرُ هذه الكلمات مرَّاتٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ قال الكلبيُّ: أي: كنًّا كنيناً.

وقال الضَّحَّاك: أي: ظلًّا دائماً.

وقال الحسن: أي: لا تؤذيهِ الحَرورُ فيه[3] ولا السَّموم، والحَرورُ باللَّيلِ، والسَّمومُ بالنَّهار.

وقال ابنُ كيسان: ظليلاً من الرِّياح، وكم[4] ظِلٍّ لا يكونُ ظليلاً.

---

(١) بعدها في (ر) و(ف): «حكيماً».

(٢) في (ر): «يمتنع».

(٣) لفظ: «فيه» من (أ).

(٤) بعدها في (ر): «من».

وقيل: هو كقوله: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠]، وهو بخلافِ ظلِّ أهل النَّار، قال تعالى: ﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ (٣٠) لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾ [المرسلات: ٣٠ ـ ٣١]، وهو يَرجعُ إلى قوله: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٣].

وقال البحَّاث[1]: ﴿ظَلِيلًا﴾ تأكيدٌ لظلّ[2]، كما يقال: شعرٌ شاعرٌ، وموتٌ مائتٌ.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ﴿ظِلًّا ظَلِيلًا﴾: مُظِلًّا عن جميعِ المؤذيات، مِن حرِّ الشمس، وأذى الظُّلمةِ، وبردِ الزَّمان، ونحوِها[3].

وقال الإمامُ القشيريُّ رحمه الله: همُ اليومَ في ظلِّ الرِّعايةِ، وغداً في ظلِّ الكفاية، بل هم في الدُّنيا والآخرة في ظلِّ العناية[4].

* * *

(٥٨) ـ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن

---

(١) في (ر): «الحارث البحاث»، وفي (ف): «الحارث». وهو ـ والله أعلم ـ أبو جعفر محمد بن الحسن بن سليمان الزوزني الحاكم البحاث، أحد الفقهاء المبرزين، الأعيان المتفننين، تقلد القضاء في كور كثيرة بخراسان وبما وراء النهر، ذُكر أن تصنيفاته في التفسير، والحديث، والفقه، وأنواع الأدب، تربي على المئة، توفي سنة ٣٧٠هـ). انظر: «طبقات الفقهاء الشافعية» لابن الصلاح (١/ ١٣١)، و«طبقات الشافعية الكبرى» (٣/ ١٤٣ ـ ١٤٥)، و«طبقات المفسرين» للداودي (٢/ ١٢٧ ـ ١٢٩).

(٢) في (أ): «للظل» وفي (ف): «ظليلًا تأكيداً لظل» بدل من «البحاث ظليلاً تأكيد لظل».

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٣/ ٢٢٠).

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٣٤٠).

﴿تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ﴾ وانتظامُها بما قبلها: أنَّ اليهودَ خانوا الأمانةَ التي كانت عندَهم مِن نعتِ[١] الرَّسول ﷺ، وحكموا بالجورِ، حيث جعلوا المشركين أهدى سبيلاً مِن المؤمنين، فأمرَ اللهُ المؤمنين بخلافِ ذلك، وهو أداءُ الأماناتِ إلى أهلِها، والحكمِ بالعدلِ.

وهو عامٌّ في حقوقِ الله تعالى مِن العبادات، وحقوق[٢] النَّاسِ مِن المعاملات، وفي حقِّ النبيِّ ﷺ في تبليغِ الوحي، وفي حقِّ الصَّحابةِ والتَّابعين[٣] وعلماءِ الدِّين وعامَّة المسلمين في تبليغِ ما عندَهم مِن العلم والدِّين إلى سائرِ المؤمنين، وكذلك العدل في الحكم، قال النبيُّ ﷺ: «كلُّكم راعٍ، وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيَّتِه»[٤]، وقال ابنُ مسعود رضي الله عنه: الأمانةُ في كلِّ شيءٍ؛ في الوضوء، والصَّلاة، والصَّوم، والزَّكاةِ، والجنابة، وفي الكيلِ والوزن[٥]، وأعظمُ مِن ذلك الودائع[٦].

وقيل: قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ في الأمناء، **وقوله تعالى:** ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ﴾ في الأمراء.

وقيل: كلُّه في الأمراء، وهي أمانةُ الفيءِ والخَراجِ والصَّدَقات وأموالِ بيت المال.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾؛ أي: نِعمَ الوعظُ مِن الله تعالى هذان الأمران، و﴿نِعِمَّا﴾ مرَّ تفسيرُه في سورة البقرة بوجوهِه ومعانيه[٧].

---

(١) في (ر) و(ف): «بعث».

(٢) في (ر): «وفي حقوق».

(٣) «والتابعين» زيادة من (أ).

(٤) أخرجه البخاري (٨٩٣)، ومسلم (١٨٢٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٥) في (أ): «والموزون».

(٦) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٢٠١).

(٧) عند تفسير الآية (٢٧١) منها.

وقولـه تعالـى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا﴾[١]؛ أي: لمـا تقولـه القضـاة[٢] ﴿بَصِيرًا﴾ بمـا يعملُـه[٣] الأمنـاء.

وقال محمَّد بنُ إسحاق رحمه الله: لـمَّا افتتح النبيُّ ﷺ مكَّة، طلبَ المفتاحَ مِن عثمان بن طلحة بن عبد الله القُرشيِّ مِن بني عبد الدَّار، وكان يلي البيتَ، فقال: «هاكَ بأمانةِ الله تعالى»، فقال العبَّاس[٤]: يا رسولَ الله، اجمَعهُ لي مع السِّقاية، فنزلَت هذه الآيةُ[٥]، ثمَّ إنَّ عثمانَ بن طلحةَ هاجرَ ودفع إلى أخيه شيبة فهو في ولده إلى اليوم.

وقال سعيدُ بنُ المسيَّب: طلب رسولُ الله ﷺ المفتاحَ يوم دخلَ مكَّة، فقيل له[٦]: إنَّه مع عثمان، فوجَّه إليه عليًّا، فأبى دفعَه إليه، وقال: لو علمتُ أنه رسول الله لدفعتُ المفتاح إليه، فأخذَ عليٌّ المفتاحَ منه قسراً، حتَّى دخلَ رسولُ الله ﷺ البيتَ، وصلَّى فيه، فأنزل الله تعالى هذه الآية، فأمرَ رسولُ الله ﷺ عليًّا بردِّه إليه، فردَّهُ إليه وألطف له[٧]، فقال لعلي رضي الله عنه: أخذتهُ منِّي قهراً ورددتَهُ عليَّ باللُّطف، فقال: إنَّ اللهَ أمرنا بردِّه عليك، وقرأ هذه الآية، فأتى النبيَّ ﷺ، وأسلمَ[٨].

---

(١) بعدها في (ر) و(ف): «بصيراً».

(٢) في (ف): «الخونة» بدل: «القضاة».

(٣) في (ر): «تغله».

(٤) في سيرة ابن هشام (٢/ ٤١٢) أن القائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٥) «سيرة ابن هشام» (٢/ ٤١١ ـ ٤١٢).

(٦) لفظ: «له» ليس في (أ).

(٧) في (ر) و(ف): «وألطفه».

(٨) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٣/ ٣٣٢ ـ ٣٣٣) دون نسبته لابن المسيب. قال الحافظ ابن حجر في «العجاب» (٢/ ٨٩٣): كذا أورده الثعلبي بغير سند جازماً به، وتلقاه عنه غير واحد منهم الواحدي [في «أسباب النزول» ص١٥٠ ـ ١٥١)]، وفيه زيادات منكرة، منها: أن المحفوظ أن إسلام =

(٥٩) ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾ ولـمَّا أمرَ ولاةَ الأمورِ أنْ يَحكموا بين النَّاسِ بالعدل، وكان رأسُ الولاةِ رسولَ الله ﷺ، أمرَ عبادَهُ بطاعتِه أوَّلاً، ثمَّ بطاعةِ رسولِه فيما يَأمرُ به عن ربِّه؛ فإنَّه لا يَنطِقُ عن الهوى، إنْ هو إلَّا وحيٌ يُوحَى، وطاعتُه طاعةُ الله، ثمَّ بطاعةِ أولي الأمرِ، وهم الذين يقومون في الخلقِ بأمرِ الله تعالى وأمرِ رسولِه، مِن الأُمراءِ والعلماء[١]، على ما اختُلِفَ فيه على ما نُبيِّنُ؛ لأنَّهم يَأمرون بذلك[٢] بأمرِ الله وأمر رسوله.

وقال أبو هريرة والكلبيُّ ومقاتلٌ رضي الله عنهم أجمعين: أولي الأمر: أمراءُ السَّرايا[٣].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: بعثَ النبيُّ ﷺ خالدَ بن الوليدِ في سَريَّةٍ إلى حيٍّ مِن أحياء العرب، وكان معه عمارُ بن ياسر، فسار خالدٌ، حتَّى إذا دنا من القومِ، ونزلَ ليُصبِّحَهم، فأتاهم النَّذيرُ، فهربوا غيرَ رجلٍ كان قد أسلمَ، فأمرَ أهلَه أن يتهيَّؤوا[٤]

= عثمان بن طلحة كان قبل الفتح بمدة، قدم هو وعمرو بن العاص وخالد بن الوليد، فأسلموا جميعاً، بين الحديبية والفتح.

(١) في (أ): «أو العلماء».

(٢) في (ر) و(ف): «فذلك».

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٧/ ١٧٦) عن أبي هريرة، ونسبه الثعلبي في «تفسيره» (٣/ ٣٣٤) لميمون بن مهران ومقاتل والسدي والكلبي، وتحرف الأخير في مطبوعه إلى: «والشعبي» والتصويب من الطبعة المحققة في دار التفسير (١٠/ ٤٣٨)، وهو في «تفسير مقاتل» (١/ ٣٨٣).

(٤) في (ر) و(ف): «يتأهبوا».

للمسير، ثمَّ انطلقَ حتَّى[١] أتى عسكرَ خالد بن الوليد، فدخلَ على عمَّار، فقال: يا أبا اليقظان، إنِّي مسلمٌ، وإنَّ قومي لـمَّا سَمعوا بكم هَربوا، وأقمتُ لإسلامي، أفنافعي ذلك، أو أهربُ كما هرب قومي؟ فقال: أقم، فإن ذلك نافعُك، وانصرفَ الرَّجلُ إلى أهلِه، وأمرَهم بالمقام.

فأصبحَ خالدٌ، فأغارَ على القومِ، فلم يجِد إلَّا ذلك الرَّجلَ، فأخذَهُ وأخذَ مالَهُ، فأتاهُ عمَّار، فقال: خلِّ سبيلَ الرَّجلِ؛ إنه مسلمٌ، وقد كنتُ أمَّنتُه، وأمرتُه بالمقام، فقال خالد: وفيم أنت تجيرُ عليَّ، وأنا الأمير؟! فقال: نعم، وأنا أجير عليك، وأنت الأمير[٢]، وكان في ذلك بينهما كلامٌ، فانصرفوا إلى النبيِّ ﷺ، فأخبروهُ خبرَ الرَّجل، فأمَّنهُ النَّبيُّ ﷺ، وأجازَ أمان[٣] عمَّار، ونهاهُ[٤] أنْ يُجيرَ على أميرٍ[٥] بغير إذنهِ.

فاستبَّ عمَّار وخالدٌ بين يدي النبيِّ ﷺ، فأغلظَ عمارٌ لخالدٍ، فغضبَ خالدٌ، وقال: يا رسولَ الله، أتدع هذا العبدَ يشتمني، فوالله لولا أنت ما شتَمني عمَّار، وكان عمَّارٌ مولًى لهاشم بن المغيرة، فقال رسولُ الله ﷺ: «يا خالد، كفَّ عن عمَّار؛ فإنَّه مَن يَسبُّ عمَّاراً يسبُّه الله، ومَن يُبغِض عمَّاراً يبغضهُ الله»، فقام عمَّار، وتبعَهُ خالدٌ، فأخذَ بثوبِه، وسألَه أن يَرضى عنه، فرضيَ عنه، فأنزل الله تعالى هذه الآيةَ[٦].

---

(١) بعدها في (أ): «إذا».

(٢) قوله: «وأنت الأمير» ليس من (أ).

(٣) في (ر): «وأجاز ما أجاز»، وفي (ف): «وأجار ما أجار» بدل: «وأجاز أمان».

(٤) بعدها في (أ): «عن».

(٥) في (ر) و(ف): «أميره».

(٦) علقه الثعلبي في «تفسيره» (١٠/ ٤٣٩ ـ ٤٤٠) (طبعة دار التفسير) عن زاذان عن ابن عباس رضي الله عنهما. ورواه الطبري في «تفسيره» (٧/ ١٧٨ ـ ١٧٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٩٨٨، ٩٨٩ ـ ٩٩٠) (٥٥٣١)، (٥٥٤٠) من قول السدي. ورواه ابن مردويه ـ كما في «تفسير ابن كثير» ـ، وابن =

وروى أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «من أطاعَني فقد أطاعَ الله، ومَن عصاني فقد عَصى الله، ومَن أطاعَ أميري فقد أطاعَني، ومَن عصى أميري فقد عصاني»[(١)].

وقال ابنُ عباسٍ رضي الله عنه ـ في رواية ـ ومجاهدٌ وجابرُ بن عبد الله والحسنُ والضَّحَّاكُ والمباركُ بن فضالة رضي الله عنهم: أولي[(٢)] الأمر: أهلُ الفقه والدِّين[(٣)].

وقال أبو بكر الورَّاق: هم الخلفاء الراشدون؛ أبو بكرٍ وعمرُ وعثمانُ وعليٌّ رضوان الله عليهم.

وقال بكرُ بنُ عبد الله المزنيّ: هم أصحابُ رسولِ الله ﷺ[(٤)]؛ لقوله: «أصحابي كالنُّجوم، بأيِّهم[(٥)] اقتديتُم اهتديتم»[(٦)].

= عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٣/ ٤٠٠) من طريق السدي عن أبي صالح عن ابن عباس.

(١) رواه البخاري (٧١٣٧)، ومسلم (١٨٣٥).

(٢) في (أ): «أولو».

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٧/ ١٨٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٩٨٩) (٥٥٣٤) عن ابن عباس. وانظر: «تفسير الثعلبي» (٣/ ٣٣٤).
ورواه الطبري (٧/ ١٧٩ ـ ١٨٠) وابن أبي حاتم (٣/ ٩٨٩) (٥٥٣٥) عن مجاهد.
ورواه الطبري ٠٧/ ١٧٩) عن جابر بن عبد الله.
ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٦٠٨) عن معمر عن الحسن، ومن طريق عبد الرزاق رواه الطبري (٧/ ١٨١).
ورواه ابن أبي حاتم (٣/ ٩٨٩) (٥٥٣٦) من طريق المبارك بن فضالة عن الحسن.

(٤) قول أبي بكر الوراق وبكر بن عبد الله في «تفسير الثعلبي» (٣/ ٣٣٣ ـ ٣٣٤).

(٥) في (ف): «فبأيهم».

(٦) ذكر الحافظ ابن حجر طرقه في «الكافي الشاف» (ص: ٩٤ ـ ٩٥)، وفي «تلخيص الحبير» (٤/ ٣٥١)، وبين عللها وما فيها، ثم نقل في الأخير عن أبي بكر البزار قوله: هذا الكلام لم =

وقال عطاء: هم الولاةُ مِن المهاجرين والأنصار والتَّابعين لهم بإحسان؛ وهذا لأنَّ طاعةَ الله جلَّ جلالُه إنَّما تَصِحُّ ببيانِ الرسولِ عليه الصلاة والسلام، وبيانُ الرَّسول ثبتَ بنقلِ[١] الوسائطِ، وهم الصَّحابةُ والخلفاءُ ومِن بعدِهم[٢] العلماء، فكانت طاعتُهم طاعة الله[٣].

وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ قال مقاتلٌ رحمه الله: أي: إن اختلفتُم أنتم والأمراءُ في شيءٍ مِن الحلال والحرام[٤]. ومعنى[٥] قوله تعالى: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: القرآن، وقوله: ﴿وَٱلرَّسُولِ﴾؛ أي: ارجعوا إليه في حياتِه، وإلى أحاديثه بعد وفاتِه.

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾؛ أي: إنَّ الإيمانَ يُوجِبُ الطَّاعةَ دون العصيان، ودلَّتِ الآيةُ أنَّ طاعةَ الأمراءِ واجبةٌ إذا وافقوا الحقَّ، فإذا خالفوه فلا طاعةَ لهم، قال النبيُّ ﷺ: «لا طاعةَ لمخلوقٍ في معصيةِ الخالق»[٦].

وحكيَ أنَّ مسلمةَ بنَ عبدِ الملك بن مروان قال لأبي حازم: ألستُم أُمِرتُم بطاعَتِنا

= يصح عن النبي ﷺ. وعن ابن حزم قوله: هذا خبر مكذوب موضوع باطل.

(١) في (ر): «بتنفيذ».

(٢) بعدها في (أ): «من».

(٣) في (أ): «لله».

(٤) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٣٨٣).

(٥) لفظ: «ومعنى» ليس من (أ).

(٦) رواه بهذا اللفظ الطبراني في «المعجم الكبير» (١٨/ ١٧٠) (٣٨١) من حديث عمران بن حصين، ورواه بنحوه البخاري في «صحيحه» (٤٣٤٠)، ومسلم في «صحيحه» (١٨٤٠) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

بقوله تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾؟ فقال أبو حازم: أليس قد نُزِعت عنكم إذا خالفتم الحقَّ بقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[١].

ودلَّتِ الآيةُ على[٢] أنَّ إجماعَ الأمَّةِ حجَّةٌ لا يَجوزُ خلافُها؛ لأنَّه إنَّما أمرَ بالاجتهادِ عند التَّنازع، فإذا أجمعوا فلا وجهَ لخلافه.

وتعلَّقَ أصحابُ الظَّواهر بظاهرِ هذه الآية أنَّ[٣] الاجتهادَ والقياس لا يجوزُ؛ لأن اللهَ عزَّ وعلا أمرَ بالرُّجوع إلى الكتابِ والسُّنَّة، فلا يجوزُ غيرُ ذلك.

وقلنا: بل هو دليلُ جواز القياس؛ فإنَّ الرَّدَّ إلى الله والرَّسول هو العملُ بمعنى[٤] القرآن والسُّنَّة، فإنَّه أوجبَ في كلِّ متَنازَعٍ[٥] ردَّه[٦] إلى الكتاب والسُّنَّةِ، ولا يوجدُ في كلِّ حادثةٍ نصٌّ ظاهرٌ، فعُلِمَ أنَّه أمرٌ بالنَّظرِ في مودعاتِه، والعملِ على مدلولاتِه ومقتضياته.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ قال الكلبيُّ: أي: خيرٌ مِن الاختلافِ، وأحسنُ عاقبة، قال الله تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥ﴾ [الأعراف: ٥٣]؛ أي: عاقبتَهُ، وقد آلَ إليه الأمرُ يَؤُول أَوْلاً؛ أي: عاد، وأوَّله؛ أي: غيَّره تأويلاً حسناً.

وقيل: أحسنُ جزاءً، وهو مِن ذلك أيضاً؛ لأنَّه عاقبةُ العملِ، ومآلُ الأمرِ.

---

(١) انظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (٢/ ٧٢).

(٢) لفظ: «على» من (أ).

(٣) في (ر) و(ف): «لأن».

(٤) في (أ): «بمعاني».

(٥) في (ف): «منازع».

(٦) في (ر): «فيه أن يرد» بدل: «رده».

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾[١]؛ أي: لا تتعجَّب[٢] مِن المنافقين الذين يَزعُمون أنَّهم آمنوا[٣] بالقرآن وبالكتبِ الـمُنزلةِ قبله.

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾؛ أي: إذا وَقعَت لهم خصومةٌ تحاكموا إلى الطَّاغوت، كاليَهود الذين ذُكروا قبل هذه الآيات؛ ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٥١].

قال الزَّجَّاج: الطَّاغوت: الشيطان هاهنا[٤]، بدليل أنَّه قال في آخره: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًا﴾[٥].

ورويَ عن مجاهدٍ والضَّحَّاك: الطَّاغوت هاهنا كعب بن الأشرف، فإنَّ يهوديًّا نازعَ منافقاً في أمرٍ، فدعا اليهوديُّ إلى النبيِّ ﷺ، ودعا المنافقُ إلى كعب بن الأشرف[٦] وهذا كان أعجبَ عجبٍ؛ إذ صار المنافقُ يَدعو إلى حاكم اليهود، واليهوديُّ يَدعو إلى حاكم المسلمين.

وقال الكلبيُّ: هذا رجلٌ مِن المنافقين، يقال له بشر، كان بينه وبين رجلٍ مِن اليهود خصومةٌ، فقال اليهوديُّ: انطلق بنا إلى محمَّدٍ ﷺ، وقال المنافقُ لعنه الله: بل نأتي كعبَ بن الأشرف ـ وهو الطاغوت ـ، فأبى اليهوديُّ أنْ يُخاصَمَهُ إلَّا إلى

---

(١) بعدها في (ف): «يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت».

(٢) في (ف): «تعجب».

(٣) بعدها في (ر): «بما أنزل إليك».

(٤) فسر الزجاج الطاغوت في هذه الآية في «معاني القرآن» له: (٢/ ٦٨) بالكاهن والشيطان.

(٥) لفظ: «ضلالًا» من (أ).

(٦) رواه الطبري في «تفسيره» (٧/ ١٩٣ ـ ١٩٥).

رسول الله ﷺ، فلمّا رأى المنافقُ ذلك، أتى معه رسولَ الله ﷺ، واختصما، فقضى رسولُ الله ﷺ لليهوديِّ، فلمَّا خرجا من عندهِ لزمَهُ المنافقُ، فقال: انطلق بنا إلى عمرَ ـ رضي الله عنه ـ، فقال اليهوديُّ: اختصمنا إلى محمَّد، فقضى لي عليه، فلم يرض بقضائه! فقال عمر رضي الله عنه للمنافق: أكذلك؟ قال: نعم، فقال لهما: رويدَكما حتَّى أخرجَ إليكما، فدخل البيتَ، ثمَّ خرجَ ومعه السيف، فضرب به المنافقَ، فقتلَهُ، وهرب اليهوديُّ، فنزلت الآية[1].

وقال عطاء: الطاغوتُ: هو حيي بن أخطب[2].

وقال الحسن: هو وثنٌ كانوا يَتحاكمون إليه وعندهُ رجلٌ يقول للخصمين: قضى بينكما بكذا.

وقال السُّدِّيُّ رحمه الله: نزلت في أناسٍ مِن بني قريظةَ والنَّضير، كانوا قد آمنوا، ونافقَ بعضُهم، فكانت النضير، وهم [حلفاء] الأوس، أشرفَ مِن بني قريظة، وهم [حلفاء][3] الخزرج في الجاهلية، فكان الرَّجلُ مِن بني قريظةَ إذا قَتلَ رجلاً مِن بني النَّضير، قُتِل وأُخِذَ منهم الدِّيةُ مئةَ وَسَقٍ من تمر، وإذا قَتَلَ الرَّجلُ من بني النضيرِ رجلاً من بني قريظة، لم يُقتَل به، وأُخِذَ الدِّيةُ ستين وسقاً مِن تمر.

فلمَّا جاءَ اللهُ بالإسلام، قَتلَ رجلٌ مِن بني النَّضيرِ رجلاً من بني قريظةَ في الإسلام[4]،

---

(١) أورده الثعلبي في «تفسيره» (٣/ ٣٣٧)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ١٥٥) عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، والكلبي متروك، وأبو صالح ضعيف يرسل، كما سلف غير مرة.

(٢) انظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٦/ ٥٥٠).

(٣) ما بين حاصرتين من «تفسير الثعلبي» (٣/ ٣٣٨)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص: ١٥٥).

(٤) «في الإسلام» ليس في (ف).

فاختَصموا إلى النبيِّ ﷺ، فقالت بنو النَّضير: قد كنَّا وأنتم[١] في الجاهليَّة اصطلحنا على أنْ نقتلَ منكم ولا تقتلوا منا، وعلى أنَّ دِيَتكُم ستُّون وَسْقاً[٢] ـ والوَسْق: ستُّون صاعاً ـ وديتَنا مئةَ وسْقٍ، نحن نعطيكُم ذلك، فقالت بنو قريظة[٣]: هذا شيءٌ كنتم فعلتموهُ في الجاهليَّةِ؛ لأنَّكم[٤] كثرتم وقللنا، فقهرتُمونا، فصنعتُم ذلك، ونحن وأنتمُ اليوم[٥] إخوةٌ، ليس لكم علينا فضلٌ، وقد جاء اللهُ تعالى بالإسلام، فنحن وأنتم سواءٌ، وقالت الخزرج[٦]: نحن على ما كنَّا عليه. وقالوا: حتى[٧] يجيء أبو بردة الكاهن، فيحكمَ بيننا، فأنزل الله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ الآية [المائدة: ٤٥]، وأنزل: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ الآية [المائدة: ٥٠].

فأقبل أبو بردة إلى المدينة ـ واسمه هلال بن عويمر ـ وتفاخرَتْ قريظةُ وبنو النَّضير، أيُّهم أفضل؟ فقال المنافقون مِن[٨] الفريقين: نحاكمكم إلى أبي بردة، وقال المؤمنون: بل نحاكمُ[٩] إلى رسولِ الله ﷺ.

فانطلقوا إلى أبي بردة، فقالوا: احكم بيننا، فقال: عظِّموا[١٠] اللُّقمةَ

---

(١) لفظ: «وأنتم» من (أ).

(٢) بعدها في (ر): «من تمرٍ».

(٣) القائل هنا في «تفسير الثعلبي» و«أسباب النزول»: الخزرج.

(٤) بعدها في (ر): «كنتم».

(٥) في (أ): «ونحن وأنتم»، وفي (ر) و(ف): «وأنتم اليوم»، والمثبت من «تفسير الثعلبي».

(٦) القائل هنا في «تفسير الثعلبي»: بنو النضير. وهو الأصح.

(٧) «حتى» زيادة من (أ).

(٨) في (ف): «في».

(٩) في (ر): «نحاكمكم»، وفي (ف): «تحاكموا».

(١٠) في (ر) و(ف): «أطعموا».

ـ يعني[1] العطيَّةَ ـ فإنِّي أخاف إنْ نَفَّرْتُ[2] بني قريظة أن يَقتُلني بنو النَّضير، وإنْ نَفَّرْتُ بني النضير أن يقتلني بنو قريظة؛ فإنِّي في دارهم، فأعطوهُ عشرةَ أوسقٍ من تمرٍ فأبى، وسألهم مئةَ وَسْقٍ، فأبوا عليه، فلم يَحكُم بينهم، فأنزل الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا﴾ الآية [النساء: ٦٠]، فدعا النبيُّ ﷺ كاهنَ بني أسلم[3] أبا بردةَ إلى الإسلام، فأبى وانصرفَ، فقال رسولُ الله ﷺ لابْنَيْه: «أدرِكا أباكما فرُدَّاه، فإنَّه إن جاز عقبة كذا؛ لم يسلم أبداً»، فأدركاهُ، فلم يزالا به حتَّى انصرف وأسلم، وأمرَ النبيُّ ﷺ منادياً: «ألَا إنَّ كاهن أسلمَ[4] قد أسلم»[5].

فالطَّاغوتُ هاهنا هو الكاهن.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ أُمِرُوٓا أَن يَكْفُرُوا بِهِۦ﴾؛ أي: يَتبَرَّؤوا مِن الطَّاغوت، قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِاللَّهِ﴾[6] [البقرة: ٢٥٦].

وقوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ﴾[7]؛ أي: يدعوهم إلى الضَّلال، ويسبِّبَ لهم الضَّلالَ بالوَسوسة.

---

(١) في (أ): «أي».

(٢) في (ر): «نصرت» في هذا الموضع والذي يليه، وهو تحريف، وكذا تحرفت في مطبوع «تفسير الثعلبي» (٣/ ٣٣٨)، وهي على الصواب في طبعة (دار التفسير) (١٠/ ٤٥٥). قال الجوهري في «الصحاح» (مادة: نفر): نَفَّره عليه تنفيراً؛ أي: قضى له عليه بالغلبة، وكذلك: أنفره.

(٣) في (أ): «إسرائيل».

(٤) في (ر) و(ف): «بني سليم» بدل: «أسلم».

(٥) أورده الثعلبي في «تفسيره» (٣/ ٣٣٧ـ٣٣٨)، وروى نحوه الطبري في «تفسيره» (٧/ ١٩٢ـ١٩٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٩٩١ـ٩٩٢) (٥٥٤٩).

(٦) قوله: «قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِاللَّهِ﴾» وقع في (ف) بعد قوله السالف: «فالطاغوت هاهنا هو الكاهن».

(٧) بعدها في (ف): «ضلالًا بعيداً».

وقوله تعالى: ﴿ضَلَٰلًا بَعِيدًا﴾؛ أي[1]: على وجهٍ لا يَعودون إلى الهُدى أبداً.

* * *

(٦١) ـ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾؛ أي: وإذا دُعيَ هؤلاء المنافقون إلى حكمِ الله تعالى وحكمِ رسوله عليه الصَّلاة والسَّلام، رأيتَهم يُعرِضون عنك إلى غيرك؛ ليُغروهُ بالرِّشوةِ، فيقضي لهم.

* * *

(٦٢) ـ ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾؛ أي: فكيف يصنعُ هؤلاء المنافقون إذا نالتهم عقوبةٌ، وكانوا متوعدين[2] بالعقوبات، من نحو قولِه تعالى: ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ۝٦٠ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا﴾[3] [الأحزاب: ٦٠ ـ ٦١]، ﴿يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ [التوبة: ١٢٦]، ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾[4] الآية [التوبة: ١٠١].

---

(١) قوله: «وقوله تعالى: ﴿ضَلَٰلًا بَعِيدًا﴾ أي» ليس في (ف).

(٢) في (ر) و(ف): «موعدين».

(٣) بعدها في (ر) «وقوله تعالى».

(٤) قوله: «﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾»: من (أ).

وقوله تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾؛ أي: بما أسلفوا من الجنايات.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾ يقول: إنَّهم تحاكموا إلى الطاغوت ردًّا لحكم الإسلام، وأنفةً عن الانقياد للنبيِّ ﷺ، فكيف يفعلون إذا نالَتْهُم عقوبةٌ مِن الله تعالى بماضي جناياتِهم، ومصيبةٌ في أنفسهم أو أموالهم[1]؟ ثمَّ أتوك يا محمَّدُ خاضعين خاشعين، يتشفَّعون إليك في الكفِّ عنهم، والصَّفح عن جُرمهم، ويَدفعون ذلك عن أنفسِهم بالمعاذير الكاذبةِ، مؤكَّدةً بالأيمان الفاجرة، يقولون: ما أَرَدْنا بالتَّحاكم إلى غير النبيِّ ﷺ إلَّا الإحسانَ إلى خصومنا، وإدامةَ الائتلاف فيما بيننا، والتَّوفيقَ ـ مِن إثبات الوفاق في هذه الآية ـ، وآثرنا التخفيفَ[2] عن النبيِّ ﷺ، والتسهيلَ على الخصوم؛ بمرافعتِهم إلى مَن لا يُحتشم مِن رفعِ الصَّوتِ بين يديه، عسى أن يتوسَّط بيننا، ولا يَحمِلَنا على الحكم المرِّ؛ فيكون[3] ذلك تأليفاً بيننا، ودفعاً لوقوع الضَّغائن، وما أشبهَ هذا من الـمَلَق.

وإذا كان هذا مآلَ أمرهم[4]، فالتَّحاكمُ إليه ابتداءً والانقيادُ لحكمه أولى، مع ما فيه مِن وقوعِ ما يُخافُ وقوعُه مِن المصائب، وهي قِصَّة المنافق واليهوديِّ، فالمصيبةُ قتلُ عمر رضي الله عنه ذلك المنافق، وأضيف الاعتذارُ إلى جملة[5] المنافقين، والمراد: أولياء ذلك المنافق[6].

---

(١) في (ر) و(ف): «وأموالهم».

(٢) في (ر) و(ف): «بالتخفيف».

(٣) في (أ): «ليكون».

(٤) في (أ): «أحدهم».

(٥) في (ر): «جميع».

(٦) من قوله: «وأضيف الاعتذار» إلى هنا ليس في (ف).

وقال الحسنُ البصريُّ رحمه الله: فيه اعتراضُ كلامٍ، وتقديره: ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾، ﴿ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا﴾، ﴿فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾[(١)]؛ أي: كيف يفعلونَ في هذه الحالةِ؟ وإلى ماذا يلتجؤون؟ إلى الطَّاغوت، أم إلى الله ورسوله؟ وهو كقولِه: ﴿قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ [الأنعام: ٦٣]، ونحوها من الآيات[(٢)].

وقيل: هي قصَّةُ مسجدِ الضِّرار، وهذا الحَلِفُ عينُ ما ذُكر هناك: ﴿وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [التوبة: ١٠٧]؛ ومعنى قوله: ﴿إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا﴾[(٣)]؛ أي: ما أردنا ببناءِ هذا المسجد إلَّا خيراً وصواباً.

وقال الكلبيُّ في هذه الآية وفيما قبلها: إنَّ الزُّبيرَ بنَ العوَّام وحاطبَ بنَ أبي بَلتعةَ اختصما إلى رسولِ الله عليه الصَّلاة والسَّلام في أمرٍ كان بينهما، فقضى رسولُ الله ﷺ للزُّبير، فمرَّا على المقداد بن الأسود، فقال: لمن كان القضاء يا أبا بلتعة؟ فقال: قضى لابنِ عمَّتِه، ولوى شِدقَه، ففطنَ له يهوديٌّ كان مع المقداد، فقال: قاتلَ الله هؤلاء! يشهدونَ أنَّه رسولُ الله، ثمَّ يتَّهمونَهُ في قضاءٍ يَقضي به[(٤)] بينهم، وايمُ الله، لقد أذنبْنا ذنباً مرَّةً في حياة موسى عليه الصلاة والسَّلام، فدعانا موسى عليه السَّلام إلى التَّوبة، فقال: اقتلوا أنفسَكم، ففعلنا، فبلغَ قتلانا سبعين ألفاً في طاعةِ ربِّنا حتَّى رضيَ عنَّا، فقال ثابت بن قيس بن شماس: أما والله إنَّ اللهَ ليَعلمُ منِّي الصِّدقَ، لو أمرني أنْ أقتلَ نفسي لفعلت، فأنزل الله تعالى في شأن حاطب: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ

---

(١) انظر: قول الحسن في «تفسير ابن أبي زمنين» (١/ ٣٨٣).

(٢) في (أ): «الضرار».

(٣) قوله: «ومعنى قوله: إن أردنا إلا إحساناً» ليس في (ف).

(٤) «به» ليس في (ف).

﴿إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ الآيات [النساء: ٦١][١]، فأقبل حاطبٌ إلى النبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام يعتذرُ عليه ويحلف إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً.

وهذا زلَّةٌ من الكلبيِّ؛ لأنَّ حاطباً مِن أهل بدرٍ، وهو من المخلصين، وفي الآية نصٌّ على ذِكر المنافقين، وهو قوله تعالى: ﴿رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾، فالصَّحيح أنَّها في اليهوديِّ والمنافقِ على ما مرَّ[٢].

* * *

(٦٣) ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾؛ أي: من النِّفاق.

وقوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾؛ أي: تولَّى عن معاقبتهم إلى وقتِ الأمر بالقتال.

وقوله تعالى: ﴿وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾؛ أي: اقتصر على تخويفِهم سوءَ العاقبةِ للحال، وقل لهم فيما يَحِلُّ بهم مِن العذاب إن[٣] لم يَرجعوا قولاً[٤] يَبلغُ[٥] الإقناعَ، ورجلٌ بليغٌ: يَبلغ بكلامه كنهَ ما في قلبِه، والبلاغةُ: إيجازُ اللَّفظِ، وحسنُ التَّرتيب، وبلوغُ المرادِ، والقولُ البليغُ: ما يَبلغُ تمامَ المقصود.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٣/ ٣٣٩ ـ ٣٤٠) عن الصالحي.

(٢) من قوله: «فكيف إذا أصابتهم» أثناء قول الحسن البصري في تفسير الآية السالفة إلى هنا ليس في (ر)، ووقع مكانه فيها: «وسألوا الله مغفرةَ ما كان منهم من الشقاق»، وستأتي في موضعها.

(٣) في (ف): «إذا».

(٤) بعدها في (ف): «بليغاً».

(٥) في (أ) و(ر): «يبلغوا».

وقال الضَّحَّاك: ﴿وَعِظْهُمْ﴾ بلسانِك في الملأ، ﴿وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ في السرِّ والخلاء.

وقال الحسن: ﴿وَقُل لَّهُمْ﴾: إن أظهرتُم[1] نفاقَكم قَتلتُكم، فهذا هو القولُ البليغ.

وقيل: القولُ البليغُ: إفرادُ كلِّ واحدٍ بالتَّحذير[2]، والوعظُ على الجملة أنْ يقولَ: يا قوم، اتَّقوا اللهَ، ولا شكَّ أنَّ إفرادَ كلِّ واحدٍ به أبلغُ في الرَّدعِ.

فإن قيل: كيف يتَّفق: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ﴾، والوعظُ لا يتأتَّى مع الإعراض؟

قلنا: قد بيَّنَّا أنَّ هذا الإعراضَ عن المعاتبةِ دون المخاطبة.

وقيل: هو الإعراضُ بالمعاداة.

وقيل: هو الإعراضُ عن قَبول العُذر[3]، وقد رُوِيَ أنَّه لـمَّا وَعظَهُم وحذَّرهُم، أخلص كثيرٌ منهم، والأمرُ بالإعراضِ عن قَبول الأعذار[4]؛ كقوله تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾ [التوبة: ٩٤]، وكانوا يَميلون إلى موضعِ النَّفعِ، فإن كان الظَّفرُ للمؤمنين، جاؤوهم، وأظهروا وِفاقهم، وإذا[5] كانت الغَلبةُ للكفَّار وافقوهم وحققوا نفاقَهم، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ الآية [النساء: ١٤١].

---

(١) في (ر): «شهرتم».

(٢) في (ف): «بالتحدث».

(٣) في (أ): «الأعذار».

(٤) من قوله: «وقد روي أنَّه لما وعظهم» إلى هنا ليس في (أ).

(٥) في (ف): «وإن».

(٦٤) ـ ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ لـمَّا أمرَ النبيَّ ﷺ بوعظِهم وإبلاغِ القولِ فيهم؛ أمرَهم بطاعتِه فيما أَمَرَ، واتِّعاظِهم[١] بما وعظ، وأخبرَ أنَّ كلَّ رسولٍ أُرسِل كان على الأمَّةِ طاعتُه.

وتعلَّقتِ المعتزلةُ بظاهرِ هذه الآية، وادَّعوا أنَّ اللهَ تعالى أرادَ من عبادِه الطَّاعة؛ فإنَّه أرسلَ الرَّسول للطَّاعة[٢]، وهم عصَوا على خلاف إرادته.

والآيةُ حجَّةٌ عليهم؛ فإنَّه قال: ﴿لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾، أخبر أنَّه إنما يُطَاعُ بإذنه؛ أي: بمشيئته. وقيل: بعلمه، فإنَّما يُطيعُ مَن علمَ اللهُ أنَّه يُطيعُ، وشاءَ الله أن يطيع[٣].

وجوابٌ آخر: أنَّ المراد به لزومُ الطَّاعة؛ أي: ليَلزَمَهُم أنْ يُطيعوهُ، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]؛ أي: إلَّا ليلزمهم[٤] عبادتي؛ أي: توحيدي وطاعتي.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ أي: وَضعوها غير مَوضِعها بالتَّحاكمِ إلى الطَّاغوت.

قوله تعالى: ﴿جَآءُوكَ ﴾؛ أي: أتوكَ يا محمَّد، ﴿فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ ﴾؛ أي: رجعوا عن النِّفاقِ، وأخلصوا على الإطلاق، وسألوا اللهَ مغفرةَ ما كان منهم مِن الشِّقاق.

---

(١) في (ف): «وإيقاظهم».

(٢) في (ر): «لإطاعته».

(٣) قوله: «وشاء الله أن يطيع» ليس في (ف).

(٤) في (ف): «لالتزامهم».

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ أي: شفعَ لهم إلى ربِّهم.

وقوله تعالى: ﴿لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ يَتوبُ عليهم ويَرحمُهم، فلا يُعذِّبهم.

ولمَّا كان الوعدُ هذا للمنافق إذا أخلصَ؛ فكيف بالمؤمنِ المخلصِ(١) العاصِي إذا تابَ وأصلحَ؟

وفيه بيان أنَّ المنافقين إنَّما يأتيهم ما يأتيهم بإصرارِهم وسوء اختيارِهم.

* * *

(٦٥) - ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾ رفعَ قدرَ رسولِه عليه الصَّلاة والسَّلام بإضافة نفسِه إليه في القسَم، و«لا» ردٌّ لكلامِهم؛ أي: يَزعُمون أنَّهم مخلصون، ولا صدق في ذلك، وهذا الوجهُ أحسنُ مِن قولِ مَن يجعلُها زائدةً لا معنى لها، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ﴾ [القيامة: ١].

وقيل: ذُكِرَتْ «لا» في صدر الكلام؛ لأنَّ هذا القسمَ على أمرٍ منفيٍّ، ولمَّا بعدت عن الفعلِ؛ أُعيدَت في(٢) موضعها؛ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ﴾ [الحديد: ٢٩].

وقوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ﴾؛ أي: لا يكونون مؤمنين حتى يرضَوا بحكمِك.

---

(١) في (أ): «بالمخلص» وفي (ف): «بالمؤمن من المخلص و» بدل من «بالمؤمن المخلص».

(٢) في (ر) و(ف): «عن».

وقوله تعالى: ﴿فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: اختلف، وقد اشتجرَ القومُ وتَشاجروا؛ إذا اختلفوا في الأمر، وتداخلَ بعض كلامِهم في البعض، كتداخل أغصان[١] الشجرة بالتفافها.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: في قلوبِهم ﴿حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾؛ أي: ضيقاً.

وقال مجاهد: شكًّا[٢] في أنَّ القضاءَ حَقٌّ. وقيل: إثماً.

وقوله تعالى: ﴿وَيُسَلِّمُوا﴾؛ أي: يَنقادوا لقضائِكَ لهم[٣] وعليهم، ﴿تَسْلِيمًا﴾؛ أي: انقياداً، وذكَرَ المصدرَ للتَّأكيد؛ أي: يَنقادون حقَّ الانقيادِ، بلا كراهةٍ في الفؤاد.

وقال عروة بن الزبير: خاصم رجلٌ من الأنصارِ الزبيرَ في شراجٍ مِن الحَرَّةِ[٤]، يَسقي بها النَّخلَ، فقال رسول الله ﷺ: «اسقِ يا زُبير؛ ثمَّ أرسِل الماء إلى جارك»، فقال الأنصاريُّ: أن[٥] كان ابن عمتِه؟ ولوى شِدْقَهُ[٦]، فتلوَّن وجهُ النبيِّ ﷺ، فقال:

---

(١) لفظ: «أغصان» من (أ).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٧/ ٢٠١)، وابن أبي حاتم (٣/ ٩٩٥) (٥٥٦٢).

(٣) في (ف): «وهو لهم».

(٤) الشراج: جمع شَرْجة، وهو مسيل الماء من الحرة إلى السهل. والحرة أرض بظاهر المدينة بها حجارة سود كثيرة. «النهاية» (مادة: شرج، حرر).

(٥) في (أ): «أأن».

(٦) قوله: «ولوى شدقه» لم يرد في رواية «الصحيحين»، ووقعت هذه العبارة في رواية الكلبي، وسلفت قريباً عند تفسير قوله: ﴿ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾، وهي رواية منكرة، وإقحامها في هذه الرواية قبيح.

«يا زُبير؛ اسقِ أرضَك، واحبِس الماءَ حتَّى يَبلُغَ الجَدْرَ[١]»، فقال الزُّبير: والله إنَّ هذه الآية نزلَت في ذلك؛ ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الآية[٢].

وكان النبيُّ ﷺ أمرَهُ في الابتداءِ بالاقتصار على أدنى حقِّه[٣]، فلمَّا قال خَصمُه ما قال؛ أمرَهُ باستيفاء حقِّه.

وقال أبو روق: كان ليهوديٍّ على رجلٍ مسلمٍ مالٌ[٤]، فخاصمَهُ إلى رسول الله ﷺ، فقضى رسولُ الله ﷺ على المسلم، وفرض[٥] عليه أن يؤدِّي إلى اليهوديِّ يوم كذا وكذا من ماله، فخرجا من عندِه، فقال اليهوديُّ: أرضيتَ بما قضى به رسولُ الله ﷺ؟ قال: لا، قال: فبمن ترضى؟ قال: بأبي بكرٍ، فانطلقا إلى أبي بكرٍ فقصَّا عليه القصَّة، فأمرَهُ أبو بكرٍ أن: ارضَ بما أمرَ به رسول الله ﷺ، فخرجا، فلم يرضَ، فقال اليهوديُّ: فبمن ترضى؟ قال: بعمر، فانطلقا إلى عمر رضي الله عنه، فقصَّا عليه القصَّة من أمرِ رسول الله ﷺ وأبي بكرٍ، فقال عمر رضي الله عنه: أفترَضى بما أقضي أنا[٦]؟

---

(١) المراد بالجدر أصل الحائط. وقيل: أصول الشجر. قال النووي: والصحيح الأول، وقدره العلماء أن يرتفع الماء في الأرض كلها حتى يبتل كعب رجل الإنسان. «شرح صحيح مسلم» للنووي (١٥/١٠٨).

(٢) رواه البخاري في «صحيحه» (٢٣٥٩)، (٢٣٦٠)، ومسلم في «صحيحه» (٢٣٥٧).

(٣) وقع بعدها في (ر): «والشراح: مسيل الماء، والحرة: موضع الحصى، والجدر: الجدار، والجدر بالكسر والفتح» وفي (ف): «وشراج: مسيل الماء، والحرة: موضع الحصى».

(٤) بعدها في (ر): «قال».

(٥) في (أ): «فرضي» بدل: «وفرض».

(٦) في (ف): «لك» بدل: «أنا».

قال: نعم، قال: امكثا ساعةً حتَّى أخرج فدخل[١] البيتَ، ثمَّ خرج مشتملاً على السَّيفِ صلتاً، فضرب به المسلمَ حتَّى قتله، فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ فرضي؛ فلذلك سمِّي عمرُ الفاروقَ؛ لأنَّه فرَّق بين الحقِّ والباطل، ففيه أنزلت: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ﴾ الآية[٢].

***

(٦٦) ـ ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم﴾ قرأ ابنُ كثير ونافعٌ وابن عامرٍ[٣] والكسائيُّ بضمِّ النون من ﴿أَنِ﴾، وضمِّ الواو من ﴿أَوِ﴾؛ لأنَّ الألف في هذين الأمرين في الأصل مضمومةٌ، فنُقلت تلك الضمَّة إلى هذا عند الضَّرورة إلى التحريك؛ لالتقاء الساكنين، وقرأ عاصمٌ وحمزةُ بالكسر فيهما، وقرأ أبو عمرو بكسر الأوَّل وضمِّ الثاني[٤].

فأمَّا كسرُهما فلأنَّ[٥] السَّاكِن إذا حُرِّك حُرِّك بالكسر[٦]، وأمَّا كسرُ أبي عمرٍو

---

(١) في (ر) و(ف): «من» بدل: «فدخل».

(٢) سلف نحوها عن الكلبي عند تفسير قوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ السالف قريباً، ولم يذكر الذهاب إلى أبي بكر رضي الله عنه. وأخرج نحوه الحافظ دحيم، كما في «الدر المنثور» (٤/ ٥٢٤) عن عتبة بن ضمرة عن أبيه.

(٣) «وابن عامرٍ» ليس من (ف).

(٤) انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٢٣٤)، و«التيسير» للداني (ص: ٧٨).

(٥) في (ر) و(ف): «ولأنَّ» بدل: «فأما كسرهما فلأن».

(٦) في (أ): «إلى الكسر».

الأوَّل فلهذا، وأمَّا ضمُّه الثاني؛ فلاجتماع سببي الضمِّ؛ وهما الواو وضمُّ ألف الأمر، بخلاف: ﴿لَوِ ٱسْتَطَعْنَا﴾ [التوبة: ٤٢]؛ لأنَّه لم يجتمع سببان.

وقوله تعالى: ﴿مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾[١] قرأ ابن عامر: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾، وكذا هو في مصاحف أهل الشَّام[٢]، وقيل: هو قراءة أُبَيٍّ[٣].

ووجهه أنَّه استثناءٌ بعدَ تمام الكلام، ومعناه: لكن، والقراءةُ الظَّاهرةُ بالرَّفع بالفعل، وتقديره: ما فَعَلَه إلَّا قليلٌ منهم، وإنَّما جمع مع تقدُّم الفعل على الفاعل على لغةِ بعض العرب، وهو كقولِ قائلهم[٤]:

يَلُومونَني في اشتراءِ النَّخيـ ... ـلِ قَومي وكلُّهمُ أَلْوَمُ[٥]

وعلى هذا قول الله تعالى: ﴿عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ [المائدة: ٧١]، وقوله: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ [الأنبياء: ٣].

ومعنى الآية: ولو أنَّا فرضنا على هؤلاء المنافقين قتلَ أنفسِهم بطريقِ التَّوبةِ،

---

(١) في (ف): «قليلًا».

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٢٣٥)، و«التيسير» (ص: ٩٦).

(٣) نسبها الثعلبي في «تفسيره» (ص: ٣٤١) لأبيِّ بن كعب وعيسى بن عمر وابن أبي إسحاق وابن عامر.

(٤) بعدها في (ر): «شعر».

(٥) أنشده الفراء في «معاني القرآن» (١/ ٣١٦)، وابن جني في «سر صناعة الإعراب» (٢/ ٦٢٩)، وابن الشجري في «الأمالي» (١/ ٢٠١) دون نسبة، ونسبه أبو حنيفة الدينوري في كتاب «النبات» كما نقله عنه عبد القادر البغدادي في «شرح أبيات المغني» (٦/ ١٣٣)، والراغب في «محاضرات الأدباء» (٢/ ٦١٦) لأحيحة بن الجلاح، وقافيته فيهما: «يعذل» بدل: «ألوم»، ولم يرد في «ديوان أحيحة». وينسب أيضاً لأمية بن أبي الصلت، وذكره محقق «ديوانه» في: ما أنشد لأمية وليس له (ص: ٥٥٤)، وانظر تتمة تخريجه فيه.

كما كان لبني إسرائيل، ويَحتمل أنَّه قتلُ بعضِهم بعضاً، ويَحتمل أنَّه مجاهدةُ الأعداء وقَتلُهم، أو فرضنا عليهم الخروجَ مِن ديارهم مهاجرين عنها، ما فعلوه إلَّا قليلٌ[(١)] منهم، لغلظ الأمرين أخبر[(٢)] بعلمه فيهم.

قال الكلبيُّ: نزلت في ثابت بن قيس بن شمَّاس، وقد ذكرناه[(٣)] في قصَّة الزُّبير وخصمِه، وكلام اليهوديِّ، وجواب ثابت: لو أمرني محمدٌ أن أقتلَ نفسي لقتلت[(٤)]، فهو القليل المستثنى.

وقيل: هو المقدادُ بن الأسود، وهو مذكورٌ في هذه القصَّة أيضاً.

وقال مقاتل: فكان[(٥)] من القليل؛ عمَّارُ بن ياسر وثابت بن قيس وعبدالله بن مسعود. وقال عمر وجماعةٌ: والله لو فعلَ ربُّنا لفعلنا، والحمدُ لله الذي لم يفعل ذلك بنا[(٦)]، وقال النبيُّ ﷺ: «والذي نفسي بيده، الإيمانُ أثبتُ في قلوب المؤمنين مِن الجبال الرَّواسي في الأرض»[(٧)].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ﴾؛ أي: وإذ لم نُشدِّد عليهم، وأمَرناهُم بالإخلاص وتركِ النِّفاق، فلو اتَّعظوا بهذا الوعظِ.

---

(١) في (ف): «قليلًا».

(٢) في (ر) و(ف): «لفظ... أخبره».

(٣) في (أ): «ذكرنا».

(٤) في (ر): «لفعلت».

(٥) بعدها في (ر) و(ف): «المراد»، والمثبت موافق لما في «تفسير مقاتل»

(٦) في (ر) و(ف): «ربنا».

(٧) «تفسير مقاتل» (١/ ٣٨٧). والحديث رواه الطبري في «تفسيره» (٧/ ٢٠٧) عن أبي إسحاق السبيعي، ورواه ابن المنذر في «تفسيره» (١٩٦٦) من طريق أبي إسحاق عن زيد عن الحسن، وابن أبي حاتم (٣/ ٩٩٥) (٥٥٦٥) من طريق أخرى عن الحسن. فالحديث مرسل.

وقيل: لو أمرناهم بقتلِ أنفسهم وخروجِهم من ديارهم، ففَعلوا.

وقوله تعالى: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾؛ أي: أحمدَ عاقبةً في الدَّارين.

وقوله تعالى: ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾؛ أي: وآكدَ لعزائمِهم على الثَّبات على الدِّين وتركِ التَّذبذب[1].

* * *

(٦٧) ـ ﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾؛ أي: ولأعطَيناهُم إذا فعلوا ذلك من عندِنا ثواباً كثيراً[2] في الآخرة لا يَنقطع.

* * *

(٦٨) ـ ﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾؛ يعني: ولثبَّتناهم على الدِّين الحقِّ؛ وهو وعدٌ ببقاءِ الإيمان للمطيعِ المخلِص.

وقال الإمام القشيريُّ في قوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ﴾؛ أي: ابسُط لهم لسانَ الوعظِ بمقتضى الشَّفقةِ عليهم، ولكن انْقبِض بقلبك عن المبالاة بهم، والسُّكون إليهم، واعلم أنَّ مَن لا نكون نحن له، لا يغني عنه تعنِّيه[3] شيئاً.

وقال في قوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ﴾: سدَّ اللهُ الطَّريقَ إلى

---

(١) في (ر) و(ف): «التكذيب».

(٢) في (ف): «كبيراً».

(٣) في (ر): «نفسه». وفي (ف): «تعبه»، وكلاهما تحريف، وفي «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٢٤٣): «أن تعينه»، وهو تحريف أيضاً، والله أعلم.

نفسِه على الكافَّة، إلَّا بعد الإيمان بمحمَّدٍ عليه الصَّلاة والسلام، فمَن لم يمشِ تحت رايتِه، فليس مِن الله في شيءٍ، ثمَّ جعل من شرطِ الإيمانِ به زوالَ المعارِضاتِ بالكليَّة؛ بقوله(١) تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾، فلا بدَّ لك مِن تَلقِّي المهالكِ بقلبٍ ضاحك، كما قال قائلُهم:

وحبيبٍ إنْ لم يكُن منصفاً كنتُ مُنْصِفا ... أتحسَّى لهُ الأمرَّ وأسقيه ما صفا

إن يقل ليَ اشتَوِ(٢) ... احترقتُ رِضاً لا تكلُّفا(٣)

* * *

(٦٩) ـ ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ وهذا أعمُّ من الأوَّل؛ أي: ومَن أطاعَ اللهَ تعالى ورسولَه مِنهم ومِن غيرهم، فعملَ بالشَّرائعِ، وانقادَ للأحكام.

وقوله تعالى: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾؛ أي: فهم في الآخرة مع الذين أتمَّ اللهُ عليهم النِّعمةَ.

وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾ التَّشديدُ للمبالغة في الصِّدقِ، كما في: الفِجِّير والفِسِّيق والشِّرِّيب، وهو الذي لم يَدعْ شيئاً أظهرَه بلسانه إلا حقَّقه بقلبِه وعملِه، وهذه صفةُ السَّابقين إلى متابعةِ الأنبياء، وهم أفاضلُ أصحابهم.

---

(١) في (ر) و(ف): «لقوله».

(٢) تحرفت في «لطائف الإشارات» إلى: «انشق».

(٣) «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٣٤٤).

وقوله تعالى: ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ جمع شهيدٍ؛ وهو الذي قام بشهادةِ الحقِّ حتَّى قُتِلَ في سبيل الله.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ جمع صالحٍ؛ وهو الذي خَلَصَ[١] عن كلِّ فسادٍ، يعني: هم في الجنَّة معهم، يُجزَونَ الجنَّة، ويُؤتونَ نعيمَها، وليس معناه أنَّهم يُساوُونَهم في الدَّرجات، بل درجاتُهم متفاوتةٌ؛ إذ لا شكَّ في فضيلةِ درجةِ[٢] الأنبياءِ على غيرهم، ثمَّ الصدِّيقون السَّابقونَ إلى تصديقِهم، والكاملونَ في تحقيقِهم، ثمَّ الشُّهداءُ في سبيلِه، ثمَّ الصَّالحون مِن الأُمَّة.

وروى الضحَّاك عن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهم أنَّ أبا بكرٍ الصِّديقَ رضي الله عنه قال: يا رسولَ الله؛ والله لأفقِدُكَ ساعةً فأكادُ[٣] أموتُ شوقاً إليك، فكيف إن متَّ أنت وبقيتُ بعدَك؟ قال: «إنَّك معي[٤] في الجنَّة»، ونزلَت هذه الآيةُ[٥].

وروي أنَّها نزلَت في ثوبان مولى رسولِ الله ﷺ، وكان بلغَ من حبِّه له أنْ قال: يا رسولَ الله، إنِّي لا أكادُ أصبِرُ عنك، وأذكرُ الآخرةَ، وأنَّك تُرفَعُ في درجةِ الأنبياء، وأنا مع العبيد، فلا ألقاك، فنزلت الآية[٦].

وقال الشَّعبيُّ: جاء رجلٌ مِن الأنصار إلى رسولِ الله ﷺ فقال: لأنتَ أحبُّ إليَّ

---

(١) في (ف): «أخلص».

(٢) في (أ): «درجات».

(٣) في (ر): «لا أفقدك ساعةً إلاَّ أكاد» بدل: «إني لأفقدك ساعة فأكاد».

(٤) في (ر) و(ف): «إني معك».

(٥) لم أقف عليه.

(٦) ذكر نحوه أبو الليث في «تفسيره» (١/ ٣٦٧)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ١٥٨) من رواية الكلبي.

مِن نفسي وأهلي ومالي وولدي، ولولا أنّي[١] آتيك فأراك؛ لظننتُ أنّي سأموت، وبكى، فقال النبيُّ ﷺ: «ما يبكيك؟» قال: ذكرتُ أنَّك ستموتُ ونموت، فترفعُ مع الأنبياء، ونحنُ إن[٢] دخلنا الجنَّة؛ كنَّا دونك، فلم يخبرهُ النَّبيُّ ﷺ بشيءٍ، فأنزلَ اللهُ تعالى هذه الآيَةَ، فقال له النبيُّ ﷺ: «أبْشِر»[٣].

وقال مقاتلٌ في هذه القصة: فلمَّا توفِّي النبي ﷺ؛ أتاه ابنُه وهو في حديقةٍ له، فأخبرَهُ بموتِ النَّبيِّ ﷺ، فقال: اللهمَّ أعمني، فلا أرى شيئاً أبداً بعد حبيبي، حتَّى ألقى حبيبي، فعميَ مكانَهُ[٤].

وزعم السُّدِّيُّ: أنَّ ناساً مِن الأنصار قالوا: يا رسول الله، إنَّك تسكنُ الجنَّة في أعلاها، ونحن نَشتاقُ إليك، فكيف نصنع؟ فنَزلَت الآية[٥].

وقال الإمامُ أبو منصورٍ ـ رحمه الله ـ بعد ما ذكر حديثَ ثوبان وحديثَ جماعةٍ مِن الصَّحابة رضوان الله عليهم أجمعين: ويَحتمل أنَّها ليست في واحدٍ بعينه، ولكن لها وجوهٌ:

أحدها: أنَّ اليهود وغيرَهم مِن الكفرة الذين آذَوا رسولَ الله ﷺ، وتمرَّدوا في تركِ

---

(١) في (أ): «أنني».

(٢) «إن» ليس من (أ).

(٣) رواه سعيد بن منصور في «تفسيره» (٦٦١)، وابن المنذر في «تفسيره» (١٩٧٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٣١٧). وإسناده ضعيف، فهو من رواية خلف بن خليفة عن عطاء بن السائب عن الشعبي، وخلف وعطاء اختلطا بأخرة. انظر: «ميزان الاعتدال» للذهبي (١/ ٦٠٧ ـ ٦٠٨)، (٣/ ٧٨).

(٤) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٣٨٨)، واسم الأنصاري عنده: عبد الله بن زيد بن عبد ربه.

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (٧/ ٢١٥).

إجابتِه؛ ظنُّوا أنَّهم وإن أسلَموا وأطاعوا الرسولَ، لم يُقبَل ذلك منهم، ولم يَنزِلوا منزلةَ مَن لم يؤذِه، فأخبرَ أنَّ مَن أطاعَ اللهَ ورسولَه، كان مع هؤلاء كأنْ لم يَترك طاعتَهُ أبداً، وهو كما قال: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

ويَحتمل أنْ يكون ذلك لـمَّا سَمعوا أنَّ لكلِّ واحدٍ من الجنَّة مثلَ الدُّنيا، فظَنُّوا أَلَّا يكون لهم الاجتماع؛ لبُعْدِ بعضِهم عن بعض، فأخبرَ أنَّهم يجتمعون؛ لأنَّه كان في الدُّنيا مِن أعظمِ النِّعم، ثمَّ إذا ما[1] تفرَّقوا كان كلُّ واحدٍ منهم في درجته.

ويَحتملُ أن يكون هذا على الابتداء؛ أنَّ مَن أطاعَ الله والرَّسول؛ كان مع هؤلاء في دارٍ واحدةٍ لا يكونون[2] في غيرها[3].

وقوله تعالى: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾؛ أي: رفقاء، وقال الفراء: إنَّما وحَّد الرَّفيقَ، وهو صفةُ جمع؛ لأنَّ الرَّفيق والبريدَ والرَّسولَ تَذهبُ به العربُ إلى الواحدِ والجمع، ولا يجوزُ مثله في الكلام: حسن أولئك رجلاً، إنَّما يجوز أن يوحِّدَ صفةَ الجمعِ إذا كان اسماً مأخوذاً مِن فِعل، ولم يكن اسماً صريحاً، ويجوز الجمع أيضاً، وأنشد:

وإذا[4] همُ شَبعوا[5] فالأم طاعم ... وإذا همُ جاعوا فشرُّ جياع[6]

---

(١) لفظ: «ما» من (ف).

(٢) في (أ) و(ف): «يكون».

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٣/ ٢٤٧).

(٤) في (أ) و(ف): «فإذا».

(٥) في المصادر: «طعموا» بدل: «شبعوا».

(٦) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٢٦٨)، والبيت ذكره أيضاً أبو زيد في «النوادر» (ص: ١٥٢) في قطعة من ثلاثة أبيات، ونسبها لرجل جاهلي.

(٧٠) ـ ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ﴾؛ أي: ذلك الوعدُ، وقيل: ذلك الإنعامُ، و﴿ ذَٰلِكَ ﴾ يجوزُ أن يكون مبتدأ، و﴿ٱلْفَضْلُ﴾ خبراً له، ويجوز أن يكون ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارةً، و﴿ٱلْفَضْلُ﴾ مبتدأ، و﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ خبراً له.

ودلَّت الآية أنَّ العبدَ لا يجب له الأصلح على الله تعالى، وأنَّ ما يفعلُه اللهُ تعالى بعبدِه، فهو فضلٌ منه، فبَطَلَ مذهبُ المعتزلة.

وقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴾؛ أي: عالماً بأعمالِ عباده، وبمن هو أهل الفضل.

وقيل: أي: ﴿عَلِيمًا ﴾ بمقادير مراتِبهم وجزاءِ أعمالهم.

* * *

(٧١) ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ﴾ انتظامُها بما قبلَها؛ أي[(١)]: قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ هذا في المؤمنين المخلِصين، والآياتُ التي قبلَها في المنافقين، وهؤلاء في المشركين المجاهِرين؛ أمرَ المؤمنين بجهاد الكافرين.

وقوله: ﴿خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾ أي: تحرَّزوا من إيقاع العدوِّ بكم، وذلك قد يكون بأخذ العدَّة[(٢)]، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾، قيل: هي الرَّمي،

---

(١) في (ر) و(ف): «أن».

(٢) بعدها في (ر): «قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾، يقول: لا تتَّكلوا على ما ضمنتُ لكم، وذاك يكون بأخذِ العدَّة».

﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠]، يقول: لا تتَّكلوا على ما ضمنتُ لكم مِن النَّصر، فتتركوا الاستعدادَ؛ لأنَّ النصرَ موعودٌ بالقتال، ولا قتالَ إلَّا بسلاحٍ، ولو كان النصرُ أبداً بغير قتالٍ ولا سلاحٍ؛ لبَطلت المحنة.

وقيل: أخذُ الحذر: هو أخذُ السِّلاح، وليس كذلك؛ لأنَّ الله تعالى قال: ﴿وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ١٠٢]، فغايرَ بينهما بالعطف، فصحَّ أنَّ أخذَ الحذر ليس أخذَ السِّلاح على اليقين[١]، بل هو التيقُّظ والتحفُّظ عنهم بأيِّ شيءٍ كان.

وقيل: معناه ههنا: تحرَّزوا منهم، فانفِروا إليهم قبلَ أن يَنفِروا إليكم، قال النبيُّ ﷺ: «ما غُزي قومٌ في عقر دارهم إلَّا ذلُّوا»[٢].

وقيل: أمرَ اللهُ تعالى بالتحرُّز[٣]، مع علمِه أنَّ الحذرَ لا يُغني[٤] من القَدر؛ لما أنَّ الاستسلام للهلاكِ معصيةٌ، وقال النبيُّ ﷺ للأعرابيِّ: «اعقِلْها وتوكَّل[٥]»،

---

(١) في (أ): «التعين» بدل: «اليقين».

(٢) لم أقف عليه مرفوعاً، وورد من كلام علي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «البيان والتبيين» للجاحظ (٢/ ٥٣).

(٣) في (ر): «بأخذ الحذر» بدل: «بالتحرز».

(٤) في (ر): «يمنع».

(٥) بعدها في (أ): «على الله». والحديث رواه الترمذي في «سننه» (٢٥١٧)، وفي «العلل الصغير» (٥/ ٧٦٢ ـ في آخر كتاب «السنن») من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وقال: قال عمرو بن علي: قال يحيى بن سعيد: هذا عندي حديث منكر، قال الترمذي: هذا حديث غريب من هذا الوجه، لا نعرفه إلا من حديث أنس بن مالك إلا من هذا الوجه، وقد روي عن عمرو بن أمية الضمري عن النبي ﷺ نحو هذا. اهـ. قلت: وحديث عمرو بن أمية رواه ابن حبان في «صحيحه» (٧٣١)، والحاكم في «المستدرك» (٦٦١٦).

وكان النبيُّ ﷺ إذا مرَّ بهدفٍ مائلٍ أسرعَ المشيَ(١).

وقوله تعالى: ﴿فَٱنفِرُواْ﴾ النَّفيرُ: الخروجُ إلى العدوِّ غزواً، والنُّفور: النُّدود(٢)، والنَّفْرُ: رجوعُ الحاجِّ، وصرفُ كلِّه من باب: ضرب.

وقوله تعالى: ﴿ثُبَاتٍ﴾؛ أي: جماعاتٍ في تفرِقةٍ(٣)، واحدتها: ثُبَة، وأصلُها: ثبية؛ بزيادة ياءٍ في آخرها، حُذِفت تخفيفاً، وتعاد في التَّصغير، فيُقال: ثُبَيَّة، والفعل منه: ثَبيتُ؛ أي: جمعت.

وقوله تعالى: ﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾؛ أي: مجتمعين(٤)، ومعنى الآية: اخرجوا إلى قتالِ العدوِّ فرقةً بعد فرقةٍ؛ أي(٥): اخرجوا إنْ شئتُم مجتَمِعين.

وقيل: أي: اخرجوا سرايا في جهاتٍ شتَّى، أو عسكراً واحداً في جهةٍ واحدةٍ، على حسب الحالةِ الدَّاعيةِ إليه.

وقيل: انفروا ثباتٍ إذا لم يَعمَّ النفير، أو انفروا جميعاً إذا عمَّ النفير.

وقال عبدُ الرَّحمن بنُ زيدِ بنِ أسلم: انفروا سرايا، إذا لم يَخرج النبيُّ ﷺ، أو انفروا جميعاً إذا خرجَ النبيُّ ﷺ، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١٢٠]، وهذا إذا خرجَ بنفسِه، ثمَّ قال: ﴿وَمَا

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٢٩٩) عن يحيى بن أبي كثير قال: بلغني عن النبي ﷺ... وهو مرسل. والهدف كل شيء مرتفع من بناء أو كثيب رمل أو جبل. انظر: «الصحاح» (مادة: هدف).

(٢) يقال: ند البعير، إذا شرد ونفر. انظر: «الصحاح» (مادة: نفر).

(٣) في (ر): «متفرقة».

(٤) قوله: «أي مجتمعين» من (أ).

(٥) في (ر) و(ف): «أو».

كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ١٢٢]، وهذا إذا لم ينفر رسول الله ﷺ[١].

وقال الإمامُ أبو منصور رحمه الله: ﴿خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾؛ أي: ما تَحذَرون به عَدوَّكم، وما يحذر به وجوهٌ؛ منها: الأسلحة، ومنها: البُنيان، ومنها: التَّكثُّر[٢] عند التَّلقِّي بالثَّبات وذكر الله تعالى، قال تعالى: ﴿فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأنفال: ٤٥]. وفيه الأمر[٣] بالإعداد قبل اللقاء، وأيَّد ذلك قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً﴾ [التوبة: ٤٦]، وقوله: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وفي الأمر بالإعداد قبل وقتِ الحاجة إليه دليلُ جوازِ الكسبِ لحاجاتٍ تحدُث[٤]، وأنَّ الاستعدادَ للحاجاتِ ليس برغبةٍ في الدُّنيا، إذا لم يكن الإعداد لفشلٍ ولا ترك توكُّلٍ[٥].

***

(٧٢) ـ ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ أمرَ بالجهاد، وأخبرَ أنَّ في المنافقين مَن يُثقِّلُ المخلصين عن ذلك.

---

(١) انظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٦/ ٥٨٤).

(٢) كذا في النسخ، ووقع في «تأويلات أهل السنة»: «النكر»، وذكر محققه أنه وقع في إحدى النسخ: «النكار»، وهي كذلك في طبعة دار الميزان التركية (٣/ ٣٢٠)، وفسرها محققها بما في «لسان العرب» لابن منظور (مادة: نكر) قال: المناكرة: المحاربة، وناكره؛ أي: قاتله؛ لأن كل واحد من المتحاربين يناكر الآخر؛ أي: يداهيه ويخادعه.

(٣) في (أ): «أمر».

(٤) في (ر): «للحاجات التي تحدث».

(٥) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٣/ ٢٥٠).

وقوله: ﴿مِنكُمْ﴾ أي: مِن جنسِكم.

وقيل: أي: منكم في الظَّاهر دون الباطن، فقد قال في آيةٍ أخرى: ﴿مَّا هُم مِّنكُمْ﴾ [المجادلة: ١٤].

وقيل: أي: منكم في الحُكم.

وقيل: منكم في الدَّعوى.

و﴿لَمَن﴾ لام الابتداء، واللامُ الثَّانية لامُ القسم، وكذا[١] النون دلالةُ القسم.

وقرأ مجاهدٌ والكلبيُّ: (ليبطِئن) بتخفيفٍ[٢]، وهو من الإبطاء؛ وهو خلافُ الإسراع، وقد[٣] بَطُؤ يَبطُؤ بُطْءاً، فهو بطيءٌ؛ أي صار: بطيئاً[٤]؛ وهو خلاف السَّريع، وأبطأ؛ أي: تثاقل، وتَباطأ[٥]: أَرى من نفسِه ذلك، وبطَّأ غيرَه بالتشديد للتعدية؛ أي: حَمَلَه على الإبطاء، يقول: إنَّ مِن[٦] المنافقين المختلِطين بكم مَن يَمنعُكم عن الجهاد، ويُظهِر من نفسِه الإشفاقَ عليكم وعلى أموالكم وأولادكم.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾؛ أي: نالتكم نكبةٌ مِن الأعداء.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ﴾؛ أي: منَّ الله عليَّ.

---

(١) في (أ): «وكذلك».

(٢) ذكرها عنهما المهدوي في «التحصيل» (٢/ ٢٩٧)، وزاد نسبتها للنخعي، وذكرها ابن خالويه في «مختصره» (ص: ٣٣)، والنحاس في «إعراب القرآن» (١/ ٤٧٠) عن مجاهد فقط.

(٣) في (ر) و(ف): «وقيل».

(٤) في (ف): «بطاء».

(٥) في (ف): «وتبطا».

(٦) لفظ: «من» من (أ).

وقوله تعالى: ﴿إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾؛ أي: مع المؤمنين حاضراً قتالَ العدوّ، فينالَني مِن النَّكبة[١] ما نالهم.

قال مقاتل: نزلت في عبد الله بن أُبيٍّ وأصحابه[٢].

***

(٧٣) - ﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: غنيمةٌ، ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ هذا المنافق المبطِّئ[٣]: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ﴾ يتمنَّى[٤] أن يكون شهيدَ[٥] القتال معهم، ﴿فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ فأنالَ مالاً كثيراً، ونَصبه لأنَّه جوابُ التَّمنِّي بالفاء،

وقرأ الحسن بالرَّفع[٦] على تقدير: فإنِّي أفوز، على الاستئناف.

وقوله تعالى: ﴿كَأَنْ لَمْ يكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ قرأ أهلُ المدينة وأبو عبد الرَّحمن ابنُ زيد وأبو رجاء وقتادة والأعمش: ﴿يكن﴾ بياء التذكير[٧].

---

(١) في (ف): «البلية».

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٣٨٨).

(٣) بعدها في (ر): «كأن لم يكن بينكم وبينه مودة».

(٤) لفظ: «يتمنى» من (أ).

(٥) في (ف): «أي: يكون شهد» بدل: «أن يكون شهيد».

(٦) ذكرها ابن جني في «المحتسب» (١/ ١٩٢)، وزاد نسبتها ليزيد النحوي.

(٧) هي قراءة نافع المدني وأبي عمرو البصري وابن عامر الشامي وأبي بكر وحمزة والكسائي الكوفيين. انظر: «السبعة» (ص: ٢٣٥)، و«التيسير» (ص: ٩٦). وانظر: «الكامل» للهذلي (ص: ٥٢٨).

وقرأ الحسن: بالتَّاء؛ لأنَّ المودَّة مؤنَّثةٌ لفظاً، وقرأ عاصم[١] وأبو عمرو[٢] بالوجهين.

ووجهُ التَّذكير تقدُّم الفعلِ ودخولُ الحائل، ولأنَّ تأنيثَها غيرُ حقيقيٍّ، ولأنَّ المودَّة بمعنى الودِّ، وفي هذه الكلماتِ ثلاثةُ أوجه:

قيل: هي ملحقةٌ بالحادثة الأولى، ﴿قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ﴾[٣]، وفرحَ بسلامتِه ونكبتكم[٤]، ﴿كأنْ لم يكن بينكم وبينهُ مودَّةٌ﴾.

وقيل: هي[٥] مؤخَّرةٌ عن الحادثة الثَّانية، وتقديره: ﴿يَالَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾، يَحسُدُكم بالاختصاص[٦] بالغنيمة، و﴿كأنْ لم يكن بينكم وبينه مودَّةٌ﴾.

وقيل: هي مُقرَّرة[٧] على نظمها، واعتراضُه لمعنى الحال، لا[٨] لأنَّه من كلامه، تقديره: ﴿لَيَقُولَنَّ﴾، وهو بحالٍ يَظهرُ منه أنَّه يعامِلُكم معاملةَ مَن لا مودَّة بينه وبين من يعامِلُه: ﴿يَالَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ﴾.

* * *

---

(١) هي بالتاء قراءة حفص عن عاصم (وهي أيضاً قراءة ابن كثير)، وبالياء قراءة أبي بكر. انظر: «السبعة» (ص: ٢٣٥)، و«التيسير» (ص: ٩٦).

(٢) ذكر الروايتين عنه الهذلي في «الكامل» (ص: ٥٢٨). والمتواتر عنه: «يكن» بالياء.

(٣) في (ر): «وأنعم الله»، وفي (ف): «فأنعم الله» بدل: «قال قد أنعم الله علي».

(٤) في (ر): «وبليتكم».

(٥) بعدها في (ف): «قد تكون».

(٦) في (ر): «على الاختصاص».

(٧) في (ر) و(ف): «مقدَّرة» بدل: «مقررة».

(٨) لفظ: «لا» من (أ).

(٧٤) ـ ﴿ ۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ أكثرُ المفسِّرين على أنَّه أمرُ مغايبةٍ بالقتال للمؤمنين، و﴿يَشْرُونَ﴾ بمعنى[1]: يبيعون؛ أي: الذين يؤثرون الآخرةَ على الدُّنيا، أمرَهُم أنْ يقاتِلوا لطلبِ رضا الله، دون الغنيمة كما يقاتل المنافقون.

وقال الكلبيُّ: هذا أمرُ مغايبةٍ للمنافقين الذين تخلَّفوا عن أُحُد، و﴿يَشْرُونَ﴾ بمعنى: يشترون؛ أي: يختارونَ الحياةَ الدُّنيا على الآخرة، وتقديرُه أنَّه يقول للمنافقين: فليكونوا من الذين يقاتلون في سبيل الله، قاله الزَّجَّاج[2].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ رويَ أنَّ الصحابة رضي الله عنهم قالوا للنبيِّ ﷺ: إنَّا نقاتل، فنَقْتُل ولا نُقْتَل في سبيل الله؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية، وأشركَهم جميعاً في الأجر[3].

وقال الإمام أبو منصورٍ رحمه الله: في الآية دليلٌ أنَّ المرأةَ إذا سلَّمت[4] نفسَها إلى زوجِها، وجبَ لها كمالُ المهر، وإنْ لم يقبضها الزَّوج، وكذلك البائعُ إذا أسلم[5]

---

(١) في (أ): «بمعنى».

(٢) لم أقف عليه في «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٧٧)، وفيه أنه فسر ﴿يَشْرُونَ﴾ بيبيعون. ثم قال: يقال: شريت بمعنى بعت، وشريت بمعنى اشتريت.

(٣) في (ف): «الآخرة». وانظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٣٨٩).

(٤) في (ف) و(ر): «أسلمت».

(٥) في (أ) و(ر): «سلم».

المبيعَ تأكَّدَ الثَّمنُ على المشتري، وإن لم يَقبض؛ لأنَّ الله تعالى جعل الغازي بتسليم النَّفس ـ وإن غلب ولم يقتلْه أحدٌ ـ بمنزلة مَن قتلَه المشركون[١].

* * *

(٧٥) ـ ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ استفهامٌ بمعنى التَّوبيخ.

وقال الإمام أبو منصورٍ رحمه الله: لا يُقَالُ ذلك إلَّا عند سبقِ التَّفريط، ثمَّ لم يَزُل اسمُ الإيمان عنهم، ولم يَسقُط فرضُ الجهاد عنهم، فبطَلَ بذلك قولُ الخوارجِ في مرتكب الكبيرةِ[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ عطفٌ على قوله: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، ومعناه: في تخليص العَجَزة مِن الرِّجال البالغين، والنِّساءِ، وصغار الأولادِ المقهورين في أيدي الكفَّار.

وقال الإمام القشَيريُّ: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: أيُّ شيءٍ يَمنعُكم عن القتالِ في سبيلِ الله؟ وما الذي لا يُرَغِّبكم في بذلِ المهجةِ لله؟ وماذا عليكم لو بَذلتُم أرواحَكُم في الله تعالى؟ أتخافون أنْ تخسروا على الله؟ أم لا تعلمون أنَّكم تحشرون إلى الله؟ أم لا تَكتفونَ ببقائِه بعد فنائِكم في الله تعالى؟[٣]

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٣/ ٢٥٥ ـ ٢٥٦).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٣/ ٢٥٦).

(٣) «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٣٤٦).

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: فيه دليلٌ أنَّ إسلامَ الصَّبيِّ العاقلِ صحيحٌ، فإنَّ ﴿وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ اسمٌ للصغار، وقد حثَّ المسلمين على استنقاذِهم من أيدي الكُفَّار، فدَلَّ على حكم إسلامِهم، ودلَّ على[١] أنَّ استنقاذَ الأسارى من المسلمين عن أيدي الكفَّار واجبٌ بما قدِروا عليه من القتالِ وإعطاءِ المال[٢].

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾؛ أي: لا حيلةَ لهؤلاء المستضعفين ولا ملجأ إلَّا الله، فيقولون: يا ربَّنا، أخرجنا من مكَّة التي أهلُها ظالمون بالشِّرك، وبظُلمنا بالمنعِ عن الخروج، وبحملِنا على الكفرِ بالدَّعوة إليه والتَّعذيبِ عليه.

وقوله تعالى: ﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾؛ أي: وهيِّئ لنا مِن عندكَ مَن يتولَّى كفايتَنا.

وقوله تعالى: ﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾؛ أي: وهيِّئ لنا مِن عندك مَن ينصرُنا، ويمنعُنا مِن عدوِّنا، فاستجابَ اللهُ تعالى دعاءَهم، وجعلَ رسولَ اللهِ ﷺ وليَّهم، وعتَّابَ بن أسيد ناصرهم؛ قاله عطاء، فكان يَستنقِذُ واحداً واحداً منهم، ويَبعثه على يد مرثد بن مرثد[٣] إلى المدينة، ولمَّا فتح اللهُ تعالى مكَّة على رسول الله ﷺ؛ استخلفَ عليها عتَّاب بنَ أسيد؛ فكان يَنصرُ الضَّعيفَ مِن القويِّ، والمظلومَ من الظالم[٤].

وقال ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما: كان من المستضعَفين من الرِّجال: سلمةُ بن

---

(١) لفظ: «على» من (أ).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٣/ ٢٥٧).

(٣) «بن مرثد» ليس من (أ).

(٤) خبر استخلاف عتاب بن أسيد على المدينة ذكره أبو الليث في «تفسيره» (١/ ٣٦٨) من قول الكلبي.

هشام، والوليدُ بنُ الوليد، وعيَّاش بن أبي ربيعة، وأبو جندل بنُ سهيل وغيرُهم، ومن النساء أُمِّي، ومن الوِلدان أنا[(١)].

وقوله تعالى: ﴿ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ معناه: البلدةُ التي ظلمَ أهلُها، وذكَّر؛ لأنَّه نعت الأهلَ دون القرية، وخَفَض؛ لأنَّه ذكر معها؛ وهو كقوله[(٢)]: مررت برجلٍ حسنةٍ امرأتُه، وبامرأةٍ حسنٍ زوجُها.

* * *

(٧٦) ـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: في رضا الله.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ﴾؛ أي: الشيطان، وقيل: أي: الأصنام، والطَّاغوتُ: هو ما عُبِدَ من دون الله تعالى.

وهذا تحريضٌ للمؤمنين على الجهادِ من وجهٍ آخر[(٣)].

وقوله تعالى: ﴿فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾ هم الكفَّار.

---

(١) لم أقف عليه بهذا السياق، وأخرج البخاري في «صحيحه» (٤٥٨٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت أنا وأمي من المستضعفين.

وأخرج البخاري (٤٥٦٠)، ومسلم (٦٧٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول حين يفرغ من صلاة الفجر من القراءة ويكبر ويرفع رأسه: «سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد» ثم يقول: «اللهم أنج الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة والمستضعفين من المؤمنين».

(٢) في (أ): «كقولك».

(٣) لفظ: «آخر» من (أ).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ لا يدَ لَهُ على أنفُسِكم، ولا على أموالِكم، ولا على دينِكم، جبراً ولا قهراً، وإنَّما يكون منه تزيينٌ ووسوسةٌ، ثم يُسلِمُ متابعَهُ إلى الهَلَكة، ويرجع، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾ الآية [الأنفال: ٤٨].

***

(٧٧) - ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: إنَّ ناساً أتوا النبيَّ ﷺ بمكَّة قبل أنْ يُهاجِرَ إلى المدينة، وشَكَوا إليه ما يَلقَونَ مِن أذى المشركين، وقالوا: كنَّا في عِزٍّ في حالة[1] الجاهليَّة، والآن صرنا أذلَّةً، فلو أذِنْتَ لنا نقتل هؤلاء المشركين على فرشهم، فقال عليه السلام: «إنِّي أُمِرْتُ بالصبر، فكفُّوا أيديكم»؛ أي: أمسِكوا، ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، فلمَّا هاجروا[2] إلى المدينة، وأمرَهم اللهُ بالقتال؛ كرِهَ بعضُ المؤمنين ذلك؛ فنزلت الآية[3].

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ﴾ أي: فُرِضَ عليهم الجهاد، ﴿إِذَا فَرِيقٌ

(١) في (أ): «حال».

(٢) في (أ): «هاجر».

(٣) روى النسائي في «سننه» (٣٠٨٦)، والطبري في «تفسيره» (٧/ ٢٣١)، وابن أبي حاتم (٣/ ١٠٠٥) (٥٦٣٠) نحوه مختصراً.

﴿مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ﴾ أي: خشيةَ طبع، كما قال: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ [الأنفال: ٥]؛ أي: كراهة[١] طبع.

وقوله تعالى: ﴿كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾[٢] إدخالُ ﴿أَوْ﴾ لمعنيين:

أحدهما: الإبهام[٣] على المخاطب؛ أي: هم على إحدى هاتين الصفتين.

والثاني: أنَّه للتخيير؛ أي: إن قلتَ: إنَّهم يَخشون النَّاس كخشية الله؛ فأنت مصيبٌ، وإن قلت[٤]: يخشونهم أشدَّ مِن ذلك؛ فأنت مصيبٌ؛ لأنَّه حصلَ لهم ذلك وزيادةٌ.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي: هلَّا أمهلتنا إلى الموتِ، فنموتَ على الفُرُش؟ وهو سؤال طلب حكمةٍ، لا لاعتراضٍ ومعارضةٍ، بدليل أنَّهم لم يوبَّخوا على إسداء السُّؤال، بل أجيبوا[٥]، وذلك قولُه تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾؛ أي: التَّمتُّع بالحياةِ في الدُّنيا قليلٌ، وسيَنقضي عن قريب، ولو استُشهِدتم في القتال صِرتُم أحياءً، فتتَّصِلُ الحياةُ الفانيةُ بالحياةِ الباقيةِ في الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾؛ أي: خيرٌ لمن اتَّقى[٦] الله؛ فأطاعَه ولم يَعصِه.

---

(١) في (ف): «كراهية».

(٢) قوله: «كخشية الله» من (أ).

(٣) في (ف): «للإبهام».

(٤) بعدها في (ر): «إنَّهم».

(٥) في (ر) و(ف): «ما وبخوا» بدل: «لم يوبخوا على إسداء السؤال بل أجيبوا».

(٦) قوله: «أي: خيرٌ لمن اتَّقى» من (ر).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ قرأ أهلُ المدينة[١] وعاصمٌ وأبو عمرٍو بتاء المخاطبة[٢]؛ كما في قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ﴾ [النساء: ٧٨]، وقرأ أهلُ الكوفة بياء المغايبة[٣]، كما في أول هذه الآية.

والفتيلُ قد فسَّرناه في هذه السورة بتفسيرين، يقول: مَن اتَّقى الله[٤] لم يُظلَم شيئاً، وإن قلَّ عمله، بل يُضاعَفُ ثوابُه، فأنتم إذا اتَّقيتم الله، وجاهدتُم عدوَّه بأمرِه، لم يَبطُلْ سعيُكم.

وقوله: ﴿كَخَشْيَةِ اللَّهِ﴾؛ أي: كخشيتهم لله، كقوله: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]؛ أي: كحبِّهم لله.

وقال الكلبيُّ: نزلت هذه الآيةُ في عبد الرحمن بنِ عَوْف، والمقدادِ بن الأسود، وقدامةَ بنِ مظعون، وسعدِ بن أبي وقَّاص، كانوا مع النبيِّ ﷺ قبل أنْ يُهاجروا إلى المدينة يَلقون مِن المشركين الأذى، فيَشتكون إلى رسولِ الله ﷺ ذلك، ويقولون: ائذن لنا في قتالِهم؛ فإنَّهم آذونا، فقال لهم رسولُ الله ﷺ: «كفُّوا أيديكم؛ فإنِّي لم أؤمر بقتالهم»، فلمَّا أُمِروا أنْ يسيروا إلى بدرٍ؛ كره ذلك طلحة بن عبيد الله وجماعةٌ وقالوا: ربَّنا لم كتبتَ علينا القتالَ، فأنزلَ اللهُ تعالى هذه الآيةَ[٥].

---

(١) منهم نافع المدني.

(٢) وهي قراءة ابن عامر أيضاً.

(٣) هي قراءة حمزة والكسائي من أهل الكوفة، وقرأ بها أيضاً ابن كثير المكي. انظر: «السبعة» (ص: ٢٣٥)، و«التيسير» (ص: ٩٦).

(٤) لفظ الجلالة «الله» من (أ).

(٥) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٣/ ٣٤٥).

وقيل: الآيةُ في حقِّ بني إسرائيل؛ كما قال في سورة البقرة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ﴾ الآيات على ما بيَّنا.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: مكَّنك من الدُّنيا، ثمَّ قلَّلها، فلم يَعُدَّها لك شيئاً، ثمَّ لو تصدَّقتَ منها بشِقِّ تمرةٍ، استكثَره منك، وهذا غايةُ الكرم وشرط المحبَّة؛ وهو استقلالُ الكثيرِ مِن نفسِه، واستكثارُ القليلِ مِن حبيبه.

قال: وإذا كانت قيمةُ الدُّنيا قليلةً، فأخسُّ مِن الخسيس مَن رضيَ بالخسيس بدلاً عن النَّفيس.

وقال: إنَّ الله تعالى اختطفَ(١) المؤمنَ مِن الكون بالتَّدريج، فقال أوَّلاً: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ فاختطفهم(٢) عن(٣) الدُّنيا بالعُقبى، ثمَّ استلبَهم عن الكونين بقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ٧٣](٤).

* * *

(٧٨) ـ ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ﴾ تكتب ﴿أَيْنَمَا﴾ موصولةً ههنا، ومفصولةً في قوله تعالى: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٣٧]؛ لأنَّ (ما) في الأولى صلةٌ زيدت للشَّرط، فاتَّصلت به؛ كما في «حيثما» و«كيفما» و«مهما»،

---

(١) كذا في النسخ، ووقع في «لطائف الإشارات»: «اختلع» بدل: «اختطف».

(٢) في مطبوع «لطائف الإشارات»: «فأحفظهم».

(٣) في (أ): «من».

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٣٤٨).

وفي الثانية اسمٌ بمعنى: الذي، تقديرُه: أين الذي كنتُم تَدعون؟ فكان اسماً مستقلًّا بنفسِه، فلم يوصَل بغيرِه.

و﴿تَكُونُواْ﴾ جُزِمَ بالشَّرط، و﴿يُدْرِككُّمُ﴾ جُزِمَ لأنَّه جزاءُ الشَّرط، يقول: حيثُما كنتُم أدركَكمُ الموتُ، وهو تحريضٌ على الجهاد أيضاً؛ أي: ليس التَّخلُّف عن الجهاد بدافعٍ للموت، وإذا أدرككم الموتُ[١] لا محالة، فالموتُ في الجهاد[٢] أنفعُ وأرفع.

وقال الكلبيُّ: لـمَّا قال المنافقون في شهداء أُحُد: لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا، أنزل اللهُ تعالى هذه الآيةَ[٣].

وقيل: هو جوابُ قولهم: ﴿لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ البرجُ: الحصنُ، وقيل: القصرُ، وقيل: البناءُ العالي، وقيل: هنَّ بروجُ السَّماء الاثني عشر. وهذا قول الرَّبيع بن أنس والسُّدِّيِّ[٤]، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ [البروج: ١].

وقوله: ﴿مُّشَيَّدَةٍ﴾ قرأ مجاهدٌ بفتح الميم وتخفيف الياء[٥]؛ كما في قوله: ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥]، وقراءةُ العامَّة: ﴿مُّشَيَّدَةٍ﴾ بضمِّ الميم وتشديد الياء[٦]،

---

(١) بعدها في (ر): «أدرككم».

(٢) من قوله: «أيضاً أي ليس التخلف» إلى هنا ليس في (ف).

(٣) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ١٦٠) من طريق أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنه.

(٤) نص قول الربيع: ولو كنتم في قصور في السماء، ونص قول السدي: وهي قصور بيض في السماء الدنيا مبنية. انظر: «تفسير الطبري» (٧/ ٢٣٦ ـ ٢٣٧).

(٥) ذكرها الكرماني في «شواذ القرآن» له (ص: ١٣٨) عن زيد بن علي.

(٦) من قوله: «كما في قوله: ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾» إلى هنا ليس في (أ).

والمخفَّف مِن: شادَ البناءَ يَشيده شيداً؛ أي: رفعَهُ وطوَّلَه، والمشدَّد من: شيَّدَهُ يُشيِّدُه تشييداً؛ أي: زيَّنهُ وطلاهُ بالشِّيد؛ أي: الجصُّ.

وقيل: على عكسه.

وقال الفرَّاء والكسائيُّ: هما واحدٌ للرَّفع والتَّطويل، إلَّا أنَّ التخفيفَ لأصل الفعل، والتَّشديدَ لتكثيره وتكريره[١]؛ كما في الفَتح والتَّفتيح، والقتلِ والتَّقتيل[٢].

وفي التَّفسير أنَّها الحصون الحصينة.

وقيل: هي القصورُ المرتفعةُ إلى عَنانِ السَّماء.

وقيل: هي منازلُ القمرِ التي في السَّماء.

وقال مجاهدٌ في هذه الآية: كان فيمن كان قبلكم امرأةٌ، وكان لها أجيرٌ، فوَلَدَتْ جاريةً، فقالت لأجيرِها: اقتبسْ لنا ناراً، فخرجَ، فوجد بالباب رجلاً، فقال له الرجل: ما ولدت هذه المرأةُ؟ قال: جاريةً، قال: أما إنَّ هذه الجاريةَ لا تموتُ حتَّى تزنيَ بمئةٍ، ويتزوَّجها أجيرُها، ويكون موتُها بالعنكبوت. فقال الأجير في نفسه: فأنا أريدُ هذه بعد أنْ تَفجُر بمئةٍ؟ لأقتلنَّها، فأخذ شفرةً، فدخلَ، فشقَّ بطن الصبيَّة[٣]، وخرجَ على وجهِه، وركبَ البحرَ، وخيطَ بطنُ الصبيَّة، فعولِجَت وبَرِئت، وشبَّت، فكانت تَزني، فأتت ساحلاً مِن سواحل[٤] البحر، فأقامَت عليه تَزني.

ولبِثَ الرَّجلُ ما شاء الله، ثمَّ قَدِمَ ذلك السَّاحل، ومعه مالٌ كثيرٌ، فقال لامرأةٍ

---

(١) في (أ): «ولتكريره».

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٢٧٧).

(٣) في (ف): «الصغيرة».

(٤) في (ر) و(ف): «ساحل».

من أهل السَّاحل: اطلُبي لي امرأةً[١] مِن أجملِ امرأةٍ في القريةِ[٢] أتزوَّجها، فقالت: هاهنا امرأةٌ مِن أجمل النِّساء، ولكنَّها تفجر، فقال: ائتيني بها، فأتتها فقالت[٣]: قَدِمَ رجلٌ له مالٌ كثيرٌ، وقال لي كذا، فقلت كذا، فقالت: إنِّي تركتُ الفجورَ، ولكن إنْ أراد تزوَّجتُه.

قال: فتزوَّجَها، فوقعَتْ منه موقعاً، فبينا[٤] هو يوماً عندها، إذ أخبرَها بأمرِه، فقالت: أنا تلكَ الجارية ـ وأرتهُ الشقَّ في بطنها ـ وقد كنتُ أفجرُ، فما أدري بمئةٍ أو أقلَّ أو أكثر، قال: فإنَّه قال لي[٥]: يكون موتها بالعنكبوت[٦]، قال: فبَنى لها بُرجاً في الصَّحراء وشيَّده، فبينما هما[٧] يوماً في ذلك البرج، إذا عنكبوتٌ في السَّقف، فقالت: هذا يقتلُني[٨]، لا يقتله أحدٌ غيري، فحرَّكتهُ، فسقطَ، فأتتهُ فوضعَت إبهامَ رجلِها عليه، فشَدَختهُ، وساحَ[٩] سمُّه بين ظُفرِها واللَّحم[١٠]، فاسودَّت رجلُها،

(١) بعدها في (أ): «جميلة».

(٢) في (ف): «النساء» بدل: «امرأةٍ في القرية».

(٣) بعدها في (ف): «قد».

(٤) في (ر) و(ف): «فبينما».

(٥) قوله: «قال فإنه قال لي» وقع مكانه في (ر): «قال: أي: الأجير فإنه قال أي: قال الرجل الذي خارج الباب». ووقع مكانه في (ف): «فقال زوجها في نفسه: إن الرجل الذي كان خارج الباب قال»، والمثبت من (أ)، وهو موافق لما في «تفسير الطبري».

(٦) بعدها في (ف): «ثم أخبرها بذلك».

(٧) في (ر) و(ف): «هي».

(٨) بعدها في (ر) و(ف): «لأقتلنَّه؛ أي».

(٩) في النسخ الخطية: «فساخ»، والمثبت من «تفسير الطبري».

(١٠) في (أ): «ولحمها».

فماتت، وفي ذلك نزلت هذه الآية: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ يقول: إنْ أصابت هؤلاء المنافقين حالةٌ حسنةٌ؛ نصرٌ وغنيمةٌ، أو خِصْبٌ وسَعةٌ، أو أمنٌ وعافيةٌ[٢]، ﴿يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾؛ أي: بعطاء الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾؛ أي: وإن أصابتهم حالةٌ سيِّئةٌ؛ قتلٌ أو هزيمةٌ، أو جدبٌ أو بليَّةٌ، وبلاءٌ وشِدَّةٌ، ﴿يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ﴾؛ أي: بسببك يا محمَّد؛ يتطيَّرون بك؛ كما قال قوم موسى: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ﴾ [الأعراف: ١٣١]، وكما قال قوم صالح عليه السلام: ﴿اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ [النمل: ٤٧]، وآخرون قالوا: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ [يس: ١٨].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾؛ أي: قل يا محمَّدُ: كلٌّ ذلك بتقديرِ الله، وهو سنَّة اللهِ تعالى في خلقه، قال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨]، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ [الأعراف: ٩٤].

وقوله تعالى: ﴿فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ استفهامٌ بمعنى التَّوبيخ، والقومُ هم المنافقون، والفقهُ: الفَهمُ، و﴿حَدِيثًا﴾ نكرةٌ في موضع[٣] النَّفي فتعمُّ؛ أي: يقولون ذلك عن قلَّة معرفةٍ، وغَلَبَةِ جهلٍ، لا يَفهمون شيئاً ممَّا قيل لهم على وجهه.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٧/ ٢٣٥ ـ ٢٣٦) ومن طريقه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ٢٨٨)، ورواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (٣/ ١٠٠٧ ـ ١٠٠٨) (٥٦٤٠).

(٢) بعدها في (ر) و(ف): «وقوله».

(٣) لفظ: «موضع»: من (أ).

(٧٩) ـ ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾.

وقال الكلبيُّ: هي في المنافقين ويهود المدينة، هم قالوا ذلك، والردُّ عليهم جميعاً قولُه تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: ما نالَك يا محمَّدُ مِن حالةٍ حسنةٍ، فهي من فضلِ الله عليك، لا باستحقاقِك [١]بنفسك.

وقال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: أي: ما أصابَك من ظَفَرٍ أو سرورٍ؛ فمِن الله، لا بحيلتِك[٢] ومَقدرتكَ[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾؛ أي: وما نالكَ مِن حالةٍ سيِّئةٍ فبسبب زَلَّةٍ منك، خاطبَ النبيَّ ﷺ، وأرادَ به[٤] أُمَّته.

وقال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: أي: وما أصابَك وأصحابَك من مكروهٍ مِن العدوِّ وغيره فمِن نفسِك؛ أي: بذنوبِكم، وأنا قضيتُ ذلك عليكم[٥].

وفي قراءة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (فمن نفسك وأنا قَدَّرتُها عليك)[٦]،

---

(١) في (ف): «فضل من الله لا استحقاق» بدل: «من فضل الله عليك، لا باستحقاقك».

(٢) في (أ): «بجبلتك».

(٣) في (ر): «وقوَّتك». والأثر رواه بنحوه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ١٠١٠) (٥٦٥٥)، (٥٦٥٦).

(٤) في (ف): «وأدبه وأدب» بدل: «وأراد به».

(٥) رواه بنحوه ابن أبي حاتم (٣/ ١٠١٠) (٥٦٥٧).

(٦) انظر القراءة في «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٣/ ٢٦٦)، وذكرها ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢/ ٨٢) ونسبها لأبيّ وابن مسعود، وذكرها الكرماني في «شواذ القراءات» (ص: ١٣٩)، وزاد نسبتها لابن عباس وأبيّ وعلي بن الحسين وجعفر بن محمد وزيد بن علي. وانظر: «البحر المحيط» (٧/ ٢٠٩).

وهو ثابتٌ بالكتاب[١] أيضاً بما تقدَّم؛ وهو قوله تعالى: ﴿قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾.

وقال عطيَّة العوفيُّ: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ﴾ يوم بدرٍ ﴿فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ﴾ يوم أحدٍ؛ فمِن نفسك[٢]؛ أي: بذنبِ أصحابِك، حيث تَركوا أمرَك، وأخلُّوا بالمركز؛ نظيرُه قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقال: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ﴾[٣] [الحج: ١٠]، وقال: ﴿قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾.

وتعلَّقت المعتزلةُ بظاهرِ هذه الآية، وحمَلت الحسناتِ على الطَّاعات، والسيِّئاتِ على المعاصي، وقالوا: أخبرَ اللهُ تعالى أنَّ الحسناتِ مِن الله، والسَّيِّئات مِن نفسِه، ولا متعلَّق لهم، فإنَّهم لا يقولون: الحسناتُ مِن الله خلقاً وإيجاداً، فلا حجَّة لهم[٤] في ذلك[٥].

وعندنا: الحسنةُ والسيِّئةُ في هذه الآية كالحسنة والسِّيئة المذكورتين في قوله تعالى: ﴿وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨]، وقد جاء عن الصَّحابة والتَّابعين في تفسير هذه الآيةِ والآية التي قبلها أنَّ ذلكَ على الغنيمةِ والهزيمة، والخِصبِ والجَدْبِ، والنِّعمةِ والمحنة، ودلَّ ظاهرُ النظم عليه؛ فإنَّه قال: ﴿مَّآ

---

(١) لفظ: «بالكتاب» ليس في (أ).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٧/ ٢٤٢)، وابن أبي حاتم (٣/ ١٠١٠) (٥٦٥٣)، (٤٦٥٤)، (٥٦٥٨) لكن من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وروى ابن أبي حاتم (٥٦٥٧) من طريق عطية العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) في (ف): «أَيْدِيكُمْ»، وهي في آل عمران الآية (١٨٢)، وفي الأنفال الآية (٥١).

(٤) بعدها في (ر): «فيه».

(٥) في (ف): «فيه لهم» بدل: «لهم في ذلك».

﴿أَصَابَكَ﴾، ولَمْ يقلْ: ما أصبتَهُ، وفي العمل يُذكر كذلك، وهو احتجاجُ الحسين بن الفضل البجليِّ(١) رحمَهُ الله، فإنَّه احتجَّ على المعتزلةِ بهذا الوجه.

وجوابٌ آخرُ أشار إليه الإمام أبو منصورٍ رحمه الله: أنَّه يجوز أنْ يكون أراد به الحسنةَ التي هي الطَّاعة، والسيِّئة التي هي المعصية، ويجوز أنْ يُقال في ذلك: ﴿مَّآ أَصَابَكَ﴾؛ لأنَّ ما أصابك فقد أصبتَه، وهو كقوله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]، **وقوله تعالى**: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾ [مريم: ٦١]، ويكونُ هذا تعليماً للنبيِّ ﷺ وأُمَّته أنَّهم في حقِّ الطاعة يَنبغي لهم أن يُضيفوا ذلك إلى الله تعالى؛ ليروا منه الفضلَ والمنَّة، ويتضرَّعوا إليه، ولا يُضيفوهُ إلى أنفسِهم؛ كيلا يُبطِلوهُ بالعُجب والرِّياء والسُّمعة، ولا يَعتمدوا عليه، وفي حقِّ المعصية يُضيفون ذلك إلى أنفُسِهم؛ حياءً وندماً مِن ذنوبهم(٢)، ولا يُضيفون ذلك إلى الله؛ تمهيداً لعذر أنفسهم(٣).

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ فضلاً، ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ كَسْباً، وكلاهما من الله تعالى خَلْقاً(٤).

وقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ فمنكَ الدَّعوةُ وتبليغُ الرِّسالة، وليس إليك الحسنةُ والسيِّئة.

وقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي: عليك وعليهم، يجزي كلًّا بما شَهِدَ عليه.

وقيل: أي: شاهداً بأنَّك رسولُه.

---

(١) هو العلامة المفسر اللغوي المحدث، أبو علي البَجَليُّ الكوفي النيسابوري، إمام عصره في معاني القرآن، توفي سنة (٢٨٢هـ). انظر: «سير أعلام النبلاء» (١٣/ ٤١٤ ـ ٤١٦).

(٢) في (ف): «أنفسهم».

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٣/ ٢٦٧ ـ ٢٦٨).

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٣٤٩).

(٨٠) ـ ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ في الدُّعاء إلى القتال وغيرِه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ﴾[١] أي: أعرضَ عن طاعتِك يا محمَّد. رجع الكلامُ إلى المخاطبة بعد المغايبة، وهو متعارفُ أهلِ الفصاحة، وأحدُ أنواع البلاغة.

وقوله تعالى: ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾؛ أي: رقيباً عليهم، تُجبِرُهم على الإخلاص، وتعاقِبُ[٢] في تركِ ذلك.

وقيل: أي: ومَن أعرض، فلا حرجَ[٣] عليك؛ لأنَّك لم تُرسَلْ حفيظاً عليهم تحفظُهم عن المعاصي فلا يَعصوا.

وقيل: فما أرسلناكَ حفيظاً تَطَّلع على سرائرهم، إنَّما عليك أنْ تُعامِلهم على ظواهرِهم.

وقال مقاتل: قال النبيُّ ﷺ: «من أحبَّني فقد أحبَّ الله، ومَن أطاعني فقد أطاع الله»، فقال المنافقون: أما ترون هذا الرجل يَنهانا أنْ نعبدَ غيرَ الله، ويريدُ أنْ نتَّخذه حناناً، كما اتَّخذت النَّصارى عيسى بن مريم حناناً؟! فنزلَت هذه الآية[٤].

* * *

(٨١) ـ ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾.

---

(١) بعدها في (ف): «﴿فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ ومن تولى».

(٢) في (أ): «ويعاتب».

(٣) في (ف): «جناح».

(٤) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٣٩٢).

وقوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ ﴾؛ أي: يقول المنافقون: هذه طاعةٌ، أو: مِنَّا طاعةٌ، أو: لأمرك طاعةٌ، يقولون هذا بحضرتِك.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ﴾ أي: خَرجوا وغابوا.

وقوله تعالى: ﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ﴾ قال أبو عبيدة: ﴿بَيَّتَ﴾ أي: غيَّر، لغة طيِّئ[١].

وقيل: دبَّر ليلاً، من: بات يبيت بيتوتةً للازم، وبيَّتَ تبييتاً للمتعدِّي.

وقيل: أي: ألَّف وزخرفَ وغيَّر الذي تقول[٢]؛ أي: قولاً غير الذي تقول يا محمَّد.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾؛ أي: يأمرُ الملائكة بانتساخِه، ويُحاسِبُهم به[٣] يومَ القيامة، ويُجازيهم عليه.

وقيل: أي: يُنزِل بذلك كتاباً على نبيِّه ﷺ، فيَهتِك أستارَهم بما أخفوهُ باللَّيل.

وقوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي: عن مكافأتهم للحال، ونُسِخ ذلك بالأمر بالقتال.

وقيل: أي: لا تتكلَّف لإظهارِ سرِّهم والتطلُّع عليه، فأنا أُطلِعُك عليه؛ إظهاراً لصدق دعواك.

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: اعتمِد عليه، وثِقْ به؛ فإنَّه يكفيكَهُم[٤].

---

(١) كذا قال، والذي في «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (١/ ١٣٢) أنه فسر ﴿بَيَّتَ﴾ بـ: قدَّر. وانظر رواية تفسير التبييت بالتغيير عن لغة طيئ في «تفسير الطبري» (٧/ ٤٧٢).

(٢) من قوله: «قال أبو عبيدة» إلى هنا ليس في (ف).

(٣) في (ف): «عليه».

(٤) في (ف): «يكفيك».

وقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي: كافياً ومتولِّياً وناصراً.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾ إذا حضروك استسلموا في مشاهدَتِك، فإذا خرجوا انقطعَ عنهم نورُ إقبالِك، فعادوا إلى ظلماتِ نفاقِهم في مخالفتِكَ، قال قائلهم:

إذا ارْعَوى[1] عادَ إلى جَهلِه كذي[2] الضَّنى عادَ[3] إلى نُكْسِهِ[4]

* * *

(٨٢) ـ ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ استفهامٌ بمعنى الأمر، كقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٧٤].

والتَّدبُّر: النَّظر في دُبُر الأمر؛ أي: عاقبته، وهو قريبٌ من التَّفكُّر، غير أنَّ[5] التَّفكُّر تصرُّف القلب بالنَّظر في[6] الدَّلائل، والتَّدبُّر تصرُّفه بالنَّظر في العواقب، والتَّدبُّر في القرآن: التأمُّلُ في معانيه بعد تلاوتِه أو سماعه، أو طلبُ ما يؤول إليه ظاهرُه مِن المعنى المرادِ به.

ودلَّ هذا على بطلانِ التَّقليد، ووجوبِ طلبِ الدَّليل، وأنَّه حظُّ أهلِ العلم،

---

(١) في (ف): «الغوى».

(٢) في النسخ الخطية: «كذا»، والمثبت من المصادر.

(٣) في (أ) و(ر): «رد».

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٣٤٩). والبيت لصالح بن عبد القدوس، انظر: «البيان والتبيين» للجاحظ (١/ ١٢٠)، و«طبقات الشعراء» لابن المعتز (ص: ٨٩).

(٥) من قوله: «وقوله تعالى: أفلا يتدبرون» إلى هنا ليس في (أ).

(٦) في (ر): «إلى».

وهـم الخاصَّة، وعلـى العامَّة اتِّباعُهـم فيما فهموهُ منـه[١]، وأخبروهم[٢] به.

وقال القشيريُّ رحمه الله: التدبُّر: إثارةُ المعاني بغوصِ الأفكار، واستخراجُ جواهرِ المعاني بدقائقِ الاعتبار[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾؛ أي: ولو لم يكن كلامُ الله الحكيم منزَّلاً من عنده، وكان مِن كلام البَشر، لم يخلُ مِن أنْ يَلحقَهُ اختلالٌ في نظمِه أو معناه، وتناقضٌ فيما ذُكِر فيه؛ لأنَّ المتعارَفَ في الخطيبِ الفصيح البليغ منَّا أنَّه إذا كثُرَ كلامُه، اختلَّ نظامُه، واختلفَتْ أقسامُه، خصوصاً إذا تَطاولت في تفاريقِ كلامِه أيَّامُه[٤].

وقيل: ﴿لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ فيما أخبرَ النبيُّ ﷺ عن أَشياءَ تكونُ وتَظهرُ بخلافِه، كما كان يَقعُ ذلك في كلامِ كهنتِهم، ولـمَّا ظهرَ جميعُ ما أخبرَ عنه كما أخبر عنه؛ ثبتَ أنَّه مِن عند اللهِ الصَّادقِ الحكيم، الخبير العليم.

فأمَّا اختلافُ القراءات[٥]؛ فكلُّها منزَّلة، وأمَّا اختلافُ الآيات الناسخة والمنسوخة؛ فإنَّ كلَّ حُكمٍ كان في غير زمانِ الحكمِ الآخر، فلم يكن اختلافاً، وأمَّا اختلافُ المفسِّرين في التَّفسير والتَّأويل، فهو الكلام[٦] في محتملاتِ الظَّواهر ومدلولاتِها، ويَحتملُ أنْ تكونَ كلُّها مرادةً بها، وأمَّا اختلافُ العلماءِ في أحكام منها،

---

(١) في (ف): «منهم».

(٢) في (أ): «وأخبروه».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٣٥٠).

(٤) لفظ: «أيَّامه» ليس في (أ).

(٥) في (أ): «القراءة».

(٦) في (ف): «للكلام».

مع رجوعهم جميعاً إلى التعلُّق بها؛ فذاك اختلافُهم لا اختلافُه؛ وهو كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ [هود: ١١٠]، وذاك لا يُوجِب اختلافَ التَّوراة، وكقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ [البقرة: ٢١٣]، ولم يوجبْ ذلك اختلافَ الدِّين، وما يَتعلَّقُ الـمُلحِدةُ(١) به من آياتٍ(٢) يدَّعون فيها الاختلاف، فقد تفصَّى(٣) عنه أهلُ الحقِّ، وستجدُها مشروحةً في كتابنا هذا في مواضعها إنْ شاء الله تعالى.

* * *

(٨٣) ـ ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ﴾ هذه الآيةُ والتي قبلها في المنافقين أيضاً، يقول: إذا أتى المنافقين خبرُ أمنٍ للسَّرايا التي بعثَها النبيُّ ﷺ، أو خبرُ خوفٍ لهم، أفشَوه.

وقد ذاعَ ذُيوعاً، وأذاعَهُ غيرُه إذاعةً، وأذاعَ به أيضاً، وشاعَ كذلك، وأشاعه للتعدية، وهو انتشارُ الأمرِ وظهورُه بين النَّاس، وإنَّما ذمَّهم بذلك؛ لأنَّهم كانوا يَتسارعون إلى نشرِه قبلَ تحقُّقه والعلمِ بتَفصيلِه؛ لتَختلفَ التَّأويلات مِن سامعِيه، وفيه وقوعُ الفتنة، نحو أن يقعَ(٤) الخبر أنهم غلبوا العدوَّ، فإذا نشروا أنَّ الأمرَ قد تمَّ،

---

(١) في (أ): «الملاحدة».

(٢) في (ف): «الآيات».

(٣) تفصى: تخلص من المضيق والبلية. انظر: «مختار الصحاح» (مادة: فصا).

(٤) في (أ): «نفع».

يتخلَّفُ الـمَدَدُ، وربَّما يُحتاج إليه، أو يقعُ نوعُ وهنٍ، فإذا نشروا أنَّ الدَّبرَةَ وقعَت على المؤمنين بالكلِّيَّة، جَبُنَ الباقون عن الخروج.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾؛ أي: تركوهُ حتَّى يُخبِرهم الرَّسولُ وهو حقيقةٌ؛ لأنَّه يُخبِرُ عن الله بإخبارِه[1] الصِّدقَ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ﴾ أي: أمراءِ السَّرايا؛ ليُخبِروهم عن عَيانٍ، وهو على وجهِه وتمامِه.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡ﴾ أي: لوصلَ إلى حقيقةِ علمِه الذين يَستخرجونَ الخبرَ من أمراء السَّرايا والرَّسول.

والاستِنْباطُ: الاستخراج، والنَّبَط: الماء الذي يُخرَجُ مِن البئرِ أوَّلَ ما تُحفَرُ، وأنبطَ فلانٌ واستنبط؛ أي: استخرجَ هذا الماءَ، والنَّبَطُ: جيلٌ من الناس، سمُّوا به لاختصاصهم باستخراج العيونِ والآبار. وقيل: لأنَّهم استُخرِجوا من أرضِهم إلى غيرِها.

وقيل: ﴿وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾؛ أي: رجَعوا إليه في الاستخبار، ﴿وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ﴾ أي: إلى الذين يَدخلون على النبيِّ ﷺ، ويَلوْنَ أمرَهُ؛ كالخلفاء الرَّاشدين الأربعة، وكبارِ الصَّحابة رضي الله عنهم، لعلِمَه المستنبطون؛ أي: الباحثون بالسُّؤال عن النبيِّ ﷺ. وقوله: ﴿مِنۡهُمۡ﴾ للتبعيض؛ أي: بعضُ كبارِ الصحابة علموا ذلك بالبحث، ثمَّ أخبروا الناسَ عن حقيقتِه.

وقوله تعالى: ﴿أَذَاعُواْ بِهِۦ﴾ هذا وصفٌ للمنافقين بالإرجاف؛ وهو كقوله تعالى: ﴿لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾ الآية [الأحزاب: ٦٠].

---

(١) في (ف): «بأخبار».

وقيل: معنى الآية: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾ ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾، فالمذكورُ في آخرِ الآية مُلحَقٌ بهذا الموضع معنىً، **وقوله تعالى**: ﴿أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾ أي: نشروا به؛ أي: نشروا[١] كلَّه؛ يعني: إذا كان الخبرُ سارًّا للمؤمنين، ذكروا بعضَهُ نفياً للتُّهمةِ، ولم يبيِّنوا تمامَه؛ كراهةَ الخيرِ لأهلِ الإيمان والمعرفة، وإذا كان الخبرُ محزناً[٢]، نشروا كلَّه؛ تحزيناً للمؤمنين بالشِّدَّة والنكبة[٣]؛ وهو كقوله تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ أيُّها المخلِصون.

وقوله تعالى: ﴿لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ أي: في إذاعة الخبر.

وقيل: هو على العموم، وهو متابعةُ الشَّيطان في الكفر والمعاصي.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ قيل: هو متَّصلٌ بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَذَاعُوا بِهِ﴾؛ أي: أفشوه إلَّا قليلاً منهم.

وقيل: هو متَّصلٌ بقوله: ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾[٤].

وقيل: هو مقرَّرٌ في موضعه ﴿لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، وهذا مشكلٌ لو حُمِلَ على مطلقِ الفضلِ والرَّحمةِ؛ لأنَّه يصيرُ تقديرُه: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ لا يتَّبعونه بدون فضلِ الله ورحمتِه. وهذا لا يستقيم؛ لأنَّه لا عصمةَ إلَّا بالله، لكن تأويلُه: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ﴾ بإرسال محمَّدٍ

---

(١) قوله: «به أي نشروا» من (ف).

(٢) في (أ): «مجزياً» بدل من «الخبر محزناً».

(٣) في (أ): «والبلية».

(٤) ما بين معكوفتين زيادة من (أ). وفي (ف): «لعلمه الذين يستنبطونه إلا قليلًا».

﴿وَرَحْمَتُهُۥ﴾ بإنزال القرآن، ﴿لَاتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ لا يتَّبعونه بالعقل؛ كزيدِ ابن عمرو بن نُفَيل، وقَسِّ بنِ ساعدة، وبَحيرا الرَّاهب، وورقةَ بنِ نوفل، وسيف بن ذي يزن، وآخرين.

وقيل: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ هم الأطفالُ ومَن لم تبلغْهُ[1] الدَّعوة.

* * *

(٨٤) ـ ﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الفاء للوصلِ بقولِه: ﴿وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ﴾ [النساء: ٧٤]، وقيل: للوصلِ بقوله: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٥]؛ ذكرهما الزَّجَّاج[2].

وقيل: للوصل بقوله: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ﴾ ﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ولا تَلتفِت إلى صنيعِهم.

وقوله تعالى: ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾؛ أي: لا تُلزَمُ الكلفةَ في الجهاد يا محمَّدُ إلَّا في نفسِك، فاخرجْ وإن لمْ يُساعِدك أحدٌ، ولا شيءَ عليك بتخلُّفهم؛ وهو كقوله تعالى: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٥٢]، ولا تُعذَرُ أنت ببقائِك وحدَك.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: أي: استقِم معنا بتسليمِ الكُلِّ منك إلى أمرِنا،

---

(١) في (ف): «تبلغهم».

(٢) في «معاني القرآن» له (٢/ ٨٤ ـ ٨٥).

فإنَّك كما لا يُقارِبكَ[١] أحدٌ في رتبتكَ؛ لعلوِّك على الكلِّ، لا نكلِّفُ[٢] غيرَك[٣] بمثل ما تُكلَّف[٤]، ولا نصرِّفُ[٥] سواكَ فيما تُصرَّف؛ لانفرادِكَ عن أشكالِك، وتوحُّدِكَ عن أمثالِك[٦].

وقوله تعالى: ﴿وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: حُثَّهم على الجهادِ بذكرِ الثَّوابِ والعقاب، أو[٧] بما فيه من إعزازِ الدِّين وذبِّ الأعداء عن حوزةِ المسلمين، أو بوعدِ النُّصْرة والغنيمةِ والتَّمكين[٨]، أو بما ذُكِر بعدَه، وهو قولُه[٩] تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، و﴿عَسَى﴾ مِن الله واجبٌ؛ لأنَّه إطماعٌ، والكريمُ إذا أطمَعَ أنجزَ، والكَفُّ: المنع، والبأسُ في الأصل: المكروه، ثمَّ يُوضَع موضعَ الحرب، قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٨]، وكان جُبنهُم لشِدَّة بأسِ الكفَّار، فأمرَه بالتَّحريضِ بهذا الإطماع.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾؛ أي: بأسُ اللهِ الذي يوقِعُه بالمخالفين أمرُهُ أشدُّ، وتنكيلُه ـ أي: تعذيبُه ـ كذلك، وهو الإبلاغُ في العقوبةِ على وجهٍ يَقعُ به نكولُ الغيرِ عن مثل تلك الجناية، ويجوز أن يكونا جميعاً في الدُّنيا،

---

(١) في (ر) ومطبوع «لطائف الإشارات»: «يقارنك».

(٢) في (أ): «يكلف».

(٣) بعدها في (أ) و(ر): «به».

(٤) في (ف): «تكلفك» بدل «ما تُكلَّف».

(٥) في (أ): «يصرف».

(٦) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٣٥١).

(٧) في (أ): «أي».

(٨) في (ف): «والتمكن».

(٩) في (ر) و(ف): «وقوله» بدل: «وهو قوله».

ويجوزُ أن يكون أحدُهما في الدُّنيا، والآخرُ في الآخرة(١)، ثمَّ له ثلاثةُ أوجهٍ:

أحدُها: أنَّ معناه أنَّ عذابَ اللهِ أشَدُّ مِن جميعِ ما يَنالُكم بقتالِهم؛ لأنَّ مكروهَهم يَنقطعُ، ثمَّ يَصيرون إلى الجنَّة، وما يَصِلُ إلى المنافقينَ والكفَّار مِن عذابِ الله تعالى يَدومُ ولا يَنقطِع.

والثَّاني: ولـمَّا كان عذابُ الله أشدَّ، فهو أولَى أنْ يُخَاف، فلا(٢) يجري في أمرِه بالقتال منكم خلافٌ، وهذا وعيدٌ.

والثَّالثُ: ولـمَّا كان عذابُ الله أشدَّ؛ فهو يَدفعُهم عنكم، ويَكفيكُم أمرَهم، وهذا وعدٌ(٣).

وقال الكلبيُّ: لـمَّا(٤) التقى النبيُّ ﷺ وأبو سفيانَ يومَ أُحُدٍ، وكان منهم ما كان؛ رجعَ أبو سفيان إلى مكَّةَ، وواعدَهُ النبيُّ ﷺ موسمَ بدرٍ الصُّغرى؛ وهو سوقٌ يقوم في ذي القعدة، فلمَّا جاء الميعادُ؛ قال النبيُّ ﷺ للناس: «اخرجوا إلى العدوِّ»، فكرهوا ذلك؛ فنزلت هذه الآية، فقامَ النبيُّ ﷺ على المنبرِ خطيباً، وقال في خطبته: «لا أبالي مَن نصرني ومن خَذلني بعد ما قال اللهُ تعالى لي: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾»، ثمَّ نزلَ ولَبِسَ السِّلاحَ، وخرجَ واتَّبعَهُ سبعون راكباً، حتَّى أتى موسمَ بدرٍ، وكفَّ الله بأس الذين كفروا، ولم يوافِ أبو سفيان، ولو لم يتبعْ رسولَ الله ﷺ أحدٌ؛ لمضى بنفسِه، حين قال الله تعالى: ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾، وقد بيَّنَّا تلك القصَّة عند قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [آل عمران: ١٧٢].

---

(١) في (ر): «العقبى».

(٢) في (ر) و(ف): «ولا».

(٣) في (ف): «وعيد».

(٤) في (ف): «فلما».

(٨٥) ـ ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ﴾[١]؛ أي: في تحريضِ المؤمنين على الجهاد ﴿يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ﴾؛ لأنَّ الدالَّ على الخيرِ كفاعله.

وقيل: أي: يشفع إلى الأغنياء في تجهيزِ الغُزاةِ الفقراء، يكن له حظٌّ من ثوابِ ذلك، قال النبيُّ ﷺ: «مَن جهَّز غازياً فقد غزا»[٢].

وقيل: مَن يَشفع إلى غيره في عفوٍ عمَّا يَصِحُّ العفوُ عنه، أو في صُلْحٍ[٣]، أو في قضاء حاجةٍ فله فيها ثوابٌ، قال النبيُّ ﷺ «إنَّ مِن أفضلِ الشَّفاعات أن يشفع بين اثنين في نكاح»[٤]، وقال النبيُّ ﷺ: «اشفعوا تؤجروا، ويَقضي اللهُ على لسانِ نبيِّه ما يشاء»[٥].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ وهي في تَجبين المؤمنين عن الجهاد على مقابلة القول الأوَّل، فيقول له: أولادُك صِغارٌ فارحمهم، ونفسُك ضعيفةٌ، والطَّريقُ بعيدٌ، وفي العدوِّ كثرةٌ، وفي المالِ قلَّةٌ، ونحو ذلك؛ يكن له حظٌّ من الوبال.

والكِفْلُ: الحظُّ[٦]؛ كالنصيب، وغايرَ بينهما للبلاغة. وقيل: الكِفْلُ: المِثْلُ.

---

(١) «يكن له نصيب منها» ليس في (أ).

(٢) رواه البخاري (٢٨٤٣)، ومسلم (١٨٩٥) من حديث زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه.

(٣) قوله: «أو في صلح» ليس في (أ).

(٤) رواه ابن ماجه في «سننه» (١٩٧٥) من حديث أبي رُهم. وضعف إسناده الشيخ شعيب الأرناؤوط رحمه الله في تحقيقه «سنن ابن ماجه».

(٥) رواه البخاري (١٤٣٢)، ومسلم (٢٦٢٧) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٦) في (ف): «الخطيئة» بدل: «الحظ».

وقيل: هو الجزاءُ المضموم إلى العمل، مِن الكفالة؛ وهي ضمُّ ذمَّةٍ إلى ذمَّةٍ في الضمان بالمال، وضمُّ التزامٍ إلى التزامٍ في الضمان بالنَّفس.

وقيل: الشَّفاعةُ السَّيِّئةُ: شفاعةُ بعض المنافقين إلى النبيِّ ﷺ في بعض في الاستئذان بالتخلُّف عن الجهاد.

وقيل: هي الشَّفاعةُ إلى ظالمٍ في معونةٍ على ظلمٍ، أو إبطالِ حقٍّ، أو تركِ إقامةِ حدٍّ، وأصلُ الشفاعة: هو ضمُّ نفسِه إلى صاحبِ الحقِّ؛ ليجتمعا على مسألة الحاجة مِن المشفوع إليه، وهي مأخوذةٌ من الشَّفع، والشُّفْعَة سمِّيت بها؛ لأنَّها شَفْع ملكٍ إلى ملك.

وقال مقاتل: هو الشَّفاعةُ إلى الله تعالى بدعاء الخير وبدعاءِ الشَّرِّ.

وروى أبو الدَّرداء عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «من دعا لأخيه المسلم بظهر الغيب؛ قالت الملائكة: آمين ولك بمثله»(١)، وفي حقِّ الدُّعاء بالشرِّ هو كاللعنة إذا لم تُصادف محلَّها؛ رجعَت على(٢) صاحبها(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا﴾؛ أي: مقتدراً، قال الزُّبيرُ بنُ(٤) عبد المطَّلب:

---

(١) رواه مسلم في «صحيحه» (٢٧٣٢).

(٢) في (ر): «إلى».

(٣) يشير إلى ما أخرجه أبو داود في «سننه» عن أبي الدرداء قال: قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد إذا لعن شيئاً صعدت اللعنةُ إلى السماء، فتغلقُ أبواب السماءِ دونها، ثمَّ تهبط إلى الأرض، فتغلق أبوابها دونها، ثم تأخذ يميناً وشمالاً، فإذا لم تجد مساغاً رجعَت إلى الذي لُعن، فإن كان لذلك أهلاً، وإلا رجعت إلى قائلها».

(٤) «بن» ليس من (أ).

وذي ضِغْنٍ كَفَفْتُ النَّفسَ عنه   وكنتُ على مساءَتِهِ مُقِيتَا[١]

وقيل: أي: حافظاً، وقيل: أي: شاهداً؛ أي: يَعلمُ مَن يشفع في حقٍّ ومَن يشفع في باطلٍ، ويحفظُ عليه عملَه ويُجازيه على وفقِه.

***

(٨٦) ـ ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ الموافق للنَّظم قولُ بعضِ أهل العلم: إذا سُلِّمَ عليكم في أسفارِكم للجهادِ، وهو تحيَّة الإسلام، فأجيبوا بأحسنَ منها؛ أي: بالزِّيادة على السَّلام، بذكرِ الرَّحمةِ والبَرَكات، أو ردُّوها بمثلِها، واحملوا صاحبها على ظاهر الحال مِن الإسلام، ولا تَقتُلوه؛ وهو كما قال في هذه السُّورة بعد هذا بآياتٍ: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ [الآية: ٩٤].

وقيل: هي عامَّةٌ في السَّلام.

ولـمَّا أَمَر بمعاملة المنافقين بما أَمَر، أَمَرَ[٢] بمعاملةِ المخلِصين بالشَّفاعةِ الحسنةِ إلى غيره، وبتحيَّةِ السَّلام[٣] مِن نفسه، ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم﴾ أي: سُلِّم عليكم، فإنَّ التحيَّة في ديننا بالسَّلام في الدُّنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [النور: ٦١]، وقال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤]، والتَّحيَّة

---

(١) نسبه للزبير الطبري في «تفسيره» (٧/ ٢٧٢)، وابن المنذر في «تفسيره» (٢/ ٨١٥)، والماوردي في «النكت والعيون» (١/ ٥١٣)، ونسب لغيره، فنسب لأبي قيس بن رفاعة، ولأحيحة بن الجُلاح الأنصاري. وانظر التوسع في تخريجه في التعليق على «البحر المحيط» (٧/ ٢١٨).

(٢) لفظ: «أمر» من (أ).

(٣) في (ف): «الإسلام».

تَفْعِلةٌ، مِن حيَّا يُحَيِّي تحيَّةً، وكانت تحيَّة العرب عند اللقاء: حيَّاك الله؛ أي: أطالَ اللهُ حياتَك، ونقل ذلك في الإسلامِ إلى السَّلام، وبقيَ الاسمُ كذلك.

وقوله تعالى: ﴿فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾؛ أي: بالزِّيادة؛ عليكم السَّلام ورحمة الله وبركاته، وقوله[1]: ﴿أَوْ رُدُّوهَا﴾ أي: أجيبوها بقدرها؛ عليكم السَّلام، هذا القدرُ فَرْضٌ، والأوَّل فضلٌ[2]، وبيَّن النبيُّ ﷺ أنَّ في السَّلام عشرَ حسناتٍ، وفي ضمِّ الرَّحمةِ إليه عشرين حسنة، وفي ضمِّ البركات إليها ثلاثينَ حسنةً[3].

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: علَّمهم حُسْنَ العِشْرة وآدابَ الصُّحبة، وأنَّ مَنْ حمَّلَك فضلاً؛ صار ذلك في ذِمَّتك[4] له قَرْضاً[5]، فإنْ زدت على فعله، وإلَّا فلا تَنقُص عن مِثله.

وقال الحسن: أتى رجلٌ، فسلَّم على النبيِّ ﷺ، فقال: السَّلامُ عليكم، فقال النبيُّ ﷺ: «وعليكم السَّلام ورحمةُ الله»، ثمَّ جاء آخر وقال: السَّلام عليكم ورحمةُ الله، فقال النبيُّ ﷺ: «وعليكم السَّلام ورحمةُ الله وبركاته»، ثمَّ جاء آخر فقال: السَّلام عليكم ورحمةُ الله وبركاتُه، فقال النبيُّ ﷺ: «وعليكم»، فقيل: يا رسول الله؛ زدتَ الأوَّل والثَّاني، وقلت للثَّالث: «وعليكم»، فقال النبيُّ ﷺ: «إنَّ

---

(١) «وقوله» ليس من (أ).

(٢) في (ف): «أفضل».

(٣) رواه أبو داود في «سننه» (٥١٩٥)، والترمذي في «سننه» (٢٦٨٩)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٠٩٧) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه، ورواه البخاري في «الأدب المفرد» (٩٨٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وروي عن غيرهما.

(٤) في (أ): «كان كمن ملك» وبعدها بياض بمقدار كلمة بدل قوله: «صار ذلك في ذمتك».

(٥) في (أ): «ملك فضلًا كان كمن ملك له قرصاً» بدل من «حملك فضلًا؛ صار ذلك في ذمَّتك له فرضاً».

الأوَّل سلَّم وأبقى من التَّحيَّة شيئاً، فردَدتُ عليه بأحسنَ منها، وكذلك الثَّاني، وإنَّ الثَّالث جاءَ بالتَّحيَّة كلِّها، فردَدتُ عليه مثلَها»(١).

وعن جابرٍ رضي الله عنه في تأويل هذه الآية: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ﴾: على أهل الإسلام(٢)، ﴿أَوْ رُدُّوهَآ﴾ بمثلِها على أهلِ الشرك(٣).

وكذا قال الكلبيُّ وعطاءٌ والحسنُ والضَّحَّاك: إنَّ المثَلَ في حقِّ أهل الذِّمَّة لا يُزادُ عليه(٤).

وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسَّلام، فإنْ بَدؤوكم؛ فقولوا: وعليكم»(٥).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾؛ أي: محاسباً، والفعيلُ في معنى(٦) الفاعِل؛ كالشَّريك والخَليطِ والنَّديم والقَرين والجليس؛ يحاسبكم(٧) على أعمالكم، ويجازيكم عليها.

---

(١) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (١/ ٥١٣).

(٢) بعدها في (أ) و(ر): «أو ردوها بمثلها على أهل الإسلام» ليس من (ف).

(٣) لم أقف عليه عن جابر، وأخرجه أبو يعلى في «مسنده» (١٥٣١)، وابن المنذر في «تفسيره» (٢٠٧٥) عن الحسن البصري.

(٤) ذكره الواحدي في «البسيط» (٧/ ١٩) عن الكلبي، وتخريج قول الحسن في التعليق السابق.

(٥) رواه ابن ماجه في «سننه» (٣٦٩٩) عن أبي عبد الرحمن الجهني رضي الله عنه، ولم أقف عليه بهذا السياق عن أبي هريرة، وأخرج مسلم في «صحيحه» (٢١٦٧) من حديثه مرفوعاً: «لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام، فإذا لقيتم أحدهم فاضطروه إلى أضيقه».

(٦) في (ف): «بمعنى».

(٧) لفظ: «يحاسبكم» ليس في (أ).

وقال مجاهدٌ: أي: رقيباً[١].

وقال أبو العالية: أي: حفيظاً.

وقيل: أي: كافياً، وقد[٢] أحسبَني الشيء؛ أي: كفاني، وقال تعالى: ﴿عَطَآءً حِسَابًا﴾ [النبأ: ٣٦].

* * *

(٨٧) ـ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فهو الحسيبُ وحده، والمقيتُ وحده؛ لا حسيبَ غيرُه، ولا مُقيتَ غيرُه.

ووجهٌ آخر: أنَّه ذكر في الآيات المتقدِّمة مقالاتِ اليهود والمنافقين، وهي كفرٌ، فذكر[٣] عقيبَها هذه الكلمات، وهي شهادةُ التَّوحيد؛ كما في مواضع من القرآن: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ الآية [البقرة: ١٦١]، ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة: ١٦٣]، ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٤ ـ ٢٥٥]، ﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١ ـ ٢]، ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [المائدة: ٧٣].

---

(١) لم أقف عليه، وأخرج الطبري في «تفسيره» (٧/ ٢٧٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ١٠٢١) (٥٧٣٢) عن مجاهد أنه قال في تفسير «حسيباً»: حفيظاً.

(٢) في (ف): «وقيل».

(٣) في (ر): «فقد ذكر» بدل: «فذكر».

وقيل: هي أساسٌ لما بعده: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾؛ لأنَّ الفاءَ للوصل؛ يَعني: هُوَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وهو الذي يَجمعُكم[1] يومَ القيامة، فإيَّاه فاخشَوا دون المنافقين.

وقوله تعالى: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ اللام في أوَّله والنونُ في آخره للقسَم.

وقوله تعالى: ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾؛ أي: في يوم القيامة، وقال[2] النابغة:

فلا تَتْرُكَنِّي بالوعيدِ كأنَّني إلى النَّاس مَطْلِيٌّ به القارُ أجربُ[3]

أي: في النَّاس.

وقيل: أي: ليَجمعنَّكُم في القبور إلى يومِ القيامة، وهي غايةٌ، ويومُ القيامة: يومُ القيامِ من القبورِ إلى أرض المحشر، قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

وقيل: هو يومُ القيامِ في موقفِ الحساب، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٦].

وقوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: لا شكَّ[4] في كونه، وفيه كلامٌ ذكرناه في أوَّل سورة البقرة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ استفهامٌ بمعنى النَّفي؛ وهو كقوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]؛ أي: لا أصدقَ مِن الله فيما قال وأخبر وحدَّث، فثِقوا بما قال: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ وغير ذلك.

---

(١) بعدها في (ف): «إلى».

(٢) في (ف): «كما قال».

(٣) انظر: «ديوان النابغة» (ص: ٧٣).

(٤) بعدها في (ف): «فيه».

(٨٨) ـ ﴿ ۞ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: نزلَت الآية في أربعين أو خمسين رجلاً من أهل مكَّة، وذلك أنَّ النبيَّ ﷺ لـمَّا هاجرَ إلى المدينة مع طائفةٍ، وتخلَّفت طائفةٌ بسبب المال والولد؛ أنزل الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾ [الأنفال: ٧٢]، فأراد المتخلِّفون أنْ يُهاجِروا، فمنعَهم مشركو مكَّة بالسَّيف؛ فمنهم مَن افتدى بمالِه وهاجرَ، ومنهم مَن خافَ على نفسِه ومالِه ولم يهاجر، حتَّى أنزل الله تعالى: ﴿الم ۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢]، فهاجرَ الباقون إلَّا أربعين أو خمسين[1] لم يهاجروا، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤]، فبعثَ النبيُّ ﷺ هذه الآيةَ إلى أهل[2] مكَّة، فلم يُهاجِروا حتَّى كانت وقعةُ بدرٍ، فأخرجَ المشركون هؤلاء الأربعين أو الخمسين مع أنفسِهم؛ ليقاتلوا المسلمين؛ إمَّا لأنَّهم لم يَعلموا بإسلامهم، أو علِموا وأكرَهوهُم على موافقتهم، فلمَّا رأوا شوكَة الكفَّار وضعفَ المسلمين، ارتابوا، فقالوا: غرَّ هؤلاء دينهم، فارتدُّوا، وقاتلوا أصحابَ النبيِّ ﷺ، وأنزلَ اللهُ تعالى الملائكةَ مدداً للمسلمين، فقَتلوا هؤلاء القوم؛ كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾ [النساء: ٩٧]، ولمَّا انتهى الأمرُ ومرَّ المسلمون بهؤلاءِ وعرَفوهُم؛ اختلفوا فيهم، فقال بعضُهم: كانوا مؤمنين أُكرِهوا على الخروج، وقال بعضُهم: كانوا منافقين، فنزلت الآية: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾.

(١) في (أ): «الباقون الأربعون»، وفي (ف): «الباقون إلا أربعون أو خمسون»، وفي (ر): «المنافقون إلاَّ خمسين أو أربعين». ولعل المثبت هو الصواب.

(٢) لفظ: «أهل» من (ف).

وقال زيدُ بن ثابت: رجع قومٌ خرجوا مع رسول الله ﷺ إلى أُحد، فاختلفَ النَّاس فيهم فرقتين، فنزلَت هذه الآيةُ[١].

وقال مجاهدٌ رحمه الله: هم نفرٌ خرجوا من مكَّة حتَّى قدموا المدينة، فزعموا أنَّهم مهاجرون، ثمَّ ارتدُّوا بعد ذلك، فاستأذَنوا النبيَّ ﷺ إلى مكَّة؛ ليَأتوا ببضائعَ لهم؛ ليتَّجِروا فيها، فاختلفَ فيهم المؤمنون؛ فقائلٌ: هم المنافقون، وقائلٌ: هم المؤمنون، فبَيَّن اللهُ تعالى نفاقَهم، وأمرَ بقتلِهم، فجاؤوا ببضائعهم يريدون هلالَ بن عويمرٍ الأسلميَّ، وبينَه وبينَ رسولِ الله ﷺ حِلْفٌ[٢]؛ وهو الذي حَصِرَ صدرُه أنْ يقاتلَ المؤمنين أو يقاتلَ قومَهُ، فدفعَ اللهُ تعالى عنهم بأنَّهم يَؤُمُّون[٣] هلالاً، وبينَه وبين رسولِ الله ﷺ عهدٌ[٤].

وقال سعدُ بن معاذ: خطبَ رسولُ الله ﷺ النَّاسَ فقال: «مَن لي بمن يؤذيني»، فقام سعدُ بنُ معاذ، فقال: إنْ كان منَّا؛ أي[٥] مِن الأوس؛ قتلناه، وإنْ كان من الخزرج؛ أمرتنا فأطعناك، فقام سعدُ بن عبادة فقال: ما بكَ يا ابن معاذٍ طاعةُ رسولِ الله ﷺ، ولقد تكلَّمت بما هو منكرٌ[٦]، فقام محمَّدُ بنُ مسلَمة فقال: اسكتوا أيُّها الناس ما[٧]

---

(١) رواه البخاري في «صحيحه» (١٨٨٤)، ومسلم في «صحيحه» (٢٧٧٦).

(٢) وقع في هامش (ف) ما نصه: «الحلف بالكسر: العهد».

(٣) في (أ): «يؤمنون».

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (٧/ ٢٨٢ ـ ٢٨٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ١٠٢٤) (٥٧٤٤).

(٥) قوله: «منَّا أي» ليس في (أ)، ولفظ: «أي» ليس في (ر).

(٦) كذا في النسخ، وفي «سنن سعيد بن منصور»: «تكلمت ما هو منك»، وفي «تفسير ابن المنذر» و«تفسير ابن أبي حاتم»: «عرفت ما هو منك»

(٧) بعدها في (ف): «به».

كان فينا رسولُ الله ﷺ، وهو يأمرنا[١]؛ فأنزلَ اللهُ تعالى هذه الآية[٢].

وقال الكلبيُّ: هاجر ناسٌ من قريشٍ، فقَدموا المدينةَ، فأسلَموا، ثمَّ ندموا، وأرادوا الرَّجعةَ[٣] إلى مكَّة، فاجتووا المدينة فخرجوا، فقال لهم المسلمون: ما تريدون؟ قالوا: اجتَوينا المدينةَ، فخرجنا نَتنزَّه، فصدَّقوهم، فجعلوا يتحوَّلون منقلةً منقلة[٤]، حتَّى تَباعدوا من المدينة، ثمَّ أدلجوا وقد قطعوا أرضاً بعيدةً من المدينة، فلَحِقوا بمكَّة، وكتبوا كتاباً إلى رسول الله ﷺ: إنَّا على الذي فارقناك[٥] عليه من التَّصديق بالله ورسولِه، ولكنَّا اشتقنا إلى أرضِنا، واجتوينا المدينة، ثمَّ إنَّهم أرادوا أن يَخرجوا في تجارةٍ نحو الشَّام، فاستبضعَهُم أهلُ مكَّة، فقالوا: أنتم على دِين محمَّد وأصحابِهِ، وإنْ لقوكم فلا بأس عليكم منهم، فبلغَ ذلك المسلمين، فقال بعضُهم: ما يمنعُنا أنْ نخرجَ إلى هؤلاء فنَقتلَهم، ونأخذَ ما معهم؟ فقال بعضهم: سبحان الله! تقتلون قوماً على دينِكم[٦]، إن لم يذروا ديارَهم وأموالَهم وقرارَهم فقد حلَّت دماؤهم؟! ورسولُ الله ﷺ ساكتٌ، لا ينهى واحداً من الفريقين[٧]، حتَّى نزلت هذه الآية[٨]؛ وهي قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾؛ أي: أيُّ شيءٍ

---

(١) في (ف): «يأمر».

(٢) رواه سعيد بن منصور في «سننه» (٦٦٣ ـ تفسير)، وابن المنذر في «تفسيره» (٢٠٨٢)، وابن أبي حاتم (٣/ ١٠٢٣) (٥٧٤٠).

(٣) في (ف): «المراجعة».

(٤) المنقلة: المرحلة من مراحل السفر. انظر: «الصحاح» (مادة: نقل).

(٥) في (ر): «فارقتنا».

(٦) بعدها في (ف): «فقالوا».

(٧) بعدها في (ف): «جميعاً».

(٨) هذه الرواية ذكرها الثعلبي في «تفسيره» (٣/ ٣٥٥)، دون نسبتها للكلبي.

لكم؟ استفهامٌ بمعنى الاستنكار ﴿فِئَتَيۡنِ﴾ أي: فرقتين[١]؛ نصبٌ على الحال، أو هو نصبٌ على التَّمام، وقيل: على القطع، وقيل: هو على إضمار: كنتم أو صرتم. ﴿فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ كلامٌ تامٌّ، فكان ما بعد ذلك على الوجوه التي قلنا؛ وهو كقولك: مالك واقفاً؟ ونظيرُه في القرآن: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ﴾ [المعارج: ٣٦]، وسمَّاهم منافقين بعد إظهارهم الكفرَ بمكَّة؛ لنفاقِهم بالمدينة، وخفاءِ حالِهم على المسلمين.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: أي: ردَّهم[٢].

وقال الزَّجَّاج: أي[٣]: نكسَهم[٤].

وقال قتادة: أهلكهم[٥].

وفي اللغة: ركسه وأركسه؛ أي: ردَّه إلى الحالة الأولى، وقال أميَّةُ بن أبي الصلت:

فأُرْكِسوا في حميمِ النَّارِ إنَّهُمُ   كانوا عصاةً وقالوا الإفكَ والزُّورَا[٦]

ومعنى الآية: والله ردَّهم إلى الكفر.

---

(١) في (ر): «فريقين».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٧/ ٢٨٨)، وابن المنذر في «تفسيره» (٢٠٨٧).

(٣) لفظ: «أي» من (أ).

(٤) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٨٨).

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (٧/ ٢٨٨)، وابن المنذر في «تفسيره» (٢٠٨٩).

(٦) في (أ): «والوزرا». وهو تحريف، والبيت في «تفسير الطبري» (٧/ ٢٨١)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٧/ ٢٨)، وانظر: «ديوان أمية بن أبي الصلت» (ص: ٤٠٨).

وقيل: ردَّهم إلى أحكام الشِّرك في إباحةِ أموالهم ودمائِهم، والنَّهي عن موالاتِهم، وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ استفهامٌ بمعنى الإنكار.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾؛ أي: طريقاً يسلكُه غيرَ الطريقِ الذي قضى اللهُ تعالى له[1] به.

وقيل: أي: ديناً يجوز أنْ يُعتقَد.

وقيل: أي: طريقاً إلى الهدى؛ قاله[2] السُّدِّيُّ[3].

وقيل: أي: طريقاً إلى الجنَّة.

وقال الزَّجَّاج: أي: طريقاً إلى الحُجَّة[4].

وفي قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾ وفي قوله: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ حُجَّةُ أهلِ السُّنَّة في مسألةِ خلق الأفعال أنَّه مِن الله تعالى، وحقيقةُ الفعلِ مِن العباد.

* * *

(٨٩) ـ ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ أي: تمنَّوا، وكلمة «لو» تمني، وإنَّما لم يُنْصَب ﴿فَتَكُونُونَ﴾ لأنَّه عطفٌ لا جوابٌ؛ وهو كقوله: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ

---

(١) قوله: «الله تعالى له» من (ف).

(٢) في (ف): «وقال».

(٣) نسب ابن الجوزي في «زاد المسير» (٢/ ١٥٥) هذا القول لأبي سليمان الدمشقي.

(٤) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٨٨).

كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾ [النساء: ١٠٢]، أي: تمنَّى هؤلاء أنْ تكفروا أنتم[١]، فتستووا في الكفرِ المبيحِ للقَتل والسَّبي.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾؛ أي: لا توالوهم ما داموا على الكفرِ الموجبِ للمُعاداة.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: حتَّى يُسلِموا ويُهاجروا[٢]، فيعودوا إلى سبب الموالاة؛ لأنَّهم يصيرون أولياءَ الله، فتَصلحُ موالاتُكم إيَّاهم، ودليلُ إضمارِ الإسلام قولُه: ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وذاك لا يكونُ إلَّا بالإسلام، وهذا لأنَّه ذكر كفرَهم بقوله: ﴿كَمَا كَفَرُواْ﴾، فلا يَزولُ ذلك إلَّا بالإسلام، وبعد الإسلامِ شَرَط الهجرةَ أيضاً، وكانت فرضاً يومئذٍ.

وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾؛ أي: أَعرضوا عن الإسلامِ والهجرة.

وقوله تعالى: ﴿فَخُذُوهُمْ﴾ الأخذُ: الأسر.

وقوله تعالى: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾؛ أي: في الحِلِّ والحَرَم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾؛ أي: لا تتولَّوهم، ولا تَستنصِروا بهم على عدوِّكم.

* * *

(٩٠) ـ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾.

---

(١) لفظ: «أنتم» ليس في (أ).

(٢) بعدها في (ر): «في سبيل الله».

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾؛ أي: يَتَّصلون ويَلتجئون إلى قومٍ مِن أهل عهدكم بعهدٍ وأمانٍ؛ أي: إذا قَصدوا حضرةَ النبيِّ ﷺ، وتعذَّر الوصولُ إليه؛ فالتجؤوا إلى قومٍ معهم للمسلمين عهدٌ، فأمَّنوهم، فأَنْفِذُوا أمانَهم، ولا تَقتلوهم. وما قاله أبو عبيدة: ﴿يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ﴾ أي: ينتسبون[1]؛ فليس بسديدٍ؛ لأنَّ أكثرَ أهلِ مكَّةَ أنسباءُ رسول الله ﷺ وأصحابه، ولم يثبت لهم به أمانٌ، والصَّحيحُ ما قلنا.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ هذا استثناءُ حالةٍ أُخرى يَأمنون بها، وجاؤوا ماضٍ بمعنى المستقبل؛ لأنَّه عطفٌ على ﴿يَصِلُونَ﴾، وهو كقوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١]؛ أي: يأتي، يعني: وإلَّا الذين يجيئون مستأمِنين منكم. وقوله: ﴿أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾؛ أي: ضاقت.

وقوله تعالى: ﴿أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ﴾ وضيقُ صدورِهم عن قتال المؤمنين بإلقاءِ الله تعالى الرُّعبَ في قلوبِهم، وضيقُ صدورِهم عن قتالهم[2] قومَهم أنَّهم على دينِهم، فكانوا لا يصلون إلى نهب الأموال.

وقوله: ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ في معنى الحال؛ كما يقال: جاءني فلانٌ ذهبَ عقلُه؛ أي: ذاهباً عقله.

وقال سيبويه والمبرِّد: لا يجوز الحال بالماضي؛ لأنَّ الحال اسمٌ، والماضي بعيدٌ عن شبه الاسم، بخلاف المستقبل، لكنَّه على طريق الدُّعاء؛ كقوله: ﴿لُعِنُوا۟﴾ [النور: ٢٣]، ﴿وَقُتِّلُوا۟﴾ [الأحزاب: ٦١][3].

---

(١) انظر: «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (١/ ١٣٦).

(٢) في (ر) و(ف): «قتال».

(٣) انظر: «المقتضب» للمبرد (٤/ ١٢٤)، ونقله الجوهري في «الصحاح» (مادة: حصر) عن سيبويه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ﴾ بأن يقوِّيهم بعد ضعفِهم، أو ينزعَ الرُّعبَ عن قلوبهم، يقول: اذكروا مِنَّتي، ولا تُعجَبوا بأحوالكم؛ فإنَّ عجزهم عنكم بإعجازي، لا بكم.

وقولـه تعالى: ﴿فَلَقَٰتَلُوكُمْ﴾ عطفٌ على: سلَّطهم، وتكرار اللَّام للتَّأكيد، ولو قال: فقاتلوكم، لاستقام، وقرأ مجاهد: (فَلَقَتلوكم)[١] مِن القتل، وقرأ الحسن: (فلقتَّلوكم) بالتَّشديد للتَّكثير[٢].

وقوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ﴾؛ أي: تركوا مخالطةَ المسلمين؛ لأنَّهم إذا كان[٣] بهم[٤] قوَّةٌ، فالاحتياطُ في تركِ الاختلاط.

قوله تعالى: ﴿فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ﴾ قيل: هو[٥] تفسيرُ الاعتزال، فإن اعتزلوا عن قتالِكم.

وقيل: في الاختلاط؛ خوفَ اطِّلاعهم على بواطنِ أحوال المسلمين، ووقوعِ ما يُخاف؛ فلذلك شرط الاعتزال[٦].

وقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾؛ أي: الانقيادَ؛ أي: استسلَموا لكم بطلبِ الأمان، وقيل: أي: بالإيمان.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾؛ أي: طريقاً إلى القِتال واستباحةِ الأرواحِ والأموال.

---

(١) في (ر): «فقتلوكم». والقراءة نسبها ابن خالويه في «مختصره» (ص: ٣٤) للحسن ومجاهد.

(٢) انظر: «شواذ القراءات» للكرماني (ص: ١٤٠)، ونسبها الزمخشري في «الكشاف» (٢/ ٩٠) للجحدري والحسن.

(٣) في (ف): «كانت».

(٤) في (ر) و(ف): «لهم».

(٥) في (ف): «وهو» بدل: «قيل هو».

(٦) من قوله: «قوله تعالى: فلم يقاتلوكم» إلى هنا ليس في (أ).

قال مقاتلُ بنُ حيَّان: الآية[١] في المرتدِّين الذين لحقوا بمكَّة، والقومِ الذين بين[٢] النبيِّ ﷺ وبينهم ميثاق؛ خزاعة وخزيمة وبنو مدلج، كان لهم عهدٌ، ثمَّ نُسِخَ هذا الحكمُ بسورةِ براءة، ونُبِذَ إلى كلِّ ذي عهدٍ عهدُه بقوله تعالى: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥].

وقال الكلبيُّ رحمه الله: هم[٣] الأسلميُّون، وكان النبيُّ ﷺ وادعَ هلالَ بنَ عويمر عند خروجه إلى مكَّة على ألَّا نعينَك ولا نعينَ عليك، حتَّى ترى ونرى، فمَن وصل إلى هلالٍ من قومه وغيرهم؛ فلهمُ الأمان. والذين جاؤوا حصرت صدورهم بنو مدلج، قوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ﴾ هو يومُ فتح مكَّة[٤].

وقال سراقةُ بن مالك بن جعشم[٥]: أتيتُ النَّبيَّ ﷺ فقلت: بلَغني أنَّك تريدُ أنْ تبعثَ إلى قومي جيشاً، قال عليه الصَّلاة والسَّلام: «ما تريد؟» قال: أريدُ أن توادعَهُم، فإنْ أسلمَ قومُهم؛ دخلوا معهم، وإلَّا لم تَخشُن[٦] صدورُ قومِهم عليهم، فقال: «اصنع»، فذهب معه خالدٌ، فوادعهم؛ إنْ أسلمَ قومُهم؛ دخلوا معهم، ومَن وصلَ إليهم مِن النَّاس؛ كانوا على مثل عهدِهم، وفيهم نزل: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ﴾ الآية[٧].

---

(١) بعدها في (ر): «نزلت».

(٢) بعدها في (ف): «يدي».

(٣) في (أ): «هو».

(٤) انظر الكلام في «تفسير الثعلبي» (٣/ ٣٥٧) دون نسبته للكلبي.

(٥) قوله: «بن جعشم» من (ف).

(٦) في (أ) و(ر): «يخش»، وفي (ف): «تخش»، والمثبت من المصادر.

(٧) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٦٦١٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ١٠٢٦) (٥٧٥٠) عن الحسن.

(٩١) ـ ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَاۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ﴾؛ أي: قوماً آخرين من المنافقين.

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ﴾ قال الحسن: أي: إذا لقُوا المؤمنين قالوا: آمنَّا، وإذا خلوا إلى شياطينِهم؛ قالوا: إنَّا معكم؛ ليأمنوا قتلَ الفريقَين إيَّاهم.

وقال الكلبيُّ رحمه الله: هم أسدٌ وغَطَفان، كانوا حاضري المدينة، وكانوا تكلَّموا بالإسلام، وهم غير مسلمين[١].

وقال السُّدِّيُّ: نَزلت في نُعَيم بن مسعود الأشجعيِّ، كان يَأتي النَّبيَّ ﷺ بخبر المشركين، ويأتي المشركين بخبر النبيِّ ﷺ فيأمنُهم جميعاً[٢]، فأمرَ الله تعالى نبيَّه عليه السلام بطردِه، وألَّا[٣] يتركَهُ يدخلُ عليه، ففعل.

وقوله تعالى: ﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَا﴾ أي: كلَّما دُعوا إلى الشِّرك؛ عادوا فيه وأجابوا إليه، و﴿ٱلْفِتْنَةِ﴾: الشِّرك، قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١]، والإركاسُ: الرَّدُّ إلى الحالة الأولى، والفاعلون للإركاس قومُهم بالدَّعوة، ويجوز أنْ يكونَ معنى ﴿أُرْكِسُواْ فِيهَا﴾: وقعوا فيها من غير أنْ يكونَ لهم موقعٌ؛ كما يقال: فلانٌ معجَبٌ بنفسِه.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٣/ ٣٥٨) من رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. والكلبي متهم بالكذب. كما سلف غير مرة.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٧/ ٣٠٢)، وابن أبي حاتم (٣/ ١٠٢٩) (٥٧٦٧).

(٣) في (ف): «وأنه لا».

وقيل: ﴿ٱلْفِتْنَةِ﴾ ههنا: هي قتالُهم المؤمِنين، ونصرتُهم الكافرين.

وقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ﴾؛ أي: لم يُجانِبوا قتالَكم على التَّأويلِ الأخير، وعلى تأويل الشِّرك: فإن لم يَتركوا مخالطَتكم، بل خالَطوكم في وقتٍ، وخالَطوا قومَهم في وقتٍ؛ عملاً بالنِّفاق، ولذلك قال الكلبيُّ: فإن لم يعتزلوا المسلمين فيَسيروا إلى مكَّة[1].

وقوله تعالى: ﴿وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾ عطفٌ على «لم يعتزلوا»؛ أي: ولم يَنقادوا لكم بطلبِ الصُّلح.

وقوله تعالى: ﴿وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ﴾ عطفٌ أيضاً عليه؛ أي: ولم يُمسِكوا عن محاربتِكم.

وقوله تعالى: ﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾؛ أي: في أيِّ موضعٍ أخذتُموهم مِن الحلِّ والحرَم والأشهرِ الحُرُم.

وقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾؛ أي: فقد أبحنا لكم دماءَهم وأموالَهم، وجعلنا حجَّتكم عليهم قائمةً؛ لدوامِهم على النِّفاق.

وقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكُمْ﴾ «أولاء» اسمُ إشارةٍ إلى جمعٍ، و«كم» خطابُ جمعٍ، وهي في محلِّ الإضافة[2]، وعند بعضهم: «أولئكم» كلمةٌ واحدةٌ مبنيَّةٌ مع الكاف، وكلُّها في موضع الرَّفع بالابتداء، ولذلك لا تُزايلُ الكاف، ولا تُوصَل بالهاء بحالٍ، فلا يقال: وأولائه وأولائهم، ولا بالياء والنُّون: أولائي وأولائينا، ويجوز

---

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ٥١٢) (طبعة دار التفسير).

(٢) المعروف عند النحاة أن هذه الكاف حرف للخطاب لا محل لها من الإعراب. قال المرادي في «الجنى الداني»، «لا خلاف في حرفية كاف الخطاب المتصلة باسم الإشارة»، انتهى. وعلى ذلك فلا يجوز إضافة اسم الإشارة إليها لأنها معروفة أولاً، ولأن الكاف حرفٌ ثانياً، والله أعلم.

فيه الإفرادُ والجمعُ في خطاب الجمع، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٢]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ﴾ [الطلاق: ٢]، وقال: ﴿ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ [البقرة: ٢٣٢]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ﴾ ثمَّ قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾ [الحديد: ١٠]، وقال هاهنا: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكُمْ﴾.

(٩٢) - ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾؛ أي: وما كان لمؤمنٍ في حكم الله أنْ يتعمَّد قتلَ مؤمنٍ، وليس المؤمنُ كالكافر الذي تقدَّم ذكرُه في إباحةِ دمِه، **وقوله تعالى:** ﴿إِلَّا خَطَـًٔا﴾؛ أي: إلَّا أنْ [(١)] يقعَ عندهُ أنَّه كافرٌ، فيقتلُه بناءً[(٢)] على ذلك، وكان عرفه كافراً قبله؛ قاله الإمام أبو منصور رحمه الله، قال[(٣)]: وقد رُوِيَ الإذن في البيات، وقتلِ[(٤)] عيونِ الكفَرة بما سبقَ مِن ظهور كفرهم، وإن احتملَ إيمانُهم فيما بين الوقتين؛ فيكون معناه: أنَّه حرامٌ عليكم إلَّا مَن هذا وَصْفُه.

قال: وقيل: معناه: ما كان لمؤمنٍ أن يَقتلَ مؤمناً البتَّة، لكن من قَتلَ خطأً فحكمُه كذا[(٥)].

---

(١) في (ف): «لا» بدل من «إلاَّ أنْ».

(٢) لفظ: «بناءً» ليس في (ف).

(٣) لفظ: «قال» من (ف).

(٤) قوله: «البيات وقتل» ليس في (ف).

(٥) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٣/ ٣٠٠).

وهذا استثناءٌ منقطعٌ بمعنى: لكن؛ كما في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا﴾ [مريم: ٦٢]، وقد مرَّ تقريرُه عند قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٥٠].

وقيل: معناه: وما كان لمؤمنٍ أنْ يقتلَ مؤمناً فلا يقتصَّ به، إلَّا أنْ يكونَ خطأً، فلا قصاص فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾؛ أي: فعليه إعتاقُ رقيقٍ مسلمٍ[1] ذكراً كان[2] أو أنثى؛ كفارةً لذلك حقًّا لله تعالى.

وقوله: ﴿مُّؤْمِنَةٍ﴾ قال الإمام أبو منصور رحمه الله في اشتراط الإيمان: اختلف في معناه؛ قيل[3]: لأنَّه أتلفَ نفساً خلقها اللهُ تعالى لعبادته؛ فأوجبَ مكانها نفساً مؤمنةً؛ لتعبدَ الله على ما عبدت تلك.

لكن لو كان التأويلُ هذا؛ لكان يجبُ في العمدِ ما وجبَ في الخطأ؛ لوجود ذلك المعنى، لكن أُوجِب لا لذلك، لكن تغليظاً وتشديداً عليه لـمَّا أتلفَ نفساً لم يؤذن له في ذلك؛ لئلَّا يُقدِمَ على مثله، ولله تعالى أنْ يوجِبَ على مَن شاءَ ما شاء لما[4] شاء، مِن غير أنْ يُقال له[5]: لِمَ وكيف.

والثاني: أنَّه أوْجَبَ عليه ذلك؛ لأنَّ الله تعالى أبقى للقاتلِ نفساً مؤمنةً لم يجب عليها القصاص، فأوجبَ عليها مثلها رقبةً مؤمنةً[6].

---

(١) في (ر): «رقبةٍ مسلمةٍ» بدل: «رقيق مسلم».

(٢) لفظ: «كان» من (ف).

(٣) في (أ): «اختلف في معنى اشتراط إيمان هذه الرقبة وقيل» وفي (ف): «اختلف في معنى اشتراط إيمان هذه الرقبة قيل» بدل من «في اشتراط الإيمان: اختلف في معناه؛ قيل».

(٤) في (ف): «لمن».

(٥) لفظ: «له» من (أ).

(٦) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٣/ ٢٩٩).

وقوله تعالى: ﴿وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾ الدِّيَةُ: بدل النفس، وأصلُها الوِدية؛ كالعِدَةِ أصلها الوعدة، وقد وَداهُ يَديه دِيةً؛ أي: أدَّى ديَتَه، فالدِّيةُ اسمٌ للمال، واسمٌ للمصدر أيضاً، وهي عشرةُ آلاف درهم، أو ألفُ دينار، أو مئةٌ مِن الإبل، وأصلُها على القاتلِ، وتَتحمَّلها العاقلةُ تخفيفاً عليه، وهي في ثلاث سنين، وتفسيرُها في الفقهيات، وقد أوضحناها في «حصائل المسائل». وقوله: ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾ أي: أولياءِ المقتول؛ وهم ورثتُه.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ﴾ أصلُه: يَتصدَّقوا، أدغمت التَّاء في الصَّاد، ومعناه: إلَّا أنْ يُبرِئ الأولياءُ القاتلَ والعاقلةَ عنها؛ وهو كقوله تعالى: ﴿وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٠] في آية الربا، وهو الإبراءُ عن أصل المال والعفوُ؛ وكذلك قولُه تعالى: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ [المائدة: ٤٥] أي: عفا عن ذلك.

وقوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾؛ أي: فإن كان المقتولُ مِن قومٍ أعداءٍ لكم، فالعَدوُّ جمعٌ؛ كما في قوله: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾ [المنافقون: ٤]؛ لأنَّه في صيغةِ المصدر، كالقبول، فيصلحُ للواحد والجمع، كالعَدل والضَّيف.

﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾؛ أي: المقتولُ مؤمنٌ؛ يعني[١]: إذا أسلمَ الحربيُّ في دار الحرب، ولم يهاجر إلينا فقتَلَه مسلمٌ؛ فلا قصاصَ فيه ولا دِيةَ، وفيه الكفَّارةُ لا غير، وهو قوله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾، والشافعيُّ رحمه الله حملَ[٢] الآيةَ على مؤمنٍ اختلطَ بأهل الحرب، فرمى المسلمُ أهلَ الحربِ فأصابَهُ؛ لم يضمَنه؛ لأنَّه بالاختلاطِ بأهلِ الحرب أسقطَ حقَّ نفسِه[٣].

---

(١) في (ف): «أي».

(٢) بعدها في (ف): «هذه».

(٣) انظر: «نهاية المطلب» للجويني (١٧/ ٨٨).

وقلنا: هذا لا يستقيم؛ لأنَّه تعالى قال: ﴿مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ﴾، وذاك لا يكونُ منهم، بل يكون فيهم، فالمحمَل الصَّحيح ما قلنا، وهو قول المفسِّرين.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾؛ أي: إنْ كان المقتول ذمِّيًّا مِن أهل ذِمَّة أو موادعةٍ؛ فله عِصمةٌ بالإحراز بالدَّار.

قوله تعالى: ﴿فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ دلَّ أنَّ دية الذِّمِّيِّ كديةِ المسلم؛ وهو قولنا.

وقوله تعالى: ﴿وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾؛ أي: وفيه الكفَّارة أيضاً.

وقوله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾؛ أي: الرقبةَ المؤمنةَ.

وقوله تعالى: ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾؛ أي: فعليه ذلك بدلاً عن التَّحريرِ.

وقوله تعالى: ﴿تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: تخفيفاً منه؛ كما قال: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ [المزمل: ٢٠]، وأصلُ التَّوبة: الرُّجوع، فالمذنبُ يَتوبُ إلى الله؛ أي: يَرجعُ إليه بالنَّدامة، والتَّوبةُ مِن الله: إعادتُه إلى الحالة الأولى، والتَّخفيفُ عليه كذلك.

وقيل: إنَّ الكفَّارةَ توبةٌ للعبد، وهي مشروعةٌ مِن الله تعالى للعبدِ(١).

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾؛ أي: عالماً بالقاتل أنَّه عامدٌ أو مخطئٌ، وعالمٌ بتكفيرِه أنَّه يَنوي به التَّوبةَ أو الإصرار، ﴿حَكِيمًا﴾ في شَرْعِ هذه الأحكام.

قال الكلبيُّ رحمه الله: إنَّ عياش بن أبي ربيعةَ المخزوميَّ أتى النبيَّ ﷺ بمكَّة قبل أنْ يهاجرَ، فأسلمَ، ثمَّ خاف أنْ يُظهِرَ إسلامَهُ، فخرجَ هارباً إلى المدينة، فتحصَّن في دارٍ، فجَزِعَت أمُّه جزعاً شديداً ـ وهي أسماءُ بنت مخرمة(٢) ـ وقالت لابنيها؛ أبي

---

(١) في (ر): «على العبد».

(٢) اسمها في «جمهرة أنساب العرب» لابن حزم (ص: ٢٣٠): أسماء بنت مخرِّبة.

جهل والحارث بن هشام[١]: واللهِ لا يُظِلُّني سقفٌ ولا أذوق طعاماً حتَّى تأتوني به، فخرجا في طلبِه مع الحارث بن يزيد[٢]، حتَّى أتوا المدينةَ، وقالوا لعيَّاش: إنَّ أمَّك لم يؤوها سقفٌ بعد بُعْدِك، وحلفَت ألَّا تأكلَ ولا تشربَ حتَّى ترجعَ إليها، ولك علينا ألَّا نُكرهَكَ على شيءٍ، ولا نحولَ بينك وبين دينِك، فلمَّا ذكروا له جزع أمِّه؛ نزل إليهم، فأوثقوه بِنِسعَةٍ، وجلدَهُ كلُّ واحدٍ منهم مئة جلدةٍ، ثمَّ قدِموا به على أمِّه، فقالت: والله؛ لا أحُلُّك مِن وَثاقِك حتَّى تَكفرَ بالذي آمنتَ به، ثمَّ تركوه مطروحاً موثَقاً في الشَّمس ما شاء الله، ثمَّ إنَّه أعطاهُم الذي أرادوه منه، فأتاهُ الحارث بن يزيد، فقال له: يا عياش؛ هذا[٣] الذي كنت عليه لئن كان هدىً، لقد تركتَ الهدى، ولئن كان ضلالةً؛ لقد كنت عليها، فغضِبَ عيَّاش، وقال: والله، لا ألقاكَ خالياً إلَّا قتلتُك، ثمَّ إنَّ عيَّاشاً أسلمَ بعد ذلك، وهاجرَ إلى النبيِّ ﷺ بالمدينة، ثمَّ إنَّ الحارث أسلم بعد ذلك وهاجر[٤]، ولم يشعر عيَّاشٌ بإسلامه، فبينا عيَّاشٌ يَسيرُ بظَهر قُباء، إذ لقيَ الحارث، فحملَ عليه فقتلَه، فنزلت الآيةُ[٥].

* * *

(٩٣) ـ ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾.

---

(١) وهما أخوا عياش لأمه.

(٢) وقيل في اسمه: الحارث بن زيد بن أبي أنيسة. انظر: «الإصابة» لابن حجر (٢/ ١٥٦، ١٨٤).

(٣) في (ف): «إن».

(٤) من قوله: «وهاجر إلى النبيِّ ﷺ» إلى هنا وقع مكانه في (ف): «فهاجر وأسلم الحارث بعد ذلك».

(٥) ذكره عن الكلبي الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ١٦٢ ـ ١٦٣)، وهو في «تفسير الثعلبي» (٣/ ٣٥٩) دون نسبته للكلبي. وروى نحوه الطبري في «تفسيره» (٧/ ٣٠٦ ـ ٣٠٨) عن مجاهد وعكرمة والسدي.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾؛ أي: قاصداً قتلَه لإيمانه وهو كفرٌ، وقيل: أي: قتلَهُ مستحلًّا لقتلِه، وهو كفرٌ أيضاً.

وقال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: وقوله: ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا﴾ هو جزاؤُه لو جازاه، لكنَّه يتفضَّل ولا يُخلِّده فيها لإيمانه[١].

وقيل: التَّخليدُ ليس هو التَّأبيد، بل هو تطويلُ إبقائه فيها؛ فإنَّه لم يقل: فيها أبداً، وفي كلِّ موضعٍ ذُكر الخلودُ مع الأبد، فهو للتَّأبيد.

وقيل: نزلت الآية في مَن قتلَ وارتدَّ مع ذلك.

قال أبو روق: نزلت الآيةُ في مِقْيَس بن صُبابة[٢]؛ وذلك أنَّ[٣] أخاً له يقال له: هشام، أسلمَ، وهاجرَ إلى المدينة، فقتلَهُ بنو النَّجَّار خطأً، فجاء مِقْيَس وطلبَ ديَته، وتكلَّم بالإسلام، فبعث النبيُّ ﷺ رجلاً من فهرٍ إلى بني النجَّار، يأمرُهم أن[٤] يؤدُّوا دِية القتيل إلى أخيه، أو قاتلَه، فقالوا: سمعاً وطاعةً لله ورسولِه، ما نَعلمُ له قاتلاً، لكنَّا نؤدِّي دِيتَه، فدَفعوا إلى مِقْيَس مئةً مِن الإبل ديةَ أخيه، فانصرفَ مِقْيَسٌ والفِهْريُّ، حتَّى إذا قَرُبوا مِن المدينة أتاهُ الشَّيطانُ، فوسوسَ إليه[٥]: أيَّ شيءٍ صنعتَ؟ تَقبلُ ديةَ أخيك، فتكون عليك مسبَّة؟! اقتل الفهريَّ نفساً بنفسٍ، ولك الدِّيةُ، فرماهُ بصخرةٍ فقتلَه، وركبَ بعيراً، واستاقَ الإبلَ، فارتدَّ راجعاً إلى مكَّة، وقال في ذلك أبياتاً:

---

(١) رواه بنحوه ابن المنذر كما في «الدر المنثور» (٤/ ٦٠٢)، وانظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٣/ ٣٢٩).

(٢) في (أ): «ضبابة». وهما قولان، قال الحافظ ابن حجر في «الإصابة» (١٠/ ٢٤٥-٢٤٦): بضم المهملة وموحدتين عند أكثر أهل اللغة، وقال ابن دريد: بالضاد المعجمة. اهـ.

(٣) في (ف): «وجد».

(٤) في (ف): «بأن».

(٥) في (ف): «له».

قَتَلْتُ بِهِ فِهْراً وحَمَّلْتُ عَقْلَهُ سَراةَ بني النَّجارِ أربابِ فارعِ(١)
وأدركت ثأري واضطجعت موسَّداً وكنتُ إلى الأوثانِ أوَّلَ راجعِ

فذلك قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ بقتله، ﴿خَٰلِدًا فِيهَا﴾ بكفره، **وقوله تعالى**: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ﴾؛ أي: انتقم منه، وطردَهُ مِن رحمتِه، فقتلَهُ النبيُّ ﷺ يوم فتح مكَّة(٢).

وقيل: وغضبَ اللهُ عليه لقتلِه بعد أخذِ الدِّيةِ، ولعنَه بقتلِه غيرَ قاتلِ أخيه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ لاجترائِه على الله.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: كما يَحْرُم قتلُ غيرِكَ عليك(٣)؛ يَحرُمُ قتلُ نفسِكَ عليكَ، ومن اتَّبع هواهُ، سَعى في دمِ نفسِه، ومَن لم يَنصح مُريداً بحسنِ وعظِه، ولم يعنه بهمةٍ؛ فقد سَعى في دمه(٤)، فهو مأخوذٌ بحالِه، وحقيقٌ بأن تكونَ عقوبتُه الأبديَّةُ ألَّا يستمتعَ بما ضنَّ به على المريدين من أحواله، ولقد قال الله تعالى: «يا داود، إذا رأيت لي طالباً فكن له جسراً»(٥).

---

(١) في (ر) و(ف): «بارع»، والمثبت من المصادر.

(٢) من قوله: «وقال في ذلك أبياتاً» إلى هنا ليس في (أ). والخبر لم أقف عليه عن أبي روق، ورواه ابن أبي حاتم (٣/ ١٠٣٧ ـ ١٠٣٨) (٥٨١٦) عن سعيد بن جبير، ورواه أيضاً البيهقي في «شعب الإيمان» (٢٩٢) من طريق محمد بن مروان عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، (وهي سلسلة الكذب)، وانظر: «أسباب النزول» للواحدي (ص: ١٦٣ ـ ١٦٤) فقد أورده من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. وروى الطبري في «تفسيره» (٧/ ٣٤١) نحوه مختصراً من طريق ابن جريج عن عكرمة وغيره، وذكر فيه البيت الأول فقط.

(٣) بعدها في (ر): «كما».

(٤) في (ر): «دم نفسه» بدل: «دمه».

(٥) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٣٥٤ ـ ٣٥٥).

(٩٤) - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾؛ أي: سرتُم في طريقِ الغزوِ فتأنَّوا في قتلِ من تقتلونَهُ، وهو في قراءة حمزةَ والكسائيِّ: ﴿فتثبتوا﴾ مِن الثبات، وفي قراءة الباقين: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾[١] مِن البيان؛ وهو العلم؛ أي: لا تَعجلوا، وتأمَّلوا لِتَعلموا.

وانتظامُها بما قبلَها أنَّه أمر بالتثبُّت؛ لئلَّا يقع قتلٌ، عمداً ولا[٢] خطأً فيما لا يجوز، وذكر ممَّن وقع له ذلك قصَّة واحدٍ[٣] في هذه الآية، واختلفَت الرواياتُ فيه:

قال محمَّدُ بنُ إسحاق: نزلت[٤] في مُحَلِّم[٥] بنِ جَثَّامة، كان[٦] خارجاً في غزاةٍ، فمرَّ به عامر بن الأضبط الأشعريُّ[٧] على قَعودٍ له، فحيَّاهم بتحيَّة الإسلام، وكانت بينهما إحنةٌ في الجاهليَّة، فقتله مُحَلِّمٌ، وأخذ مالَه، فلمَّا قَدِمَ على النبيِّ ﷺ وَدى عامراً، وقال: «اللهمَّ لا تغفرْ لـمُحَلِّم بنِ جثَّامة»[٨]، فو الله ما استكملَ سبعاً حتَّى

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٢٣٦)، و«التيسير» (ص: ٩٧).

(٢) في (ر) و(ف): «أو».

(٣) في (ف): «واحدة».

(٤) بعدها في (ف) «الآية».

(٥) في (أ): «محلم».

(٦) بعدها في (أ): «رجلًا».

(٧) كذا في النسخ، والصواب: «الأشجعي».

(٨) رواه أبو داود في «سننه» (٤٥٠٣) من طريق ابن إسحاق ومحمد بن جعفر عن زياد بن ضميرة عن =

مات ودُفِنَ، فلفظَتهُ الأرض، حتَّى أُضجِع بين حجرين ورَضَموهُ بالحجارة، ثمَّ دُفن، فلفظتهُ الأرضُ ثلاثَ[١] مرَّاتٍ، فقال النبيُّ ﷺ: «إنَّ الأرض لتقبل مَن هو شرٌّ منه، ولكنَّ الله تعالى أراد أن يريَكم فيه العبرة» ونزلت الآية[٢].

وقال مقاتل: إنَّ النبيَّ ﷺ بعث سَريَّةً، وأمَّر عليهم غالبَ بنَ عبدِ الله اللَّيثيَّ، فلمَّا أصبحوا؛ رأوا رجلاً يقال له: مرداس بن عمرو بن نَهيك العبسي[٣] من بني تيم[٤] بن مرَّة من أهل فدك، ومعه غُنيمةٌ له، فلمَّا رأى الخيلَ ساق غنمَه حتى أحرزَها في الجبل، وكان قد أسلمَ مِن اللَّيل، وأخبر أهله بذلك، فلمَّا دنوا منه كبَّروا، فسمعَ التَّكبيرَ منهم[٥]، فعرَفَهم، فنزلَ إليهم وقال: سلامٌ عليكم، إنِّي مؤمنٌ، فحملَ عليه

= عروة بن الزبير عن أبيه وجده. وهو ضعيف لجهالة زياد بن ضميرة. انظر: «ميزان الاعتدال» للذهبي (٢/ ٨٣).

ورواه ابن إسحاق كما في «سيرة ابن هشام» (٢/ ٦٢٦) ومن طريقه الطبري في «تفسيره» (٧/ ٣٥٤)، وابن أبي حاتم (٣/ ١٠٤٠) (٥٨٢٦) عن يزيد بن عبد الله بن قسيط، عن القعقاع بن عبد الله بن أبي حدرد، عن أبيه، وليس فيه دعاء النبي ﷺ عليه.

(١) «ثلاث» ليس من (ف).

(٢) خبر موت محلِّم ولفظ الأرض له رواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (٧/ ٣٥٣) عن ابن وكيع عن جرير عن ابن إسحاق عن نافع عن ابن عمر، وسفيان بن وكيع ضعيف، وابن إسحاق مدلس وقد عنعن. وفيه أنه ما مضت به ساعة حتى مات.

وروى ابن ماجه في «سننه» (٣٩٣٠) نحوه من طريق السميط بن السمير عن عمران بن حصين، وهو معضل كما قال الشيخ شعيب الأرناؤوط في تعليقه عليه. وليس فيه ذكر اسم الرجل الذي لفظته الأرض.

(٣) في «تفسير مقاتل»: «العنسي».

(٤) في (ر) و(ف): «تميم»، والمثبت موافق لما في «تفسير مقاتل».

(٥) في (ف): «كبر فعرف التكبير» بدل: «كبَّروا، فسمع التكبير منهم».

أسامةُ بنُ زيد بن حارثةَ الكلبيُّ، فقال مرداس: إنِّي معكم، أشهدُ أن لا إلهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له[١]، وأنَّ محمداً عبدُه ورسولُه، فطعنَهُ أسامةُ برمحِه، وقتلَه، وأخذَ سلبَهُ وساقَ غنمَهُ، فلمَّا قدمَ المدينةَ أخبرَ رسولَ الله ﷺ بذلك، فلامَهُ وقال: «أقتلتَهُ وهو يقولُ: لا إلهَ إلَّا الله؟» فقال: إنَّما قالها تَعوُّذاً، فقال النبيُّ ﷺ: «هلَّا شققت عن قلبه؟» فقال: يا رسول الله؛ لو شققتُ عن قلبه[٢] هل وجدتُ إلا دماً عبيطاً[٣]؟ فقال النبيُّ ﷺ: «عبَّر بلسانه عمَّا في قلبه»، فقال: يا رسول الله؛ استغفر لي، فقال: «وكيف لك بلا إله إلَّا الله؟!» قالها ثلاثاً، واستغفرَ له في الرَّابعة، وقال أسامةُ في نفسِه: لودِدتُ أنِّي لم أولد إلَّا ذلك اليوم[٤]، وفي روايةٍ: وددت[٥] أنِّي لم أُسلِم إلَّا ذلك اليوم[٦]؛ أي: وَدِدتُ أنَّ هذه الحادثة وقعَت لي في الجاهليَّة لا في الإسلام، وأمرَهُ بردِّ الأغنام، وتحرير رقبةٍ مؤمنةٍ، ونزلت الآية.

وقال سعيدُ بن المسيب: خرجَ المقدادُ في سريَّةٍ فمرُّوا برجلٍ في غنيمةٍ له، فقال: إنِّي مسلمٌ، فقتله المقدادُ، وأخذ غُنيمتَه، فذكرَ ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «قتلَهُ وهو مسلمٌ»، فقال له المقداد: ودَّ لو فرَّ بأهله وماله، فنزلت الآية[٧].

---

(١) قوله: «وحده لا شريك له» من (ر).

(٢) «عن قلبه»: زيادة من (أ).

(٣) في (أ): «غليظاً». والعبيط من الدم: الخالص الطري. انظر: «مختار الصحاح» (مادة: عبط).

(٤) لم أقف عليها، والرواية التالية في «تفسير مقاتل».

(٥) في (ف): «لوددت».

(٦) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٣٩٨ـ٣٩٩). وأصل قصة أسامة رواها مختصرة البخاري في «صحيحه» (٤٢٦٩)، (٦٨٧٢)، ومسلم (٩٦).

(٧) رواها ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٨٩٤٠)، (٣٣١٠٤)، والطبري في «تفسيره» (٧/ ٣٦٠)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ١٦٥) لكن من حديث سعيد بن جبير.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ قرأ نافعٌ وابن عامر[١] وحمزة: ﴿السَّلَم﴾[٢] بغير ألفٍ، وهو الاستسلامُ، والباقون بالألف[٣]، وهو تحيَّة الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾[٤]؛ أي: تَطلبون متاعَ الحياةِ الدُّنيا، وعند الله أجورٌ عظيمةٌ، وقيل: أي: عند الله غنائم كثيرةٌ[٥]، فاطلبوها مِن حيث أذنَ لكم، وأباحَ لكم.

وقولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ﴾ قيل: إنَّ أسامة قال: إنْ كان هذا مُسلِماً، فلِمَ أقامَ بين الكفَّار؟ فقال تعالى: إنَّكم كنتم تفعلون كذلك.

وقيل: أي: كذلك كنتم كفَّاراً مِن قبل هذا.

وقال ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما: كذلك كنتُم مِن قبلُ كفَّاراً تقاتلون على عرض الدُّنيا[٦].

وقوله تعالى: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: أنعمَ عليكم بالإسلام[٧].

---

(١) في (ر) و(ف): «وأبو عمرو».

(٢) «﴿السَّلَم﴾» ليس من (ف).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٢٣٦)، و«التيسير» (ص: ٩٧)، و«جامع البيان» للداني (ص: ٤٧٧). ووقع في «التيسير» نسبة القراءة بغير ألف للكسائي، وهو خطأ، والله أعلم.

(٤) «فَعِنْدَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ» ليس في (أ) و(ف).

(٥) في (أ) و(ف): «﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾» بدل: «وعند الله أجورٌ عظيمةٌ، وقيل: أي: عند الله غنائم كثيرةٌ».

(٦) رواه بنحوه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ١٠٤١) (٥٨٣١).

(٧) بعدها في (ر): «حتى أظهرتم الإيمان».

وقال سعيدُ بن جبير: كذلك كنتم تخفون إيمانكم من قومكم بمكَّة، فمنَّ الله عليكم بالهجرة حتَّى أظهرتم الإيمان[١].

وقوله تعالى: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ كرَّر[٢] الأمرَ به تأكيداً في الوعظ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾؛ أي: لا يَخفى عليه إضمارُكم وإظهارُكم، وهو يجزيكم على ذلك[٣].

***

(٩٥ ـ ٩٦) ـ ﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ دَرَجَةٗۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٖ مِّنۡهُ وَمَغۡفِرَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ﴾ ولمَّا أُمِروا بالتَّثبُّت في الجهاد؛ خافَ بعضُهم ما يَقعُ في الجهاد مِن ذلك، فكأنَّه عزمَ على ألَّا يخرجَ، فنزلَت هذه الآيةُ حثًّا لهم على الجهاد.

وقال زيدُ بن ثابت كاتبُ الوحي: كنت أكتبُ لرسولِ الله ﷺ، فقال: «اكتب: لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ»، فجاء عبدُ الله بن أمِّ مكتوم، فقال: يا رسولَ الله؛ إنِّي أحبُّ الجهادَ في سبيل الله، ولكن بي من الزمانةِ ما قد ترى وذهاب بصري، قال زيد: فثَقُلَت فخذُ رسولِ الله ﷺ على فخذي، حتَّى خشيتُ أنْ تَرُضَّها، فقال: «اكتب ﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٧/ ٣٦٣، ٣٦٤)، ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ١٠٤١، ١٠٤٢) (٥٨٣٤)، (٥٨٣٨).

(٢) في (ف): «أكد».

(٣) في (أ): «كله». وفي (ر): «مثله».

فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾»[١] قال زيد: أنزلَها اللهُ تعالى وحدَها فألحقتها، والذي نفس محمد بيده؛ لكأنِّي أنظر إلى ملحقها عند صدعٍ في الكتف الذي كنت أكتب فيه[٢].

و﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾ قراءةُ نافعٍ وابن عامر والكسائيِّ نصباً على الاستثناء أو على[٣] الحال، وقرأهُ الباقون رفعاً على النَّعت[٤]، و﴿ٱلضَّرَرِ﴾ الزَّمانة، والضَّريرُ: الزَّمِن؛ وهو الأعمى والأشلُّ ونحوهما.

ثمَّ في الآيةِ نفيُ المساواةِ بين القاعد وهو[٥] المتخلِّفُ عن الجهاد، وبين الخارجِ للجهاد في الدَّرجة والثَّواب، ثمَّ استثناءُ[٦] أولي الضَّررِ مِن القاعدين ليس لإلحاقهم في الدَّرجة والثَّواب بالمجاهدين، فإنَّ العُذرَ لإسقاطِ الحرج والتَّكليف لا غير، لكن معناه: أنَّه تحريضٌ على الجهاد، والاستثناءُ لبيانِ أنَّهم غيرُ مرادين بالتَّحريض، لا أنَّهم كالمجاهدين في الإثابة والتفضيل، قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ الآية [النور: ٦١].

وقوله تعالى: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ﴾؛ أي: بعذرٍ[٧]

---

(١) رواه بهذه الألفاظ عبد الرزاق في «تفسيره» (٦٢٣)، ومن طريقه الطبري في «تفسيره» (٧/ ٣٦٩ ـ ٣٧٠)، وابن أبي حاتم (٣/ ١٠٤٣) (٥٨٤٦). وأخرجه بنحوه البخاري في «صحيحه» (٢٨٣٢)، (٤٥٩٢).

(٢) قول زيد هذا رواه أبو داود في «سننه» (٢٥٠٧).

(٣) في (ر) و(ف): «وعلى».

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٢٣٧)، و«التيسير» (ص: ٩٧).

(٥) «هو» ليس من (أ).

(٦) في (ف): «استثنى».

(٧) قوله: «أي بعذر» من (أ).

﴿دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[(١)]؛ أي: وعـد اللهُ الجنَّـة كلَّ المؤمنيـن؛ المجاهديـن، والقاعديـن بعـذرٍ، والقاعديـن بغير عـذرٍ، وهذا لأنَّ الجهـادَ فرضُ كفايـةٍ، فإذا قامَ بـه البعـضُ؛ سـقط عـن الباقين.

وقوله تعالى: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ﴾؛ أي: بغيرِ عذرٍ، ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ثمَّ فسَّره بما بعده وهو قوله تعالى: ﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ﴾ قال النبيُّ ﷺ: «هي سبعون درجةً، مِن الدرجة إلى الدرجة جريُ[(٢)] الفرسِ الجوادِ المضمرِ سبعين سنةً»[(٣)].

وقوله تعالى: ﴿وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾ عطفٌ على ﴿دَرَجَٰتٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ وقيل في قوله: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ﴾ الآية: استثنى القاعدَ بعُذرٍ، وألحقَهُ بالمجاهدِ في الثَّواب؛ لتحسُّره على ما فات، وعلى ذلك قولُ رسول الله ﷺ: «الجمعة حجُّ المساكين»[(٤)]، وقولُه: «الصَّلاة قربان كل تقيٍّ»[(٥)].

---

(١) بعدها في (ف): «على القاعدين بعذر».

(٢) في (ف): «عدو».

(٣) لم أقف عليه مرفوعاً، ورواه الطبري (٧/ ٣٧٧ ـ ٣٧٨)، وابن أبي حاتم (٣/ ١٠٤٥) (٥٨٥٧) عن ابن محيريز قوله.
ووقع في هامش (أ) ما نصه: «تضمير الفرس: أن تعلفه حتى يسمن، ثم ترده إلى القوت، وذلك في أربعين يوماً».

(٤) رواه ابن الأعرابي في «معجمه» (٢٣٧٨)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٧٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه عيسى بن إبراهيم الهاشمي، وهو متروك، ومقاتل بن قيس، وهو ضعيف. انظر: «ميزان الاعتدال» (٣/ ٣١٠)، (٤/ ٣٧٧).

(٥) رواه القضاعي في «مسند الشهاب» (٢٦٥) من حديث علي رضي الله عنه، وفيه ابن لهيعة، لكن يشهد له ما أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (١٤٤٤١) من حديث جابر رضي الله عنه، وفيه: «والصلاة قربان».

ثمَّ ذكرَ في الآية مرَّةً: ﴿دَرَجَةً﴾، ومرَّةً: ﴿دَرَجَٰتٍ﴾، وحاصلُه أنَّ اللهَ تعالى فضَّل المجاهد على القاعد[(١)] بعذرٍ بدرجةٍ، والمجاهدَ على القاعد بغير عذرٍ بدرجاتٍ[(٢)].

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: الحقُّ[(٣)] سبحانه وتعالى جمعَ أولياءَه في الكرامات، لكنَّه غايرَ بينهم في الدَّرجات؛ فمِنْ غنيٍّ وغيرُه أغنى منه، ومِن كبيرٍ وغيرُه[(٤)] أكبرُ منه، هذه الكواكبُ منيرةٌ، لكنَّ القمرَ فوقها، وإذا طلعَتِ الشَّمسُ بهرَت ـ أي: غلبت[(٥)] ـ جميعَها بنورِها[(٦)].

* * *

(٩٧) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ قال الفرَّاء ومحمَّدُ بنُ يزيد: هو مستقبلٌ، وأصله: تتوفَّاهم، أسقطت[(٧)] إحدى التاءَين تخفيفاً[(٨)].

وقيل: هو ماض، والتوفِّي: قبض الروح[(٩)].

---

(١) في (ر) و(ف): «المجاهدين على القاعدين» بدل: «المجاهد على القاعد».

(٢) في (ر): «بدرجة... درجات»، وفي (ف): «درجة... درجات»، والمثبت من (أ).

(٣) في (ف): «إن الله» بدل: «الحق».

(٤) في (أ): «وآخر».

(٥) قوله: «أي غلبت» من (ف).

(٦) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٣٥٦).

(٧) في (ف): «سقطت».

(٨) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٢٨٤).

(٩) في (ف): «الأرواح».

و﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ هم ملكُ الموتِ وأعوانُه، أو هو وحدَهُ، وذُكِرَ باسم الجمعِ تعظيماً له[١]؛ كما سمِّي جبريلُ بذلك وحده في قوله: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ﴾ [آل عمران: ٣٩].

وقوله تعالى: ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ هو حالُ المقبوضين، والنُّون سقطَت للإضافة، وظلمُهم أنفسَهم: هو تركُ الهجرةِ، ثمَّ الرِّدَّة.

قولُه تعالى: ﴿قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ﴾؛ أي: قالت الملائكةُ لهؤلاءِ الأربعين أو الخمسين الذين تخلَّفوا بمكَّة، ولم يهاجروا ثمَّ قُتِلوا ببدر ـ وقد مرَّت قصَّتهم في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ [الآية: ٨٨] ـ: في ماذا كنتم؟ أي: في أيِّ أمرٍ كنتُم فشغلَكم عن الهجرة والجهاد؟

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: في أرض مكَّة؛ أي: كان أهلُ مكَّةَ يقهروننا، ﴿قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾؛ أي: قالت لهم الملائكةُ: ألم تكن أرضُ المدينةِ آمِنةً واسعةَ الرِّزق فتهاجروا إليها؟ وهذا استفهامٌ بمعنى الإثبات، وهو ردٌّ[٢] عليهم عذرَهم، ثمَّ هذا الخطابُ والجواب في حالِ سَكَراتِ الموت، وإنْ كان لا يجري بين المحتضِر وسائر البشر، فإنَّه جائزٌ بينه وبين الملائكة؛ لأنَّه لهيبتِهم شُغِل عن غيرهم، فيَجوزُ شغلُه بهم.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: يقولون لهم هذا في الآخرةِ، ويجوزُ أن يكون في القبرِ، فقد ذُكِرَ هذا بعد التوفِّي، ودلَّ ذلك على سؤال القبر[٣].

---

(١) لفظ: «له» ليس في (أ).

(٢) في (ف): «ورد» بدل: «وهو رد».

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٣/ ٣٣٥).

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: الإشارةُ منه إلى[١] مَن أدركه الأجل وهو في أسرِ نفسِه، وفي رقِّ شهواتِه، ليس له عذرٌ، حيث لم يهاجرْ إلى ظِلِّ قربته ليتخلَّص من هوى نفسِه[٢]؛ إذ لا حجابَ بينك وبين هذا الحديث إلَّا هواك[٣].

وقوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ قال مقاتل: هم نفرٌ أسلموا بمكَّة مع النبيِّ ﷺ؛ منهم الوليدُ بنُ الوليدِ بنِ المغيرة، وقيسُ بنُ الوليدِ بنِ المغيرة، والوليد بن عتبة[٤] بن ربيعة، وأبو قيس بن الفاكهِ بنِ المغيرة، وعمرو بنُ أمية بنِ سفيانَ بنِ أميَّة بنِ عبد شمس، والعلاءُ بنُ أميَّة بن خلف، ثمَّ إنَّهم أقاموا فلم يُهاجِروا، وخَرجوا مع المشركينَ إلى قتالِ بدر، فلمَّا رأوا قلَّة المؤمنين؛ شكُّوا في النبيِّ ﷺ، فقالوا: غرَّ هؤلاء دينُهم، فلمَّا قُتِل هؤلاء ببدر؛ قالت لهم الملائكةُ ـ وهو مَلَكُ الموتِ وحدَه ـ فيم كنتم؟ أي: في أيِّ شيءٍ كنتم؟ قالوا: كنَّا مستضعفينَ مقهورين بأرضِ مكَّةَ، لا نُطيقُ أن نُظهِرَ الإيمانَ[٥]، قالت الملائكة: ألم تكن أرضُ الله ـ أي: أرضُ المدينة ـ واسعةً من الضيق فتهاجروا إليها؟[٦]

* * *

---

(١) بعدها في (أ) و(ر): «أن».

(٢) وقع في هامش (ف) ما نصه: «صوابه: ليتخلص من رق نفسه». وما في الأصول موافق لما في «لطائف الإشارات».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٣٥٦).

(٤) في «تفسير مقاتل»: «بن عقبة»، وهو تحريف والله أعلم، انظر خبر قتل الوليد بن عتبة بن ربيعة في «سيرة ابن هشام» (١/ ٧٠٩) قتله علي بن أبي طالب رضي الله عنه يوم بدر. لكن ليس فيها إشارة إلى أنه كان مسلماً فارتد أو نافق.

(٥) في (ف): «في الأرض» بدل قوله: «مقهورين بأرض مكَّة لا نطيق أن نُظهِرَ الإيمان».

(٦) انظر: «تفسير مقاتل»: (١/ ٤٠١ ـ ٤٠٢).

(٩٨) ـ ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾.

وقال عمر بن عطاء المديني: ولـمَّا نزلَ هذا الوعيد، قال المسلمون: هلكَ إخوانُنا الذين بمكَّة، فنزل قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾[١]، إمَّا لضعفٍ في البدن، أو عُدْمٍ من الزَّادِ والمركب.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ أي: لا يَعرفون طريقاً ولا يَجدون مَن يَهديهِم.

وقال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: لـمَّا نزلَت هذه الآية؛ بعث رسولُ الله ﷺ بها إلى مسلمي مكَّة، فقال جندب[٢] بن ضمرة الليثيُّ الجندعيُّ لبنيه: احملوني فإنِّي لست من المستضعفين، وإنِّي لا أهتدي[٣] الطَّريقَ، وكان شيخاً كبيراً، فحملوه بنوهُ على سريرٍ متوجِّهاً إلى المدينة، فمات بالتَّنعيم، فبلغ أصحابَ النبيِّ ﷺ موتُه، فقالوا: لو لحقَ بنا؛ لأتمَّ الله أجرَهُ، فأعلمَ اللهُ تعالى أنَّه لا يَخيبُ مَن التمسَ رضاهُ؛ فأنزلَ الله فيه: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾[٤].

* * *

(٩٩) ـ ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾.

وقولـه تعالـى: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ و«عسـى» مِـن الله واجـبٌ؛ لأنَّه إطمـاعٌ، والكريـمُ إذا أطمـعَ أنجزَ.

---

(١) بعدها في (ف) «وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلًا».

(٢) اسمه في «أسباب النزول» للواحدي: «حبيب».

(٣) في (أ) و(ر): «لأهتدي»، والمثبت من (ف)، وهو موافق لما في «أسباب النزول» للواحدي.

(٤) انظر: «أسباب النزول» للواحدي (ص: ١٧٠).

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ قال الحسنُ: أي: كان عفوًّا غفوراً لعباده قبل أنْ يخلقَهم[1].

وقيل: أي[2]: كذلك أجرى اللهُ العادةَ في الأوَّلين؛ وهو العفوُ والمغفرةُ للمعذورين، وكذلك يفعلُ بالآخِرين.

وقيل: العفوُ: هو التَّخفيفُ برفعِ الإثم عنهم، وكان له أن يُغلِّظَ المحنةَ في التعبُّد عليهم.

***

(١٠٠) ـ ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا﴾ قال الضحَّاك: أي: متحوَّلاً[3].

وقال أبو رَوْق: أي: مخرجاً عمَّا يَكرهُ.

وقال ابنُ كيسان: أي: مُنقلَباً.

وقال يمانُ بن رئاب: أي[4]: ملجأً.

وقال السُّدِّيُّ: أي: مبتغَى معيشةٍ[5].

---

(١) ذكره الزجاج في «معاني القرآن» له (٢/ ٩٥).

(٢) لفظ: «أي» من (ف).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٧/ ٤٠٠).

(٤) «أي» ليس من (ف).

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (٧/ ٤٠١).

وقال المبرِّدُ: أي: مضطرباً متحوَّلاً من الكُفر إلى الإيمان.

وأصله من الرَّغام؛ وهو التُّراب؛ يعني: تربةً غير تربةٍ[١].

وقال أبو عبيدة: أي: مهاجراً[٢]؛ وكذا قال القتبيُّ[٣]، وهو حقيقتُه، فإنَّ الـمُراغَمَ موضعُ المراغمةِ؛ وهي المهاجرةُ على رغم مَن كان فيهم.

وقوله تعالى: ﴿وَسَعَةً﴾ أي: اتِّساعَ رزقٍ.

وقيل: أي: توسُّعاً مِن تضييق الكفَّار عليه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾؛ أي: إلى حيث أمرَ اللهُ ورسولُه.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ﴾ عطفٌ على الأوَّل.

وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: فقد[٤] حصلَ له الأجرُ بوعدِ الله، وهذا[٥] تأكيدٌ للوعدِ، فلا شيءَ يجبُ على الله لأحدٍ من خلقِه.

وقولـه تعالـى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ يَغفـرُ له ما كان منـه من القُعود إلـى أنْ خرج، ﴿رَّحِيمًا﴾ يرحمُه بإكمال أجر المهاجرين[٦] له.

وقد ذكرنا أنَّها نزلت في جُندبِ بنِ ضَمْرة، وقيل: هو ضمرةُ بن جُندب[٧]، وقيل:

---

(١) في (أ) و(ف): «تربته».

(٢) انظر: «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (١/ ١٣٨).

(٣) في «تفسير غريب القرآن» (ص: ١٣٤).

(٤) لفظ: «فقد» من (ف).

(٥) في (ف): «وهو».

(٦) في (ف): «المجاهدين».

(٧) هو اسمه في قول السدي، رواه عنه الطبري في «تفسيره» (٧/ ٣٩٦).

هو جُندع بن ضَمرة اللَّيثيُّ[١]، وقيل: هو ضَمْرةُ بنُ العِيص بنِ زِنباع الخزاعيُّ[٢]، وقيل: هو أكثمُ بنُ صيفي[٣]، وقيل: هو ضمضمُ بنُ عمرٍو الخزاعي[٤]، وفي رواية الكلبيِّ: هو جُندَع بن ضَمْرة، قال: والله ما أنا ممَّن استثنى اللهُ تعالى، وإنِّي لأجدُ حيلةً، والله لا أبيتُ اللَّيلةَ بمكَّة، فخرجوا به يحملونَهُ على سريرٍ إلى التَّنعيم، فأشرفَ على الموت، فصفق يمينَه على شِماله، فقال: اللهمَّ هذه لك وهذه لرسولك، أبايعُكَ على ما بايعَكَ به رسولُك[٥] ﷺ، ومات حميداً، فنزلَت هذه الآية[٦].

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: مَن هاجر في الله ما[٧] سوى الله، وصحَّ[٨] قصدُهُ إلى الله تعالى، وجدَ فسْحةً في عِفْوَةِ[٩] الكَرَمِ، ومقيلاً في ذُرى القَبول، وسَعةً في كنفِ القُرب، والمهاجر[١٠] في الحقيقةِ مَن هجرَ نفسَهُ وهواه، ولا يَصِحُّ ذلك إلَّا بانسلاخِه مِن جميعِ مراداته، ومَن قَصدَهُ ثمَّ أدركَهُ الأجلُ قبلَ وصولِه؛ فلا يَنزل إلَّا بساحاتِ وصلِه، ولا يكونُ محطُّ رحلِه إلَّا[١١] أوطان قربِه.

---

(١) انظر: «تفسير أبي الليث» (١/ ٣٨٢).

(٢) هو اسمه في قول سعيد بن جبير، رواه عنه الطبري في «تفسيره» (٧/ ٣٩٣).

(٣) رواه أبو حاتم السجستاني كما في «الدر المنثور» (٤/ ٦٤٥).

(٤) رواه أبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٣/ ١٥٤٩) (٣٩٢٥)، وذكره الجرجاني في «درج الدرر» (٢/ ٦٢٨).

(٥) في (أ): «رسول الله»، وفي (ر): «رسولك رسول الله».

(٦) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٣/ ٣٧٣) دون نسبته للكلبي.

(٧) في (ر) و(ف): «مما»، وفي «لطائف الإشارات»: «عما».

(٨) في (أ): «وصبح».

(٩) في (أ): «عقوة». وفي (ف): «ساحة». وعِفوةُ الشيء: صفوته. انظر: «الصحاح» للجوهري (مادة: عفا).

(١٠) في (أ): «والهاجر».

(١١) بعدها في (ف): «في».

(١٠١) ـ ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ وهذا من الأمور[١] التي يحتاجون إليها في جهادهم، يقول: إذا سرتُم في الأرض مسافرين؛ فلا مأثمَ[٢] عليكم في أنْ تنقصوا من أعداد ركعاتِ الصَّلاة، فتُصلُّوا الفرائضَ التي هي أربعٌ ركعتَين.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي: إنْ خشيتم أنْ يَقصدَكُم الكفَّارُ بقتلٍ أو جرحٍ أو أخذٍ.

ثمَّ الخوف شرطٌ لجوازِ القصر عند الخوارج بظاهر هذه الآية، وعند الجمهور ليس بشرطٍ، قال يَعلى بنُ أميَّة لعمرَ بنِ الخطَّاب رضي الله تعالى عنه: ما بالُنا[٣] نقصُر وقد أمِنَّا؟ قال: عجبتُ ممَّا تعجَّبتَ منه، فسألتُ رسولَ الله ﷺ عن ذلك، فقال: «صدقةٌ تَصدَّق اللهُ بها عليكم، فاقبلوا صدقتَهُ»[٤].

وقالت عائشةُ رضي الله عنها: فُرِضَت الصَّلاةُ ركعتين، ثمَّ أُقِرَّت صلاةُ السَّفر، وزيدَت صلاةُ الحضر[٥].

فأمَّا قوله تعالى: ﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾؛ فليس للاشتراط، لكن لأنَّ حالَهم حين نزلَت الآيةُ كانت كذلك، فنزلَت على وفقِ الحال؛ وهو كقولِه تعالى: ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ

---

(١) في (ف): «الأوامر».

(٢) في (ف): «إثم».

(٣) في (أ): «لنا».

(٤) رواه مسلم في «صحيحه» (٦٨٦).

(٥) رواه البخاري في «صحيحه» (٣٥٠)، ومسلم في «صحيحه» (٦٨٥).

أَشۡهُرٖ﴾ [الطلاق: ٤]، وقوله: ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا﴾ [النور: ٣٣].

وقيل: هذه الآيةُ في نهاية القَصْر، وهو تركُ الشَّطرِ وتركُ الرُّكوع والسُّجودِ والقيام بالإيماء على الراحلة، وذلك مقصورٌ على حالةِ الخوف، ثمَّ القصرُ رخْصةٌ عند الشافعيِّ؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ﴾[١]، وذاك في الرُّخصة لا في العزيمة[٢].

وقلنا: في الآية بيانُ حكم[٣] حالة الخوف، فتوقَّف حكمُ حالةِ الأمن على قيام الدَّليل، وقد ورد ذلك بلفظة الصَّدقة[٤]، ولو بقي فرضُ الأربعة، فأين الصدقة؟[٥]

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمۡ عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾؛ أي: أعداءً، وقد بيَّنَّا أنَّه يَصلح للجمع[٦]، وإنَّما قال: ﴿عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾ على اللفظ، فإنَّه في الوضع للفرد؛ أي: لعداوتِهم يَنتهزون الفرصةَ، فتحرَّزوا[٧] عنهم.

* * *

(١٠٢) - ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمۡ فَأَقَمۡتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلۡتَقُمۡ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُم مَّعَكَ وَلۡيَأۡخُذُوٓاْ أَسۡلِحَتَهُمۡۖ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلۡيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمۡ وَلۡتَأۡتِ طَآئِفَةٌ أُخۡرَىٰ لَمۡ يُصَلُّواْ فَلۡيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلۡيَأۡخُذُواْ حِذۡرَهُمۡ وَأَسۡلِحَتَهُمۡۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ تَغۡفُلُونَ عَنۡ أَسۡلِحَتِكُمۡ وَأَمۡتِعَتِكُمۡ

(١) في (أ): «فلا جناح عليكم» وفي (ف): «فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ ولا جناح عليكم» بدل من «فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ».

(٢) انظر: «الأم» للشافعي (٢/ ٣٥٦).

(٣) في (ف): «الحكم».

(٤) يعني: في حديث عائشة السالف قريباً.

(٥) فالقصر عزيمة في مذهب أبي حنيفة رحمه الله. انظر: «المبسوط» للسرخسي (١/ ٢٣٩).

(٦) عند تفسير الآية (٩٢) من هذه السورة.

(٧) في (ر): «فتتحرزوا»، وفي (ف): «فيتحرزوا».

فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ أي: وإذا كنت يا محمَّدُ في أصحابِك الضَّاربين في الأرض، فأردتَ أن تقيمَ بهم الصَّلاة.

وقوله تعالى: ﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾؛ أي: فاجعلهُم طائفتين، ولتَقُم إحدى الطَّائفتين معك؛ يَفتتحون معك الصَّلاةَ، ويُصلُّون معك ركعةً تامَّةً، ولتَقم الطَّائفةُ الأخرى بإزاء العدوِّ.

وقوله تعالى: ﴿وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ﴾؛ أي: قَطْعاً لطَمعِ العدوِّ فيهم، وهذا استحبابٌ لا إيجابٌ عندنا، خلافاً للشافعيِّ رحمه الله(١).

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ﴾؛ أي: إذا صلَّت هذه الطائفةُ التي معك ركعةً تامَّةً، فليَرجعوا ليَقفوا بإزاءِ العدوِّ.

وقوله تعالى: ﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ﴾؛ أي: ولتحضر الطَّائفةُ الواقفةُ بإزاءِ العدوِّ، فليَفتتحوا معك الصَّلاة، وليُصلُّوا معك الرَّكعة الثَّانية.

وقوله تعالى: ﴿وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾؛ أي: ما يَتحرَّزون به من العدوِّ، وأمر(٢) به الطَّائفة الثَّانية كما أمرَ به الطَّائفةَ الأولى، وهذا استحبابٌ أيضاً عندنا؛ لأنَّ أخذَ السِّلاحِ ليس مِن أفعال الصَّلاة، فلا يكونُ مِن شرطِها.

وقال الإمام أبو منصورٍ رحمه الله: أَخْذُ الحذرِ: هو أَخْذُ ما يدفعون به سلاحَ العدوِّ مِن التِّرسِ والدِّرع والبنيان(٣).

---

(١) انظر: «الأم» للشافعي (٢/ ٤٥٦)، و«المجموع» للنووي (١/ ٤٢٣).

(٢) في (أ): «وأمر».

(٣) «والبنيان» ليس من (ف). وانظر: «تأويلات أهل السنة» (٣/ ٣٤٥).

وأَخْذُ السلاحِ: هو أَخْذُ ما يُقاتلون به العدوَّ مِن السُّيوفِ والرِّماح والقِسِيِّ ونحو ذلك.

والمذكورُ في الآية هو صلاةُ طائفةٍ[١] ركعةً مع النبيِّ ﷺ، ثمَّ صلاةُ طائفةٍ أخرى ركعةً أخرى معه، ولم يبيِّن كيفيَّة إتمامِ الطَّائفتين، واختلف الأخبارُ في ذلك، واختلفَ باختلافِها العلماء؛ فقال أبو يوسف رحمه الله: هذا كان في زمنِ النبيِّ ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ﴾، وهذا خطابٌ له على الخصوص[٢]، والمعنى: أنَّهم كانوا يتحرَّون فضلَ الصَّلاةِ خلفَ رسول الله ﷺ، فزال ذلك حين قُبِضَ النبيُّ ﷺ، فانتسخَ.

وقلنا: هذا خطابٌ له، ولكلِّ قائمٍ بعدَه لسياسة الخلق، كما في قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ [التوبة: ١٠٣]، ويدلُّ عليه أنَّ الصحابةَ فعلوا ذلك بعدَ وفاته ﷺ، حتَّى صلَّى حذيفة بهم حين لقوا العدوَّ بطبرستان[٣].

وقال الحسن: صلَّى بنا أبو موسى الأشعريُّ كذلك[٤].

ثمَّ عندما يُصلِّي[٥] الإمامُ بالطَّائفة الأولى ركعةً، فينصرف هؤلاء إلى العدوِّ، وتجيءُ الطَّائفة الأخرى الواقفةُ بإزاء العدوِّ، فيصلِّي بهم الإمام الرَّكعةَ الثَّانية، ويَقعدُ بهم، فإذا سلَّم؛ رجعوا ووقَفوا بإزاء العدوِّ، وتجيءُ الطَّائفة الأولى، فيُصلُّون الرَّكعة

---

(١) في (أ): «الطائفة».

(٢) انظر: «المبسوط» للسرخسي (٢/ ٤٥)، وفيه أن أبا يوسف رجع عن هذا القول.

(٣) رواه أبو داود في «سننه» (١٢٤٦) من حديث ثعلبة بن زهدم، والنسائي في «سننه» (١٥٢٩).

(٤) خبر صلاة أبي موسى بالناس صلاة الخوف رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٨٢٧٤)، والطبراني في «الأوسط» (٧٤٧٦)، والبيهقي في «الكبرى» (٦٠٠٨) لكن عن أبي العالية، وفي إسناده محمد بن مقاتل الرازي، وهو ضعيف.

(٥) في (أ): «صلى».

الثانية بغير قراءةٍ؛ لأنَّهم لاحقون، ويُسلِّمون وينصرفون فيقفون بإزاء العدوِّ، ويجيء أولئك[١] فيصلُّون الرَّكعةَ الأولى[٢] بقراءةٍ؛ لأنَّهم مسبوقون، كذلك رواهُ ابنُ مسعود وابنُ عمرَ رضي الله عنهم[٣].

وقال جابرُ بنُ عبد الله رضي الله عنه: غزونا مع رسول الله ﷺ قوماً من جهينة، فقاتلوا قتالاً شديداً، فلمَّا صلَّينا الظهر قال المشركون: لو مِلْنَا ميلةً واحدةً؛ لاختطفناهم[٤]، ونحن تركناهم حتَّى صلَّوا، وندِمُوا على تركِهم، فقال بعضُهم[٥]: دعوهُم، فإنَّ لهم بعدَها صلاةً هي أحبُّ إليهم مِن آبائِهم وأبنائهم؛ يعنون: العصر، فلمَّا أرادَ رسولُ الله ﷺ أنْ يصلِّيَ العصر؛ أنزلَ اللهُ هذه الآية، فصلَّى بهم صلاةَ الخوف على ما قلنا[٦].

وللشافعيِّ رحمه الله مذهبٌ يتفرَّدُ به، ولمالكٍ كذلك، وفيه أقاويلُ أُخَر، شرحنا ذلك في كتاب الصلاة من «حصائل المسائل»[٧].

---

(١) في (ر): «الطائفة الثانية» بدل: «أولئك».

(٢) قوله: «الركعة الأولى» ليس في (ف).

(٣) رواه عن ابن مسعود أبو داود في «سننه» (١٢٤٤)، وعن ابن عمر البخاريُّ في «صحيحه» (٤١٣٣)، ومسلم في «صحيحه» (٨٣٩). وانظر: «المبسوط» للسرخسي (٢/ ٤٦).

(٤) في «صحيح مسلم»: «لاقتطعناهم».

(٥) بعدها في (ر): «لبعضٍ».

(٦) خبر جابر رضي الله عنه رواه مسلم في «صحيحه» (٨٤٠): (٣٠٨) بنحوه وليس فيه قولهم: دعوهم لإن لهم صلاة هي أحب...، وهي في «سنن الترمذي» (٣٠٣٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وروى الطبري في «تفسيره» (٧/ ٤٠٦ ـ ٤٠٧) نحوه من حديث علي رضي الله عنه، وفي إسناده سيف بن عمر التميمي، وهو متروك. انظر: «ميزان الاعتدال» للذهبي (٢/ ٢٣٦).

(٧) في (ر): «شرحناها في الفقهيات» بدل: «شرحنا ذلك في كتاب الصلاة من حصائل المسائل».

وقوله تعالى: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ﴾؛ أي: تمنَّى الكفَّار غفلتكم، و﴿لَوْ﴾ كلمةُ تمنٍّ، والأسلحةُ: جمع السِّلاح؛ وهو كلُّ شيءٍ يُقاتَلُ به، والأمتعةُ: جمعُ متاعٍ؛ وهي[1] الثِّيابُ ونحوها.

وقولُه تعالى: ﴿فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾؛ أي: فيحملونَ عليكم حملةً واحدةً، ولم يَقُل: فيميلوا؛ لأنَّه لَمْ يُرِدْ به جوابَ التَّمنِّي، بل أرادَ به العطفَ على قوله: ﴿لَوْ تَغْفُلُونَ﴾ بخلاف قولِه: ﴿لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٥٨].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى﴾؛ أي: تعبٌ، ﴿مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ﴾؛ أي: لئلَّا يَثْقُلَ عليكم حملُها، ﴿وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ أي: تحرَّزوا عنهم بسائرِ الوجوه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾؛ أي: إذا أخذتُم حِذركم؛ لَمْ يُنْفِذِ اللهُ تعالى للكفَّار عليكم كيداً؛ إذ هم أعداءُ الله تعالى، وقد أعدَّ لهم في الدَّارينِ عذاباً مذِلًّا.

قال ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما: غزا رسولُ الله ﷺ بني أنمار، وهم ببطن نخلة، فهزمَهمُ الله، واحرزوا ذراريهم[2] وأموالَهم، ونزلَ رسولُ الله ﷺ والمسلمون ولا يرون أحداً من العدوِّ، فوضعَ النَّاسُ أسلحتَهم، وخرجَ النبيُّ ﷺ لحاجةٍ وقد وضعَ سلاحَه حتَّى قطع الوادي والسماءُ تَرشُّ، فحالَ الوادي بينَه وبين أصحابِه، فجلسَ في ظلِّ سمُرَةٍ[3]، فبصُر به حويرثُ بن حارثة المحاربيُّ الحضرميُّ، فقال له أصحابه:

---

(١) في (أ) و(ف): «وهو».

(٢) في (ف): «ديارهم».

(٣) في (ر): «شجرة».

هذا محمَّدٌ قد انقطعَ عن أصحابه، فقال: قتلَني اللهُ إنْ لَمْ أقتله، ثمَّ انحدرَ مِنْ الجبل ومعه السَّيفُ، فلم يشعر به النبيُّ ﷺ إلَّا وهو قائمٌ على رأسِه قد سلَّ سيفه، فقال: يا محمد، مَنْ يمنعك منِّي اليوم؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «اللهُ عزَّ وجلَّ» ثمَّ قال: «اللهمَّ اكفنيه بما شئت»، ثمَّ أهوى بالسَّيف إلى رسول الله ﷺ ليضربَهُ، فانكبَّ لوجهه لزُلَّخةٍ زُلِّخَها ـ بضمِّ الزاي وتشديد اللام[1] ـ، وندرَ السَّيفُ، فقام النبيُّ ﷺ، فأخذه وقال: «يا حويرث؛ مَن يمنعك منِّي الآن؟» قال: لا أحد، قال: «فتشهد أن لا إله إلَّا الله، وأنِّي عبدُ الله[2] ورسوله، وأعطيكَ سيفَك» قال: لا، ولكن أشهد ألَّا أقاتلك أبداً، ولا أُعِيْنُ عليك عدوَّاً، فأعطاه النبيُّ ﷺ سيفَه، فقال: والله لأنت خيرٌ منِّي، فقال النبيُّ ﷺ: «أجل، أنا أحقُّ بذلك منك»، فرجعَ إلى أصحابه، فقالوا له: ويلك لقد رأيناك قائماً على رأسِه بالسَّيف، فما منعك منه؟ قال: والله؛ لقد أهويتُ إليه بالسَّيفِ لأضرِبَهُ؛ فوالله لا أدري مَن زلَّخني بين كتفَي؟! فخررتُ لوجهي، وخرَّ سيفي من يدي، فأخذَه، وذكر ما كان منه، ثمَّ قطع النبيُّ ﷺ الوادي وأتى إلى أصحابه[3]، وإذا[4] هم جميعٌ، فقرأ عليهم هذه الآية: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَخُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ أي: مِن عدوِّكم[5].

* * *

---

(١) قوله: «بضمِّ الزاي وتشديد اللام» من (ر). والزلخة: وهو وجع يأخذ في الظهر، لا يتحرك الإنسان من شدته. «النهاية» لابن الأثير (مادة: زلخ).

(٢) في (أ) و(ف): «عبده» بدل من «عبد الله».

(٣) نص العبارة في (ر): «ثم رجع النبي ﷺ لأصحابه» وفي (ف): «ثم رجع النبي ﷺ إلى أصحابه».

(٤) في (أ): «وإذ»، وفي (ر): «فإذا».

(٥) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٣/ ٣٧٨ ـ ٣٧٩) عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، والكلبي متهم بالكذب وأبو صالح ضعيف كما سلف غير مرة.

(١٠٣) ـ ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ قيل: فإذا فرغتُم منها، ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾؛ أي: بكلِّ حالٍ، وهو الذِّكرُ باللسانِ، والدُّعاءُ بالنَّصر[١]، فإنَّه حال ملاقاة العدوِّ، وهو كما قال: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

وقيل: أي: إذا أردتُّم أداءَ الصَّلاة؛ فصلُّوا قياماً إنْ قدَرتُم عليه، وقُعوداً إنْ عجَزتم عن القيام، ومضطجعين إنْ عجَزتم عن القعود.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ قيل: إذا سكنتُم بزوالِ الخوف، فأتِمُّوا الصَّلاة بطائفةٍ واحدةٍ.

وقيل: إذا اطمأننتُم بالصِّحَّة، فأتمُّوا بالقيام والقعودِ، والرُّكوع والسُّجود.

وقيل: إذا أقمتم فأتِمُّوا، ولا تَقصروا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ الكتاب[٢]: الفرض، وهذا مصدرٌ بمعنى المفعول، والموقوتُ: المؤقَّت، وقد وَقَتَهُ يَقِتهُ وقتاً، ووقَّته بالتَّشديدِ يوقِّته توقيتاً؛ يعني: إنَّ الصلاة فريضةٌ مِن الله تعالى، مفروضةٌ لأوقاتٍ معلومةٍ، كلَّما مضى وقتُ صلاةٍ واحدةٍ؛ جاء وقت صلاةٍ[٣] أخرى، ليست كالصَّومِ الذي هو مفروضٌ

---

(١) في (ف): «بالنصرة».

(٢) في (أ): «الكتابة».

(٣) لفظ: «صلاةٍ» ليس في (ف)، في الموضعين.

في السَّنةِ مرَّةً، والحجِّ الذي هو في العُمرِ مرَّةً[١]، وذلك لتأكيد[٢] أمرها، وجلالة قدرها، وقوله: ﴿كَانَتْ﴾ دليلٌ على أنَّ الصلاة كانت مفروضةً على الأمم السَّالفةِ كلِّها، وقوله: ﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ دليلٌ على أنَّ الكفَّارَ غيرُ مخاطبين بالشَّرائع.

وقال الإمامُ القشيريُّ رحمه الله: الوظائفُ الظَّاهرةُ مؤقَّتةٌ، ومشاهداتُ القلوب مؤبَّدةٌ، والرسومُ في وقتٍ دون وقتٍ، وأمَّا القلوب؛ فإيَّاكم والغَيبةَ عن الحقيقةِ لحظةً كيفما اختلفَتْ بكم الأحوال، وأمَّا الذِّكر؛ فكيف كنتم وكما كنتم، وأمَّا إقامة الصلاة؛ فإذا اطمأننتُم[٣].

* * *

(١٠٤) ـ ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾؛ أي: لا تَضعُفوا في طلبِ العدوِّ في مكامنهم، نَزلَت في أهل أُحُدٍ، وقد بيَّنَّا ذلك في قوله: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

وقوله تعالى: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ﴾؛ أي: تُوجَعون.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾؛ أي: تأمَلون الحياةَ الباقيةَ بالشَّهادةِ والرِّزقِ الدَّائمِ في الآخرة، والظَّفَرِ والنُّصرةِ في الدُّنيا، وهم لا يَأملون ذلك.

---

(١) بعدها في (ر): «واحدةً».

(٢) في (أ): «لتأكد».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٣٥٨ ـ ٣٥٩).

وقيل: معناه: وتخافون مِن الله ما لا يخافون؛ مِن قوله: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣]؛ أي: لا تخافون لله عَظَمَةً، وإنَّما قامَ الرَّجاءُ مقامَ الخوف؛ لأنَّ ما يُرجَى كونُه يُخافُ فوتُه.

وقيل: لا يُستَعْمَل الرجاء في معنى الخوف إلَّا على النفي، فأمَّا على الإثبات فلا.

وقيل: يجوز ذلك، قال قائلهم:

تـوكَّل علـى الـربِّ الكريـمِ وثِـقْ بـهِ إذا نـابَ أمـرٌ مُـفـظِـعٌ لـك رائِـعُ
فـلا كلُّ مـا تَرجـو مـن الخيـرِ كـائنٌ ولا كلُّ ما تَرجـو[1] مـن الشَّـرِّ واقعُ[2]

وقيل: معنى قوله: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ أي: يحصلُ لكم برجائكم مِن الله ما لا يحصلُ لهم، يقال: لا رجاءَ لك عند فلانٍ؛ أي: لا تحقيقَ لما تَرجُوه.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾؛ قيل[3]: ﴿عَلِيمًا﴾ بمصالحِ العباد حين دعاهُم إلى الجهاد، ﴿حَكِيمًا﴾ في تدبيرِ أمورهم.

وقيل: ﴿عَلِيمًا﴾ بما ينالُ المؤمنين من الألمِ في سبيله، ﴿حَكِيمًا﴾ لا يُسوِّي بينَهم وبين الكفَّار في جزائِه.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: القومُ شارَكوكم في آلام النُّفوس، ولكن خالفتُموهم في مشاهداتِ القلوب، أنتم تَشهدونَ ما لا يَشهدون، وتَجدُون بقلوبِكم ما لا يَجدون، فلا ينبغي أن تستأخروا عنهم في الجدِّ واحتمال الكدِّ[4].

---

(١) في (ف): «تخشى».

(٢) ذكر الثعلبي في «تفسيره» (٦/ ٢٠٣)، والبغوي في «تفسيره» (٥/ ٢١٣) البيت الثاني دون نسبة.

(٣) في (ر): «أي».

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٣٥٩).

(١٠٥) ـ ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾؛ أي: بالحكمِ الحقِّ، وقيل: بحقِّ الله عليكم، وقيل: بحقِّ بعضهم[1] على بعضٍ، وقيل: أي: بالامتحان؛ إذ[2] لا حكمةَ في الإهمال.

وقوله تعالى: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ﴾؛ أي: أعلمَك، كما قال: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ﴾ [سبأ: ٦]؛ أي: يَعلمُ، وهي مِن رؤيةِ القلب، ودل ذلك على جوازِ الاجتهاد فيما لا نصَّ فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾ أي: لقوم طُعمة بن أُبيرق السَّارقِ المنافقِ معيناً في[3] الخصومة.

وقيل: الخصمُ في الحقِّ، والخصيمُ في الباطل.

وقال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: نزلت الآيةُ في طعمةَ بن أُبيرق الأوسيِّ، وكان سرقَ دِرعاً مِن جار لهُ يقال له: قتادة بن النُّعمان الأنصاريُّ، وكان الدِّرعُ في جِرابٍ فيه دقيقٌ، وفي روايةٍ: كان يذهب بها في السطوح، فرأى في الجراب خرقاً يَخرجُ منه الدَّقيقُ ويَظهر في السُّطوح، فخاف ظهورَ الحال، فرمى ذلك في دار يهوديٍّ اسمُه زيدُ بن السَّمين، وعلم به زيدٌ، فصعدَ السَّطح واتَّبعه حتَّى رآهُ دخلَ دارَهُ، ثمَّ إنَّ قتادة لمَّا أصبحَ ولم يجدِ الدِّرع؛ اتَّبع الأثرَ إلى دار زيدٍ، فطالبه بها للأثر، فقال: إنَّه عمل

---

(١) في (ر): «بعضكم».

(٢) في (ف): «أي».

(٣) في (ر): «على».

طُعمة، وأتياهُ[١] فجحدَ، وحلفَ على ذلك، واختصموا إلى رسول الله ﷺ، وجاء اليهودُ، فشهِدوا على براءة اليهوديِّ، وجاء بنو[٢] ظفر ـ وهم قوم طعمة ـ وجادلوا عن طعمة، ورُوِيَ أنَّهم عَلِموا أنَّه عَمَل طعمة فقد كان سارقاً في الجاهليَّة، لكن بيَّتوا طول ليلهم[٣]، واتَّفقوا على أنْ يشهدوا بالسَّرقة على اليهوديِّ؛ دفعاً عن طُعمة، ففعلوا ذلك، وهمَّ النبيُّ ﷺ أنْ يعاقِبَ اليهوديَّ، فنزلت الآية[٤].

وذكر مقاتل أنَّ صاحبَ الدِّرع زيدُ بن السَّمين اليهوديُّ، وكان استودَعها عند طُعمةَ، وطلبَها فجحدَها، ورمى بها في دار أبي مُلَيك بن عبد الله الأنصاريِّ[٥].

وذكر عاصم بن عمر[٦] بن قتادة أنَّ السَّارقَ بُشيرُ بنُ أُبيرق[٧]، والمسروقَ منه رفاعةُ بن النعمان أخو قتادةَ بن النعمان[٨].

---

(١) في (ف): «فأتياه».

(٢) في (ف): «قوم».

(٣) في (ف): «ليلتهم».

(٤) ذكر الثعلبي نحوه في «تفسيره» (٣/ ٣٨٠ ـ ٣٨١) من رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأورده الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ١٧٣) عن جماعة من المفسرين، وانظر: «الكافي الشاف» لابن حجر (ص: ٤٩).

(٥) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٤٠٤).

(٦) في (أ) (ر): «عمرو»، وفي (ف): «عروة»، والمثبت من المصادر.

(٧) ذكره عنه ابن إسحاق كما في «سيرة ابن هشام» (١/ ٥٢٤).

(٨) قوله: «أخو قتادة بن النعمان» ليس في (أ). والذي في مصادر التخريج أن المسروق منه رفاعة بن زيد عم قتادة بن النعمان. والخبر رواه مطولاً الترمذي في «سننه» (٣٠٣٦)، والطبري في «تفسيره» (٧/ ٤٥٨ ـ ٤٦٢) وابن أبي حاتم (٤/ ١٠٥٩، ١٠٦٠) (٥٩٣٣)، (٥٩٣٤)، (٥٩٣٦) من طريق محمد بن سلمة الحراني عن محمد بن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة عن أبيه عن جده قتادة بن =

ولمَّا ظهر حال طُعمة؛ ارتدَّ ولَحِقَ بمكَّة.

وقيل: اليهوديُّ الذي رمى بالدِّرع في دارِه لبيد بن سهل[١].

وقيل: إنَّ طعمةَ حين ظهر حالُه ارتدَّ ومات بحرَّةِ بني سليمٍ كافراً[٢].

وقيل: سرقَ بعد ذلك في مواضع[٣]، وسرقَ في سفينةٍ كيساً، فأحسُّوا به ورموهُ في البحر[٤].

وقيل: سرقَ من خزانة الكعبة بمكَّة، فوقع عليه حجرٌ فقتله.

وقيل في انتظامِها بما قبلَها: إنَّ الآيةَ الأولى في الصَّلاة، وهي أمانةٌ، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ ﴾ الآية [الأحزاب: ٧٢]، وهذه القصَّة في الخيانة.

= النعمان. قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعلم أحداً أسنده غير محمد بن سلمة الحراني. وروى يونس بن بكير، وغير واحد هذا الحديث عن محمد بن إسحاق، عن عاصم بن عمر بن قتادة مرسلاً، لم يذكروا فيه: عن أبيه، عن جده. اهـ. قلت: ورواه الحاكم في «المستدرك» (٨١٦٤) من طريق يونس بن بكير، وفيه: عن أبيه عن جده. وعمر بن قتادة هذا مجهول، لا يعرف إلا من رواية ولده عنه. انظر: «ميزان الاعتدال» للذهبي (٣/ ٢٢٧).

(١) في رواية الترمذي ومن ذكر معه أن لبيد بن سهل رجل له صلاح وإسلام. وذكره الحافظ ابن حجر في «الإصابة» (٩/ ١٠ ـ ١١) في القسم الأول فهو عنده من الصحابة.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٧/ ٤٦٦ ـ ٤٦٧) وابن أبي حاتم (٤/ ١٠٦٦) (٥٩٦٧) عن السدي، وفيه أنه نزل على الحجاج بن علاط السلمي فنقب بيته يريد سرقته، فسمع الحجاج خشخشة في بيته وقعقعة جلود كانت عنده، فنظر فإذا هو بطعمة، فقال: ضيفي وابن عمي وأردت أن تسرقني! فأخرجه.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٧/ ٤٦٨ ـ ٤٦٩) عن عكرمة، وفيه أنه في آخر سرقاته سرق من ركب من بهراء بن قضاعة، وأنهم لما أدركوه قذفوه بالحجارة حتى مات.

(٤) انظر: «تفسير الثعلبي» (٣/ ٣٨٥).

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾؛ أي: لا تناضِل عن أرباب الحظوظ، وكنْ مع أبناءِ[1] الحقوق، ومَن جنح إلى الهوى، خان فيما أودعَ نفسَهُ مِن التَّقوى، ومَن ركنَ إلى نوازعِ المنى، خانَ فيما طولِب به مِن الحياء لاطِّلاع المولى[2].

* * *

(١٠٦) ـ ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

وقولـه تعالـى: ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾؛ أي: مِـن قصـدك قطـعَ اليهوديِّ بغير سـرقةٍ، والـذَّبَّ عـن طعمة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾؛ أي: لمن استغفر.

* * *

(١٠٧) ـ ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾؛ أي: عن طبقة طعمة، وهم إن خانوا غيرهم؛ فقد أضرُّوا بأنفسِهم، فكان ذلك خيانةً في حقِّ أنفسهم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا﴾؛ أي: كثيرَ الخيانة، سمَّاه به لسرقتِه مرَّاتٍ. ﴿أَثِيمًا﴾ أي: كثير الإثم، والأثيمُ أبلغُ من الآثم؛ كالشَّهيد أبلغُ مِن الشَّاهد، والرَّحيم أبلغُ من الرَّاحم، وإثمُه كان بيمينِه الكاذبة، ورميِهِ اليهوديَّ البريءَ[3] بالسرقة.

---

(١) في (ف): «أرباب».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٣٦٠).

(٣) لفظ: «البريء» ليس في (أ).

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ أي: لأُمَّتك، فإنَّا قد كفيناك حديثَك(١) بقولنا: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢].

وقال في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ هم المؤثِرون حظوظَهم على حقوقه، والرَّاضون بالتَّعريجِ في أوطان الهوى، دون النُّقلةِ إلى منازل الرِّضى(٢).

* * *

(١٠٨) ـ ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: يَستترون بمعاصيهِم في أخذ الأموالِ وجحد الحقوق، ﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾؛ أي: لا يُمكنُهم الاختفاءُ عن الله تعالى، فإنَّه مطَّلعٌ على سرائرهم.

وقال ابن عبَّاسٍ رضي الله تعالى عنهما: ﴿يَسْتَخْفُونَ﴾ أي: يستحيون، كنى به عنه؛ لأنَّه من أسبابه(٣).

وقوله تعالى: ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ﴾؛ أي: يدبِّرون بالليل، **وقوله تعالى:** ﴿مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾؛ أي: مِن تبرئة طُعمة، واتِّهامِ اليهوديِّ البريء، واستزلال النبيِّ ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾؛ أي: عالماً بكلِّ وجوهِه.

* * *

---

(١) بعدها في (ف): «وقديمك».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٣٥٩ ـ ٣٦٠).

(٣) انظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٧/ ٧٦).

(١٠٩) ـ ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ «ها» تنبيهٌ، و﴿أَنتُمْ﴾ خطابٌ لرهطِ طُعمة، و﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ بمعنى: يا هؤلاء، وقيل: بمعنى: الذين.

وقوله تعالى: ﴿جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ﴾؛ أي: خاصمتُم عن الخائنين، ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ استفهامٌ بمعنى النفي، ﴿أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ عطفٌ على «من»[١] وظاهرُه استفهامٌ، و﴿وَكِيلًا﴾؛ أي: حافظاً؛ كالموكَّل على الشيء يَحفظُهُ.

* * *

(١١٠) ـ ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا ﴾؛ أي: ما يسوءُ غيرَهُ مِن سرقةٍ وخيانةٍ[٢] وتهمةٍ بباطلٍ، ﴿أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾ أي[٣]: يَعملْ ما يَضُرُّ به نفسَه.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ جزمٌ؛ لأنَّه عطفٌ على: «مَنْ يَعمَل».

وقوله تعالى: ﴿يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ جزم؛ لأنَّه جزاءُ الشَّرط، دعاهم إلى التَّوبة والاستغفارِ ليغفرَ لهم ما كان مِنهم مِن الأوزار.

وقيل: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا ﴾؛ أي: ما تَسوءُ عاقبتُه، ﴿أَوْ يَظْلِمْ﴾ ﴿أَوْ﴾ بمعنى الواو؛ ويَظْلِمْ بذلك نَفْسَهُ.

---

(١) في (ف): «ما مر».

(٢) في (ف): «أو خيانة».

(٣) في (ف): «أو».

وقال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: السُّوء هاهنا: السَّرقةُ، والظُّلم: الشِّركُ.

وقيل على عكسِه.

وقيل: الآيةُ عامَّةٌ في كلِّ الذُّنوب، وهي أرجى آيةٍ في القرآن، والاستغفارُ هو سؤالُ المغفرة مع النَّدمِ على المعصية.

***

(١١١) ـ ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾؛ أي: مَن فعلَ ما يَأثمُ به؛ فهو على نفسِه، لا يُعاقَب به غيرُه، وإن أراد تحميلَه غيرَه كما[١] أرادهُ طعمةُ وقومه، ولا يَخفى ذلك على الله تعالى؛ لأنَّه عليمٌ، وهو حكيمٌ لا يَضعُ الشَّيءَ غير موضعِه، ولا يُعاقِب بالذَّنبِ غيرَ فاعلِه.

***

(١١٢) ـ ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً﴾؛ أي: بغير عمدٍ، ﴿أَوْ إِثْمًا﴾ أي[٢]: بعمدٍ.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا﴾؛ أي: يتَّهم بالإثم مَن كان بريئاً عنه، و﴿يَرْمِ﴾ جزم؛ لأنَّه[٣] معطوفٌ على ﴿يَكْسِبْ﴾، وذاك جُزِم بالشَّرط؛ وهو كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ [النور: ٤].

---

(١) بعدها في (أ): «إذا».

(٢) بعدها في (ف): «تعمد».

(٣) بعدها في (ف): «كان».

وقوله تعالى: ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا﴾؛ أي: كَذِباً محيِّراً[١] مَنْ كَذبَ عليه؛ لغايةِ استحالته.

وقوله تعالى: ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾؛ أي: وِزْراً[٢] ظاهراً؛ أي: يُظهِرُهُ اللهُ تعالى، فيُعرَفُ بالبُهتان في الدُّنيا، ويعاقَبُ بإثمه في العُقبى.

وقال الكلبيُّ: ولـمَّا نزل: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ الآية [النساء: ١٠٨] عَرَفَ قومُ طعمة أنَّه الظَّالم، فقالوا له: بؤ بالذَّنبِ، واتَّق[٣] الله، فقال: لا والله الذي يُحلَف به، ما سرقَها إلَّا اليهوديُّ، فأنزلَ الله جلَّ جلالُه: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً﴾ يميناً كاذبةً، ﴿أَوْ إِثْمًا﴾ سرقة الدِّرعِ، ورميَ اليهوديِّ به[٤]، ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا﴾ كذباً على غيرِه بما لم يفعل، ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ ذنباً بيِّناً بينه وبين ربِّه.

ثمَّ قوله: ﴿أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا﴾ إنَّما قال: ﴿بِهِۦ﴾ ولم يقل: بهما، مع سبق ذِكْرِ اثنين؛ لأنَّه صرفَهُ إلى أحدِهما، وهو أقربُهما إليه، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤]، وهذا بخلاف قوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ [الجمعة: ١١]، لم يَصرِفْهُ إلى أقربِهما؛ لأنَّ التجارةَ هي المقصودةُ، واللَّهوُ بسببها، فكان صرفُه[٥] إلى المقصودِ أولى، وفي الآيتين اللَّتين[٦] قبلَهما كلُّ واحدٍ منهما في المراد مثلُ الآخر، وأحدُهما أقربُ، فكان[٧] أولى.

---

(١) في (ف): «محرّاً».

(٢) في (ر): «وزوراً».

(٣) في (ر): «واستغفر».

(٤) انظر: «التفسير الوسيط» (٢/ ١١٤)، و«البسيط» للواحدي (٧/ ٨٢).

(٥) في (أ): «وكان الصرف» بدل من «فكان صرفه».

(٦) بعدها في (ف): «أي ما».

(٧) في (ف): «وإحداهما أقرب من الأخرى فكانت» بدل: «وأحدهما أقرب فكان».

(١١٣) ـ ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ﴾؛ أي: ولولا توفيقُ اللهِ وعصمتُه لك يا محمَّد.

وقوله تعالى: ﴿لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ﴾؛ أي[1]: لقَصَدت جماعةٌ مِن قوم طُعمةَ أن يزلوك[2] بتبرئة[3] طُعمةَ وقطعِ اليهوديِّ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾؛ أي: وما يكون وبالُ ذلك إلَّا عليهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ﴾؛ أي: شيئاً، و﴿مِن﴾ للتأكيد.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ﴾؛ أي: القرآنَ وبيانَ القرآنِ، قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٩].

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾؛ أي: مِن أمورِ الدِّين، وقيل: مِن أنباءِ الأوَّلين.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾؛ أي: مِن وقتِ خلقك إلى الآن بكلِّ شيء، فلم يكن ليترُكَ عصمتَك عن إزلالِ المنافقين، مع ما لهُ عليكَ مِن الفضلِ المبين.

* * *

---

(١) بعدها في (أ): «لقد».

(٢) في (ف): «يريبوك».

(٣) في (أ): «بتنزيه».

(١١٤) ـ ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ﴾ النَّجوى: الاسمُ مِن المناجاةِ؛ وهي المسارَّة، ولـمَّا بيَّت طائفةٌ مِن قومٍ طُعمة ما لا يَرضى[1] مِن القول، أخبرَ اللهُ أنَّه لا خيرَ في مثل تلك المسارَّة[2] ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾.

قيل: النَّجوى هاهنا: اسمُ المتناجين؛ كما في قوله: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ [الإسراء: ٤٧]، و﴿إِلَّا مَنْ﴾ استثناءُ بعضِهم، ومحلُّه خفضٌ، كقولِك: لا خيرَ في قومٍ[3] إلَّا نفرٌ منهم.

وقيل: النَّجوى: المناجاة، وفيه إضمارٌ، وتقديره: إلَّا نجوى مَن أمرَ بصدقةٍ.

وقيل: الاستثناءُ منقطعٌ بمعنى: لكن؛ أي: لكن مَن فعلَ كذا، ومحلُّه رفعٌ بـ: لكن الخفيفة، وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾[4]؛ يعني: بتَصَدُّقٍ[5] بمالٍ على محتاج.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ قيل: أي: قرضٍ، وقيل: أي: قولٍ حسن.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: عند فسادٍ وقعَ بينهم، قال النبيُّ ﷺ لأبي أيوب الأنصاري: «ألَا أدلُّك على صدقةٍ هي خير لك من حُمْرِ النَّعم: تُصلِحُ بين الناس إذا تَفاسدوا، وتقرب بينهم إذا تباعدوا»[6].

---

(١) بعدها في (ر): «الله».

(٢) من قوله: «ولما بيت طائفة» إلى هنا ليس في (ف).

(٣) في (أ): «القوم».

(٤) في (ف): «تلك الحقيقة قوله تعالى» بدل من «بـ(لكن) الخفيفة، وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ﴾.

(٥) في (ف): «يتصدق».

(٦) رواه أبو داود الطيالسي في «مسنده» (٥٩٩)، ومن طريقه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٥٨٣) =

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: شيئاً من هذه الثَّلاثة، وقيل: أي: التَّناجي في شيءٍ منها، ﴿ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ أي: لطلبِ رضا الله.

وقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ هذا ظاهرٌ، وقد مرَّ تفسيرُه[1].

***

(١١٥) ـ ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾؛ أي: ومن يُعادِهِ ويخالفهُ، ويكونُ في شِقٍّ[2] غير شقِّه.

وقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ﴾؛ أي: ظهرَ له الرُّشدُ فأسلمَ.

وقوله تعالى: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: يكفُرْ، ويَسلُك غيرَ سبيل المؤمنين، ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾؛ أي: نكِلْهُ إلى ما اختارَهُ مِن الكفر.

وقوله تعالى: ﴿وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ هذا ظاهرٌ، وهذا في شأن طُعمةَ؛ ارتدَّ وهلكَ في الكُفر، وقد روينا ذلك من وجوهٍ في أوَّلِ هذه القِصَّة، ثمَّ إنَّ الآيةَ بصيغتِها عامَّةٌ في حقِّ مَن اتَّصف بهذه الصِّفات، وفيها دليلٌ على أنَّ الإجماع حُجَّةٌ، ومُتَّبِعُ غيرِ سبيلِ المؤمنين ضالٌّ.

***

= بلفظ: «ألا أدلك على صدقة يرضى الله ورسوله موضعها»، وفي إسناده أبو الصباح الشامي وعبد العزيز الشامي، ولم أقف على ترجمتهما.

(١) قوله: «وقد مر تفسيره» من (ف). ومر تفسيره عند الآية (٧٤) منها.

(٢) بعدها في (ر): «جانب».

(١١٦) ـ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا بَعِيدًا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ فسَّرناهُ في هذه السُّورةِ مرَّةً(١).

واتِّصالها بقصَّة طُعمةَ أنَّه أشركَ بعد الإيمان، وليس للمشركِ غفرانٌ.

وقال مقاتل: فخرج طعمة من مكَّة، ولحق بحرَّةِ بني سُلَيم، فعبدَ صنمَهم حتَّى ماتَ على الشِّركِ، فنزلَ فيه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾(٢)، فبيَّن أنَّ طُعمةَ لو لم(٣) يُشرِك، لكان في سَعَةِ رحمةِ الله أن يَغفِر له.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا بَعِيدًا﴾؛ أي: تَناهى تماديهِ في الضَّلال؛ إذ لا جهلَ أفحشُ مِن الجهلِ بالله(٤).

* * *

(١١٧) ـ ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا ﴾ أي: ما يَعبدون من دون الله إلَّا أوثاناً، وهذا تعجيبٌ مِن بعضِ جهالات أهل الشِّرك، والدُّعاء:(٥) العبادة؛ لأنَّ من عبدَ شيئاً دعاهُ لحوائجِه ومصالحِه، يقول: إنَّهم مع إقرارهم بأنَّ اللهَ جلَّ جلالُه خالقُهم

---

(١) لفظ: «مرة» ليس في (ف). ومر تفسيره عند الآية (٤٨) منها.

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٤٠٧).

(٣) بعدها في (ر): «يكن».

(٤) في (ف): «الشرك» بدل: «الجهل بالله».

(٥) بعدها في (ف): «إلى» وهي مقحمة أو محرفة عن «أي».

ورازقُهم، يَعبدون معه أوثاناً يسمُّونها إناثاً؛ كاللَّات والعُزَّى ومَناة، وعَبَدَ بعضُهم الملائكةَ، وهم قالوا: هم بناتُ الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ [النمل: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ [الزخرف: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ﴾ [النحل: ٥٧]، مع اعترافِهم أنَّ إناثَ كلِّ جنسٍ أَخَسُّهُ وأَرذلُهُ، وتقديره: إلَّا إناثاً على زعمهم؛ كما قال: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ [فصلت: ٤٧]؛ أي: على زعمِكم، **وقوله تعالى:** ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ﴾[1] [طه: ٩٧]؛ أي: على زعمِك.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾ أي: وما يعبدون إلَّا شيطاناً[2] عاتياً خبيثاً، خارجاً عن طاعة الله، ظاهراً شرُّه، كالغلام الأمردِ؛ ظهرَ ذقنه، والشجرةِ المرداء؛ سقطت أوراقُها فظهرت عيدانُها.

وعبادتهم الشَّيطان أنَّ بعضهم كانوا يَعبدون الجنَّ؛ وهم من الشَّياطين، ولأنَّهم عبدوا الأوثانَ طاعةً للشيطان، فأُضِيفت العبادةُ إليه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [مريم: ٤٤]؛ أي: لا تَعبدِ الصَّنمَ[3] بدعاءِ الشَّيطان، فقد قال قبله: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤٢]، وهو الصَّنم، ولأنَّ الشَّيطانَ كان يَدخلُ في الصَّنمِ ويكلِّمُهم، وهم يَعبدون الصَّنم، وفيه الشيطان، فكان ذلك عبادةً للشَّيطان، ولأنَّهم أطاعوه في كلِّ ما سوَّل لهم، فكأنَّهم أنزلوهُ منزلةَ المعبودِ، وهو كقوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا﴾ [التوبة: ٣١]؛ لإنزالهم إيَّاهم منزلةَ الربِّ فيما شرعوا لهم.

---

(١) بعدها في (ر): «ٱلَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا».

(٢) بعدها في (ر): «مريداً أي».

(٣) في (ف): «الأصنام».

(١١٨) ـ ﴿لَعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ أي: طردَهُ[١] وأبعدَه مِن رحمتِه.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾؛ أي: لأجتهدنَّ في إضلالِ عبادِك حتَّى يصيرَ لي[٢] سهمٌ مقدَّرٌ[٣] معلومٌ، وإنَّما قال ذلك؛ لأنَّ الله تعالى كان[٤] قال له: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ﴾ [ص: ٨٥].

قال الحسنُ والكلبيُّ: مِن كلِّ ألفٍ تسعُ مئة وتسعة وتسعون للنَّار[٥]، وهم أتباعُه، وذلك قوله: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧].

***

(١١٩) ـ ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ أي: لأصرِفنَّهم من الهُدى إلى الضَّلال بالدُّعاء والتزيين والاستزلال، قال تعالى خبراً عنه: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وقوله تعالى: ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾؛ أي: ولأُلقِينَّ في قلوبِهم الأمانيَّ، قال تعالى: ﴿فَزَيَّنَ

---

(١) بعدها في (ر) لفظ الجلالة: «الله».

(٢) بعدها في (ر): «منهم».

(٣) في (ف): «بينهم مقدار» بدل: «سهم مقدَّر».

(٤) لفظ «كان» من (أ).

(٥) وهو قول مقاتل في «تفسيره» (١/ ٤٠٨).

﴿لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾[١] [النحل: ٦٣]، وقال خبراً عن أمانيهم: ﴿وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم: ٧٧]، ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ الآية [فصلت: ٥٠]، ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى﴾ الآية[٢] [الكهف: ٣٦]، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١]، ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ الآية [البقرة: ١١١]، ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨].

وقيل: معناهُ: لأشغلنَّهم بالأمانيِّ عن الإيمانِ والطَّاعات.

وقيل: يُمَنِّيهم طولَ البقاءِ في الدُّنيا؛ ليؤثروها على الآخرةِ.

وقيل: يُمَنِّيهم على الله[٣] مع كفرِهم بالله.

وقوله تعالى: ﴿وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ والبَتْكُ: القطعُ، من باب: دخل، والتَّبتيكُ: للتَّكثير والتكرير[٤]، و﴿ٱلْأَنْعَٰمِ﴾: الإبلُ والبقرُ والغنم؛ أي: لأحملنَّهم على أنْ يَقطعوا آذانَ هذه الأشياء ويحرِّموها على أنفسِهم بجعلِها للأصنام، وتسميتِها بحيرةً وسائبةً ووصيلةً وحامياً، ونفسِّرها[٥] في تلك الآية إن شاء اللهُ تعالى[٦].

وقوله تعالى: ﴿وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: لَأُزَيِّنَنَّ لهم تغييرَ دينِ الله تعالى الذي فطرَ النَّاسَ عليه، قال تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠].

---

(١) في (أ): «وزين».

(٢) قوله: «الآية ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى﴾ الآية» من (ف).

(٣) في (ف): «الآخرة» وهو تحريف.

(٤) في (ر): «والتكبير».

(٥) في (ر): «وتفسيرها»، وفي (ف): «ويأتي تفسيرها».

(٦) يعني في الآية (١٠٣) من سورة المائدة.

وقيل: أي: فليغيِّرُنَّ الأشياءَ عمَّا خُلِقت له، فيَجعلون للحجارةِ والخشبِ والطِّين منازلَ مَن يستحقُّ العبادةَ، واللهُ تعالى لم يَخلقها لهذا، ويُحرِّمون الأنعامَ والحرثَ، فلا يأكلونَها، ولا يَنتفعون بها، وإنَّما خَلقَها اللهُ تعالى للمنافع.

وقال أنسٌ والحسنُ وإبراهيمُ وعكرمةُ: هو الخِصاء[1].

وقال ابنُ مسعود رضي الله عنه: لعن الله الواشِراتِ ـ أي: محدِّدات الأسنان ـ، والواشماتِ ـ أي: على ظهور الأكفِّ ـ، والمتنمِّصاتِ ـ أي: ناتفات شعور الجبين ـ، والمتفلِّجاتِ للحُسن[2]، المغيراتِ لخلق الله[3].

وقيل: هو نتف الشيب.

وقيل: هو نتف اللِّحية.

وقيل: هو التَّخنُّثُ؛ وهو قول عبد الرحمن بن زيد.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يتولَّى مصالحَه، ويَكفيه مُهِمَّهُ، حتَّى انقادَ لأمرِه، وأطاعَه، وحرَّمَ ما أحلَّهُ الله بقوله[4].

وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾؛ أي: في الدُّنيا والآخرةِ؛ بفوت الطيِّبات، والوقوعِ في العقوبات.

* * *

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٧/ ٤٩٤ ـ ٤٩٦) عن أنس وعكرمة ورواه أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما وشهر بن حوشب وأبي صالح وسفيان.

(٢) بعدها في (ف): «أي».

(٣) رواه البخاري (٤٨٨٦)، ومسلم (٢١٢٥) عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً دون قوله: «الواشرات»، ووقعت هذه اللفظة في رواية الطبري في «تفسيره» (٧/ ٥٠٢).

(٤) لفظ: «بقوله» ليس في (ر).

(١٢٠) ـ ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ﴾؛ أي: يعدهُم البقاءَ في الدُّنيا، ويُمَنِّيهم ذلك بالوسوسة.

وقيل: يعدهم الفقر.

وقيل: هو قوله: ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٨] كما مر في قصَّةِ بدر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾؛ أي: خداعاً.

* * *

(١٢١) ـ ﴿أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾؛ أي: هؤلاء الذين اتَّبعوه مصيرُهُم[1] النَّار، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾؛ أي: معدلاً.

* * *

(١٢٢) ـ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ولم يتَّبعوا الشيطانَ في الأمرِ بالكفر والمعاصي.

وقوله تعالى: ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ مرَّ تفسيرُها مرَّات.

وقوله تعالى: ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾؛ أي: صدقاً، لا كوعد الشيطان.

---

(١) بعدها في (ر): «إلى».

وقولـه تعالـى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾؛ أي: قـولاً، اسـتفهامٌ بمعنى النفي؛ أي: لا أصـدقَ مِـن الله قولاً.

* * *

(١٢٣) - ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾؛ أي: ليس الأمرُ على شهواتِكم وأمانيِّكم أيُّها المشركون؛ تقولون في آلهتكم: هم[١] شفعاؤنا عندَ الله، ولا على شهواتِ اليهودِ والنَّصارى[٢]؛ يقولون: نحن أبناءُ الله وأحباؤه، ولن تمسَّنا النَّارُ إلَّا أيَّاماً معدودات.

وقولـه تعالـى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾؛ أي: مِن المشـركين وأهـلِ الكتاب وغيرِهم.

وقال الحسنُ البصريُّ رحمه الله: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا ﴾؛ أي: شركاً، بدليل أنَّه قال: ﴿وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾[٣]، وهذا وعيد الكفَّار؛ ولأنَّه قال بعدَه[٤]: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾.

والصَّحيحُ أنَّه مطلقٌ في حَقِّ كلِّ سوءٍ مِن مؤمنٍ أو كافر، بدليل ما رُوِيَ أنَّه لمَّا

---

(١) في (ف): «هؤلاء».

(٢) بعدها في (ر): «أي».

(٣) رواه عن الحسن ابنُ أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٠٧٢) (٥٩٩٧) لكن فيه أنه استدل بقوله تعالى: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾ [سبأ: ١٧].

(٤) «بعده» ليس من (أ).

نزلت هذه الآيةُ بكى أبو بكرٍ الصِّديق رضي الله عنه، وقال: كيف الفلاحُ[١] بعد هذه الآيةِ يا رسولَ الله وهي قاصمةُ الظَّهر؟ كلُّ شيءٍ عملناهُ جُزينا به؟ فقال ﷺ: «غفرَ الله تعالى لك يا أبا بكر، ألستَ تمرضُ؟ ألستَ تحزنُ؟ ألستَ تصيبك الأدواء[٢]؟» قال: بلى، قال: «ذاك ما تجزون به»[٣].

وفي روايةٍ قال له: «أمَّا أنت وأصحابُك المؤمنون؛ فتُجزونَ بذلك في الدُّنيا حتَّى تَلْقَوا اللهَ تعالى ولا ذنبَ لكم، وأمَّا الآخرون؛ فيَجمعُ اللهُ ذلك لهم، ويُجزَونَ به يوم القيامة»[٤].

فأمَّا قوله: ﴿وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾ فهو في حقِّ الكافرِ على الإطلاق؛ أنَّه لا يجدُ مَن يَتولَّى حفظَه عن العذاب أصلاً، ولا مَن يَنصرُه فيُعينه، أو يمنعُه عمَّا يُرادُ به من العقاب فعلاً، وفي حقِّ المؤمن أنَّ العاصيَ الذي يُعذِّبُه اللهُ مدَّةً، ثمَّ يُخرِجُه مِن النَّار، ويدخِلُهُ الجنَّة؛ ليس له وليٌّ ولا نصيرٌ يَدفع عنه هذا العذابَ المؤقَّتَ.

* * *

(١٢٤) ـ ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ

---

(١) في مصادر التخريج: «الصلاح».

(٢) في (أ): «اللواء»، ولعلها: «اللأواء» كما في مصادر التخريج.

(٣) رواه أحمد في «مسنده» (٦٨ ـ ٧٠)، والطبري في «تفسيره» (٧/ ٥٢١ ـ ٥٢٣).

(٤) رواه الترمذي في «سننه» (٣٠٣٩) وذكر أن في إسناده مقالًا بينه. قلت: والحديث صحيح بطرقه وشواهده. كما قال محققو «مسند أحمد».

﴿يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ كلمة «مَنْ» للجنس، وتَصلحُ للواحد؛ فلذلك قال: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ﴾، ويصلح للجمع، ولذلك قال: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ صرفاً إلى المعنى.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا﴾ فسَّرناه مرَّةً في هذه السُّورة[1].

وقال الإمام القشيري رحمه الله: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾: مَنْ زرعَ الحنظلَ، لم يَجْتنِ العبهر[2]، ومن شارَ[3] السُّمَّ الزعاف[4]، لم يَجِد طعمَ العسل، كذا من ضَيَّع حقَّ الخدمة، لم يستمكن[5] على بساطِ القُربة، ومن وُسِمَ بالشِّقوةِ، لم يُرزقِ الصَّفوة، ومن نَفتهُ القضيَّةُ، فلا ناصرَ له من البريَّة.

وقال في قوله: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: ومن تَعنَّى في خِدمتِنا، لم يبقَ ضائعاً عن نيلِ نعمتِنا، ومن عنَّيناهُ في طلبِنا، أكرمناهُ بوجودنا، بل مَن جرَّعناهُ كأسَ[6] اشتياقِنا، نوَّلناهُ أنسَ لقائِنا[7].

***

(١٢٥) ـ ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾.

---

(١) عند تفسير الآية (٤٩) منها.

(٢) في (ف): «يجن». والعبهر: النرجس والياسمين ونبت آخر. انظر: «القاموس المحيط»: (عبهر).

(٣) شار بمعنى: اجتنى. انظر: «مختار الصحاح»: (شور).

(٤) في (ف): «النقاع».

(٥) في (ر): «يتمكن».

(٦) في (ف): «كاسات».

(٧) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٣٦٦ ـ ٣٦٧).

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ استفهامٌ بمعنى الجَحد، ولما نزل قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ [النساء: ١٢٣]؛ قالت اليهودُ والنَّصارى: لقد استوينا كلُّنا، فنزلَت هذه الآيةُ في إبطالِ دينِهم وتفضيلِ دين الإسلام(١).

وقوله: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ أي: أخلصَ دينَه لله.

وقيل: أي: عملَه.

وقيل: أي: سلَّمَ نفسَه.

والوجهُ أشرفُ أعضاءِ الإنسان(٢)؛ فخُصَّ بالذِّكر، ولأنَّ الانقيادَ يَظهرُ في الوجه، وكذلك قولُه تعالى: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ [طه: ١١١].

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ قيل: الأول في الاعتقاد، وهذا في العمل.

وقيل: الإحسان ما قال النبيُّ ﷺ: «هو أن تعبدَ الله كأنَّك تراه، فإنَّك إن لم تكن تراهُ فإنَّه يراك»(٣).

وقيل: أي: أسلمَ وجهَه وهو محسِنٌ في حقِّ عبادِ الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ خصَّه بالذِّكر؛ إذ هو أجلُّ الأنبياء المفتَخرِ بهم لأهل الكتاب، ثمَّ هم(٤) خالفوهُ في دينِه، فأبطَلوا فضائلَهم، وهو أيضاً

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٧/ ٥٠٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٠٧٢) (٦٠٠٠).

(٢) في (ف): «الأعضاء» بدل: «أعضاء الإنسان».

(٣) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه مسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٤) في (أ): «ثم»، وفي (ف): «وهم» بدل: «ثم هم».

للعرب بهذا المحلِّ؛ إذ هو أبو إسماعيل، الذي هو أبو العرب، وهم قد خالفوهُ، فأبطلوا فضائلهم.

وقوله: ﴿حَنِيفًا﴾؛ أي: مستقيماً على منهاجِه في الخِتان، والحجِّ، والجهادِ، ومحاجَّةِ الأعداء، وإقامة الشَّرائع.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا﴾؛ أي: لا أحدَ[1] أحسنُ ديناً ممَّن أسلمَ وجهَه لله تعالى؛ يعني: أفردَ قصدَه إلى الله تعالى، وأخلصَ عقدَه لله عمَّا سوى الله، ثمَّ استسلمَ في عمومِ أحواله لله بالله، ولم[2] يدَّخر شيئاً عن الله، لا مِنْ مالِه، ولا مِنْ جسدِه، ولا مِنْ روحِه، ولا مِنْ خلده[3]، ولا مِنْ أهله، ولا مِنْ ولدِه، وكذلك كان الخليلُ صلواتُ الله عليه[4].

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ أثنى عليه بذلك، وهو أنَّه جعله مختصًّا بالانقطاع إليه؛ بصبرِه وتَحمُّلِ المكارهِ في إقامة دينِه، حتَّى هجرَ أهلَه وولدَهُ، وفارقَ وطنَه وبلده، وبذلَ نفسَه ومالَه وولدَه.

قال أبو العبَّاس المبرد: اختلَّ فلانٌ بالرُّمح قلبَ فلانٍ؛ أي: اختصَّه، وخلَّلَ العطاءَ في بني فلان؛ أي: خصَّهم به.

وقيل: الخُلَّةُ: المودَّة التي توجِب الاختصاصَ بتخلُّل الأسرار.

وقيل: هي من الخَلَّة، التي هي الحاجة، قال زهيرٌ:

---

(١) في (ف): «أجد».

(٢) في (أ) و(ر): «ومن لم». والمثبت من (ف)، وهو موافق لما في «لطائف الإشارات».

(٣) في «لطائف الإشارات»: «جلده».

(٤) «لطائف الإشارات» (١/ ٣٦٧).

وإن أتاه خليلٌ يومَ مَسْغَبَةٍ يَقولُ لا غائبٌ مالي ولا حَرِمُ(١)

فإبراهيمُ خليلُ الله؛ أي: المحتاجُ إليه، المنقطعُ إليه بحاجتِه وإظهارِ فاقتِه.

وروى جابرُ بنُ عبدِ الله الأنصاريُّ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «اتَّخذ الله إبراهيم خليلاً؛ لإطعامِه الطَّعامَ، وإفشائِه السَّلام، وصلاتِه باللَّيل والنَّاسُ نيام»(٢).

وروى أبو أمامة الباهليُّ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «أتدرون لِمَ اتَّخذ الله إبراهيمَ خليلاً؟» قالوا: اللهُ ورسولُه أعلم، قال: «كان إذا ذَكرَ الله بطريقِ الحَلِف لم يَحنث»(٣).

وقال عبيد(٤) بن عمير: كان إبراهيمُ عليه السلام يضيفُ النَّاس، فخرجَ يوماً يَلتمِسُ ضيفاً، فلم يجد، فرجعَ إلى دارِه، فوجدَ فيها رجلاً قائماً، فقال: يا عبدَ الله، مَن أدخلك داري بغير إذني؟ فقال: دخلتُها بإذنِ ربِّها، فقال: من أنت؟ قال: أنا مَلَك الموت، فقال: بمَ جئتني؟ قابضاً أم زائراً؟ قال: لا، بل أرسلني ربِّي إلى عبدٍ مِن عبادِه أبشِّرهُ بأنَّ اللهَ قد اتَّخذه خليلاً، قال: من هو؟ فوالله لئن أخبرتَني به، ثمَّ كان بأقصى البلادِ لآتينَّه، ثمَّ لا أبرحُ له خادماً حتَّى يُفرِّق بيننا الموتُ، قال: ذلك العبدُ هو أنت، قال: أنا؟! قال: نعم، قال: فبِمَ اتَّخذني ربِّي خليلاً؟ قال: لأنَّك تُعطي النَّاسَ ولا تَسألُهم(٥).

وقال محمَّدُ بنُ المنكدر: كان إبراهيمُ عليه الصَّلاة والسَّلام مِن أغْيَرِ النَّاس، فكان لا يَدخُلُ دارَه أحدٌ، فبينا هو يوماً في دارِه إذ دخلَ عليه كهيئةِ الإنسان(٦)، فقال

---

(١) انظر: «شرح ديوان زهير» (ص: ١٥٣). قال شارحه: والحَرِم: المنع، يقول: ليس لمالي منعٌ عنك.

(٢) ذكره أبو الليث في «تفسيره» (١/ ٣٩٢) دون إسناد.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) في (ر): «عبيد الله»، والمثبت هو الصواب.

(٥) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٠٧٥) (٦٠١٦)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ٢٧٤).

(٦) في (أ) و(ر): «إنسان».

له إبراهيم: من أدخلَكَ داري؟ قال: أدخلَني ربُّها، قال: ولَها[١] ربٌّ غيري؟ قال: نعم، فعرفَ إبراهيمُ أنَّه مَلكُ الموت، فقال له: يا إبراهيم؛ إنَّ ربِّي أرسلَني إليك، ويقول: إنَّ الخليلَ يُحِبُّ أنْ يَلقى خليلَه، وأمرَني أن أقبضَ روحَك بأيسرِ ما قبضتُ به روحَ مؤمنٍ، قال: فإنِّي أسألُك بالذي أرسلك أن تراجعه[٢]، فصعد فقال: يا رب؛ إنَّ خليلَك سألَني أنْ أُراجِعَك فيه، قال: فائته وقل له: وهل يكرهُ الخليلُ لقاءَ خليلِه؟! فعاد وقال له ذلك، فقال: امضِ لما أُمِرت به، قال: يا إبراهيم؛ أشربتَ الخمر؟ قال: ما شربتُها قط، قال له: فاستنكه[٣]، فقبض نفسه على ذلك[٤].

وقال الكلبيُّ رحمه الله: بعث إبراهيمُ عليه السلام غلمانَهُ إلى خليلٍ له بمصرَ، يَمتارون له سنةَ الجدب، فقال خليلُه: لو كان إبراهيمُ إنما يريدُه لنفسِه، احتملنا ذلك، لكنَّه يريدُهُ للنَّاس، وقد دخلَ علينا ما دخلَ على النَّاس، فرَجعوا، ومرُّوا ببطحاء، وحملوا من رملِها؛ ليُروا النَّاس أنهم جاؤوا بشيء، ثمَّ قدِموا وإبراهيمُ نائمٌ، وحطُّوا الأحمالَ، وفتحتها سارة، فإذا هو أجودُ حُوَّارَى، فخبَزَت وأطعمَتِ النَّاسَ، وانتبهَ إبراهيمُ فوجدَ ريحَ الطَّعام، فقال: من أين هذا الطعام؟ فقالت: من عند خليلِك المصريِّ، فقال: هو من عند الله، فاتخذه الله خليلاً لذلك[٥].

---

(١) في (ر): «أولها». وفي (ف): «ألها».

(٢) في (ف): «قال له: فراجع ربي» بدل: «قال: فإني أسألك بالذي أرسلك أن تراجعه».

(٣) في «العظمة» لأبي الشيخ: «فاستنكهه» ومعناه: شم رائحة فمه، هل شرب الخمر أم لا؟ انظر: «النهاية» لابن الأثير (مادة: نكه).

(٤) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٤٤٨)، وفيه إبراهيم بن أبي بكر بن المنكدر، وهو ضعيف. انظر: «ميزان الاعتدال» للذهبي (١/ ٦٥). والغالب أنه من الإسرائيليات.

(٥) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٣/ ٣٩٢) عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، وهو إسناد تالف.

وقيل: لمَّا أُلقيَ في النَّار قال له جبريل عليه السَّلام: هل لك مِن حاجةٍ؟ قال[١]: أمَّا إليك فلا، حسبي الله ونعم الوكيل، فاتَّخذَهُ اللهُ خليلاً لذلك[٢].

وقيل: لـمَّا أُمِر بذبحِ الولد[٣]؛ قال: مَن لي بخليلٍ بعده؟ فقال اللهُ تعالى: أنا خليلُك، فاتَّخذَهُ الله خليلاً[٤].

وقال بكرُ بنُ عبدِ الله المزنيُّ: كان إبراهيم عليه السلام يربِّي يتيماً سيِّئ الخلق، ويُكابِدُ فيه[٥] الشِّدَّةَ، فماتَ اليتيمُ، فأكثَرَ الجزعَ عليه، وقال: كنت أحتسِبُ الأجرَ في سوءِ خلقِه، فسمَّاه الله لذلك خليلاً.

وقال شهرُ بن حوشب: قال اللهُ تعالى للملائكة: إنَّ لي في الأرضِ عبداً اسمُه إبراهيم، وإنِّي أريدُ أنْ أتَّخذَهُ خليلاً، فقالوا: نحن نسبِّحُ بحمدِك ونقدِّسُ لك، فلا تتَّخذُنا خليلاً، وتَتَّخِذُهُ خليلاً! قال: فاختاروا منكم مَلَكاً، فاختاروا، فقال اللهُ تعالى له: اهبط إلى الأرضِ، واذكرني بين يدي[٦] عبدي إبراهيم، فهبطَ في صورة مَلك، ومثلَ بين يديه، وقال: الله، بصوتٍ رخيمٍ شجيٍّ، فقال إبراهيم: اذكرهُ مرَّةً أخرى، قال: لا أذكرُهُ مجَّاناً، قال: لك مالي كلُّه، فقال بصوتٍ أشجى منه: الله، فقال إبراهيم: اذكرهُ مرَّةً ثالثةً ولك أولادي[٧]، فقال له الملكُ: أبشِر؛ فإنِّي ملَكٌ، لا أحتاجُ إلى

---

(١) في (أ): «فقال».

(٢) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٤٥) من قول بشر بن الحارث الحافي، دون قوله: فاتخذه الله خليلاً.

(٣) في (ف): «ولده».

(٤) قوله: «فاتخذه الله خليلًا» من (ر).

(٥) في (ف): «منه».

(٦) في (ف): «عند» بدل: «بين يدي».

(٧) في (ف): «ذا وأشار إلى ولده» بدل: «ولك أولادي».

مالِكَ وولدِكَ، وعرجَ إلى السَّماء، فقالوا: حقٌّ له أن يتَّخذهُ خليلاً[1]، ونزلَ جبريلُ عليه السَّلامُ بالبشارة، فقال: وما أمارةُ ذلك؟ قال: أنَّ الله يُحيي الموتى بدعائِك، فعند ذلك قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة: ٢٦٠] على الخلَّةِ، لا شكًّا في قدرةِ الله تعالى.

وقال الإمامُ القشيريُّ رحمه الله: إنَّ الله تعالى جرَّدَ الحديثَ عن كلِّ سعيٍ وكدٍّ وطلبٍ وجهد، حين قال: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾، فعُلِمَ أنَّ الخُلَّة كسوةٌ يَكسوها الحقُّ، لا صفةٌ يَكتسِبُها العبد[2].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: نحن نعلمُ أنَّ اللهَ تعالى لا يُسمِّيه بالذي ذُكِرَ عبثاً باطلاً، لكن سمَّاهُ به تعظيماً لقدره، وإظهاراً لكرامتِه، وبياناً لمنزلتِه عندَهُ بما شاءَ مِن الوجوه التي لعلَّها لم يُطلِعِ الله[3] عليها الخلقَ، ولا يَحتمِلُ أنْ يُدركَ ذلك إلَّا بالوحي، فحقٌّ علينا تعظيمُه ومعرفتُه بالذي اختصَّهُ به، دون تكلُّفِ المعنى الذي كان له ذلك، مع ما لا وجهَ ولا معنى صار به حقيقَ ذلك وأُكْرِمَ به، إلا لمعنًى أكرمَهُ اللهُ تعالى به، ولله أنْ يَبتدِئه بالخلَّة، ثمَّ يُكرِمَهُ بأنواع الكرامات التي هي آثارُ الخلَّة، وأن يكرِمَهُ بأنواع الكرامات التي بها تقعُ كرامةُ الخلَّةِ، ولله تعالى المنُّ في ذلك والفضلُ، وعلينا الحمدُ لله والشُّكرُ بما أكرمَنا مِن معرفةِ كرام خلقِه، وجعل في قلوبِنا مودَّتَهم، حتَّى صاروا أحبَّ[4] إلينا من أمسِّ الخلقِ بنا، بل مِن أنفُسِنا.

ثمَّ ليس للنَّصارى دعوةُ البنوَّة لله تعالى من حيث الكرامة على الاعتبار

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٧/ ١١٦).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٣٦٧).

(٣) لفظ الجلالة «الله» ليس في (ف).

(٤) بعدها في (ر): «الناس».

بالخلة؛ لأنَّه تعالى عظَّمَ أمرَ الأولادِ حتَّى جعلَهُ كالشِّركِ، ولا كذلك أمرُ الخلَّةِ، ولأنَّ أمرَ الأولادِ حقُّه المجانسةُ، والخُلَّةُ حقُّها الموافقة، ثمَّ أصلُ الأولادِ الشَّهوةُ والحاجةُ، والخُلَّةُ أصلُها الخضوعُ والطَّاعة، ولأنَّ الخُلَّةَ قريبةٌ مِن المحبَّة، والمعنى الذي يقتضي ذلك قد يكون بفعلِ العبد، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وقال تعالى: ﴿فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، ومحالٌ أن يجيء معنى البنوَّة والولادة بشيءٍ مِن الطَّاعة، فلذلك اختلفَ الأمران[1].

* * *

(١٢٦) ـ ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: مُلكاً، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا﴾؛ أي: عِلماً، بيَّن أنَّه وإنْ رفعَ منزلتَهُ، وأعلى درجتَهُ، فهو عبده، ويحيطُ بكلِّ مِن[2] موافِقِيه ومخالفيه علمُه.

* * *

(١٢٧) ـ ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ﴾ ومن الإحسان المجاملةُ في حقِّ اليتامى والنِّسوان.

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٣/ ٣٧٢).

(٢) لفظ: «من» ليس في (ف).

نزلت الآية في شأن بنتِ محمَّد بن مَسْلَمة، قاتلِ كعب بن الأشرف، واسمُها خويلة ـ وقيل: عميرة ـ وزوجها رافع بن خديج، كان له منها أولاد، وقد كَبِرتْ وأيسَت من الحيض، فأرادَ أنْ يُطلِّقَها ويتزوَّجَ غيرها، فقالت: لا تُطلِّقني، ودعني أقومُ على ولدي، وتَزوَّج مَن شئتَ، واجعَلْ قسمي كلَّ عشرة أيَّام، أو ما شئتَ، فقال رافع: إن كان هذا يَصلُحُ فهو أحبُّ إلي، فجاء إلى رسولِ الله ﷺ، وذكرَ له ذلك، فقال ﷺ: «لقد سمعَ اللهُ ما تقول، فإنْ شاءَ أجابَك»، فأنزلَ اللهُ تعالى هذه الآية: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ﴾[1]، وهذا مختصرٌ، وظهرَ بالجواب أنَّ الاستفتاء عمَّاذا كان؟ وتقديرُه: ويسألونك في النساء[2]؛ ما الواجبُ لهنَّ وعليهنَّ؟

وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾؛ أي: يجيبكم عن[3] سؤالكم[4].

وقولـه تعالـى: ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَـٰبِ﴾ مِنهـم مَـن جعلَـهُ عطفـاً علـى ﴿فِيهِنَّ﴾؛ أي: ويفتيكـم فيمـا يتلى عليكم، لكن قـال المحققون من أهـل النَّحو: إنَّ عطـفَ الظَّاهـرِ على المكنيِّ المخفوضِ غيـرُ جيِّد إلَّا بإعـادةِ الخافض[5].

---

(١) ذكر مقاتل في «تفسيره» (١/ ٤١٢)، والثعلبي في «تفسيره» (٣/ ٣٩٤) نحو هذا الخبر سبباً لنزول الآية التالية: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا﴾.

(٢) قوله: «في النساء» من (ر).

(٣) في (ف): «على».

(٤) بعدها في (ر): «عليهم».

(٥) انظر: «الكتاب» لسيبويه (٢/ ٣٨٢ ـ ٣٨٣). وهذا الذي ذكره المؤلف هو مذهب جمهور النحاة، والحق أنه جائز ورد في كلام الله سبحانه في قراءة ﴿تساءلون به الأرحام﴾، في قراءة من قرأ بالخفض، وهو حمزة. وجعلوا منه قوله تعالى: ﴿وكفر به المسجد الحرام﴾ وعلى ذلك الكسائي وابن مالك وغيرهما. قال ابن مالك: وليس عندي لازماً إذ قد أتى في النظم والنثر الصحيح مثبتاً؛ أي: إعادة الجار، والله أعلم.

والصَّحيحُ أنَّه مرفوعٌ معطوفٌ على قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾؛ أي: اللهُ يفتيكم، والكتابُ المتلوُّ عليكم يُفتيكم؛ أي: يُبيِّنُ(١) لكم، وهو كقولك: بيَّن اللهُ لنا كذا، وبيَّن القرآنُ كذا، على معنى أنَّ البيانَ فيه، وعلى هذا قولُه: ﴿أَمۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ [الروم: ٣٥]، يريدُ به أنَّ اللهَ تعالى(٢) يجيبُكم في أمر النِّساء، والذي يُتلى عليكم(٣) في الكتاب يُبيِّن لكم جوابَ سؤالٍ آخر، وهو نكاحُ اليتيمات.

﴿وَمَا يُتۡلَىٰ﴾ هو ما ذُكر في أوَّلِ هذه(٤) السُّورة، وكانت بناتٌ استُشْهِدَ آباؤهنَّ، ولهنَّ أموالٌ، وأولياءُ لا غِنى لهم، فسألوا: أيجوزُ لنا أنْ نتزوجهنَّ مع قلَّةِ أموالِنا، فأجيبوا: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾؛ أي: غيرَهن، فأعادوا السُّؤال بناءً على أنَّ لهم حقَّ التَّربية، فعسى أن(٥) يُطلَق لهم ذلك(٦)، فأُجيبوا هاهنا أنَّ الجوابَ ما مرَّ في تلك(٧) الآية.

وقوله تعالى: ﴿فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾؛ أي: اليتيماتِ مِن النِّساء، واليَتامى يَصلحُ للذُّكور والإناث جميعاً.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّٰتِي لَا تُؤۡتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾؛ أي: لا تُعطونهنَّ ما فُرِضَ لهنَّ من المهورِ؛ لعدم المال لكم.

وقوله تعالى: ﴿وَتَرۡغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾؛ أي: تُحِبُّونَ نكاحهنَّ، وتَرغبون في ذلك.

---

(١) في (ف): «يتبين».

(٢) في (أ): «يريد الله أن» بدل من «به أن الله تعالى».

(٣) «عليكم» ليس في (أ).

(٤) لفظ: «هذه» من (أ).

(٥) «أن» ليس في (ف).

(٦) «ذلك» ليس في (ف).

(٧) من قوله: «فانكحوا ما طاب لكم» إلى هنا ليس في (أ).

وقيل: أي: لا تفرضونَ لهنَّ صداقَ أمثالِهنَّ، بل تحطُّون عن ذلك ظلماً.

وقيل: أي: لا تُعطونهنَّ ميراثهنَّ، فتَظلمون مِن هذا الوجه، وتظلمونهنَّ أيضاً بنكاحهنَّ بما دون مهورهنَّ.

وقيل: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾؛ أي: عن أن تنكحوهنَّ[1]، ولعدمِ الرغبةِ فيهنَّ لا تنكحونهنَّ، ولرغبتكم في أموالهن تَعضلونهنَّ؛ لتَرثوهنَّ إذا متنَ.

وقوله تعالى: ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ﴾؛ أي: وما يُتلَى عليكم في أوَّل السُّورة يُفتيكُم في هؤلاء أيضاً، وهو قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾ [النساء: ٢] ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾ [النساء: ٢]، ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى﴾ [النساء:٦]، ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا﴾[2] [النساء:٩]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى﴾[3] [النساء: ١٠]، ونظائرها.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ ﴿وَمَا﴾ شرطٌ، ولذلك جزم فحذفت النُّون، وقوله: ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾؛ أي: مِن اتِّباعِ أمرٍ، واجتنابِ نهيٍ، فقد سبقَ علمُ الله بكونه منكم، وهو جازيكم عليه.

* * *

(١٢٨) ـ ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

---

(١) «أي: عن أن تنكحوهن» ليس في (ف).

(٢) بعدها في (ر): «من خلفهم».

(٣) بعدها في (ر): «ظلماً».

وقوله تعالى: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا﴾[١] هو جوابُ سؤالهم عن أمورِ النِّساء، وتحقيقُ وعدِه: ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾، وهو في خويلةَ[٢] بنتِ محمَّدِ بن مسلمة. وقوله: ﴿خَافَتْ﴾؛ أي: علمت ﴿مِنْ بَعْلِهَا﴾؛ أي[٣]: زوجِها.

وقوله تعالى: ﴿نُشُوزًا﴾؛ أي: ترفُّعاً وكراهةَ صحبةٍ[٤].

وقوله تعالى: ﴿أَوْ إِعْرَاضًا﴾ أي: تولِّياً بوجهِه.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَصَّالحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً﴾ على أن تكونَ القديمةُ هي القيِّمةَ في البيت، وفي يدها الرَّفعُ والوضع، والقَسْمُ للحديثة، فيكون للشَّابَّةِ لذَّةُ الصُّحبَة، وللعجوزِ مراعاةُ الحرمة.

وإنَّما نفى الجُناح عنهما؛ لأنَّها أسقطَتْ حقَّ نفسِها، والزَّوجُ فعلَ ذلك برضاها، وهما يملكان التَّصرُّفَ في حقوقهما، وهو بخلاف الزِّنى والرِّبا؛ لأنَّهما[٥] لا يَحِلَّان برضا الفاعلين والعاقدين؛ لأنَّ هذه الحرمةَ حقُّ الله تعالى، وهما لا يملكان إسقاطَها.

وقرأ أهلُ المدينة وابنُ كثير وابنُ عامر[٦] وأبو عمرو: ﴿أَنْ يَصَّالحا﴾ بتشديدِ الصَّاد وزيادةِ الألف، وأصلُه: يَتصالحا، فأُدغِمَت التَّاءُ في الصَّاد، وقرأ الباقون: ﴿أَن يُصْلِحَا﴾ بضمِّ الياء وتخفيف الصَّادِ وكسر اللام[٧]، مِن الإصلاح.

---

(١) بعدها في (ف): «نشوزاً أو إعراضاً».

(٢) لفظ: «خويلة» من (أ).

(٣) بعدها في (ر): «من».

(٤) «صحبة» ليس من (ف).

(٥) في (أ): «أنهما».

(٦) قوله: «وابن كثير وابن عامر» من (ف).

(٧) انظر: «السبعة» (ص: ٢٣٨)، و«التيسير» (ص: ٩٧).

و﴿صُلْحًا﴾ نصبَ على وجهِ المصدر، وليس على بناءِ الفعل، لكن على اعتبارِ الأصْل، وقد أوضحناهُ في قوله تعالى: ﴿يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾؛ أي: الصُّلحُ منهما على هذا الوجهِ أحسنُ من الدَّوامِ على المخالفةِ والنُّشوزِ والإعراض؛ لأنَّ ذلك يؤدِّي إلى الفِراق.

وقال عبدُ الرَّحمن بن أبي الزناد: نزلَت في سَوْدَةَ بنتِ زَمعة، وكانت مُسِنَّةً، فكَرِهَتْ أن يُفارِقَها النبيُّ ﷺ، وضنَّت بمكانِها منه، وعرفَتْ حبَّهُ لعائشةَ رضي الله تعالى عنها، ومنزلتَها منه، فوهَبَت يومها لعائشة، وقبِلَ ذلك رسولُ الله ﷺ[٢].

وقولُه تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾؛ أي: وطُبِعت الأنفسُ على الشُّحِّ، وهو البخلُ وصرفُه مِن حدِّ: ضربَ، والنَّعتُ: الشَّحيح، وجمعُه: الأشحَّة، وإحضارُ النَّفسِ[٣] الشحَّ: إلزامُها خلقَهُ حتَّى لا يفارقها، فالمرأةُ تَشِحُّ، فلا تتركُ قَسمها ونفقتَها، والزَّوجُ يَشِحُّ بحظِّهِ مِن الشَّابَّةِ الجميلة، فلا يتركُها لأجل العجوزِ القبيحة، فأمرَهُما بمخالفةِ الطَّبعِ، ومتابعةِ الشَّرعِ؛ بالصُّلحِ، أو إيفاء الحقِّ[٤]، وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ قيل: أي: إنْ تُحسِنوا أيُّها الأزواجُ بالإجابةِ إلى الصُّلح.

وقيل: أي: بإيفاءِ حقِّ المسنَّةِ.

---

(١) قبلها في (ف): «من ذا الذي».

(٢) رواه أبو داود في «سننه» (٢١٣٥) من طريق عبد الرحمن بن أبي الزناد عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) في (ر): «الأنفس».

(٤) قوله: «أو إيفاء الحق» ليس في (ف).

وقيل: يُحسِنُ كلُّ واحدٍ مِن الزَّوجين بمراعاةِ رضا الآخر.

وقوله: ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ قيل: أي: تتَّقوا الميلَ. وقيل: وتتَّقوا الفِراقَ؛ فالله تعالى يَعلمُ ذلك، ويُجازي عليه، وهذا كما قال: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾، وهذا بيانُ الطَّبع، ثمَّ قال: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الأنبياء: ٣٧]، وهذا نهيٌ عن متابعةِ الطَّبع، وأمرٌ بموافقةِ الشَّرع.

وقال الإمامُ القشيريُّ رحمَه الله[١]: صحبةُ الخلقِ بعضِهم مع بعض[٢] إذا تجرَّدَت عنْ حديثِ الحقِّ؛ فإنَّها تعرض[٣] الوحشةَ وممازجةَ النُّفرة، فمَن أعرضَ عن الله تعالى بقلبِه، أعرضَ الخلقُ عن مراعاةِ حقِّه، وخرجَ الكافَّةُ عليه باستصغارِ أمرِه، واستحقارِ قدرِه، ومَن رجعَ إلى الله تعالى بقلبِه استوى له أمرُه، واتَّسعَ لاحتمالِ سوءِ خُلُقِ الخَلْقِ صدرُه، ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾، واتِّضاعُك في نفسِكَ أحرى بك مِنْ تطاولِكَ على خصمِك بإيثارِ الانتقام، وشهود مالَك من مزيَّة المقام، وأكثرُ النَّاس في أسرِ هذه المحنة.

﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ وشحُّ النَّفسِ: قيامُ العبدِ بحظِّه، ومَن حُجِبَ عن شهودِ ربِّه، رُدَّ إلى شهود نفسه.

﴿وَإِن تُحْسِنُواْ﴾ عبادةَ ربِّكم ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ شهودَ قدرِكم، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾؛ أي: إذا فنيتُم عنكم وعن عملِكم[٤]، فكفى بالله جازياً لكم[٥].

---

(١) بعدها في (ر): «على».

(٢) في (ر): «مع الخلق» بدل «بعضهم مع بعض».

(٣) في (أ): «بعرض»، وفي «لطائف الإشارات»: «تتعرض للوحشة».

(٤) في (ف): «أعمالكم».

(٥) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٣٦٩ ـ ٣٧٠).

(١٢٩) ـ ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾؛ أي: ولن تَقدِروا أن تُسوُّوا بين نسائكم في العدلِ في الحبِّ وإنْ جهِدتُم؛ لأنَّ الحُبَّ عملُ القلبِ الذي لا يملِكُه الإنسان.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ﴾؛ أي: لا تَجمعوا بين ميلِ القلوب وميلِ[١] الأفعال في القَسمِ والنَّفقة.

وقوله تعالى: ﴿فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾ الفاءُ لجواب النهي، وبها نُصِبت «تذروها»، فحُذِفَت النُّون. والمعلَّقةُ: ألَّا تكونَ ذاتَ زوجٍ ولا مطلَّقة.

وقال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: أي: كالمسجونة[٢]؛ فإنَّها منكوحةٌ، لا يَصِلُ إليها منافعُ الزَّوج، وليست بأيمٍ يمكنُها أنْ تتزوَّج، أو تعلمُ بأنَّها لا قائم[٣] بحقِّها، فتتكلَّفُ لإصلاحِ أمورِها.

وروي أنَّ النبيَّ ﷺ كان يُطافُ به في مرضِ موتِه على نسائه[٤]، ويقول: «اللهمَّ،

---

(١) في (ف) «وبين ميل».

(٢) لم أقف عليه من قول ابن عباس، وأخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (٦٥١)، ومن طريقه الطبريُّ في «تفسيره» (٧/ ٥٧٤) من قول قتادة. وأخرج الطبري (٧/ ٥٧٣ ـ ٥٧٤) عن ابن عباس: ﴿فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾ قال: تذروها لا هي أيم ولا ذات زوج.

(٣) بعدهل في (ر): «عليها».

(٤) روى البخاري (١٣٨٩)، ومسلم (٢٤٤٣) عن عائشة، قالت: إن كان رسولُ الله ﷺ ليتفقَّدُ، يقول: «أين أنا اليوم؟ أين أنا غداً؟»؛ استبطاءً ليوم عائشة، قالت: فلمَّا كان يومي قبضَهُ الله بين سَحْري ونَحْري، ودفن في بيتي.

هذا قَسمي فيما أملكُ، فلا تؤاخذني فيما[١] لا أملك»[٢]؛ يعني: من حبِّ عائشةَ رضي الله عنها، وقال النبيُّ ﷺ: «من كانت له امرأتان، فمالَ إلى إحداهما، جاء يوم القيامة وأحدُ شقَّيهِ مائلٌ»[٣].

وقال الإمام القشيري رحمه الله: إذا منعتموهنَّ عن صحبةِ أغيارِكم، ثمَّ قطعتم عنهنَّ ما هو حظُّهنَّ منكم، أضررتم بهنَّ مِن وجهين؛ لا منكم نصيبٌ، ولا إلى غيرِكم سبيل، وإن هذا الحيف[٤] عظيم.

والإشارة فيه أنَّه إذا سُدَّ عليك طريقُ حظوظِك منك، فُتِح عليك شهودُ الحقِّ، ووجودُ اللُّطف؛ فإنَّ مَن كان في الله تعالى تلفُهُ فالحقُّ سبحانه خَلَفُه[٥].

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ قيل: إن تُصلِحوا ذاتَ بينِكم في حسنِ الصُّحبة.

وقيل: ﴿وَإِن تُصۡلِحُواْ﴾ أعمالَكم بتركِ كلِّ الميل، وتتَّقوا الجَورَ.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: ﴿وَإِن تُصۡلِحُواْ﴾؛ أي: فيما بينكم وبين الخلق، ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ أي: فيما بَيْنَكُم وبين الحقِّ، غفرَ اللهُ لكم ما سلفَ مِن الجورِ[٦].

وقيل: غفرَ اللهُ لكم ميلَ القلب بالحبِّ، ورحمَكُم فلم يعاقبكم.

---

(١) في (أ) و(ر): «بما».

(٢) رواه أبو داود (٢١٣٤)، والترمذي (١١٤٠)، والنسائي (٣٩٤٣)، وابن ماجه (١٩٧١) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) رواه أبو داود (٢١٣٣)، والترمذي (١١٤١)، والنسائي (٣٩٤٢)، وابن ماجه (١٩٦٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) في (أ) و(ر): «لحيف»، والمثبت موافق لما في «لطائف الإشارات».

(٥) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٣٧٠).

(٦) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٣٧٠).

(١٣٠) ـ ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ﴾؛ أي: وإنْ لم يصطلحِ الزَّوجان على شيءٍ، وتفرَّقا بالخلعِ، أو بتطليقِه إيَّاها، وإيفائِه مهرَها ونفقةَ عدَّتها؛ أغنى اللهُ كلَّ واحدٍ منهما عن صاحبِه، وكفاهُ أمرَهُ بغيرِه.

وقوله: ﴿مِّن سَعَتِهِۦ ﴾؛ أي: مِن غِناه، وقيل: أي: مِن كمال قدرتِه[1].

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴾ أي: غنيًّا. وقيل: أي: قادراً، يسع قدرتُه إغناءَهما وغيرَ ذلك، ﴿حَكِيمًا ﴾ لا يأمرُ عبادَهُ إلَّا بما هو مصلحةٌ وحكمة.

والواسعُ في صِفةِ الله تعالى يُذكَرُ مِن غير إضافة؛ لأنه أبلغ، فإنَّه واسعُ الرِّزق، واسعُ الفضل، واسعُ الرَّحمة، واسعُ القُدرةِ، واسعُ الغِنى، فيَسعُ[2] إطلاقه على كلِّ ذلك.

* * *

(١٣١) ـ ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ وهو بيانُ السَّعةِ المذكورةِ في الآية الأولى، وبيانُ أنَّه قادرٌ على إغنائهما، فلهُ ما في السَّماوات وما في الأرض.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾؛ أي: أمرنا الكلَّ بتقوى الله، وهو: أنْ تَعبدوه وتُطيعوه، هذه وصيَّةُ الله في الأوَّلين والآخرين، لم يلحقها نسخٌ ولا تَبديل.

---

(١) بعدها في (ف): «أغناهما».

(٢) في (أ): «فيقع»، وفي (ر): «فيصح».

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾؛ أي: مستغنياً عن إيمانِ الخلق، وعن كلِّ شيءٍ، ﴿حَمِيدًا﴾ مستحِقًّا للحمدِ بذاتِه وصفاتِه وأفعالِه، لا بحَمدِ خلقِه.

* * *

(١٣٢) ـ ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾؛ أي: حفيظاً، وقيل: قائماً بالتَّدبير.

وإنَّما كرَّر ذِكر ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ثلاثاً؛ للبيانِ عن عللٍ ثلاث، يقول: وجَبَتْ طاعةُ الله فيما وصى[1] به؛ لأنَّ له ملكَ السَّماوات والأرض، وهو غنيٌّ عن كلِّ شيءٍ، حميدٌ بذاتِه، مستَحِقٌّ للحمد؛ لأنَّ له ملكَ السَّماوات والأرض، حفيظٌ لكلِّ شيءٍ، قائمٌ بتدبيرِ كلِّ شيءٍ؛ لأنَّ له ملكَ السَّماوات والأرض، وهو كتكرير قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾[4].

* * *

(١٣٣) ـ ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾؛ أي: يهلككم.

---

(١) في (ف): «أوصى».

(٢) تكررت في سورة المرسلات عشر مرات.

(٣) تكررت في سورة الرحمن إحدى وثلاثين مرة.

(٤) بعدها في (ر): «فهل من مدكر». وهذه الآية تكررت في سورة القمر أربع مرات.

وقوله تعالى: ﴿وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ﴾؛ أي: ويخلق قوماً آخرين أطوعَ منكم.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾؛ أي: على الاستبدالِ، ويجوزُ أنْ يكونَ خطاباً للكفَّارِ، وتخويفاً لهم، ويجوز أن يكون لكلِّ العصاة، وهو كقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٩]، **وقوله تعالى:** ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨].

وقيل: لمَّا نزلت هذه الآية ضربَ النبيُّ ﷺ يدَهُ على ظهر سلمان، وقال: «هم قومُ هذا»[١].

وقال الإمام القشيري رحمه الله: لا نهايةَ للمقدورات، فإنْ لم يكن عمروٌ فزيدٌ، وإن لم يكن عبدٌ فعبيد، والذي لا بدلَ عنه ولا خلفَ هو الله الواحدُ[٢] الأحد[٣].

* * *

(١٣٤) ـ ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾؛ أي: من طلبَ بعمله ثوابَ الدُّنيا، لم يَنلْه بإرادتِه وعملِه؛ فإنَّ ثوابَ الدُّنيا والآخرة بيدِ الله تعالى، وهو المعطي، فليَطلب بعَملِه وجهَ الله الذي يملكهُما؛ ليعطيَه إيَّاهما.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا﴾ للأقوال، ﴿بَصِيرًا﴾ بالأفعال، وهو وعدٌ ووعيدٌ أنَّه يَجزي كلًّا على وفق عمله.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٧/ ٥٨٢).

(٢) بعدها في (أ): «القهار».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٣٧٢).

(١٣٥) ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ أكثرُ هذه السُّورةِ في الأمر بالقِسطِ في المعاملات، وهذه الآيةُ في الأمر بالقسطِ في الشَّهادات، ولأنَّه ذكرَ مَن أرادَ بعملِه الدُّنيا، وقد يَمنعُ الشَّاهِدُ شهادةَ الحقِّ لطمعِ الدُّنيا، فوصل لذلك ذلك بهذا.

و﴿قَوَّامِينَ﴾ مبالغةٌ في[1] قائمين، والقِسْطُ: العدل.

وقوله تعالى: ﴿شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ نصبُه مِن ثلاثة أوجه: نعتٌ للقوَّامين، وحالٌ لهم في فعلِ القيام بالقسط، وخبرٌ آخر لـ ﴿كُونُوا﴾؛ أي: قوموا بالعدل، فاشهدوا للنَّاس على النَّاس بما لكم فيه شهادةٌ؛ لوجهِ الله تعالى وتقرُّباً إليه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ هذه كلمةُ تأكيدٍ؛ أي: وإن كان ضررُ تلك الشهادةِ عائداً إليكم.

وقيل: المرادُ مِن الشَّهادة على نفسِه: هو الإقرارُ بما عليه من الحقِّ لخصمِه؛ فإنَّ الشَّهادةَ إخبارٌ محقَّقٌ، والإقرارُ على نفسِه بما عليه من الحقِّ[2] إخبارٌ.

وقوله تعالى: ﴿أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾؛ أي: وإنْ كانت شهادتُكم على آبائِكم وأمَّهاتِكم[3] وأقاربكم[4]، ولا يَسعكم منعُها حقًّا لهم[5].

---

(١) في (ف): «من».

(٢) «بما عليه من الحق» من (أ).

(٣) «وأمهاتكم» ليس في (ف).

(٤) في (أ): «وأقربائكم».

(٥) في (ف): «لكم».

وقال الإمامُ القشيريُّ رحمه الله: أصلُ الدِّينِ إيثارُ حقِّ الحقِّ على حقِّ الخلقِ، فمَن آثرَ على الله أحداً؛ والداً أو ولداً، أو قريباً أو نسيباً، أو ادَّخرَ عنه نصيباً، فهو عديمُ القِسطِ عن القيام بالقِسط(١).

قال أبو العالية: نزلَت الآيةُ في رجلٍ مِن الأنصار قال: يا رسولَ الله، إن لي والداً، وعليه حقٌّ، وأنا مِن الشُّهود، وما يَمنعُني مِن الشَّهادةِ عليه إلَّا أنَّه معسِرٌ، فنزلَت الآيةُ.

وقوله تعالى: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا﴾ قال الأخفشُ: أي: إن يكنْ مَن يُخاصِمُ غنيًّا أو فقيراً(٢).

وقوله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾؛ أي: أحقُّ بهما فيما اختار لهما من غنًى أو فقرٍ، فلا يحملنَّكم غنى خصمٍ على أنْ تَمنعوا الشَّهادةَ عليه لاحترامه، أو تَشهدوا لهُ بالباطلِ لاحتشامِه، ولا فقرُ فقيرٍ ألَّا تشهدوا له استهانةً به، أو لا تَشهدوا عليه مرحمةً له، أو تَشهدوا له بالباطلِ معونةً له.

وإنَّما قال: ﴿بِهِمَا﴾ على التَّثنية؛ مع إدخال ﴿أَوْ﴾ بين الغنيِّ والفقير؛ لأنَّه قد ذكرَهُما في الجملة، وذكرَ أنَّ اللهَ أولى بكلِّ واحدٍ منهما، وهو كقوله تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾ [النساء: ١٢].

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟﴾ له ثلاثةُ أوجه:

أحدها ـ وهو قول الفرَّاء ـ: لِأَن تَعدلوا؛ أي: لا تَتَّبعوا الهوى لتكونوا عدولاً(٣).

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٣٧٢).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للأخفش (١/ ٢٦٨).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٢٩١). قال السمين الحلبي في «الدر المصون» (٤/ ١١٨): وهو ضعيف في المعنى.

والثاني: في أَلَّا تعدلوا؛ أي: لا تَتَّبعوا الهوى في تركِ العدل، و«لا» مضمرةٌ، كما في قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا﴾ [النساء: ١٧٦]؛ أي: لئلَّا تَضِلُّوا[١].

والثالث: في أنْ تَعدِلوا عن الحقِّ؛ أي[٢]: تَميلوا عنه.

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَلْوُوا﴾؛ أي: تُحرِّفوا الشَّهادةَ، فتَشهدوا على وجهٍ لا يَصِحُّ وتتعطَّل.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ تُعْرِضُوا﴾؛ أي: تتولَّوا عن أدائِها.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾؛ أي: مِن تحريفِ الشَّهادةِ وكتمانِها وأدائها على وجهِها، وهو[٣] وعدٌ ووعيدٌ بالجزاءِ على وفق العمل.

وقرأ حمزةُ وابنُ عامر: ﴿وإن تَلُوا﴾ بواوٍ واحدةٍ[٤]، من الوِلايةِ، وهو خطابٌ للقُضاة؛ أي: إنْ[٥] وليتُم القضاءَ فعدلتُم[٦] أو أعرضتُم عن العدلِ وملتُم.

وقيل: هو من قولك: وليتُ الشيءَ بنفسي؛ أي: باشرتُه؛ أي: إنْ فَعلتُم شيئاً مِن ذلك، أو تركتم؛ فلا يَخفى على الله قَصدُكم في ذلك.

وقال السُّدِّيُّ: اختصمَ إلى رسول الله ﷺ غنيٌّ وفقير، فكان ضِلعُهُ[٧] مع

---

(١) «أي: لئلا تضلوا» ليس من (ف).

(٢) في (أ): «أي». وفي (ف): «أو».

(٣) بعدها في (ر): «من».

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٢٣٩)، و«التيسير» (ص: ٩٧).

(٥) بعدها في (ف): «كنتم».

(٦) بعدها في (أ): «أي».

(٧) وقع في هامش (أ) ما نصه: «الضلع: الميل».

الفقيـر، فـرأى أنَّ الفقيرَ لا يَظلِمُ الغنيَّ، فأبى اللهُ إلَّا أن يَقومَ بالقسـط في الغنيِّ والفقير، فأنـزل اللهُ تعالى هذه الآية[1].

***

(١٣٦) - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ اعترضَ بعضُ الملحِدين على هذه الآية فقال: كيف أمرَ اللهُ تعالى أهلَ الإيمانِ بالإيمان؟ وعنه أجوبةٌ:

أحدها: قولُ ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: إنَّ نزولَها في مؤمني أهل الكتاب؛ عبدِ الله بن سلام وأصحابه، قالوا: يا رسول الله، إنَّا نؤمنُ بك وبكتابِك، وبموسى وهارون وعزير، ونَكفرُ بما سواهُ[2]، وظنُّوا أنَّ ذلكَ القَدْرَ يكفيهم في كمال إيمانِهم، فنزلَت[3] الآية، وبيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ الكفرَ بالبعضِ محبِطٌ للإيمان ببعض، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ﴾ [النساء: ١٥٠]، ثمَّ قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ﴾ [النساء: ١٥١].

وجوابٌ آخرُ: قولُ أبي العالية: إنَّ نزولَها في اليهود، كانوا آمنوا بالنبيِّ ﷺ قبلَ خروجِه، وكانوا يَستفتحون به، فلمَّا خرجَ كفروا به، فأُمِروا بالإيمان به.

وجوابٌ آخر: قولُ الحسن: إنَّ اللهَ تعالى أخبرَ عن اليهود، فقال: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٞ

---

(١) انظر: «النكت والعيون» للماوري (١/ ٥٣٥).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٣/ ٤٠١) عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. وهو إسناد تالف.

(٣) بعدها في (ر): «هذه».

﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ﴾ الآية [آل عمران: ٧٢]، فتقديرُ الآية على قوله: يا أيُّها الذين آمنوا وجهَ النَّهار، آمِنوا به آخرَ النَّهار.

وجوابٌ آخر: قول مجاهدٍ: إنَّ نزولَها في المنافقين؛ آمَنوا في الظَّاهر، فأُمِروا بالإيمانِ في الباطنِ مع الإيمان بالظاهر، قال تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡ﴾ [المائدة: ٤١].

وجوابٌ آخر: قولُ بعض المتأخِّرين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ يومَ الميثاق، ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ الآن.

وجوابٌ آخر: قولُ أبي بكر الورَّاق وغيره ـ وهو الأصحُّ ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ على الكمالِ والصِّحَّة، اثبتوا على إيمانِكم، ودُوموا عليه[1]، وهو كقوله تعالى: ﴿فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي﴾ [البقرة: ١٨٦]، **وقولِه تعالى:** ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ﴾ إلى قوله: ﴿وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ [غافر: ٧]، **وقولِه تعالى:** ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، هذا كلُّه أُريدَ به الثباتُ على ما كان.

وقريبٌ من هذا القولِ قولُ بعضهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فيما مضى من الوقتِ، ﴿ءَامِنُواْ﴾ في حادثِ الوقت.

وجوابٌ آخر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ عند رؤيةِ العذاب ﴿ءَامِنُواْ﴾ في حالِ ارتفاعِه؛ فإنَّ الكفَّارَ كانوا إذا وقَعوا في حالةٍ مَخوفةٍ ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ من حيث البرهانُ ومن حيث البيانُ، ﴿ءَامِنُواْ﴾ من حيث الكشفُ والعيان.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٧/ ١٤٦).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ تصديقاً، ﴿ءَامِنُواْ﴾ تحقيقاً.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بأنَّ نجاتَكُم بفضلِه لا بإيمانكم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بأدلَّةِ العقول، ﴿ءَامِنُواْ﴾ إذا أنختُم بساحةِ الوصول، واستمكنَ منكم الحيرةُ وغَلَبَاتُ الذُّهول، ثمَّ أفقتُم، فآمِنوا أنَّ الذي كان غالباً عليكم كان شاهدَ الحقِّ، لا صفة[1] النَّفس؛ فإنَّ الصَّمديَّة ممتنِعةٌ متَقدِّسةٌ عن كل قربٍ وبعدٍ، ووصلٍ وفصلٍ[2].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾؛ أي: آمِنوا بالقرآن.

قرأ ابنُ كثير وابنُ عامر وأبو عمرو: ﴿نُزِّل﴾ على ما لم يُسَمَّ فاعله، والباقون: ﴿نَزَّلَ﴾[3]؛ أي: نَزَّلَهُ اللهُ تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُ﴾ فيه قراءتان أيضاً على هذا[4]، والمرادُ مِن الكتاب الجنس، وهو جميع الكتب المتقدمة، والإنزالُ: هو بعثُ جبريلَ عليه السَّلام معه مِن السَّماء، والتَّنزيلُ: تفصيلُ الإنزالِ، والقرآنُ كذلك؛ لأنَّه نزلَ مفصَّلاً؛ فلذلك قال في الأوَّل: ﴿نَزَّلَ﴾، وفي الثاني: ﴿أَنزَلَ﴾؛ لأنَّ إنزالَ الكتبِ المتقدِّمةِ كان جملةً.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾؛ أي: مِن الهُدى، وقيل: أي: مِن النَّجاة. ثمَّ إنَّما علَّقَ الضَّلالَ بذلك كلِّه بالواو

---

(١) في (ف): «شاهداً للحق لا لصفة» بدل: «شاهد الحق لا صفة»، والمثبت موافق للمصدر.

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٣٧٣ ـ ٣٧٤).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٢٣٩)، و«التيسير» (ص: ٩٨).

(٤) أي: قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو: ﴿أُنزِلَ﴾ على ما لم يسم فاعله، وقرأ الباقون: ﴿أَنزَلَ﴾.

لا[١] لأنَّ الجمع شرطٌ؛ لأنَّ الكفرَ بكلِّ واحدٍ على الانفراد كفرٌ وضلالٌ، لكن هذه صفةُ قومٍ في زمن النَّبيِّ ﷺ كانوا كافرين بذلك كلِّه، فوَصفَهُم اللهُ بذلك؛ لأنهم كذلك.

* * *

(١٣٧ ـ ١٣٨) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا﴾ قال مجاهد: هم المنافقون[٢]، ﴿إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم﴾ [البقرة: ١٤]، ويتكرَّرَ[٣] ذلك منهم.

وازديادُ الكفرِ منهم ثباتُهم على الكفرِ[٤] إلى الموت، وهذا القولُ يؤيِّدُه ما بعدَه: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾.

وقال الكلبيُّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالتَّوراةِ وبموسى، ﴿ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ مِن بعدِ موسى، ﴿ثُمَّ ءَامَنُواْ﴾ بعُزير، ﴿ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ بعد عزيرٍ بالمسيح، ﴿ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا﴾ بمحمَّد عليه الصلاة والسلام[٥].

وقيل: ﴿ءَامَنُواْ﴾ بموسى، ﴿ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ من بعدِه، ﴿ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ مِن بعدِه، ﴿ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا﴾ بمحمَّدٍ عليه الصَّلاة والسَّلام[٦].

---

(١) لفظ: «لا» ليس في (ف). والمثبت هو الصواب.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٧/ ٥٩٧).

(٣) في (ر): «وإنما تكرر» بدل: «ويتكرر».

(٤) في (أ): «عليه» بدل: «على الكفر».

(٥) انظر: «تفسير أبي الليث» (١/ ٣٩٧).

(٦) من قوله: «وقيل آمنوا بموسى» إلى هنا من (أ).

وقولـه تعالـى: ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾؛ أي: ليـس مِن صفةِ اللهِ عـزَّ وجلَّ مغفرةُ الكفـرِ؛ فقد قـال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النسـاء: ٤٨].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾؛ أي: سبيلَ الرُّشدِ ما كانوا مختارينَ للكفر.

وقيل: أي: لا يغفرُ لهم إذا ماتوا على الكفرِ، ولا يَهديهم[١] طريقَ الجنَّة، قال تعالى: ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾ [النساء: ١٦٨ ـ ١٦٩].

ودلَّت الآيةُ على أنَّ اللهَ تعالى قد يَحْرِمُ بعضَ عبادِه الهدايةَ، وهو ردٌّ على المعتزلة في قولِهم: إنَّ اللهَ قد هدى الكلَّ.

وقوله تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ أي: ضعْ إخبارَهُم بالعذابِ الأليمِ موضعَ البشارةِ لهم، وهو كقول الشاعر:

وخيـلٍ قـد دَلَفْـتُ لهـا بخيلٍ ... تحيَّـة بينِهـم ضـربٌ وَجيـعُ[٢]

أي: الضربُ بينهم مكان التَّحيَّة.

وقيل: لمَّا نزلَت آيةُ المغفرة للنبيِّ ﷺ والمؤمنين، قال عبدُ الله بنُ أبيّ: فما لنا؟! فأنزلَ اللهُ تعالى هذه الآية يقول: بَشِّر عبدَ الله بنَ أبيٍّ ومالكَ بن الدُّخْشُم[٣] وجدَّ بن قيس بأن لهم عذاباً وجيعاً[٤].

---

(١) في (ف): «ليهديهم».

(٢) البيت نسبه سيبويه في «الكتاب»: (٣/ ٥٠) لعمرو بن معدي كرب، وهو في «شعر عمرو بن معدي كرب» المجموع (ص ١٤٩)، وقد أورده الأستاذ مطاع الطرابيشي ـ جامع الديوان ـ في المختلط من شعر عمرو المنسوب له ولغيره. وقال البغدادي في «خزانة الأدب» (٩/ ٢٦٥): وهذا البيتُ نسبه شراح أبيات «الكتاب» وغيرهم إلى عمرو بن معدي كرب الصحابي، ولم أره في شعره. انتهى.

(٣) في ذكر مالك بن الدخشم هنا نظر، فمالك صحابي أنصاري أوسي، شهد بدراً وما بعدها من المشاهد، قال ابن عبد البر: لا يصح عنه النِّفاق، وقد ظهر من حسن إسلامه مَا يمنع من اتهامه. والله أعلم. انظر: «الاستيعاب» (٣/ ١٣٥٠)، و«الإصابة» لابن حجر (٩/ ٤٥ ـ ٤٦).

(٤) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٤١٥).

(١٣٩) ـ ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هذه صفةُ المنافقين؛ أي: يتولَّون الكفَّار[١] لا المؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ﴾؛ أي: أيطلبون[٢] عند الكفَّارِ المنَعةَ[٣]، استفهامٌ بمعنى التَّوبيخ، وكان المنافقون يَقولون: لا يَتِمُّ أمرُ محمَّدٍ، فتولَّوا اليهودَ يطلبون منهم المنَعةَ والنُّصرة.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾؛ أي: المنعةُ مِن جميعِ وجوهها[٤] لله، لا يَمنعُ مِن عذابِهِ الذي يُنزِلُهُ بالمنافقين مانعٌ مِن هؤلاء الكفَّار الذين يتولَّونهم، ولأنَّ العزَّة والمنعةَ والغلبةَ إذا كانت له، فهو يُعِزُّ أولياءَه لا أعداءه.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: العزَّةُ الأزليَّةُ لله تعالى وصفاً، والعزَّةُ الحادثة لأوليائه منه لطفاً[٥].

وقال في أوَّل هذه الآية[٦]: إنَّ الذين قاموا و[٧]سقطوا، ثمَّ انتعشوا، ثمَّ عثَروا، ثمَّ ختم بالسوء أحوالهم، أولئك الذين قصَمَتهم سَطَواتُ العِزَّة، وأدركَتْهم شقاوةُ

---

(١) في (ف): «الذين يتولون الكافرين».

(٢) في (ر) و(ف): «يطلبون».

(٣) بعدها في (ر): «والنصرة».

(٤) في (ف): «الوجوه».

(٥) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٣٧٦).

(٦) في (ف): «الآيات ما معناه» بدل: «الآية».

(٧) في (ف): «ثم».

القسمة، والحقُّ سبحانه وتعالى لا يَهديهِم لقَصْدٍ، ولا يَدلُّهم على رُشْدٍ، فبَشِّرهُم بالفُرقة الأبديَّة، وأخبِرهُم بالعقوبةِ السَّرمديَّة[١].

* * *

(١٤٠) ـ ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ قرأ عاصمٌ بفتحِ النُّون والتَّشديد[٢]؛ أي: نَزَّلَ اللهُ تعالى، وقرأ[٣] الباقون: ﴿نُزِّلَ﴾ على ما لم يُسمَّ فاعلُه[٤].

وقوله تعالى: ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾؛ أي: إذا جلستُم أيُّها المخلِصون مع المنافقين، وسمعتموهم يَكفرون بالقُرآن ويَستهزؤون به.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾؛ أي: لا تَمكثوا على القعود عندهم حتَّى يشرعوا في كلامٍ غيرِ الكفرِ والاستهزاء بالقرآن.

والخوضُ: هو الشُّروعُ، وأصلُه الخوضُ في الماء.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ﴾؛ أي: إذا مكثتُم معهم فأنتم مثلُهم في الوزرِ، ولم يُرِد به التَّمثيلَ مِن كل وجهٍ؛ فإنَّ خوضَ المنافقين فيه كفرٌ، ومكثُ هؤلاء معهم معصيةٌ، وأرادَ به أنَّهم يَأثمون به إثمَ المعصية.

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٣٧٥).

(٢) في (ر): «وتشديد الزاي» بدل: «والتشديد».

(٣) «قرأ» ليس من (أ).

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٢٣٩)، و«التيسير» (ص: ٩٨).

والمرادُ بقوله: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ هو ما نزلَ بمكَّة في سورةِ الأنعام: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [الأنعام: ٦٨] وكان ذلك في ابتداءِ الأمر حين لم يكنِ الأمرُ بالقتالِ وارداً، ولـمَّا نزلَت هذه الآيةُ وكانوا إذا خاضوا في ذلك قامَ الـمُخلِصون، فعَلِم المنافقون بذلك، فكانوا يُكثِرون الخوضَ فيه قصداً إلى تفريقِهم، فنزلَ قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٦٩]؛ أي: ما على المخلِصين المؤاخذةُ والمحاسبةُ في القيامةِ بخوض المنافقين، ﴿وَلَكِنْ ذِكْرَى﴾(١)؛ أي: ذكِّروهم وعِظُوهم، ولا تقوموا عنهم، وكان ذلك ناسخاً للأوَّل، ثمَّ نسخَ هذا بآية القتال؛ أنَّهم إذا سمِعوا مِن ذلك شيئاً قتَلوهم، ولم يتركوهم.

ووجهُ اتِّصالِ هذا بالأوَّل أنَّ العزَّةَ لله، وهو المعِزُّ دينَهُ وأولياءَه، وقد أعزَّكُم، فكنتم بحيث لا يمكِنُكم أنْ تمنَعوهم عن خوضِهم، ثمَّ صِرتُم تقتلونَهم وتستأصلونَهم، وهو بالعزَّةِ التي أعطاكُم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ سوَّى بين المنافقين وبين الكافرين(٢) المجاهرين أنَّهم مخلَّدون في العذابِ(٣) أجمعين.

* * *

(١٤١) ـ ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾.

---

(١) بعده في (ر): «لعلهم يتقون».

(٢) وقع في هامش (أ): «نسخة: الكفار».

(٣) في (ف): «النار».

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ يجوزُ نعتاً للمنافقين المذكورين في قوله تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، ويجوزُ مبتدأ، وخبره: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾[١].

و﴿يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾؛ أي: يرتقبون بكم، ويَنتظرون عاقبةَ أمركم إذا غزوتُم.

وقوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: فتحُ بلادِ الأعداء وغنيمةٌ.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ استفهامٌ بمعنى الإثبات؛ أي: قد خَرَجْنا معكم لغزوِ[٢] الأعداءِ. فطَلبوا سهائم الغنيمة[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ﴾؛ أي: حظٌّ مِن الغلبةِ على المسلمين.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾ الاستحواذُ: الاستيلاء، قال تعالى: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [المجادلة: ١٩].

وقيل: أي[٤] الغلبةُ، وأصلُه من: حاذَ يَحوذُ حوذاً؛ أي: حاطَ يحوطُ حوطاً.

وقيل: أي ضمَّ يَضُمُّ ضمًّا.

واستحوذ بناءٌ خرجَ على الأصل، ولم يُغَيَّر، كقولهم: استعان واستبان، ومعناه: قال المنافقون للكفَّار: ألم نستَوْلِ عليكم؟ أي: أحطنا بكم؛ يعني[٥]: لحياطتكم وتقويتِكم.

قوله تعالى: ﴿وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ جزمٌ بالعطف على: ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ﴾؛ أي:

---

(١) بعدها في (ر): «يوم القيامة».

(٢) في (ف): «إلى غزو».

(٣) في (ر): «سهائم الغنائم» بدل: «سهام الغنيمة».

(٤) لفظ: «أي» من (ف).

(٥) في (أ) و(ف): «معنى».

ألم نجعلْكُم ممنوعِين من[1] المؤمنين؛ أي: محفوظين[2]؛ أي: ذببنا عنكم بالأسباب من تثبيطِ المؤمنين عن الجهاد وتعويقِهم بأشياء.

قال الكلبيُّ رحمه الله[3]: أي: ألم نخبرْكُم بعورةِ محمَّدٍ وأصحابه ـ ﷺ ورضيَ عنهم ـ ونطلِعْكُم على سرائرِهم.

وقوله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾؛ أي: يقضي بينكم أيُّها الفريقان، فيُدخِلُ المنافقينَ النَّارَ، ويُدخِلُ المؤمنين الجنَّة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ قيل: لن يجعلَ اللهُ لليهودِ على أصحاب محمَّدٍ يداً، وكان كذلك.

وقال ابنُ عبّاسٍ رضي الله عنهما: لن يجعلَ اللهُ للكافرين على المؤمنين حُجَّةً أبداً[4].

وقال الأعمشُ: جاء رجلٌ إلى علي رضي الله عنه فقال: أرأيتَ قولَ الله تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾؟ وهم يقتلونهم في الدُّنيا! فقال: ادْنُ[5]، فدنا، فقال: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ﴾ يوم القيامة ﴿لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾[6].

---

(١) في (أ): «عن».

(٢) في (أ) و(ر): «المحفوظين».

(٣) بعدها في (ر): «أي».

(٤) أورده الواحدي في «البسيط» (٧/ ١٥٩)، ونسبه لابن عباس والسدي، ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٠٩٥) (٦١٣٦) عن السدي.

(٥) في (ر): «ادنه».

(٦) رواه الطبري في «تفسيره» (٧/ ٦٠٩ ـ ٦١٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٠٩٥) (٦١٣٥) من طريق الأعمش عن ذر عن يُسيع الكندي.

وبنحـوه قال الحسـن، قـال: ليـس[١] للكفَّـار أن يقولـوا للمؤمنين: مـا نفعَكم إيمانُكـم وطاعاتُكـم وقد اشـتركنا واسـتوينا فـي الحال.

وقيـل: أي: لا سـبيلَ للكفَّـار يـومَ القيامـة علـى المؤمنيـن بدفـع شـهادتِهم عليهـم للأنبيـاء.

***

(١٤٢) ـ ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾؛ أي: يُخادعونَ أولياءَ الله وهم المؤمنون، فأضافَ خداعَهم إلى نفسِه؛ تشريفاً لهم، وهو مجازيهم[٢] على ذلك، وقد كشفنا عن حقيقتِه، وبيَّنَّا الأقاويلَ فيه في سورةِ البقرة[٣].

وقـوله تـعـالى: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ جمع كسلان، كالسُّكارى جمعُ سكران، والكسلُ: هو التَّثاقلُ عن الشَّيء؛ لمشقَّتهِ على النَّفسِ[٤] وضعف الدواعي إليه، وهو خلاف[٥] النشاط: وهو الإسراعُ إلى الشَّيءِ لخفَّته على النَّفس وقوَّةِ الدَّواعي إليه، وكسلُهم لأنَّهم لا يَعتقدون وجوبَها، ولا يَعرفون فضلَها.

وقوله تعالى: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾؛ أي: إنَّما يقومون إليها إراءَةً للمسلمين[٦].

---

(١) في (أ): «أليس»، وليس في (ف).

(٢) في (ف): «مخادعهم».

(٣) عند تفسير الآية (٩) منها.

(٤) في (ف): «نفسه».

(٥) في (أ): «بخلاف».

(٦) في (ف): «للناس».

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ أي: باللِّسانِ دون الاعتقاد.

وقيل: أي: بما يُجهَر في الصَّلاة دون ما يُخافَتُ بها.

وقال الحسن: أمَا والله، لو كان ذلك القليلُ لوجه الله لكان كثيراً، يقول الله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧]، ويقول: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾ [النساء: ٤٠].

❊ ❊ ❊

(١٤٣) ـ ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ يقال: ذَبذبَهُ فتَذبذَبَ؛ أي: جعلَه مُضطرباً فاضطرب، قال النابغةُ:

أَلَم تَرَ أنَّ اللهَ أعطاكَ سُوْرَةً ... تَرى كلَّ مَلْكٍ دونَها يَتذبذبُ[1]

والذَّبذبُ: الذُّؤابةُ، سُمِّيَت به لتحرُّكِها، والذَّباذِب: أسافلُ الثوب لذلك[2].

وقوله: ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بين ذينك[3]، كما مرَّ في قوله: ﴿عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٦٨].

وقوله تعالى: ﴿لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ هو تفسيرُ المذبذبين؛ أي: متردِّدين متحيِّرينَ، لا إلى المسلمين بالكُلِّيَّةِ ظاهراً وباطناً، ولا إلى الكفَّار كذلك.

---

(١) انظر: «ديوان النابغة الذبياني» (ص: ٧٣). قال شارحه: السَّوْرَةُ: المنزلةُ الرفيعة. وقوله: يتذبذب، أي: يتعلَّقُ ويضطربُ. وهذا مثَلٌ، وإنما يريدُ أنَّ منازلَ الملوك دون منزلته، فكأنَّهم متعلِّقون دونه.

(٢) «لذلك»: زيادة من (أ).

(٣) في (ق): «الفئتين».

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا﴾؛ أي: ومن يخذله اللهُ، فلن تَجِدَ له سبيلاً؛ أي: يا محمَّد، فلن تجد له طريقاً[١] إلى الهدى؛ بما أضلَّهُ اللهُ باختيارِهِ الضَّلال[٢].

***

(١٤٤) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ قال الحسين[٣] بن الفضل رحمه الله: أي: لا تَصنعوا أيُّها المخلصونَ ما يَصنعُ المنافقون، فقد قال في صفتهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [النساء: ١٣٩].

وقوله تعالى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا﴾ استفهامٌ بمعنى التوبيخ؛ أي: لم تريدون أنْ تجعلوا لله عليكم حجَّةً بيِّنَةً على أنفسكم بتعذيبِكم والانتقامِ منكم في الدُّنيا والآخرة؟ فقد أخبرَ أنَّه لا يُعذِّبُ إلَّا مَن عصاهُ، ولله الحجَّةُ البالغةُ على خلقِه في عمومِ الأحوال مِن غير جعلِ جاعل، غير أنَّه لـمَّا نهى عن أمرٍ، وأوعَدَ عليه، فإذا فعله[٤] فكأنَّه ألزمَ نفسَهُ حجَّةَ اللهِ عليه في ذلك[٥].

***

(١٤٥) ـ ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا﴾.

---

(١) من قوله: «ومن يخذله الله» إلى هنا من (ف).

(٢) من قوله: «وقوله تعالى ومن يضلل الله» إلى هنا ليس في (أ).

(٣) في (ر) و(ف): «الحسن». والمثبت من (أ)، هو الصواب.

(٤) في (ف): «فعل».

(٥) في (أ): «وذلك» بدل من «في ذلك».

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ الدَّرَكاتُ إلى أسفل، كالدَّرجاتِ إلى أعلى، والواحدُ درَكٌ ودَرْك بالفتح والسكون.

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وعاصمٌ[1] بالسكون، والباقون بالفتح[2].

أخبر أنَّهم ﴿فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾؛ أي: الطبقِ الأسفلِ من النَّار، وهو أشدُّ عذاباً، ولذلك قال سبحانه وتعالى خبراً عمَّا يقول الكافرون في النار: ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ [فصلت: ٢٩].

وقال ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه: المنافقون في الدَّرك الأسفل من النَّار، في توابيتَ مِن حديدٍ مطبقةٍ عليهم[3]، وهذا لأنَّ كفرَهم أفحشُ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾؛ أي: مانعاً من عذابِ الله.

* * *

(١٤٦) - ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟﴾ استثنى التَّائبين منهم؛ ترغيباً لهم في الرُّجوع، قوله: ﴿تَابُوا۟﴾؛ أي: رجَعوا عن النِّفاق بالإخلاص، ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾ ما أفسَدوا مِن الأعمال، ﴿وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ اعتقدوا أنَّ العاصمَ هو اللهُ تعالى مِن المكاره، فلا يَعتصِمون بالخلق بعد هذا، كما كانوا يفعلونه قبل هذا، ﴿وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ عن[4]

---

(١) في (ف): «قراءة عاصم غير حمزة والكسائي» بدل: «وقرأ حمزة والكسائي وعاصم».

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٢٣٩)، و«التيسير» (ص: ٩٨).

(٣) رواه الطبري: (٧/ ٦٢٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٠٩٨) (٦١٥٣).

(٤) في (أ): «من».

الـرِّياء ونـحوه، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: في الثَّواب والدرجات، لا في العقابِ والدَّرَكات.

وقولـه تعالـى: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ جمـعَ الـكلَّ فـي الوعدِ بإيتـاءِ العظيـم مِـن الأجر.

وقال الإمام القشيريُّ رحمَه الله[١]: ﴿تَابُواْ﴾ ورجَعوا عن نفاقِهم، ﴿وَأَصْلَحُواْ﴾ فاسـدَ أحوالِهـم وأخلاقِهـم، ﴿وَٱعْتَصَمُواْ﴾ بـالله وتبـرَّؤوا مِـن حولِهـم وقوَّتِهـم، ﴿وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ شاهدوا المنَّةَ لله عليهم، حيث هدَاهم، وعن نفاقِهم نجَّاهم.

وقيل: ﴿وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ باستدامة التوفيق، ﴿وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ رأوا نجاتَهم بفضلِ الله تعالى، لا بفعلِ[٢] أنفسهم على التحقيق.

قال: لم يَشترِط كلَّ هذه الشرائط في غيرهم، ثمَّ قال: ﴿مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، ولم يقل: هم المؤمنون، وقال: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[٣] ولم يقل: يؤتيهم[٤]، مع صلاحِهم بعدَ فسادِهم؛ لفحش ما كان مِنهم، وقد[٥] أنشدوا:

العـذرُ مبـسوطٌ ولـكنـه ... شتَّانَ بيـن العُـذْرِ والشُّـكْرِ[٦]

وقيل: إنَّ فُحشَ كفرِهم مِن ثلاثةِ أوجه: سعيِهم في إفسادِ ضعفَةِ المسلمين بالتَّشكيك، وكونِهم طلائعَ الكفَّار في إطلاعِهم على سرائرِ أهلِ الإخلاص والتَّوحيد، وتردُّدِهم بين الحالين مِن غير ثباتٍ على شيءٍ ولا تحقيق.

---

(١) بعدها في (ف): «إن الذين».

(٢) في (أ): «بفضل».

(٣) «أجراً عظيماً»: زيادة من (أ).

(٤) في (ف): «يذكر توبتهم» بدل: «يقل: يؤتيهم».

(٥) في (ف): «قال و».

(٦) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٣٧٩ ـ ٣٨٠).

(١٤٧) ـ ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ﴾ استفهامٌ بمعنى الجحود؛ أي: لا يعذِّبُكم، ﴿إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾؛ أي: آمنتم بالله تعالى وشكرتُم له بالطَّاعة.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾؛ أي: يَجزيكُم على شكرِكم.

وقيل: الشُّكر مِن الله تعالى: قَبولُ اليَسير مِن العمل، وإعطاءُ الكثيرِ من الثَّواب، وقوله: ﴿عَلِيمًا﴾؛ أي: عالماً بصنيعِكم، وبقدرِ جزائِكُم على أعمالِكُم.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: ﴿إِن شَكَرْتُمْ﴾ نعمَهُ[1]، ﴿وَءَامَنتُمْ﴾؛ أي: صدَّقتُم بأنَّ نجاتَكم بالله لا بشكركم، والشُّكرُ مِن العبد: شهودُ النِّعمةِ مِن الله، والإيمانُ: رؤيةُ اللهِ في إعطاءِ النِّعمة، فكأنَّه قال: إنْ شاهدتُم النِّعمةَ مِن الله، ثمَّ لم يَقطعْكُم شهودُ النِّعمةِ عن شهودِ المنعمِ.

قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا﴾ حقيقةُ الشكر: هو الثَّناءُ على المحسنِ بذكرِ إحسانِه، فالعبدُ يَشكرُ اللهَ؛ أي: يُثني عليهِ بذكرِ إحسانِه الذي هو نعمتُه عليه، واللهُ يَشكُرُ للعبد[2]؛ أي: يُثني عليه بذكرِ إحسانِه الذي هو طاعتُه له، وقوله: ﴿عَلِيمًا﴾؛ أي: يُثني عليه بطاعتِه، مع علمِه بالكثيرِ مِن أنواعِ معصيتِه[3].

* * *

(١٤٨) ـ ﴿۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾.

---

(١) في (ف): «نعمته».

(٢) في (ف): «العبد».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٣٨٠).

وقوله تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ ذكرَ في الآياتِ المتقدِّمة إيذاءَ المنافقين للمؤمنين، وذكرَ في هذه الآية إباحةَ التَّظلُّمِ مِن المؤذِين، قال الزَّجاج رحمه الله: تقديره: لا يحبُّ اللهُ أنْ يَجهرَ بالسُّوء إلَّا مَن صارَ مظلوماً، فـ «من» رُفِعَ بفعلِه[1].

و﴿ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ﴾ عند ابن عباسٍ وقتادةَ رضي الله عنهم: أنْ يدعوَ على ظالمه[2].

وعند مجاهد: أنْ يُخبِرَ بظُلم ظالِمِه إيَّاه[3].

وعند الحسنِ والسُّدِّيِّ: أن يَنتصِرَ مِن ظالِمِه[4].

وقال عبدُ الرَّحمن بن زيد: نزلَت الآيةُ في أبي بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه، شتمَهُ رجلٌ بمكَّةَ، فسكتَ عنه مراراً، ثمَّ ردَّ عليه، فقامَ رسولُ الله ﷺ، فنزلَت هذه الآية[5].

وقال سعيدُ بنُ المسيَّب: نزلَتْ في رجلٍ ضافَ رجلاً بفلاةٍ مِن الأرضِ فلم يضفه.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ١٢٦).

(٢) روى قوليهما الطبري في «تفسيره» (٧/ ٦٢٥ ـ ٦٢٦)، ورواه ابن أبي حاتم (٤/ ١١٠٠) (٦١٦٩) عن ابن عباس.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٧/ ٦٢٨).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (٧/ ٦٣٠) عن السدي، ورواه ابن أبي حاتم (٤/ ١١٠١) (٦١٧١) عن الحسن.

(٥) انظر: «تفسير أبي الليث» (١/ ٤٠٠)، و«تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٣/ ٤٠٣)، والخبر عندهما بنحوه دون نسبة. وأخرج أبو داود في «سننه» (٤٨٩٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه نحو هذه القصة دون ذكر نزول الآية.

وقالوا: هذا فيمن نزلَ في موضعٍ لا[١] يجد مأوًى غيرَهُ، ولا طعاماً يشتريه، أو لا ثمنَ عنده، فإذا نزلَ على قومٍ فلم يُضيِّفوهُ فقد ظلموهُ، فله أن يَشْكُوَ منهم.

وقرأ الضَّحَّاكُ وزيدُ بنُ أسلم وابنُ أبي إسحاق وسعيدُ بنُ جُبير ويَعلى بنُ حكيم: (إلا من ظَلَم) بفتح الظَّاء واللام على الفعل الظاهر[٢]، وعلى هذا معنى: ﴿إِلَّا﴾: لكن؛ أي: لكن[٣] مَن جهر بالسُّوء فقد ظلم، وفيه أنَّ ﴿ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ﴾[٤] لا يكونُ مباحاً، وعلى الإطلاق يكونُ حراماً، ومن فعلَهُ فهو ظالمٌ.

وقال الضَّحَّاكُ: هو مردودٌ على قوله: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ﴾، ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ فإنَّه يُعَذِّبُهُ ثم قال: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾؛ أي: على كلِّ حال[٥].

وأمَّا قراءةُ العامة: ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ على[٦] ما لم يُسَمَّ فاعلُه، فالاستثناءُ على الحقيقة، وفيه إباحةُ التَّظلُّمِ والدُّعاء على الظَّالم، وسُمِّيَ جهراً بالسُّوء مع أنَّه مباحٌ؛ لأنَّه جزاءُ السُّوء، فسُمِّيَ به، وهو كما قال: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠].

وقال الحسن: لا يَدعو على ظالِمِه بالهلاك والعقوبة، لكن يقول: اللهمَّ استخرِجْ حقِّي منه، اللهمَّ حُل بينَه وبينَ ما يريدُ بي مِن السُّوء[٧].

---

(١) في (ف): «لم».

(٢) انظر القراءة في «مختصر في شواذ القرآن» (ص: ٣٦) و«المحتسب» لابن جني (١/ ٢٠٣)، و«المحرر الوجيز» لابن عطية (٢/ ١٢٩).

(٣) بعدها في (ف): «كل».

(٤) «فقد ظلم، وفيه أن: ﴿ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ﴾» ليس من (ف).

(٥) رواه ابن المنذر كما في «الدر المنثور» (٥/ ٩٢).

(٦) بعدها في (ف): «فعل».

(٧) رواه الطبري في «تفسيره» (٧/ ٦٢٦).

وقـال ابـنُ كيسـان: ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ يعني: المشـركَ الظالم؛ فإنَّه يَسـتحِقُّ الشَّـتمَ والجهـرَ به.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾؛ أي: يَسمعُ ما يُجهَرُ مِن بالسُّوء مِن القول[١]، ويَعلم ما يُقصَد به؛ أنَّه للتَّعصُّب في الدِّينِ، أو للتَّشفِّي، أو للانتقامِ بالباطل.

وقيل: أي: ﴿سَمِيعًا﴾ لدعاءِ المظلوم، ﴿عَلِيمًا﴾[٢] بفعل الظَّالم.

* * *

(١٤٩) ـ ﴿إِن تُبۡدُواْ خَيۡرًا أَوۡ تُخۡفُوهُ أَوۡ تَعۡفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِن تُبۡدُواْ خَيۡرًا أَوۡ تُخۡفُوهُ﴾ قيل: هو إحسانُ القول فيمن جفاه[٣]، والإخفاء: هو إحسان النية في حق من آذاه[٤].

وقوله تعالى: ﴿أَوۡ تَعۡفُواْ عَن سُوٓءٍ﴾ هو التَّجاوزُ عمَّن ظلمَهُ في دنياه وعُقباه.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾؛ أي: اقتدِ بفعل الله؛ فإنَّه كثيرُ العفوِ عن عباده، مع قدرته على عقوبتِهم.

وقيل: هو وعدٌ للعافي عن ظالِمه بعفوِ الله عنه.

وقال الكلبيُّ رحمه الله: ﴿إِن تُبۡدُواْ خَيۡرًا أَوۡ تُخۡفُوهُ﴾؛ أي: إن تبدوا حسنةً، كُتِبت عشراً، ﴿أَوۡ تُخۡفُوهُ﴾؛ أي: تهمُّوا بها، كُتبت واحدةً كما روي.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: ﴿إِن تُبۡدُواْ خَيۡرًا﴾؛ أي: طاعةً؛ لتكونوا للنَّاسِ

---

(١) في (ر): «من السوء بالقول»، وفي (ف): «سوء القول». بدل: «بالسوء من القول».

(٢) في (ف): «سمعنا دعاء المظلوم وعلمنا» بدل: «﴿سَمِيعًا﴾ لدعاء المظلوم ﴿عَلِيمًا﴾».

(٣) في (أ): «أحفاه»، وفي (ف): «خفاه».

(٤) في (ف): «أراده».

قدوةً، ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ اكتفاءً بعلمِ الله جلَّ جلالُه، ﴿أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ﴾ مِن غيركم قهراً لأنفُسِكم؛ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾[1] يعفو عنكم، وهو قادرٌ على أن يبتليكم بما ابتلى به ظالِمَكُم من وبال ظلمكم.

وقال: مَن أحسنَ إليك، فأبدِ إحسانَك إليه جهراً، ومن كفاك شرَّه، فأخلص له الولاءَ والدُّعاءَ سِرًّا، ومَن أساءَ إليك، فاعفُ عنه كرماً وفضلاً، فالله عافٍ عنك ذنوبَك العِظام، قادرٌ على أن يعطيكَ مِن الفضل والإنعام ما لا تصلُ إليه بالانتصافِ والانتقام[2].

***

(١٥٠) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ ذكرَ أولاً المجاهرين بالكُفر، ثمَّ المنافقين، ثمَّ ذكر اليهودَ والنَّصارى، كذا قال الكلبيُّ ومقاتل: إنَّها فيهم[3]، ووصفَهم بالكفرِ بالله تعالى؛ لأنَّ كفرَهُم ببعضِ أنبيائه وكتبِه كفرٌ به؛ لأنَّه ردٌّ لقولِه.

وقوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ لـمَّا أضافهم الله تعالى إلى نفسِه بأنَّهم رسلُه، وهم أنكروا رسالةَ بعضِهم، فقد فرَّقوا بقطعِ هذه الإضافة بينَهم وبينَ الله.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ هم لا يقولون بهذه

---

(١) في (أ): «فإنه»، وفي (ف): «فالله» بدل: «﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٣٨٢ ـ ٣٨٣).

(٣) في «تفسير مقاتل» (١/ ٤١٨) أنها في اليهود؛ لأنهم كفروا بعيسى وبمحمد صلى الله عليهما.

اللَّفظة، لكنَّ اليهودَ يُصدِّقون بموسى وهارون وعزير، ويُؤمنونَ بالتَّوراةِ، ويَكفرونَ بعيسى والإنجيل، وبمحمدٍ والقرآن، والنَّصارى يَكفرون بمحمَّدٍ والقرآن، فرجعَ ذلك إلى هذا القولِ معنى.

وقوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾؛ أي: دِيناً بينَ الإيمانِ بالكُلِّ والكفرِ بالكلِّ، وهو الإيمانُ بالبعضِ والكفرُ بالبعض، ثمَّ الجمعُ بين هذا كلِّه ليس بشرطٍ لثُبوتِ الكفر، والواو ليس للشركة، بل هو بمعنى «أو».

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ أي: يَجحدون الله أصلاً، كالدَّهريَّةِ، ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾ يعني: أو رسلَه، كالذين يُقِرُّون بالله، ولا يَرون إرسالَ الرُّسل، كالبراهمة، ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ هو تفسير هذا، قوله: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٍ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٍ﴾ أو يقولون هذا، وهو قولُ اليهودِ والنَّصارى.

***

(١٥١) ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾.

ثمَّ هذه الآية مبتدأةٌ، وخبرُها مضمَرٌ عند بعضهم في آخرها، وتقديرها: جمعوا المخازي، وعند بعضِهم جوابُه الآيةُ التي بعدها، وهي قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾؛ أي: الإيمانُ بالبعض والكفرُ بالبعض لا يجعلُهم مؤمنين مِن وجهٍ، بل هم كفَّار على الإطلاق.

و﴿حَقًّا﴾ نصبُه مِن خمسة أوجه:

أحدها: الذين كفروا أمراً[1] ﴿حَقًّا﴾ وهو الإيمان، فيكون مفعولاً بفعل الكُفر.

والثاني: الذين كفروا كفراً ﴿حَقًّا﴾، وهو على المصدر.

---

(١) في (ف): «كفراً» بدل «أمراً».

والثالث: الذين كفروا حاقِّين فيه؛ أي: قاصدين له، جادِّين فيه، وهو على الحال.

والرابع: الكافرون بحقٍّ، نُصب بحذفِ الباء.

والخامس: ﴿حَقًّا﴾ قسم بمنزلةِ[1]: وحقِّ الله.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾؛ أي: أعددنا، والعتادُ: العُدَّةُ.

* * *

(١٥٢) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ فسَّرنا ﴿بَيْنَ أَحَدٍ﴾ في آخر سورة البقرة[2]، ثمَّ ذكرَ المؤمنين ومدحَهم[3]: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾؛ أي: الثوابَ الموعودَ لهم.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ يغفرُ لهم ما تَقدَّمَ مِنهم مِن الكفرِ قبل مجيء محمَّدٍ ﷺ، ويَرحمُهم، فلا يؤاخذُهم بذلك.

* * *

(١٥٣) ـ ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾.

---

(١) بعدها في (ر): «قوله».

(٢) عند تفسير الآية (٢٨٥) منها.

(٣) بعدها في (ف): «قوله تعالى».

وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ قال مقاتل: أي: كعبُ بنُ الأشرف وفنحاصُ بن عازوراء وأصحابُهما(١).

وقال عطاء: يعني: بني قريظة والنضير.

وقوله تعالى: ﴿أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: كتاباً مكتوباً مثلَ الألواحِ المنزَلةِ على موسى صلوات الله عليه.

وقيل: أي: جملةً واحدة، كما قال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢].

وقيل: أي على كلِّ واحدٍ منهم باسمه، كما قال: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ [المدثر: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء: ٩٣].

وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾؛ أي: هؤلاء خَلَفُ سلفٍ اقترحوا وتحكَّموا على نبيِّهم موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلام مع ما جاءهم بالألواح المكتوبة ما هو أكبرُ مِن هذا التَّحكُّمِ عليك، وهذا تسليةٌ للنبيِّ ﷺ، وذلك قوله تعالى: ﴿فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ أي: عياناً، وقيل: فيه تقديمٌ وتأخير، فقالوا جهرةً من القولِ: أرنا الله.

وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ﴾؛ أي: العذابُ الهائلُ، وقيل: النَّارُ المحرِقةُ، وقيل: النَّارُ فيها الصَّوت.

وقوله تعالى: ﴿بِظُلْمِهِمْ﴾؛ أي: على أنفسهم بالتَّحكُّمِ على نبيِّهم في الآيات.

وقيل: ﴿بِظُلْمِهِمْ﴾؛ أي: بكفرِهم بموسى بتكذيبه.

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٤١٩).

ثمَّ لم يكفِهم هذا حتَّى جاؤوا بظلمٍ آخر، وهو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ﴾ أي: إلهاً.

وقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ قيل: هي الصاعقةُ، سمَّاها اللهُ مع توحُّدها[١]: بيِّنات؛ لما فيها من دلائل الوحدانيةِ لله تعالى، وصدقِ موسى، وتنبيهِهم على جهلهم، وغير ذلك.

وقيل: كان فيها إماتتُهم وإحياؤهم وأشياءُ أخر، فكانت بيِّنات.

وقال الكلبيُّ وعطاء: هي الآياتُ التسع.

وقوله تعالى: ﴿فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ﴾؛ أي: بالتَّوبةِ، ولم نستأصل الكلَّ.

وقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ قال مجاهدٌ وعطاء: حجَّةً بيِّنةً قويَ بها على أعدائِه.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: يعني أنَّ الآياتِ التي أتاهُم بها؛ من اليدِ البيضاء، وتقليب العصا حيةً، وفلقِ البحر، كانت آياتٍ ظاهرةً يَعقِلُها كلُّ أحدٍ إن لم يعاند، وأنَّه بيَّن[٢] أنَّ سؤالَهم الرؤيةَ كان سؤالَ تعنُّتٍ، لا سؤالَ استرشادٍ؛ فإنَّه كان أتى بآياتٍ على رسالتِه، فلم يقبلوها.

وفيه دليلٌ على أن المسؤولَ لا يَلزمُهُ الدَّليل على شهوةِ السَّائل، لكن يَلزمُه أن يأتيَ بما هو دليلٌ في نفسه، ولذلك عاقبَهمُ اللهُ تعالى بالصَّاعقة[٣].

* * *

(١) بعدها في (ف): «وجمع».

(٢) في (ر): «تبين».

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» لأبي منصور الماتريدي (٣/ ٤٠٧).

(١٥٤) ـ ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾؛ أي: ورفعنا الجبل[١] فوق رؤوسِهم؛ لأخذِ الميثاق عليهم بأخذِ الكتاب والعمل به، ﴿وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾؛ أي: باب[٢] إيلياء مطأطئين عند الدُّخولِ رؤوسَكم، ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟﴾ بأخذِ السَّمك يومَ السَّبت، ﴿وَأَخَذْنَا﴾ عليهم بذلك كله عهداً مؤكَّداً غاية التأكيد، وقد شرحنا هذه الحوادثَ الثَّلاث في سورة البقرة[٣].

***

(١٥٥) ـ ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾، أي: فبنقضهم، و«ما» زائدةٌ، كما في قوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقد شرحناه.

ثم نقول: فبسببِ نقضِهم هذا الميثاقَ المأخوذَ عليهم، وبكفرِهم بآياتِ التَّوراة، وهو[٤] تحريفها، أو بكفرهم بالمعجزات التي أوردَها موسى عليه السلام عليهم،

---

(١) في (ر): «الطور».

(٢) في (أ): «يأت».

(٣) عند تفسير الآيات (٥٨)، (٦٣ ـ ٦٥).

(٤) في (ف): «وتحريفها» بدل: «وهو تحريفها».

وبقتلهم زكريا ويحيى عليهما السلام، وغيرهما من الأنبياء، مِن غير أنْ يُتصوَّر منهم سببُ استحقاق القتل، وبقولهم: قلوبنا غلف؛ أوعيةٌ للعلوم، فلا حاجة لنا إلى قول موسى، أو هي في غلافٍ، فلا نفهم ما يُقال = لعنَّاهم، وسخطْنا عليهم، هذا مضمَرٌ فيه، قاله قتادة؛ لدلالة الكلام عليه؛ لأنَّه قال في سورة المائدة: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ﴾ [المائدة: ١٣]، وكذلك اعتراضُ قولِه تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ دليلٌ على ذلك.

وقال الزَّجَّاج: يتَّصِلُ بهذا قوله: ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾؛ أي: بسبب هذه الأشياء عاقبناهم بذلك، وعلى هذا يكون قوله: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ بدلاً عن قوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم﴾[1] وترجمةً عنه.

والأول أوجه؛ لتباعدٍ بين الكلامين في هذا الوجه الثاني.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ هو ردٌّ لقولِهم: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾، وقد بيَّنَّا وجوهَ ذلك في سورة البقرة[2].

وقوله تعالى: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ذكرنا وجوهَه أيضاً في قوله: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨].

* * *

(١٥٦) ـ ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾ قيل: وبكفرِهم بعيسى، والأوَّلُ كفرُهم بالتَّوراة وبمعجزاتِ موسى، فلم يكن تكراراً.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ١٢٧).

(٢) عند تفسير الآية (٨٨) منها.

وقيل: معناه أَنَّهم كفروا كفراً بعد كفرٍ، وكفراً على كفر، فهو تفحيشٌ لحالهم وقولِهم على مريم بهتاناً عظيماً.

قال الكلبيُّ رحمه الله: إنَّ عيسى عليه السَّلام استقبلَ رهطاً مِن اليهود، فقالوا: قد جاءَكُم السَّاحر ابنُ السَّاحرة[1]، فقال عيسى صلوات الله عليه: اللهمَّ العنْ مَن سبَّني وسبَّ والدتي، فمُسِخوا خنازير[2].

ورموا أمَّه برجلٍ من الصالحين وهو يوسف بن يعقوب بن ماثان[3].

ثمَّ في هذه الآية وجهان:

أحدهما: أنَّه عطفٌ على قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم﴾، ﴿وَكُفْرِهِم﴾، ﴿وَقَتْلِهِمُ﴾، ﴿وَقَوْلِهِمْ﴾.

والثاني: أنَّه عطفٌ على قوله: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ وبما[4] ذكر في هذه الآية.

***

(١٥٧) ـ ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ﴾ أي: وبقولهم، وفي عطفِه وجهان كما قُلنا الآن، ﴿عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ معنى الجمع بين الاسمين ما مرَّ في سورة آل عمران[5].

---

(١) في «تفسير الثعلبي» (٣/ ٤٠٩) أنهم شتموه وأمه بألفاظ القذف.

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (٣/ ٤٠٩)، والخبر فيه من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس.

(٣) اسمه في «تفسير مقاتل» (١/ ٤٢٠)، و«تفسير أبي الليث» (١/ ٤٠٢): يوسف بن ماثان.

(٤) في (ف): «ومما».

(٥) عند تفسير الآية (٤٥) منها.

وقوله تعالى: ﴿رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ وهم لم يعتقدوهُ رسولَ الله، وله وجهان:

أحدهما: أنَّهم قالوه استهزاءً به، كما قالوا لرسولنا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٌ﴾ [الحجر: ٦].

والثاني: أنَّهم لم يقولوا: إنَّه رسولُ الله، ولكنَّ اللهَ تعالى وصفَه به، وهو كقوله: ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ الآية[١]، هم لم يقولوا ذلك كلَّه، لكنَّ اللهَ تعالى وصفَ نفسَهُ بكمالِ القُدرةِ، ثمَّ إنَّهم لم يقتلوه، ولكن ادَّعوا ذلك كذباً، فاستحقُّوا بذلك عقابَ قاتلِه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡ﴾ قال الحسينُ بن الفضل رحمه الله: ما ألقى الله تعالى شبهَهُ على أحدٍ؛ لأنَّ أحداً لم يستحقَّ ذلك، ولم يصلح لذلك، ولكن معنى: ﴿شُبِّهَ لَهُمۡ﴾ أي: خُيِّلَ لهم، فوقعَ عندهم أنَّ ذلك شبيهٌ به، فقتلوه، أو رأوا[٢] مقتولاً، وكانوا قصَدوا قتلَ عيسى عليه السلام، فظنوا أنَّ المقتول عيسى[٣]، فادَّعوه.

وقد بيَّنَّا الأحاديثَ في ذلك، واختلافَ الطُّرق فيها في قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٥٤].

ونذكرُ خبراً آخر فيه[٤] لم نذكرهُ ثَمَّ؛ قال عطاء: ﴿وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡ﴾؛ أي: ابنُ العجوز، وذلك أنَّ عيسى عليه السَّلام نزلَ على عجوزٍ، فاستضافَها، فقالت: إنَّ

---

(١) بعدها في (ر): «﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدًا﴾».

(٢) في (أ): «رأوه».

(٣) في (ف): «هو».

(٤) في (ف): «ونحن نذكر خبراً آخر» بدل: «ونذكر خبرا آخر فيه».

الملكَ يَطلبُ رجلاً مِن قصَّتِه[١] كذا وكذا، وأنا أُضَيِّفُك على ألَّا أعصيَ الملك، قال عيسى: اكتمي أمري، وأنا أدْعو ربِّي أنْ يَرزُقَك ما تَمنَّين[٢]، قالت: إنَّ ابني غائبٌ[٣]، فادعُ ربَّك أنْ يَرُدَّه، فدعا ربَّه، فإذا بالغلام، فقال عيسى: لا تُخبري ابنَك بي، فقالت لابنِها: نزلَ بي ضيفٌ على أنْ أؤمِّنَهُ مِن الملك، قال ابنُها: أين هو؟ قالت: هو[٤] في الخزانة، فدخلَ، فرأى عيسى عليه السلام، فقال: قُم إلى الملك، قال عيسى: أحسِن ضِيافتي، وأنا أُعطيكَ ما تُريد[٥]، قال بسخرية[٦]: إنِّي أريدُ أنْ يُزَوِّجَني الملكُ ابنتَه، فقال: أنا[٧] لك بذلك، فلمَّا أصبحَ طالبه[٨] ابنُ العجوزِ بالشَّرط، فقال له: البسْ ثوبَك، وائتِ الملِكَ، وقل له: جئتُك خاطباً ابنتَك، فأتى الملِكَ خاطباً، فأمر به فجُلِدَ، فرَجعَ فقال لعيسى عليه السلام: قُم إلى الملك، فقد عرَّضتني للضَّربِ، فمسَح عيسى الجراحات، فالتأَمَت، واعتبرَ الغلامُ بذلك، فرجعَ إلى الملك، فرأى جراحاتِه ملتئمةً، فهالَهُ ذلك، وقال: أتريدُ ابنتي؟ قال: نعم، قال على أنْ تملأَ هذا البيتَ ذهباً، فأخبرَ عيسى، فقال: قم، فإنَّه مملوءٌ ذهباً، وخرج عيسى فتبعَهُ الغلامُ، فلمَّا لحِقَ بعيسى قال: ما جاء بك، قال: لا أوثر على صحبتِك شيئاً، قال عيسى: إنَّ هذا الملكَ قد لحِقَنا، فمَن تشبَّه بي فله الجنَّة، فقال: أنا، فألقى اللهُ تعالى عليه شبهَ

---

(١) في (ف): «قضيته».

(٢) في (ف): «بما تتمنين».

(٣) بعدها في (ر): «عني».

(٤) لفظ: «هو» من (ف).

(٥) في (ف): «تريده».

(٦) في (أ): «فقال الابن يستخبر به» وفي (ف): «قال فجعل يستسخر به» بدل: «قال بسخرية».

(٧) بعدها في (ف): «أقوم».

(٨) في (أ): «طالب».

عيسى، ورفعَ عيسى، فوُجِدَت الصِّفةُ فيه، فذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ [النساء: ١٥٧] الآية.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: تَعلَّقَ بعضُ النَّاسِ بهذهِ الآيةِ مِن وجهَين:

أحدهما: في احتمالِ الغلطِ والخطأ في المشاهدات والمعاينات.

والثاني: في احتمالِ المتواترِ مِن الأخبارِ الغلطَ والكذبَ.

وقالوا لـمَّا قُتِل ذلك الرَّجلُ ـ وعندهم أنَّه عيسى، لـمَّا كان به[١] شبهُه، ثمَّ لم يكن عيسى: ما يمنعُ أيضاً أنَّ ما يُشاهَدُ ويُعاينُ هو في الحقيقةِ على غير ذلك.

ثمَّ الخبرُ أيضاً قد تواترَ فيهم بقتل عيسى، وكان[٢] كذباً، فما يَمنعُ أيضاً أنَّ الخبرَ المتواترَ يجوزُ أن يَخرجَ[٣] كذباً وغلطاً.

قلنا: أمَّا الخبرُ بقتله فإنَّما انتشرَ عن ستَّةٍ أو سبعةٍ، كذا ذُكِرَ في القصَّة، وهذا من أخبار الآحاد عندنا.

وأما التَّشبيهُ فهو تشبيهُ الدَّاخلين على الآخرين؛ لأنَّهم دَخلوا بيتاً هو فيه، فلم يَجدوهُ؛ لأنَّه رُفِعَ، وكان ذلك مِن أعظمِ آياتِه، فلمَّا خرجوا لم يُحِبُّوا أن يخبروا النَّاسَ بذلك، فقالوا[٤]: قتلناه، فذلك تشبيهٌ منهم لهؤلاء، فلم يكن حجَّةً في دعوى وقوعِ الخطأ في المشاهدات[٥].

---

(١) بعدها في (ف): «من».

(٢) في (ف): «فكان ذلك».

(٣) في (ر): «يكون».

(٤) في (أ) و(ر): «بل قالوا» بدل: «فقالوا».

(٥) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٣/ ٤٠٩ ـ ٤١١).

فإن قالوا وهو على من حقَّق[١] إلقاء الشَّبه على غيره: كيف[٢] يجوزُ هذا والإيمانُ[٣] بعيسى واجب؟ وإذا وقعَ عندهم أنَّ هذا عيسى، وجبَ عليهم الإيمانُ به، وهذا تخليطٌ وتلبيس.

قلنا: لا يكون هذا عند الدَّعوةِ ورجاءِ الإيمان، فأمَّا حال همِّهم بقتلِه وعلمِ الله منهم أنَّهم لا يؤمنون، فإنَّه يكونُ تأييداً لرسولِه، وإعجازاً لعدوِّه، فجاز[٤].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ قال مقاتلٌ وجماعة: أي: اختلفوا في قتله[٥].

وقوله تعالى: ﴿لَفِي شَكٍّ مِنْهُ﴾ أي: مِن قتلِه.

وقوله تعالى: ﴿مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ فإنَّهم يَدَّعون قتلَه، وهم شاكُّون فيه؛ فإنَّه بعد قتلِهم ذلك الرَّجلَ كانوا يقولون: إنْ كان هذا عيسى، فأين صاحبُنا؟! وإن كان هذا صاحبَنا، فأين عيسى؟!

وقوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ له وجوه:

أحدها: لم يَتيقَّنوا بقتلِه فإنَّهم ادَّعوه، وهم على شكٍّ.

والثاني: ما قتلوه، وهذا نفيٌ مطلقٌ، قوله تعالى: ﴿يَقِينًا﴾؛ أي: هذا النَّفي متيقَّنٌ، ليس فيه شبهةُ القتل.

وقيل: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾؛ أي: وما علموهُ؛ فإنَّه يُستعمَل في العلم لغةً، يقال: قتلتُ

---

(١) في (ف): «وهو على ذلك من حقوق».

(٢) في (ف): «فكيف».

(٣) في (ف): «فالإيمان».

(٤) لفظ: «فجاز» ليس في (أ).

(٥) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٤٢٠).

هذا الأمرَ يقيناً؛ أي: علمتُ به على[1] التيقُّن[2]، وغلبتُ على معرفتِه، ووَصلتُ إلى غايتِه، بحيث لم يبق فيه اضطرابٌ، كالمقتولِ لا اضطرابَ به[3]، قال ذلك الفرَّاءُ[4] وجماعةٌ مِن أهلِ الأدب.

وقيل في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾: أي: في صفة عيسى، فإنَّ النَّصارى مختلفون عل مقالاتٍ باطلة؛ أنَّه ابنُ الله، أو الله، أو اللَّاهوت[5]، أو النَّاسوت واللَّاهوت، وقوله: ﴿لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ في هذه المقالات، وما علموا ذلك يقيناً، أو ما قتلوه يقيناً.

* * *

(١٥٨) ـ ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾.

وقوله تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِ﴾؛ أي: إلى السَّماء، وقد فسَّرناهُ، وذكرنا وجوهَه في سورة آل عمران[6].

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾ حالَ بينهم وبين عيسى أنْ يَقتلوهُ.

وقيل: أي: منتقماً مِن اليهود، وقد فعلَ بتسليط استبسيانوس[7] الرُّوميِّ عليهم، حتَّى

---

(١) في (أ): «عن».

(٢) في (ف): «اليقين».

(٣) لفظ: «به» ليس في (ر). وفي (ف): «فيه».

(٤) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٢٩٤).

(٥) قوله: «أو اللاهوت» من (ف).

(٦) عند تفسير الآية (٥٥) منها.

(٧) في (ف): «اشبشيانوس». وسلف عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ﴾ [البقرة: ٦١]، واسمه ثمة: «ططوس بن اسبسيانوس»، واسمه في «البدء والتاريخ» للمطهر المقدسي (٤/ ١٢٩): «ططوس بن استيانوس».

قَتَل منهم كثيراً، وقد بيَّنَّاه في قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٥٤].

وقوله تعالى: ﴿حَكِيمًا﴾؛ أي: في رفعِه إلى السَّماء حيًّا، وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها: تركَ عيسى عليه السَّلام حين رُفِع إلى السماء خُفَّينِ ومِدْرَعةً ووِسادة، وتركَ النبيُّ ﷺ إزاراً غليظاً وكساءً ووسادةً مِن أدم[١].

* * *

(١٥٩) ـ ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾؛ أي: وما مِن أهلِ الكتابِ أحدٌ، وهذا مضمرٌ، إلَّا ليُصَدِّقنَّ به، أو إلا من ليؤمننَّ[٢] به قبل موته، وهو كقوله: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤]، وقوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]، قاله الزَّجَّاج[٣].

و﴿لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ في الكنايتين وجوه:

قيل: هما يرجعان إلى عيسى عليه السلام؛ أي: يؤمنُ بعيسى بعدَ نزولِ عيسى إلى الأرض قبلَ موت عيسى. قاله ابنُ عبَّاس وسعيدُ بن جُبير ومقاتلٌ وعكرمةُ وأبو مالك والكلبي والحسن[٤].

---

(١) ذكره مقاتل في «تفسيره» (١/ ٤٢١)، ونسب لعائشة القطعة الثانية منه، يعني المتعلقة بنبينا محمد ﷺ.

(٢) في (ر): «إلا ليؤمنن»، وفي (ف): «ليؤمنن» بدل: «إلا من ليؤمنن».

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ١٢٩).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (٧/ ٦٦٤ ـ ٦٦٧) عن ابن عباس وأبي مالك والحسن، وقول مقاتل في «تفسيره» (١/ ٤٢١).

قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: إذا بُعِثَ عيسى عليه السلام إلى الدُّنيا، آمنَ[١] به بقيَّةُ اليهود والنَّصارى[٢].

وقيل: الأولى ترجعُ إلى عيسى، والثَّانية إلى الكتابيِّ، قال محمدُ بنُ الحنفيَّة: تأتي[٣] الملائكة اليهوديَّ، فيضربون وجهَه ودُبرَه، ويقولون: يا عدوَّ الله، جاءك عيسى نبيًّا مِن عند الله، فكذَّبتَهُ، فيقول: أشهدُ أنَّ عيسى نبيُّ الله وعبدُه، ويأتون النَّصرانيَّ فيَضربون وجهَهُ ودُبُرَه، ويقولون: يا عدوَّ الله، أتاك عيسى نبيًّا، فقلت: إنَّه ابنُ الله، فيقول: أشهدُ أنَّ عيسى عبدُ اللهِ ورسولُه[٤].

وهو روايةٌ عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما، وقيل له: إنَّا نرى الكتابيَّ يموتُ ولا[٥] يتكلَّمُ به، فقال: إنْ[٦] ضُرِبَ عنقُه، أو خرَّ من فوق بيتٍ، أو غرقَ، أو أُحرِقَ بالنَّار، أو أكلَهُ سبُعٌ، لا تَخرجُ روحُه حتَّى يؤمنَ بعيسى[٧]، لكنَّه لا يَنفعُه[٨]، ولا يُقبَل منه؛ لأنَّه حالة اليأس.

وقولـه: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾؛ أي: يكـون عيسـى عليهـم شـهيداً بتكذيـبِ مَـن كذَّبـهُ وتَصديـقِ مَـن صدَّقه.

---

(١) في (ف): «آمنت».

(٢) رواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (٧/ ٦٦٦).

(٣) في (ر): «لتأتي».

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٣/ ٤١٢) من رواية الكلبي عن شهر بن حوشب عن ابن الحنفية، والكلبي متهم.

(٥) في (أ): «لا» دون واو العطف.

(٦) بعدها في (ف): «من».

(٧) رواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (٧/ ٦٦٨)، وانظر: «تفسير الثعلبي» (٣/ ٤١٢).

(٨) بعدها في (ر): «إيمان».

وذكر الإمام أبو منصورٍ رحمه الله هذين القولين، وقال أيضاً: وقيل(١): ﴿لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ﴾ أي: بالله، وقيل: بمحمَّدٍ عليه الصَّلاة والسَّلام؛ لأنَّ عيسى عليه السَّلام إذا نزلَ دعا النَّاسَ إلى الإيمان بمحمَّدٍ، ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ بأنَّه بلَّغَ الرِّسالةَ، وأقرَّ على نفسِه بالعبوديَّة.

وقيل شهيداً؛ أي: حافظاً.

وقيل: يكونُ محمَّدٌ عليهم شهيداً.

قال: وهذا كلُّه محتمِلٌ، واللهُ أعلم بما أراد(٢).

***

(١٦٠) ـ ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾؛ أي: كانت أُحِلَّت لهم، وكذا هو في حرف ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم(٣)؛ أي: بسببِ ظلمِهم أنفسَهم بارتكابِ ما نُهوا عنه، ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ﴾، وهو ما ذُكِرَ في سورة الأنعام: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

---

(١) «وقيل» ليس من (أ).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٣/ ٤١٢ ـ ٤١٣).

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٣/ ٤١٤)، وحرف ابن عباس ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢/ ١٣٥).

وقولـه تعالـى: ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾؛ أي: بصرفِهـم ومنعِهـم، وهـو بطريقيـن: بالقِتـالِ، واسـتغواءِ الضَّعفَـةِ والجُهَّـال.

* * *

(١٦١) ـ ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

وقولـه تعالـى: ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾؛ أي: وبأخذهـم ﴿وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ﴾ أي: فـي التَّـوراة، ودلَّ علـى حُرمـةِ الرِّبـا فـي كلِّ الأمـم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ هو أخذُ الرِّشا في الأحكام واستئكالُ أموالِ الأشرافِ بتَحريفِ الكتاب.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ﴾؛ أي: دون مَن آمن. ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الآخرة، مع تحريم الطيِّباتِ وغير ذلك في الدُّنيا.

ومن استدلَّ بالآيةِ على أنَّ الكفَّار مخاطبون بالشَّرائع؛ فإنَّه ذكرَ التَّحريم والنَّهي، فلا حجَّة له فيه؛ لأنَّ الخلاف في العباداتِ، فأمَّا حقوقُ العباد[1]؛ من أخذِ أموالِهم بالغَصب والسَّرقة والعقود الفاسدةِ، فهم مؤاخذون بأحكامِنا بقوله: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩].

* * *

(١٦٢) ـ ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

---

(١) في (أ): «الناس».

وقوله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾؛ أي: الثابتون[١] ﴿مِنۡهُمۡ﴾؛ أي: مِن أهل الكتاب، وهم عبدُ الله بنُ سلام وأصحابُه. وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾؛ أي: أصحاب النبيِّ ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾؛ أي: بالقرآنِ والتَّوراةِ والإنجيلِ والزَّبور.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يُذكَرُ عن عائشة رضي الله عنها أنَّها قالت: هذا خطأٌ مِن الكاتب[٢]، والصحيح: والمقيمون الصلاة، عطفاً على قوله: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ﴾. وهذا لا يجوز؛ لأنَّ الله تعالى قال: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [يوسف: ١٢]، فلم يجز وقوعُ الخطأ فيه[٣] مع حفظ الله تعالى، ولأنَّه لم يغيِّرْهُ الصحابة، ولو وقع الخطأ لم يُظَنَّ بهم تقريرُه وهم القدوة للأمَّة. ولنصبِه وخفضِه وجوه:

أحدها: أنه نصبٌ على المدح، كما في قول الشَّاعر:

لا يَبْعَدَنْ قومي الذين هُمُ ... سُمُّ العداةِ وآفةُ الجُزْرِ
النَّازلينَ بكلِّ مُعْتَرَكٍ ... والطَّيبينَ معاقدَ الأُزْرِ[٤]

---

(١) بعدها في (ف): «وقوله».

(٢) رواه عنها الفراء في «معاني القرآن» (١/ ١٠٦)، وأبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص٢٨٧)، وسعيد بن منصور (٧٦٩ ـ تفسير)، والطبري في «تفسيره» (٧/ ٦٨٠ ـ ٦٨١).

(٣) لفظ: «فيه» ليس في (أ).

(٤) البيتان للخرنق بنت بدر بن هفان، كما في «الكتاب» (٢/ ٦٤)، وهما في «ديوانها» (ص: ٢٩)، ولفظه فيه: «النازلون... والطيبين». قال شارح الديوان: ويروى: النازلين والطيبين. ويروى: النازلون والطيبون.
قال شارح الديوان في البيت الأول: أي: هم لأعدائها كالسُّمِّ، وهم آفةُ الجزر؛ لأنهم ينحرونها للأضياف. وقال: «الطيبين معاقد الأزر» تريد أنهم أعفاء الفروج، والأزر جمع إزار.

والثاني: أنَّه مخفوضٌ، معطوفٌ على قوله: ﴿مِنْهُمْ﴾، وتقديره: ومن المقيمين الصَّلاة.

والثالث: أنَّه مخفوضٌ، معطوفٌ على الكاف التي في قوله: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ وتقديرُه: وإلى المقيمين الصلاة، وهم الأنبياء.

وقيل: هو معطوفٌ على «ما»، وهو قوله: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾، وتقديرُه: وبالمقيمين، وهم الأنبياءُ أيضاً.

وقيل: هم[1] الملائكة، والصَّلاةُ كانت مشروعةً في كلِّ زمان، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾[2] [الأنبياء: ٧٣]، وهي من صفاتِ الملائكة، قال تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا﴾ [الصافات: ١]، وقال تعالى خبراً عنهم: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات: ١٦٥ ـ ١٦٦] وقال: ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ عطفاً على قوله: ﴿ٱلرَّٰسِخُونَ﴾.

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ أي: المصدِّقونَ بوحدانية الله تعالى، وبكون القيامةِ، وهم مخالفون للمذكورين قبلها أنَّهم كافرون.

وقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ والأوَّلون أعتدنا لهم[3] عذاباً أليماً.

وقال مقاتل: إنَّ عبدَ الله بنَ سلام وأصحابَهُ قالوا للنَّبيِّ ﷺ: إنَّ اليهودَ لتَعلمُ أنَّ الذي جئتَ به حقٌّ، وإنَّك مكتوب عندهم في التَّوراة، فقالت اليهودُ للنَّبيِّ ﷺ: ليس

(١) في (ف): «تعم».

(٢) بعدها في (ر): «وإيتاء الزكاة وقيل: هم الملائكة»، وهي مقحمة.

(٣) في (ف): «للكافرين منهم».

كما يقولون، وإنَّهم لا يعلمون شيئاً، وإنهم يُغرونَك ويُحدِّثونَك بالباطل، فأنزل اللهُ تعالى هذه الآية(١).

***

(١٦٣) ـ ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ قال ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: لـمَّا فضح اللهُ تعالى اليهودَ بذكرِ ذُنوبهم وعيوبِهم، غضبوا وقالوا: ليس هذا كلام الله، وما أنزلَ اللهُ على بشرٍ مِن شيءٍ، فنزلَت هذه الآية.

وبدأ بمحمَّدٍ تشريفاً له؛ لأنَّه أفضلُ الأنبياء وأعظمُهم وإن كان خاتماً لهم، ثمَّ جعلَ نوحاً ثانيَهُ في الوحي في هذه الآية، وفي أخذ الميثاق في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ [الأحزاب: ٧]، وإنَّما قدَّمه على سائر الأنبياء؛ لأنه أبو البشر، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧]، ولأنَّه أول نذير على الشِّرك، وأوَّل من عُذِّبَ أمَّتُه بردِّهم(٢) دعوته، ولأنَّه أطولُ الأنبياءِ عمراً، وأكبرُهم سِنًّا، وجُعِلَت معجزتُه في نفسِه؛ لم تنقُص قوَّتُه، ولم تَسقط سِنُّه، ولم يَبيضَّ شعرُه، مع أنّه عمِّرَ(٣) ألف سنة ومئتي سنة، ولم يُؤذَ أحدٌ في اللهِ إيذاءَهُ، وهو أوَّلُ مَن شُرِعَت له الشَّرائعُ، وسُنَّت له السُّنن.

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٤٢٢).

(٢) في (ف): «برد».

(٣) في (ف): «أن عمره» بدل: «أنه عمر».

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ ذكرنا[١] في سورة البقرة[٢] أنَّ الأسباطَ أولادُ يعقوب.

وقوله تعالى: ﴿وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ قدَّمَ ذكرَ عيسى عليه السلام على أيوب ومَن ذكرَ عليهم السَّلام[٣]، وزمانُه متأخِّرٌ عنهم[٤]؛ لأنَّ الواوَ ليس للتَّرتيب، ولأنَّ البدايةَ تكونُ بالأهمِّ، وهذه الآيةُ في الإنكار على اليهودِ، وطعنِهم على عيسى؛ فلذلك قدَّم ذكرَهُ، وكذا قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ أخَّره عن ذكرِ سليمان مع وجوده قبله؛ لما قلنا: إنَّ الواوَ ليس للترتيب، ولأنَّه أوفقُ لخواتم الآي.

* * *

(١٦٤) ـ ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَرُسُلًا﴾ نصبُه من وجوه:

أحدها: بإضمار: أرسلنا؛ لأنَّه بمعنى الوحي، وقد ذُكِرَ ذلك، فدلَّ على هذا المضمر.

والثاني: بحذف «إلى»؛ أي: وأوحينا إلى رُسُل.

والثالث: بالفعل المذكور بعدَه، وهو قوله تعالى: ﴿قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ﴾، وهو كقوله: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: ٣٩].

---

(١) في (ر): «قد ذكرنا».

(٢) عند تفسير الآية (١٣٦) منها.

(٣) قوله: «على أيوب ومن ذكر عليهم السلام» من (ف).

(٤) في (أ): «منهم».

والرابع: بالعطف على داود؛ أي: وآتينا رسلاً كُتباً أُخر.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ قال الكلبيُّ: أي: سمَّيناهم لك في القرآن، وعرفناكَهم إلى مَن بُعِثوا[١].

وقوله تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ﴾؛ أي: لم نسمِّهم لك، فالمسمَّون المذكورون في سورة الأنعام وغيرها، وهي مقدَّمةٌ في النُّزول، وإنْ كانت مؤخَّرةً في الكتابة.

قال ابنُ عباس رضي الله تعالى عنهما: لـمَّا نزلَت الآيةُ الأولى قالت اليهود: ذكرَ محمَّدٌ الأنبياءَ، ولم يَذكر موسى، فنزلَت هذه الآية: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ﴾ الآية[٢].

وسأل أبو ذَرٍّ رسولَ الله ﷺ: كم الأنبياء؟ قال: «مئةُ ألفٍ وأربعةٌ وعشرون ألفاً» قال: كم الرُّسلُ منهم؟ قال: «ثلاثُ مئةٍ وثلاثةَ عشر؛ أوَّلُ الرُّسل آدم، وآخرُهم نبيُّكم محمَّدٌ ﷺ، وأوَّلُ رسلِ بني إسرائيل موسى، وآخرُهم عيسى، وبينهما ألفُ نبيٍّ؛ أربعةٌ منهم سريانيون، وأربعةٌ مِن العرب؛ هودٌ، وصالحٌ، وشعيبٌ[٣]، ومحمَّدٌ عليهم الصَّلاة والسَّلام»[٤].

وقوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾؛ أي: بلا واسطةٍ، وهو ردٌّ على المعتزلة الذين لا يُثبتون لله تعالى كلاماً أزليًّا على الحقيقة صفةً قائمةً بذاته؛ لأنَّه

---

(١) انظر: «الوسيط» للواحدي (٢/ ١٤٠).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (٧/ ١٩٥).

(٣) في (أ): «شيث».

(٤) رواه ابن حبان في «صحيحه» (٣٦١) مطولًا، والحاكم في «المستدرك»: (٤١٦٦)، قال محقق «صحيح ابن حبان»: إسناده ضعيفٌ جدًّا. وانظر تتمة تخريجه ثمة.

أكَّدهُ بالمصدر، وهو لتحقيق الاسم والصِّفة؛ فإنَّ الفعلَ المذكورَ على المجاز لا يؤكَّدُ بالمصدر.

ودلَّت الآيةُ على أنَّ معرفةَ الرُّسلِ واحداً بعد واحدٍ بأساميهم ليست بشرطٍ لصحَّةِ الإيمان، لكن مِن شرطِه أن يُؤمن بهم جميعاً، ولو كان معرفةُ كلٍّ واحدٍ منهم شرطاً لقَصَّ علينا كلَّ ذلك.

* * *

(١٦٥) ـ ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ ﴿رُسُلًا﴾ بدلٌ عن الأوَّل، ﴿مُّبَشِّرِينَ﴾، أي: بالجنَّة لمن أطاعَ الله، ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ بالنَّارِ لمن عصاه.

وقوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾؛ أي: لئلَّا يكونَ لهم الاحتجاجُ، فيقولوا: ﴿رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ الآية [طه: ١٣٤].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: وهذا إنما يكون في العبادات والشرائع التي سبيلُ معرفتِها السَّمعُ لا العقل، وأمَّا الاعتقادات، فإنَّ لزومَها بالعقل، فلا يكونُ لهم الاحتجاجُ؛ إذ في كلِّ شيءٍ مِن خلقه دليلٌ على وجودِه ووحدانيتِه وربوبيَّته[١].

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾؛ أي: منيعاً قادراً على إعزازِ من أعزَّه، وإذلال من أذلَّه، ﴿حَكِيمًا﴾ بوضعِ كلِّ شيءٍ موضعَهُ.

وقيل: أي: قادراً على إثابةِ مَن صدَّقَهم وعقابِ من كذَّبَهم.

وقيل: ﴿حَكِيمًا﴾ في إرسالهم وكلِّ[٢] شيء.

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٣/ ٤٢١).

(٢) في (ر): «وفي كل».

(١٦٦) ـ ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾ قال الكلبيُّ رحمه الله: إنَّ رؤساءَ مكَّة قالوا: يا محمَّد، إنَّا قد سألنا عنك اليهودَ وعن صفتِك، فزعَموا أنَّهم لا يعرفونَك في كتابِهم، فائتنا بمَن يشهدُ لك أنَّ اللهَ بعثَك إلينا رسولاً، فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾ إلى قوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ﴾[الأنعام: ١٩]، قالوا: نعم يا محمَّد، نحن نشهدُ على ذلك، ولا نجدُ أحداً يَشهد أنَّك رسولُ الله، فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾ الآية[(١)].

وشهادةُ الله لرسوله[(٢)]: بما أظهرَ على يدِه مِن المعجزات، وهي شهادةٌ قاطعةٌ، وشهادةُ الملائكة: إقرارُهم بنُبوَّتِه، وفي شهادةِ الله كفايةٌ، وإنَّما قرنَ بها شهادةَ الملائكة؛ تشريفاً لهم، أو على مقابلةِ شهادتِهم بتكذيب الكفَّار، وقد عرفَ النبيُّ ﷺ كثرتَهم وشرفَهم عند الله تعالى، فإذا علمَ شهادتَهم له بذلك، كان ذلك تسليةً له وغُنيةً عن شهادةِ الكفَّار.

وقوله تعالى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ قال الزَّجَّاج: أي: أنزلَ القرآنَ الذي فيه علمُه[(٣)].

وقيل: أي: أنزلهُ مِن علمِه[(٤)].

---

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ١٧٩) عن الكلبي مختصراً، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٣/ ٤١٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) في (ف): «للرسول هي».

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ١٣٤).

(٤) قوله: «وقيل: أي أنزله من علمه» ليس في (أ).

وقيل: أي: أنزلَهُ عالماً باستحقاقِك الإنزالَ عليك، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وقيل: أي: أنزله بما عَلِمَ مِن مصالحِ الخلقِ ومنافعِهم فيه.

وفيه ردُّ قولِ المعتزلة في نفيهم الصفات؛ فإنَّ اللهَ تعالى أثبتَ العلمَ لنفسِه بهذه الآية، وبقولِه: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ فسَّرناهُ.

وقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾؛ أي: شاهداً.

* * *

(١٦٧) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ هم اليهودُ كفروا بتكذيب محمَّدٍ ﷺ، ومَنعوا النَّاسَ عن سبيلِ الحقِّ بقولِهم للعرب: إنَّا أهلُ العلم، وفي كتابنا أن شريعةَ موسى لا تُنسخُ أبداً، والأنبياءَ لا يكونون إلَّا من ولدِ هارون، وضلُّوا بهذا ضلالاً بعيداً عن الرُّشدِ وعن كلِّ خيرٍ.

* * *

(١٦٨ ـ ١٦٩) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟﴾؛ أي: أنفسَهم بإيرادِها مواردَ الهَلَكة، وظلموا غيرَهم بصدِّهم عن سبيل الله.

وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾؛ أي: ليس مِن صفةِ اللهِ المغفرةُ لهم ما داموا على الكفر.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾ بخلاف ما قال في حقِّ المؤمنين: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [يونس: ٩].

وقال عطاء: أي: إلَّا طريق اليهوديَّة الذي هو طريقُ أهلِ جهنَّم.

وقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾؛ أي: في جهنم.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾؛ أي: كان تخليدُهم في جهنَّم عليه هيِّناً، فهو قادرٌ على الكمال، لا يَتعذَّرُ عليه شيءٌ، ولا يَخرجُ عن قدرتِه مقدورٌ، ثمَّ ليس هذا بإجبارٍ على الكفرِ، ولا منعٍ عن الإيمان، لكنَّه خذلانٌ لهم بسبب اختيارِهم ذلك.

* * *

(١٧٠) - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ الباءُ للتَّعديةِ، و«الحق» مفعولٌ به.

وقال الكلبيُّ رحمه الله: الحقُّ: شهادة أن لا إله إلا الله. وقيل: هو القرآن.

وقوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟﴾ أي: صدِّقوا.

وقوله تعالى: ﴿خَيْرًا لَّكُمْ﴾ قيل: أي: لخيرٍ(١) لكم، ولأجل خيرٍ لكم.

وقيل: هو نصبٌ على الدُّعاء؛ أي: أصبتُم خيراً لكم.

وقال قطرب: أي: فآمِنوا يَكُن خيراً لكم(٢).

---

(١) في (أ): «بخير»، وقوله: «قيل: أي: لخير لكم» ليس في (ف).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (٧/ ٢٠٣).

وقال الأخفش: تقديره: اعملوا خيراً لكم[١].

وقيل[٢]: فآمنوا إيماناً خيراً لكم؛ أي: هو أحمدُ عاقبةً مِن الكفر.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: فإن الله غنيٌّ عن إيمانِكم؛ فإنَّ له ما في السَّماوات والأرض وما بينهما.

وقيل: أي: هو قادرٌ على أن يَخسِفَ بكم الأرض، وأنْ يُنزِلَ عليكم من السَّماء العذابَ فإنهما له.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾؛ أي: بمَن يؤمنُ وبمَن يكفر، ﴿حَكِيمًا﴾؛ أي: لا يُسَوِّي بينهما في الجزاء.

وقيل: ﴿عَلِيمًا﴾ بأعمال العبادِ كلِّهم؛ مؤمِنهم وكافِرهم، وعليماً بجزائِهم، ﴿حَكِيمًا﴾ في جميعِ ما يَحكُمُ به.

* * *

(١٧١) - ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾؛ أي: لا تَجاوزوا حدَّ الحقِّ، وهو خطابٌ لليهود والنَّصارى جميعاً، وغُلُوُّ اليهودِ في إساءةِ القول في عيسى، بتسميتِه ولدَ الزِّنى، وغُلُوُّ النَّصارى في مدحِ عيسى، وهو قول اليعقوبيَّة

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للأخفش (١/ ٢٦٩).

(٢) بعدها في (ر): «أي».

منهم: عيسى هو الله، وقول النُّسْطُوريَّة منهم: هو ابنُ الله، وقول الملكانية منهم: هو ثالثُ ثلاثةٍ، وهذا كلُّه كفرٌ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾؛ أي: الصِّدق؛ أي: لا[1] تُضيفوا إليه الولدَ، ولا تَجعلوا عيسى متَّحداً بخالقِه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ لا ابنُ الله.

وقوله تعالى: ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾؛ أي: بشارتُه التي بشَّر بها مريم أنَّها تَلِدُ غلاماً زكيًّا مِن غير زوج، قال الله تعالى خبراً عن جبريلِ عليه السلام: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ [آل عمران: ٤٥]، وإلقاءُ الكلام: تبليغُه وإسماعُه، قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾[2] [القصص: ٨٦].

وقيل: كلمته؛ أي: كان وجودُه بكلمتِه[3]: كن، فكان، وهو قول الحسن وقتادة[4].

وقيل: أي: كان يُهتدَى به كما يُهتدَى بكلامِ الله، وهو قولُ الحسينِ بن الفضل رحمَه الله.

وقوله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾؛ أي: كان[5] حياةَ الخلقِ، والكفرُ موتٌ، والإيمانُ حياةٌ، وكان تصديقُه[6] واتِّباعه موصولاً إلى هذه الحياة، فكان كالرُّوح التي بها حياةُ

---

(١) في (ف): «ولا» بدل: «أي: لا».

(٢) بعدها في (ر): «إلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّك».

(٣) في (ف): «بكلمة».

(٤) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٦٥٨)، ومن طريقه الطبري في «تفسيره» (٥/ ٤٠٧)، (٧/ ٧٠٣) عن قتادة.

(٥) بعدها في (ر): «به».

(٦) بعدها في (ر): «بعيسى».

النَّفسِ، وسُمِّيَ الوحيُ روحاً، والقرآنُ روحاً؛ لهذا المعنى، **وقوله تعالى:** ﴿مِّنْهُ﴾؛ أي: هذا الإنعامُ على الخلق كان مِن الله عزَّ وجلَّ.

وقوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾؛ أي: بعيسى وسائرِ رسل الله.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ﴾؛ أي: هم[1] ثلاثة، ومن قولهم: عيسى ثلاثةُ أقانيم، وهو جوهرٌ واحد، ويقولون: الثلاثة: الأبُ، والابنُ، وروحُ القُدُس.

وقوله تعالى: ﴿ٱنتَهُواْ﴾؛ أي: عن هذه المقالاتِ.

وقوله تعالى: ﴿خَيْرًا لَّكُمْ﴾؛ أي[2]: يكن خيراً لكم، أو: اعملوا خيراً لكم، أو الخيرُ لكم، كما مرَّ[3].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ هذا ظاهرٌ، وقد مرَّ تفسيرُ ذلك مرَّات.

وقوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مُلْكاً وخَلقاً، وعيسى منهم.

وقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾؛ أي: حافظاً ومدبِّراً لهما ولما فيهما.

* * *

(١٧٢) ـ ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾؛ أي: لن يأنفَ ولن يَمتنِعَ عن الإقرارِ به، يُعرِّفُهم براءةَ عيسى عمَّا وصفوهُ به، وذلك أنَّ وفدَ[4] نجران

---

(١) في (ف): «هو».

(٢) بعدها في (أ): «إن».

(٣) مر في الآية السابقة.

(٤) بعدها في (ر) و(ف): «بني»، والمثبت موافق للمصادر.

قالوا: يا محمَّد لم تَعيبُ صاحبَنا؟ قال: «ومَن صاحبُكم؟» قالوا: عيسى، قال: «وأيَّ شيءٍ أقول؟» قالوا: تقولُ: إنَّه عبدُ اللهِ ورسولُه، قال: «ليس بعارٍ أنْ يكون عبداً لله»، قالوا: بل هو عارٌ، فنزلَت هذه الآية: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ﴾[1] الآية[2].

وتعلَّقَ المعتزلةُ القائلون بتفضيلِ الملائكة على البشرِ بهذه الآية، وقالوا: إنَّ هذا بمنزلة قول القائل: لا يستنكفُ فلانٌ عن خِدمتي ولا أبوه، ولو قال: ولا عبدُه لم يحسن.

وجوابنا عن ذلك: أنَّ هذا ليس لتفضيل الملائكةِ على البشر، لكنَّه للردِّ على النَّصارى والمشركين؛ فإنَّ النَّصارى قالوا: المسيحُ ابنُ الله، ومشركو العربِ قالوا: الملائكةُ بناتُ الله، فردَّ اللهُ على الفريقين، فقال: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾، وهذا ردٌّ على النَّصارى، ﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ وهذا ردٌّ على مشركي العرب.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ رُفِعَ لأنَّ الفاءَ دخلَتْ[3]، فلم يُجزَم على الجزاء، وصار كالابتداء، وقرأ الحسنُ البصريُّ: (فسنحشرهم)، (فنُوفِّيهم)، (ونزيدُهم)، (فنُعذِّبهم) هذه الأربعة بالنُّون[4]؛ إخباراً من اللهِ عن نفسه بخطابِ الملوك، وقراءةُ العامَّة بالياء، وهو أحسن؛ لأنَّه قال: ﴿إِلَيْهِ﴾، وقال قبله: ﴿عَبْدًا لِّلَّهِ﴾، والجمعُ في قولِه: ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ﴾ يرجعُ إلى المعنى، وقولُه: ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ﴾ توحيدُه لظاهرِ اللفظ، ثمَّ معناه: فإنَّ اللهَ سيجمَعُهم يومَ القيامة إلى حكمه؛ فيجازيهم على استنكافِهم واستكبارِهم.

---

(١) بعدها في (ر): «أَنْ يَكُونَ عَبْداً للهِ».

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (٣/ ٤٢٠)، ونسبه الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ١٨٠) للكلبي.

(٣) بعدها في (ف): «على الجزاء».

(٤) انظر: «مختصر في شواذ القرآن» لابن خالويه (ص: ٢١٠)، و«التحصيل» للمهدوي (٢/ ٣٨٤).

(١٧٣) ـ ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦ ﴾؛ أي: إذا حشرَهُم ميَّزَ بينهم وبين مخالفيهم، فيوفِّرُ ثوابَ المؤمنين المطيعين في جنَّةِ الخلد، وقوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦ ﴾؛ أي: يُعطيهم زيادةً على الموعود.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ ﴾؛ أي: عن عبادته، ﴿وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ﴾؛ أي: تعظَّموا[١] عن الاعتراف بعبودته[٢]، وقوله تعالى: ﴿فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴾ أي: وجيعاً في النَّار.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم ﴾؛ أي: لأنفسهم، ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾؛ أي: سوى الله ﴿وَلِيّٗا ﴾؛ أي: من يتولَّى كفايتَهم[٣]، ﴿وَلَا نَصِيرٗا ﴾؛ أي: مانعاً عقوبتَهم.

* * *

(١٧٤) ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ هو خطابٌ للكلِّ والبرهانُ: الحُجَّةُ، وهو النبيُّ ﷺ؛ أي: جاءَكم حجَّةٌ مِن الله في اعتقادِ ما تَعتقدونهُ، وبطلانِ ما لا يجوزُ أنْ تَعتقدوه من مِلَلِ الكفر.

---

(١) في (ف): «تعاظموا».

(٢) في (ر) و(ف): «بعبوديته».

(٣) بعدها في (ف): «من تعذيبهم».

وقولـه تعالـى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾؛ أي: مضيئاً يُبيِّنُ الحـقَّ مِن الضَّلال، وهو القرآن.

* * *

(١٧٥) ـ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾.

وقوله تعالـى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ﴾ قال ابـنُ جُرَيج: أي: تَمسَّكوا بالقرآن[١]. وقيـل: أي: امتنعوا بالله.

وقوله تعالى: ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ﴾ قال الكلبيُّ: أي: في الجنَّةِ ونعيمِها، سمَّاها رحمةً؛ لأنَّها تُنالُ برحمته، كما يُسمَّى المطرُ رحمةً، وسمَّى نعيمَها فضلاً؛ لأنَّه بفضلِهِ يُنال.

وقوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾؛ أي: إلى طلبِ رضوانِه طريقاً قيِّماً.

وقال الإمامُ القشيريُّ: ﴿قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ البرهانُ: ما لاحَ في سرائرِهم مِن شواهد الحقِّ، والنُّورُ المبينُ: هو خطابُه الذي في تأمُّلِهم معانيَهُ حصولُ الاستبصار، قوله تعالى: ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ﴾ السِّينُ للاستقبال؛ أي: يحفظُ عليهم إيمانَهم في المآلِ، كما أكرمَهم بالعرفانِ في الحال، وقوله: ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾؛ أي: يُكرِمُهم بأنْ يَعرِفوا بأنَّ الهدايةَ مِن الله لهم فضلٌ، لا باستحقاقِهم ذلك بطلبِهم وجهدِهم فعلاً[٢].

* * *

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٧/ ٧١٢).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٣٩٥).

(١٧٦) ـ ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾؛ أي: يسألونك، وهذا خطابٌ للنَّبيِّ ﷺ، وقد عاد الكلامُ إلى ما يَقتضيهِ أوَّلُ السُّورة؛ ليكون آخرُها مقتضياً ما اقتضاه أوَّلُها، ويكونَ ما تخلَّلها توكيداً للكلام بما لا بدَّ منه مِن ترغيبٍ وترهيبٍ وتنبيهٍ.

وقوله: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ إخبارٌ عن سؤالٍ مطلقٍ، وتبيَّن[١] بالجواب أنَّ السؤال عمَّاذا كان، كما قلنا في قوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ﴾ في آياتٍ[٢] مِن سورة البقرة.

وقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ وقد فسَّرنا في أول السُّورة[٣] أنَّ الكلالة في من ماتَ لا والدَ له ولا ولد.

وقوله تعالى: ﴿إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ﴾؛ أي: إنْ هلكَ امرؤٌ؛ أي: مات، وكلمةُ الشَّرط[٤] تلاقي الفعلَ غالباً، ويجوزُ أنْ يُذكَرَ الاسمُ معها والفعلُ بعده، كما في قوله: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ﴾ [التوبة: ٦]، **وقوله تعالى:** ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا﴾ [النساء: ١٢٨].

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾؛ أي: ابن، ﴿وَلَهُ أُخْتٌ﴾؛ أي: للهالكِ وهو الميِّتُ

---

(١) في (ف): «ويتبين».

(٢) في (ف): «الآيات».

(٣) عند تفسير الآية (١٢) منها.

(٤) في (ف): «إن الشرطية» بدل: «الشرط».

أختٌ؛ أي: لأبٍ وأمٍّ، أو لأبٍ؛ فإنَّ الأختَ لأمٍّ حكمُها غيرُ هذا، وقد ذكرنا ذلك في آية الميراث في أول السُّورة.

قوله تعالى: ﴿فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَ﴾؛ أي: فرضُها نصفُ تركَةِ[1] أخيها.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يَرِثُهَآ﴾؛ أي: الأخُ؛ لو بقيَ وهلكَت الأختُ، فالأخُ يرثُها، ولمَّا أُطْلِقَ عُلِمَ أنَّه يَستحقُّ كلَّ تركتِها بالعصوبة.

والآية نزلَت في طريقِ مكَّة، ورسولُ الله ﷺ خرجَ في حجَّة الوداع، فأتاهُ جابرُ بن عبد الله الأنصاري وقال: إنَّ لي أختاً، فكم آخذُ مِن ميراثِها إنْ ماتَت، فنزلَت الآيةُ، وابتدأ بموت الرَّجل[2].

ويقال: إنَّ جابراً قد مات قبلَ أختِه، فورِثَتهُ، وفيه عظةٌ، فرُبَّ متربِّصٍ موتَ غيره وهو يموت قبله.

وقد رويَ خلافُ ذلك، قال مقاتل: مرضَ جابرُ بنُ عبدِ الله بالمدينة، فأتاهُ رسولُ اللهِ ﷺ عائداً، فقال: يا رسولَ الله، إنِّي كلالةٌ؛ لا والدَ لي ولا ولد، فكيف أصنعُ في مالي؟ فأنزل الله هذه الآية: ﴿إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ﴾ الآية[3].

ورويَ عنه أنَّه قال: مرضتُ، فأتاني رسولُ الله ﷺ يعودُني وأبو بكرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه معه، فوجدني قد أغميَ عليَّ، فتوضَّأ فصبَّ وَضوءَهُ عليَّ، فأفقتُ

---

(١) في (ر): «ما ترك» بدل: «تركة».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٣/ ٤٢١) من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهو إسناد تالف.

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٤٢٦).

فقلت: يا رسولَ الله، كيف أصنعُ في مالي؟ فكان لي تسع[١] أخوات، فلم يُجبني حتَّى نَزلَت هذه الآية[٢].

وقوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ﴾؛ أي: فإن كانت الأختان اثنتين، ﴿فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾؛ أي: مِن تركةِ الأخ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُوٓاْ إِخْوَةً﴾؛ أي: جمعاً، ﴿رِّجَالًا وَنِسَآءً﴾ ترجمةٌ عن الإخوة، ودلَّ على أنَّ الاسمَ يَتناولُ الذُّكورَ والإناث جميعاً.

وقوله تعالى: ﴿فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾؛ أي: فللأخ منهم مثلُ نصيبِ الأختينِ بالعصوبة، كما في الأولاد.

وقوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾ «أن» مع الفعل مصدرٌ، وتقديرُه: يُبيِّن اللهُ لكم الضَّلال، وإذا بيَّنَ الضَّلال فقد بيَّنَ الهُدى؛ إذ هو ضدُّه، وإذا عُرِفَ أحدُهما عُرِفَ الآخرُ بمعرفتِه، فيُجتَنبُ المنهيُّ عنه، ويُقصَدُ المأمورُ به.

وقال عطاءٌ ومقاتلٌ وجماعةٌ: معناه: لئلَّا تَضِلُّوا؛ أي: لا تُخطِئوا[٣]، و«لا» مضمرٌ، وهو كقول القطاميِّ:

رأينـا مـا يَـرى البُصـراءُ فيها ... فـآلَـينا عليهـا أن تُباعـا[٤]

أي: ألَّا تباعَ هذه النَّاقةُ، ونظيرُه في القرآن: ﴿شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾

---

(١) في (ر): «سبع».

(٢) رواه البخاري في «صحيحه» (٦٧٢٣)، ومسلم في «صحيحه» (١٦١٦)، لكن ليس فيه ذكر أخوات جابر، وهو مع ذكر الأخوات في «تفسير الطبري» (٧/ ٧١٦).

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٤٢٦).

(٤) انظر: «ديوان القطامي» (ص: ٤٠).

[الأعراف: ١٧٢]؛ أي: لئلَّا يقولوا، ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥]؛ أي: لئلَّا تميدَ بكم.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾؛ أي: والله عالمٌ بكلِّ شيءٍ من مصالحِ عبادِهِ، فهو تنبيهٌ لهم، ولا يتركُهم سدى، وبيَّن في هذه الآيةِ حكمَ الأختين، ولم يُبيِّن حكمَ الأخوات، وذكرَ في آيةِ أوَّلِ السُّورة حكم البنات[١]، ولم يُبيِّن حكمَ الابنتين تسويغاً[٢] للاجتهاد، وتجويزاً للقياس، فاستدلَّ العلماءُ باستحقاقِ الأختين الثُّلُثين أنَّ الابنتينِ كذلك، واستدلُّوا باستحقاق البناتِ الثُّلُثين أنَّ الأخواتِ كذلك، وروي[٣] عن عمر رضي الله عنه أنَّه قال: ما سألتُ النبيَّ ﷺ عن شيءٍ[٤] أكثرَ ممَّا سألتُه عن الكلالة، ثمَّ طعن في صدري بإصبعه، فقال: «لا[٥] يكفيكَ آيةُ الصَّيف التي في آخر سورة النساء؟»[٦].

قال الإمام أبو منصور رحمه الله: وفيه دلالةٌ أنْ[٧] قد يُترَكُ بيانُ ما يُدرَكُ بالاجتهادِ والنَّظر، فيُجتَهدُ فيدرَك؛ لأنَّ عمرَ رضي الله عنه سألَه غيرَ مرَّةٍ عن ذلك، ولم يُبيِّنهُ، وأشارَ إلى الآية التي فيها ذكرُ ما سألَ عنه؛ لينظُرَ ويَجتهِد؛ ليدرك.

وفيه دليلُ جوازِ تأخرِ البيان؛ لأنَّ عمرَ رضي الله عنه سألهُ غيرَ مرَّةٍ، ولم يُبيِّنه، حتَّى أمرَهُ بالنَّظر في الآية.

---

(١) في الآية (١١) منها.

(٢) في (أ) و(ر): «تسويفاً».

(٣) في (ر): «وقد روي».

(٤) قوله: «عن شيء» ليس في (أ).

(٥) في (ف): «ألا».

(٦) رواه مسلم في «صحيحه» (١٦١٧).

(٧) في (ف): «أنه».

وعن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه أنَّه قال: الكلالةُ: مَن ليس له ولدٌ ولا والدٌ، وكذلك قال عمرُ رضي الله عنه، وقال: إنِّي لأستحيي مِن الله أن أردَّ شيئاً قالَه أبو بكرٍ الصِّديقُ رضي الله عنه[١].

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: قطعَ اللهُ تعالى الخصومةَ بينهم في قسمةِ المواريث بما أظهر لهم مِن النَّصِّ على الحكم؛ فإنَّ المالَ محبَّبٌ إلى الإنسان، وجُبلتِ النُّفوسُ على الشُّحِّ، فلو لم ينصَّ على مقاديرِ الاستحقاق تقابلت[٢] الاجتهادات، وأدَّى ذلك إلى التجاذبِ والخصومات، فقطَعَ الخِصامَ ببيانِ الأقسام، ثمَّ في توريث النِّساء، وإنْ لم يوجدْ منهنَّ الذَّبُّ عن العشيرة؛ دلالةً على[٣] النَّظرِ لهنَّ لضعفهنَّ، وتفضيلُ الذُّكور عليهن؛ لما عليهم مِن تَحمُّل المؤن، وكذا السَّعيُ والقيامُ عليهنَّ.

وعن البراءِ بن عازبٍ رضي الله عنه أنَّه قال: آخرُ سورةٍ نزلَت كاملةً سورةُ براءة، وآخرُ آيةٍ نزلَتْ خاتمةُ سورةِ النساء ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾[٤].

وقال السُّدِّيُّ: آخرُ ما نزلَ مِن القرآنِ ثلاثُ آياتٍ: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ الآية، ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾[٥] الآية [التوبة: ١٢٩]، ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ﴾ الآية [البقرة: ٢٨١][٦].

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٣/ ٤٣٢). والخبر رواه عبد الرزاق في «المصنف» (١٩١٩١)، وسعيد ابن منصور (٥٩١ _ تفسير)، والدارمي في «سننه» (٣٠١٥)، والطبري في «تفسيره» (٦/ ٤٧٥ _ ٤٧٦).

(٢) في (أ): «فقابلت».

(٣) بعدها في (ر): «أن».

(٤) رواه البخاري في «صحيحه» (٦٧٤٤)، ومسلم في «صحيحه» (١٦١٨)

(٥) بعدها في (ر): «لا إله إلا هو».

(٦) أورده الثعلبي في «تفسيره» (١١/ ١٠٥) (طبعة دار التفسير).

وروى زيدٌ العمِّيُّ عن أبي نَضرة عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما، عن النَّبيِّ ﷺ أَنَّه قال: «مَن قرأ سورةَ النِّساء أُعطِيَ مِن الأجرِ كأنَّما تَصدَّق على كلِّ مَن ورث ميراثاً، وكان له مِن الأجرِ بقدرِ مَن اشترى محرَّماً(١)، وبَرِئ مِن الشِّركِ، وكان في مشيئةِ الله تعالى مِن الذين يتجاوزُ عنهم»(٢).

* * *

(١) وقع في هامش (أ) ما نصه: «المراد من المحرم العرب الذي يحرم استرقاقه».

(٢) لم أقف عليه من الطريق التي ذكرها المصنف، وزيد العمي هو ابن الحواري، وهو ضعيف، كما في «التقريب». وروى نحوه الثعلبي في «تفسيره» (١٠/ ٩) (طبعة دار التفسير)، والواحدي في «الوسيط» (٢/ ٣)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (٤٧١) من حديث أبي بن كعب، وفيه ذكر فضائل سور القرآن سورةً سورة، وقد فرقها الثعلبي والواحدي على مواضعها في مطالع السور.

قال ابن الجوزي: هذا حديث مصنوع بلا شك. ثم قال بعد الكلام عن طرقه: وبعد هذا فنفسُ الحديث يدلُّ على أنَّه مصنوع فإنه قد استقرأ السور، وذكر في كل واحدة ما يُناسبها من الثواب بكلامٍ ركيكٍ في نهاية البرودة، لا يُناسِبُ كلام رسول الله ﷺ

ووقع بعدها في (ر): «والله أعلم»، وفي (ف): «وقد تمت السورة».

سُورَةُ المَائِدَةِ

سُورَةُ المَائِدَةِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسمِ الله الذي يَهدي مَن اتَّبعَ رِضوانَهُ سبلَ السَّلام، ويُخرجُهم مِن الظُّلماتِ إلى النُّور بإذنه، ويَهديهم إلى صراطٍ مستقيم، الرَّحمن الذي يحبُّ المؤمنين ويحبونَه، وذلك فضلُ[1] الله يؤتيهِ مَن يَشاء، واللهُ واسعٌ عليم، الرَّحيم الذي يُدخِلُهم جناتٍ تَجري مِن تحتِها الأنهارُ خالدين فيها أبداً، رضيَ اللهُ عنهم ورضوا عنه، ذلك الفوزُ العظيم.

وسورةُ المائدةِ مدنيَّةٌ، ورُويَ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «إنَّ سورةَ المائدةِ[2] من آخر القرآن تنزيلاً؛ فأحِلُّوا حلالَها، وحَرِّموا حرامَها»[3].

وعن أسماءَ بنتِ يزيد أنَّها قالت: إنِّي لآخذةٌ بزِمامِ العَضباء، ناقةِ رسول الله

---

(١) بعدها في (ف): «من».

(٢) بعدها في (ف): «كانت».

(٣) أخرجه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص: ٢٣٩) عن ضمرة بن حبيب وعطية بن قيس، وهما تابعيان، فالحديث مرسل، وتحرف في مطبوعه إلى: «ضمرة بن حبيب عن عطية بن قيس»، وانظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٥/ ١٥٧ ـ ١٥٨).

وأخرج النسائي في «الكبرى» (١١٠٧٣)، والحاكم في «المستدرك» (٣٢١٠) نحوه عن جبير بن نُفير عن عائشة رضي الله عنها موقوفاً عليها.

ﷺ، إذ نزلَتْ عليه سورةُ المائدةِ كلِّها، وكادَت مِن ثقلِها تَدُقُّ عضدُ النَّاقة(١).

وقيل: هي مدنيَّةٌ إلَّا قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣]؛ فإنَّها نزلَتْ بعرفات عشيَّةَ عرفة(٢).

وهي مئةٌ وعشرون آيةً، وقيل: اثنان وعشرون آية، وقيل: ثلاثٌ وعشرون آية، الاختلافُ في ثلاثِ آيات؛ ﴿أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]، ﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [المائدة: ١٥]، ﴿فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٢٣].

وكلماتها ألفان وثمان مئة وثلاث، وحروفُها أحدَ عشر ألفاً وتسعُ مئةٍ وأحد وخمسون(٣).

وقد روى أبيُّ بن كعب عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «مَن قرأ سورةَ المائدة أُعطيَ من الأجرِ بعددِ كلِّ يهوديٍّ ونصرانيٍّ يَتنفَّسُ في دار الدُّنيا عشرَ حسنات، ومُحيَ عنه عشرُ سيِّئات، ورُفِعَ له عشرُ درجات»(٤).

وانتظامُ هذه السُّورة بالسُّورةِ التي قبلها أنَّ اللهَ تعالى ذكرَ في تلك السُّورة حكمَ

---

(١) أخرجه أحمد (٢٧٥٧٥)، والطبري في «تفسيره» (٨/ ٨٩). قال محققو «مسند أحمد»: حسن لغيره.

(٢) قال القرطبي في «تفسيره» (٧/ ٢٤٣ ـ ٢٤٤): وكل ما نزل من القرآن بعد هجرة النبي ﷺ فهو مدني، سواء نزل بالمدينة أو في سفر من الأسفار، وإنما يرسم بالمكي ما نزل قبل الهجرة.

(٣) في «تفسير الثعلبي» (٤/ ٥): و«ثلاثة وثلاثون» بدل: «وأحد وخمسون».

(٤) رواه الثعلبي في «تفسيره» (١١/ ١٠٩) (طبعة دار التفسير)، والواحدي في «الوسيط» (٢/ ١٤٧)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (٤٧١) من حديث أبي بن كعب، وفيه ذكر فضائل سور القرآن سورةً سورة، وقد فرقها الثعلبي والواحدي على مواضعها في مطالع السور.

قال ابن الجوزي: هذا حديث مصنوع بلا شك. اهـ. انظر تتمة الكلام عنه في آخر سورة النساء.

أموالِ اليتامى، وحكمَ النِّساء، وحكمَ المواريثِ، وحكم المحرَّمات[(١)] والمحلَّلات، وحكمَ السَّكران، والصَّلوات، والأمانات، والقِتال، وقتلَ المؤمن، وصلاةَ الخوف، والسَّرقةَ، والخُلعَ، والصُّلحَ، والشَّهادةَ والحكم، وتحكُّمَ[(٢)] المنافقين وأهل الكتاب، وختمها بقوله: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾؛ أي: هذه الأحكام؛ لئلَّا تضلُّوا أي: لا تخطئوا، وهذه عهودُ الله مع خلقه، وهي أوامرُه ونواهيه، قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾[(٣)] [يس: ٦٠]، وقال: ﴿أَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ [البقرة: ٤٠].

وذكرَ في آخرِ تلك السُّورة نقضَ أهلِ الكتابِ عهودَ الله، وأمرَ في أوَّلِ هذه السُّورةِ المؤمنين بالوفاءِ بهذه العهود؛ مخالفةً لهم.

ونظمٌ آخر: أنَّه حرَّم عليهم بنقضِهم الميثاقَ الطَّيِّبات، وأمرَنا[(٤)] بالوفاء بالعهود، وأخبرَ أنَّه أحلَّ لنا الطيِّبات بقوله: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ وبما بعدَه.

وقوله تعالى: ﴿أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾ ﴿أَوْفُوا۟﴾ أمرٌ، والعقودُ: العهودُ الموثَّقةُ المحكمَة، مِن عَقْدِ الشَّيء بالشَّيء، وهو شدُّه به، والعقودُ ثلاثةٌ: عهودُ الله مع عباده، وهي أوامرُه ونواهيه، وعهودُ العبادِ مع الله تعالى، وهي الأيمانُ والنُّذور، وعهود[(٥)] النَّاس فيما بينهم، وهي العقود الشرعية.

* * *

---

(١) في (أ): «في المحرمات»، وفي (ر): «والمحرمات».

(٢) في (ف): «وحكم».

(٣) قوله: «يَا بَنِي آدَمَ» من (ر).

(٤) في (أ): «وأمر».

(٥) في (أ) و(ر): «وعقود».

(١) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ هذا أمرٌ بالوفاءِ بكلِّ ذلك.

أمَّا **الأول** فهو كقولِه: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ [البقرة: ٤٠].

وأما **الثاني** فهو كقولِه: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ﴾ [النحل: ٩١].

وأما **الثالث** فهو كقولِه: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾، ثمَّ هذا الأمرُ للإيجاب، وهو على وجوه عشرة:

للإلزامِ على الدوام، كقوله: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٣٦].

وللإيجابِ مؤقتاً، كقوله: ﴿أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الأنعام: ٧٢].

وللنَّدب، كقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ﴾ [الإسراء: ٧٩].

وللإباحة، كما في قوله: ﴿وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْ﴾ [المائدة: ٢].

وللتَّكوين، كقوله: ﴿كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة: ٦٥].

وللنَّهي، كقوله: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ [فصلت: ٤٠].

وللردِّ، كقوله: ﴿قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ﴾ [آل عمران: ١٦٨].

وللتخيير، كقوله: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَ﴾ [الإسراء: ١١٠].

وفي معنى الشَّرط كقوله: ﴿قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ٥٠ أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡ﴾ [الإسراء: ٥٠ ـ ٥١]؛ أي: إن كنتم حجارةً أو حديداً، فلكمُ الموت.

وللإعجاز، كقوله: ﴿فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، ﴿فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣].

وقال الإمام القشيري رحمه الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ تشريفٌ، و﴿أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ تكليفٌ، ولمَّا علِمَ أنَّ في التَّكليفِ مشقَّةً، قدَّمَ التَّشريفَ بالثناء على التَّكليف بالأداء، فقال: يا مَن فتحتُ بصائرَهم بشهودِ حقِّي، لا تكونوا كمَن أعرضتُ عنهم مِن خلقي.

والعقدُ: ما ألزمَكَ بسابقِ إيجابِه، ثمَّ وفَّقك بعد ما أظهركَ عند خطابه لجوابِه، فانبرمَ العقدُ بحصولِ الخطاب، والقَبول بالجواب، ويَدخلُ في ذلك ما عَقَدَ القلبُ معه سرًّا بسِرٍّ؛ من خلوصٍ له أضمرَه، ومعنًى كوشِفَ به وطولِبَ به فاستشعرَه[1].

ثمَّ مِن هذه العقود ما ذكرَهُ مِن بعدُ، **وهو قولُه تعالى**: ﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ فمِن الوفاءِ بالعهدِ تحريمُ ما حرَّمَهُ، وإحلالُ ما أحلَّه، والبهيمةُ هي التي لا تَعقلُ؛ من قولهم: استبهمَ الأمرُ عليَّ؛ أي: أشكل، والأنعام هي: الإبلُ والبقرُ والغنم، واحدُها: نَعَم، قال تعالى: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ﴾ [النحل: ٥]، وقال: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗا﴾ الآيات [الأنعام: ١٤٢]، وقد يُطلَق على الإبلِ خاصَّةً.

والبهيمة أضيفت إلى الأنعام، وله وجهان:

أحدهما: أنَّ معناه: البهيمة من الأنعام.

والثاني: أنَّهما واحدٌ، والجمعُ بينهما تأكيدٌ، كما يقال: علمُ اليقين، وحقُّ اليقين، وهو إضافةُ الشَّيء إلى نفسِه، ويدلُّ عليه قوله تعالى في سورة الحج: ﴿وَأُحِلَّتۡ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ [الحج: ٣٠]، كما جَمع بينهما هاهنا، والبهيمةُ على هذا واحدٌ أريد به الجمع، كما في قوله: ﴿ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا﴾ [غافر: ٦٧].

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٣٩٦ ـ ٣٩٧).

ثم هذا إشارةٌ إلى ردِّ قولِ الثَّنويَّة[1] الذين لا يَرونَ ذبحَ الحيوانات وأكلَها، ويقولون: هي بهائمُ لا تَعقلُ، وأكلُها مِن القسوةِ وقلَّة الرَّحمة، فأخبر أنَّ الحكمَ لله، والخلقَ كلَّه لله، وتناولَها بأمر الله.

وقال الشَّعبيُّ: ﴿بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾: ما في بطون الأنعام[2].

وروي عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رضي الله عنه أنَّه قال: سُئِل النَّبيُّ ﷺ عن جنين الناقة، قال: هو من بهيمة الأنعام[3].

وقال الكلبيُّ رحمه الله: ﴿بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾: بقرُ الوحشِ وحُمُر الوحشِ والظَّبيُ[4].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: سوى ما يُقرَأ عليكم؛ أي: في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ﴾ إلى قوله[5]: ﴿عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾، وإطلاقُ هذا يقتضي حِلَّ تلك الأشياء، ولـمَّا استثنى تلك الأشياء بقيَ الحِلُّ فيما وراءها.

وقوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ﴾ نصب على الحال؛ أي: أُحِلَّ لكم[6] هذا في

---

(١) هم أصحاب الاثنين الأزليين، يزعمون أن النور والظلمة أزليان قديمان. انظر: «الملل والنحل» للشهرستاني (٢/ ٤٩).

(٢) ذكر الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٧) عن الشعبي أنه قال: بهيمة الأنعام: الأجنة التي توجد ميتةً في بطن أمهاتها إذا ذبحت.

(٣) لم أقف عليه بهذا اللفظ، وأخرج أبو داود في «سننه» (٢٨٢٧) عن أبي سعيد، قال: سألت رسول الله ﷺ عن الجنين، فقال: «كلوه إن شئتم» قال: قلنا: يا رسول الله، ننحر الناقة ونذبح البقرة أو الشاة، في بطنها الجنين، أنلقيه أم نأكله؟ فقال: «كلوه إن شئتم، فإن ذكاته ذكاة أمه».

(٤) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ٧).

(٥) بعدها في (ر): «وَمَا ذُبِحَ».

(٦) في (ف): «لهم».

غير إحلالِكم الصيد وأنتم محرمون؛ أي: في حالِ ما لا تستحِلُّون ذلك بالاصطياد في الحَرم أو الإحرام.

وقيل: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ﴾ يَرجعُ إلى اسم الله تعالى؛ أي: أحللنا لكم الأنعامَ غيرَ محلِّين لكم اصطيادَها في الحَرم أو الإحرام(١).

وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ الواو للحال والحُرم جمع حرام، ويجوزُ أن يكون هو اسماً للواحد والجَمع، كالجُنُب يُسمَّى به الواحدُ والجمع، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟﴾ [المائدة: ٦]، والحُرُم والمحرمُ واحد، وقد أحرمَ؛ أي: دخل في الحَرَم، وأحرمَ أي: عقدَ الإحرامَ للحجِّ أو العمرة، وتحريمُ الاصطيادِ ثابتٌ في حقِّهما جميعاً، وتقديرُه: أحِلُّوا بهيمةَ الأنعام غيرَ محلِّين لها في الإحرام إذا كان صيداً، والأنعام يتناولُها؛ لأنَّ البقرَ الوحشيَّةَ منها، والظِّباءُ كالعنوز.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ مِن التَّحريم والتَّحليل للصيد(٢).

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: وهذا يردُّ على المعتزلة؛ لأنَّهم يقولون: يريدُ اللهُ طاعةَ كلِّ أحدٍ، ولو أرادَ ذلك لحكم به، إذ أخبرَ أنَّه يَحكُمُ ما يُريد، ولا جائزٌ أنْ يُريدَ ولا يَحكم، ولو حكمَ لنفذَ حكمُه، فدلَّ أنَّه لم يُرِد(٣).

* * *

(٢) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ

---

(١) في (ر) و(ف): «والإحرام».

(٢) تحرف في (أ) و(ر) إلى: «للعبيد».

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٣/ ٤٣٨).

قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ الشَّعائرُ: معالمُ الدِّين، واحدتُها شعيرةٌ، والإشعارُ: الإعلامُ، والشِّعرُ العلم، ومعناه هاهنا ما قال ابنُ عباس: أي: لا تَستحِلُّوا شيئاً مِن تركِ المناسك[١]؛ مِن الطَّوافِ بالبيت، والسَّعيِ بين الصَّفا والمروة، ومسحِ[٢] الرُّكن، والوقوفِ بعرفات والمزدلفة، ورميِ الجمار؛ لأنَّ عامَّةَ العرب كانوا لا يَرون الصَّفا والمروة مِن شعائر الله، كما بيَّنَّا في تلك الآية، والحُمْس[٣] كانوا لا يَرون[٤] الوقوفَ بعرفات منها.

وقيل: أي: لا تَصيدوا وأنتم حرم، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨]، وقال: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ [الحج: ٣٢]، وقال: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ هو اسمُ جنسٍ، فيَقعُ على الأربعةِ الأشهرِ الحُرُم كلِّها، وهي: رجبٌ وذو القَعدة وذو الحِجَّة والمحرَّم؛ أي: لا تَستَحِلُّوا[٥] هذه الشهور، ولا تتعرَّضوا بقتلٍ ولا قتالٍ أحداً فيها.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلْهَدْىَ﴾ هو ما يُهدَى إلى الكعبةِ مِن الإبلِ والبقرِ والغنم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ وهي الإبلُ تُقلَّدُ بلحاءِ شجرٍ أو عُروةِ مزادةٍ

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٨/ ٢٢).

(٢) في (ف): «ومس».

(٣) وقع في هامش (ف) ما نصه: «حاشية: سميت قريشاً حمساً لتشددهم ديناً ودنيا».

(٤) بعدها في (ف): «ذلك».

(٥) بعدها في (أ): «في».

ونحوها، وتُوجَّهُ إلى الحَرَم؛ أي: لا تَستحِلُّوا هذهِ الأشياءَ، فلا تتعرَّضوا لأهلها بسوء(١).

وقوله تعالى: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ﴾؛ أي: ولا تَستحِلُّوا القاصدينَ ﴿ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾؛ أي: الكعبةَ المحرَّمة المحترمة(٢)، وقد أَمَّ يَؤمُّ أمًّا(٣)؛ أي: قصدَ، و﴿ءَآمِّينَ﴾ نصب بـ ﴿لَا تُحِلُّوا۟﴾، و﴿ٱلْبَيْتَ﴾ نصب بوقوعِ الأَمِّ عليها.

وقوله تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾ صفةٌ للآمين؛ أي: يَطلبون فضولَ الأموالِ بالتِّجارات، ويَطلبون رِضوان الله عنهم، والعفوَ عن الجنايات؛ أي: يَقصدونَ البيت لإصلاحِ أسبابِ المعاشِ والمعاد، وإن كان هذا بحقِّ(٤) الآمِّين المؤمنين، فابتغاءُ رضوانِ الله منهم(٥) ظاهر، وإن كان في حقِّ الكفار، فمعناه(٦) أنَّهم يزعُمون أنَّهم يَبتغون رضا اللهِ عنهم(٧)، لكنَّهم لا يَنالونه إلَّا بعد الإيمان.

وقيل: هو ترضِّيهم اللهَ تعالى بتأخيرِ العذاب عنهم، وألَّا يعاجِلَهُم كما عاجلَ المكذِّبين من الماضين، كذلك قال قتادةُ(٨) وجماعةٌ.

وأصلُ ذلك أنَّ اللهَ تعالى عظَّمَ مكَّة وحرَّمَها، وجعلَ النَّاسَ يأتونها من الآفاق،

---

(١) في (ف): «لها» بدل: «لأهلها بسوء».

(٢) لفظ: «المحترمة» ليس في (أ).

(٣) لفظ: «أمًّا» ليس في (أ).

(٤) في (أ): «في حق» بدل: «بحق».

(٥) في (أ): «عنهم».

(٦) بعدها في (ف): «في حق».

(٧) لفظ: «عنهم» ليس في (أ).

(٨) رواه عنه الطبري في «تفسيره» (٨/ ٤١).

والحامِلُ على الإتيان من أقاصي البُلدان شيئانِ اثنان؛ أمنُ المقصِدِ، وأمنُ الطَّريق إليه، واللهُ تعالى أثبتَهما جميعاً في القديم، فقال: ﴿حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾(١) [العنكبوت: ٦٧]، وقال: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، وأثبتَ أمنَ الطَّريق(٢) بتحريمِ الأشهر الحرم الأربعة، وهي: ذو القَعدة لإتيانِهم، وذو الحِجَّة لإقامَتِهم بمكَّة، والمحرَّمُ لرجوعهم، ورجبٌ للسَّفر في غير أيَّام الحجِّ، فكانوا(٣) إذا خرجوا إليها لا يتعرض لهم في هذه الأشهرِ الحُرُمِ بتحريمِ الله تعالى ذلك، فكانوا يأمنون على أنفسِهم وأموالِهم بذلك، ولـمَّا كان قد يَبعُدُ الطَّريق، فلا يكفي للإتيان والرُّجوع هذه الأشهر، شرعَ اللهُ تعالى الهديَ والقلائدَ، فكانوا إذا ساقوا ذلك مع أنفسِهم، وقد خرجوا في غيرِ هذه الأشهر، لا يُتعرَّض لهم أيضاً بنهبٍ أو قتلٍ أو إيذاء، فيأمنون بذلك، وكانت الحكمةُ في ذلك كلِّه إقامةَ مصالحِ أهلِ مكَّة وقوام عيشِهم بحملِ النَّاسِ إليهم كلَّ شيءٍ يَحتاجون إليه، قال الله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ [المائدة: ٩٧].

وكان هذا أمراً قديماً، ومعنى تجديدِ الخطاب بذلك ما رُويَ في شأن نزولِ هذه الآية عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما أنَّه قال: نزلت في الحُطم، واسمه: شريحُ بنُ ضُبيعَة بن شرحبيل البكري، وذلك أنَّه أتى المدينةَ، ودخلَ على النبيِّ ﷺ، فقال: إلامَ تدعو النَّاس؟ فقال: «إلى شهادة أنْ لا إله إلا الله، وإقامِ الصَّلاةِ، وإيتاءِ الزَّكاة»، فقال: حسنٌ، ألا إنَّ لي أصحاباً لا أقطعُ أمري دونَهم، ثمَّ خرجَ فقال النَّبيُّ ﷺ: «لقد دخلَ بوجه كافرٍ، وخرج بعَقِبَي غادر، وما الرَّجلُ بمسلمٍ»، فمرَّ بسَرْحِ المدينة فاستاقَها، وهو يرتجز:

---

(١) بعدها في (أ): «أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون».

(٢) بعدها في (ر): «إليه».

(٣) في (أ): «كانوا».

هــذا أوانُ الشَّــدِّ فاشــتدِّي[١] زِيَــمْ

قــد لفَّــكِ اللَّيــلُ بســوَّاقٍ حُطَــمْ

ليــس براعــي إبِــلٍ ولا غَنَــمْ

ولا بِجــزَّارٍ علــى ظهــرِ وَضَــمْ

فلمَّا كان في العام القابلِ خرجَ في حُجَّاج بكرِ بنِ وائل، فبلغَ ذلك أصحابَ السَّرْح، فقالوا: للنبيِّ ﷺ: هذا الحطمُ خرج حاجًّا في بكر بن وائل، فخلِّ بيننا وبينه، فقال النبيُّ ﷺ: «إنَّه قلَّدَ الهديَ»، فقالوا: يا رسول الله، هذا شيءٌ كنَّا نفعلُه في الجاهليَّةِ، فأبى النبيُّ ﷺ عليهم، ونزلت[٢] الآيةُ[٣].

وكان حكــمُ هــذه الآيــة ثابتاً إلــى[٤] عــام حجَّــة الصِّدِّيق، ونــزولِ ســورة براءة، وكان فيهــا: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التوبة: ٢٨]، وفيهــا: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾، فنُسِخَ حكــمُ الهــديِ والقلائــد والشــهرِ الحــرام والإحــرام وأمنهــم بهــا بــدون الإســلام.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾؛ أي: وإذا خرجتُم من الحَرم أوالإحرام[٥]، فقد زالَ حظرُ الاصطيادِ، وأُبيحَ الاصطياد.

---

(١) في (أ): «الصد فاستدي» بدل: «الشد فاشتدي».

(٢) بعدها في (ف): «هذه».

(٣) ذكر الواحدي الخبر في «أسباب النزول» (ص: ١٨١) عن ابن عباس دون ذكر الأبيات، وأورده الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٨) دون نسبة، وأخرج الطبري نحوه في «تفسيره» (٨/ ٣١ ـ ٣٣) عن السدي.

(٤) في (أ): «في».

(٥) في (ر) و(ف): «والإحرام».

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ﴾ قرأ ابنُ عامر وعاصمٌ في رواية أبي بكر: ﴿شنْآن﴾ بسكون النُّون[١]، والباقون بفتحِها، وهما لغتان عند بعضِهم، وتفسيرُه: العداوةُ، وقد شَنِئ مِن حدِّ: علم، فهو شانِئ، قال تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣].

وقيل: بالفتح مصدرٌ، وهو العداوة والبُغض، وبالسُّكون النَّعت؛ أي: البغيض.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ وقتادة وجماعةٌ مِن أهل اللُّغة: ولا يَحملنَّكم[٢].

وقال الفراء: لا يكسبنَّكم، وقد جرَمَ جُرماً؛ أي: كسبَ، وفلانٌ جَرِيمةُ أهله؛ أي: كاسِبُهم[٣].

وقوله تعالى: ﴿أَن صَدُّوكُمْ﴾ قرأ ابنُ كثير وأبو عمرو: ﴿إِنْ صَدُّوكُمْ﴾ بالكسر على الشرط، والباقون بالفتح[٤] على معنى: بأن صدُّوكم، أو: لأنْ صدُّوكم، وهو الأصح؛ لأنَّ الشرطَ للاستقبال، وهذا كان ثابتاً للحال.

وقوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ﴾؛ أي: لا يحملنَّكُم صدُّ الكفَّارِ إيَّاكم عن دخولِ مكَّة للعمرةِ عام الحديبية، وبغضُهم، أو[٥] البغيضُ منهم، على أنْ

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٢٤٢)، و«التيسير» (ص: ٩٨). وتحرف في «التيسير»: «أبو بكر» إلى: «أبو عمرو»!

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٨/ ٤٤) عن ابن عباس وقتادة.

(٣) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٢٩٩).

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٢٤٢)، و«التيسير» (ص: ٩٨).

(٥) في (أ): «أي».

تَعتدوا أنتم حدَّ الشَّرعِ، فتَمنعوا هؤلاء عن المسجدِ الحرام، فلا قدوةَ في الباطل.

وقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾؛ أي: على فعلِ الإحسان وتركِ العِصيان.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾؛ أي: ولا تتعاونوا، حُذِفت إحدى التَّاءين تخفيفاً. والإثمُ: الوزر، والعُدوانُ: مجاوزةُ الحدِّ.

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾؛ أي: لمن عصاهُ وما اتَّقاه.

وقال الإمام القشيريُّ رحمَهُ الله: البِرُّ: إيثارُ حقِّه، والتَّقوى: تركُ حظِّكَ، والمعاونةُ على البرِّ بحُسن النَّصيحةِ، وجميلِ الإشارةِ، والمعاونةُ على التَّقوى بقبض أيدي الخطَّائين، وإبلاغُ الموعظةِ وتمامُ المعاونةِ باتِّصافكَ بحميدِ الخصالِ، على الوجهِ الذي يُقتدَى بك، والمعاونةُ على الإثمِ والعُدوان أنْ تعملَ شيئاً يُقتدى بك بما لا يَرضاهُ الدِّين، فيكونُ فعلُك سبباً لفسادِ غيرِك من الموحِّدين.

وقال في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾: هو ما يَعقُبُ الجُرْمَ ممَّا يَسوءُ صاحبَهُ، وشِدَّةُ العقاب: حجابُ المعاقَبِ عن شهودِ المعاقِب، فإنَّ تَجرُّعَ كاساتِ البلاء على شهودِ المُبلِي أحلى مِن الشَّهد[1].

* * *

(٣) ـ ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٣٩٨ ـ ٣٩٩).

لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾؛ أي: الذي يموتُ بلا زكاة، ﴿وَٱلدَّمُ﴾؛ أي: المسفوحُ وهو السَّائلُ، ﴿وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾؛ أي: كلُّ أجزائِه، وتَخصيصُ اللَّحمِ بالذِّكر لما أنَّه معظَمُ المقصود، وقد قال في سورةٍ أخرى: ﴿فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥]، والكناية تَرجِعُ إلى الخنزير، فدلَّ على أنَّ[1] كلَّه نجسُ العين.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾؛ أي: وما ذُبِحَ فذُكِرَ عليه غير[2] اسم الله، أو[3]: اسم الأصنام.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ﴾ أي: ما اختنقَ بالشَّبكةِ أو بحبلٍ، أو خنقَهُ خانقٌ.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَوْقُوذَةُ﴾ أي: المضروبةُ بالخشب[4]، وقد وقذه، مِن حدِّ ضربَ؛ أي: ضربَهُ حتَّى ماتَ، وفلانٌ موقوذٌ بالعبادة[5] ووقيذٌ[6]؛ أي: قد كسرته وأوهنته[7].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ﴾؛ أي: السَّاقطةُ في بئرٍ أو ماءٍ، أو مِن علوٍّ، وقد ردَّاه فتردَّى؛ أي: أسقطَهُ فسقطَ.

---

(١) في (ف): «أنه».

(٢) في (ف): «هو ما ذبح فلم يذكر عليه» بدل من «أي وما ذبح فذكر عليه غير».

(٣) في (ر) و(ف): «أي».

(٤) لفظ: «بالخشب» ليس في (أ).

(٥) في (أ): «بالعياذة». والمثبت هو الصواب، انظر: «تفسير غريب القرآن» لابن قتيبة (ص: ١٤٠).

(٦) من قوله: «من حد ضرب» إلى هنا ليس في (ف).

(٧) في (أ): «وأرهنته».

وقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّطِيحَةُ﴾؛ أي: المنطوحةُ، وقد نطَحَتْهُ الشَّاةُ بقرنِها؛ أي: ضربَتهُ فقتلَتهُ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾؛ أي: ما جرحَهُ أسدٌ، أو ذئبٌ، أو ضبُعٌ، أو نحو ذلك، أو أكلَ شيئاً منه، وماتَ بجرحه، ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ يرجعُ الاستثناءُ إلى قوله: ﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ﴾ وما بعدَها، إذا أدركَها وبها حياةٌ، فذبحَها، وسمَّى عليها، حلَّت.

وسُئِل الشعبي عن رجلٍ انتهى إلى شاةٍ وقد[١] خرجَ من عامَّتها الرُّوح، إلَّا أنَّ عضواً منها يتحرَّك، فذبحَها، أتؤكل؟ قال: نعم، كما لو انتهيتَ[٢] إلى مجروحٍ خرجَ مِن عامَّةِ جسدِه الرُّوح، فقتلتَهُ[٣] خطأً، فعليك[٤] ديتُه.

وقال عليٌّ رضي الله عنه: إذا طَرَفَت بعينِها، أو ركَضَت برجلِها، أو حرَّكتْ ذنبَها، فهي ذكيَّةٌ[٥].

والتَّأنيثُ في هذه الأسماء لجعلِها صفاتٍ[٦] للبهيمة المذكورة في أوَّل السُّورة، وهي مؤنَّثة اللَّفظ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾؛ أي: على اسم الأصنام.

وقيل: أي: للأصنام ﴿عَلَى﴾ بمعنى اللَّام، و﴿ٱلنُّصُبِ﴾ ما نُصِبَ مِن

---

(١) في (أ): «قد» بدل: «وقد».

(٢) في (ر): «انتهى».

(٣) في (ر): «فقتله».

(٤) في (ر): «فعليه».

(٥) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٨٦٣٤)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٩٨٤٨)، والطبري في «تفسيره» (٨/ ٦٤ ـ ٦٥).

(٦) في (أ): «صفة».

الحجارة ونحوها، فعُبِدَ مِن دون الله، و﴿ٱلنُّصُبِ﴾[١] واحدٌ، وجمعُه: الأنصاب، كالعُنق والأعناق.

وقيل: هو جمعُ نَصْب، كالرَّهْن والرُّهُن، والسَّقْف والسُّقُف، قال الله تعالى: ﴿إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾[٢] [المعارج: ٤٣].

وقوله تعالى: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾ «أن» مع الفعل مصدر، تقديره: والاستقسامُ بالأزلام؛ بالرَّفع عطفاً على المحرَّمات المذكورة في الآية، والأزلام: القِداحُ المعلَّمةُ، واحدُها زُلَم وزَلَم؛ بضمِّ الزَّاي وفتحها.

وقال الحسن: كانوا إذا أرادوا أمْراً أو سفَراً، يَعمِدون إلى قداحٍ ثلاثة، على واحدٍ منها مكتوبٌ[٣]: أمرَني ربِّي، وعلى واحدٍ منها[٤]: نهاني ربي، والثالثُ غُفْلٌ لا شيءَ عليه، فيُجيلونها، فإذا خرجَ الذي عليه الأمرُ، مضوا[٥] لأمرهم، وإن خرجَ الذي عليه النَّهيُ، كَفُّوا، وإن خرجَ الذي ليس عليه شيءٌ أعادوه[٦].

وقال سعيدُ بنُ جُبير: هي حصىً بيضٌ كانوا يَضربونَها[٧].

وقال السُّدِّيُّ: كانت القداحُ في الجاهليَّةِ عند الكعبة[٨]، فكان الرَّجلُ إذا أراد

---

(١) لفظ: «والنصب» من (ف).

(٢) قراءة حفص وابن عامر بضم النون والصاد، وقرأ الباقون بفتح النون وإسكان الصاد. انظر: «التيسير» (ص: ٢١٤).

(٣) في (ف): «يكتبون».

(٤) بعدها في (ر): «مكتوب».

(٥) بعدها في (ف): «فيه».

(٦) رواه الطبري في «تفسيره» (٨/ ٧٣).

(٧) رواه الطبري في «تفسيره» (٨/ ٧٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١١٩٨) (٦٧٥٦).

(٨) كذا تحرف على المصنف، وصوابها كما في «تفسير الطبري»: «الكهنة».

شـيئاً، أتـى الكاهـن، فأعطاهُ ذلك، فضَـربَ بها كما ضـربَ عبدُ المطَّلـب على زمزم وعلى عبـد الله والإبل[١].

ومعنى ضمِّ هذا إلى ما ذُبحَ على الأصنام أنَّ ذلك كان في الكعبةِ، وكان هذا أيضاً فيها، والاستقسامُ بها طلبُ القَسْم؛ أي: الحظِّ والنَّصيب مِن الأمرِ مِن جهتِها.

وقيل: الاستقسامُ بالأزلام هو القمارُ بقِداحِ الـمَيسِر.

وقال مجاهدٌ: هو كلُّ قمارٍ من اللَّعب بالكِعاب وغيرها[٢].

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌ﴾ أي: الاستقسام بالأزلامِ خروجٌ عن الطَّاعة، وارتكابٌ للنَّهي.

وقيل: يرجع ذلك إلى تناولِ كلِّ محرَّمٍ في هذه الآية.

وقال الإمام أبو منصور: دلَّت الآيةُ على بطلانِ العمل بالقُرعة[٣].

وقولـه تعالـى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ﴾ وهـذا حـثٌّ لهـم[٤] علـى التمسُّـكِ بما بيَّـنَ لهم؛ مِن الوفاءِ بالعُقود، وتحليل المحلَّـلاتِ، وتحريمِ المحرَّمات، خلافـاً لمـا كان عليـه المشـركون، يقـول: أعطيتُكم الغلبـةَ عليهـم، وقَهَرْتُهـم[٥]، فلا مطمـعَ لهـم فـي تغييركم عـن دينِكم.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِ﴾؛ أي: فلا تخافوهم وخافونِ في الثَّباتِ على أمري ونهيي والوفاءِ بعقودي.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٨/ ٧٥ ـ ٧٦).

(٢) رواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (٨/ ٧٤).

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٣/ ٤٥٤).

(٤) في (أ): «لكم».

(٥) في (ف): «وقهرتموهم».

وقوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾؛ أي: بيانَ شرائعِ دينكم؛ لأنَّ الآيةَ نزلت بعرفات عامَ حجَّةِ الوداع، ولم يكن بعدَها شرعُ حكمٍ؛ قاله ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما[١].

وقيل: أي: أكملتُ لكم نصرةَ دينكم؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ حجَّ مع أصحابِه، ولم يكن أحدٌ مِن المشركين جاء في ذلك العام للمنع.

وقوله تعالى: ﴿وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾؛ قيل[٢]: بالإسلام، قال تعالى: ﴿فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقيل: هي جميعُ النِّعم؛ فإنَّها جنسٌ، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [النحل: ١٨]، وهو إنجازُ[٣] ما كان وعد: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة: ١٥٠].

قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: كان إتمامُ النِّعمةِ عليهم أنْ دخلوا مكَّةَ آمنِين، وحجُّوا[٤] مطمئنين، ولم يخالطهُم أحدٌ مِن المشركين[٥].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: لا يجوزُ أنْ يُقال: إنَّ الدِّين كان قبل ذلك اليوم ناقصاً أو غيرَ مرضي، لكن له وجوه:

أحدها: اليوم أكملتُ برسولِ الله وبعثِه دينكُم، وبه أتممتُ عليكم نِعمَتي، ولا يكونُ اليومُ إشارةً إلى يومٍ بعينِه، بل إلى ذلك الزَّمان.

والثاني: أظهرتُ لكم دينكم وجعلتُ الغلبةَ لكم على المشركين.

---

(١) روى نحوه الطبري في «تفسيره» (٨/ ٨٠).

(٢) في (ر): «أي» بدل: «قيل».

(٣) في (أ) و(ف): «إيجاز».

(٤) قوله: «وحجوا» من (أ).

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (٨/ ٨٣).

والثالث: أمَّنتكُم مِن العدوِّ والعودِ إلى دين أولئك، وآيستُهم عن عودِكم[١] إلى دينهم[٢].

ثمَّ ذكر في حقِّ الدِّينِ الإكمالَ، وفي حقِّ النِّعمةِ الإتمامَ؛ لأنَّ الكاملَ ما لا يَحتمِلُ المزيدَ عليه، والتامَّ يَحتمِلُه.

وقوله تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ فالإسلامُ هو الدِّينُ المرضيُّ، وهو دينُ الله، وهو الذي لا يقبلُ غيره.

وقالوا: إكمالُ الدِّين في حقِّنا من وجوه: لنا جوامعُ الكَلِم[٣]، وأُعطِيَ رسولُنا جميعَ[٤] ما أعطى الرُّسل، وزيدَ له[٥] ما لم يكن لهم[٦]، وآمنَّا نحن بجميعِ الكُتب والرُّسل، وشريعتُنا باقيةٌ إلى يوم الدِّين[٧] لا تُنسَخ، وأضْعَفَ لنا ثوابَ الحسنات، ووَعَد لنا تبديلَ السيِّئات، ولنا طرفا الدَّارين؛ نحن الآخرون في الدُّنيا، السَّابقون

---

(١) في (ف): «من دعائكم» وفي هامشها: «نسخة: عن عودكم».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٣/ ٤٥٥).

(٣) خبر إيتاء النبي ﷺ جوامع الكلم رواه البخاري في «صحيحه» (٢٩٧٧) (٧٢٧٣)، ومسلم في «صحيحه» (٥٢٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) لفظ: «جميع» ليس في (ف).

(٥) في (أ): «عليه».

(٦) روى البخاري في «صحيحه» (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١) عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «أعطيت خمساً لم يُعطهنَّ أحدٌ قبلي؛ نُصِرتُ بالرُّعب مسيرةَ شهر، وجُعِلَت لي الأرضُ مسجداً وطَهوراً، فأيُّما رجلٍ مِن أمَّتي أدركته الصلاةُ فليصلِّ، وأُحلَّت لي المغانم، ولم تَحِلَّ لأحدٍ قبلي، وأُعطيتُ الشَّفاعة، وكان النبيُّ يُبعَثُ إلى قومه خاصَّةً، وبُعِثت إلى الناسِ عامَّةً».

(٧) في (ر): «القيامة».

في العقبى[١]، وكتابُنا أيسرُ الكتبُ، ورسولُنا أفضلُ الرُّسل، ونحن أكثرُ الأُمم عدداً، وأسبقهم[٢] مورداً.

وقال الضَّحَّاك: نزلَت هذه الآيةُ يومَ عرفة، وهو يومُ الجمعة.

وكان ذلك اليومُ عيداً لليهود وللنَّصارى وللمجوس على حسابهم، ولم تجتمع أعيادُ أهل المللِ كلِّها في يومٍ واحدٍ لا قبله ولا بعده، قاله ابنُ عباس رضي الله عنهما[٣].

ولـمَّا نَزلت كان رسولُ الله ﷺ على ناقتِه العضباء، فبركَتْ مِن ثقلِ الوحي، ثمَّ سُرِّيَ عنه، فتلاها على النَّاس، وعاش ﷺ بعده أحداً وثمانين يوماً، أو اثنين وثمانين.

وقالت اليهود لعمرَ: لقد أُنزلت عليكم آيةٌ لو أُنزِلَتْ علينا لاتَّخذنا ذلك اليوم عيداً، فقال عمر رضي الله عنه: أشهد أنَّها أنزِلَت يوم عرفة يوم الجمعة[٤]؛ أي: اجتمعَ فيه عيدان، وهو أشرفُ أيَّامِ أهلِ[٥] الإسلام، وأحقُّها بالإعظام.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: إكمالُ الدِّين تحقيقُ القَبول في المآل، كما أنَّ ابتداءَ الدِّين توفيقُ[٦] الحصولِ في الحال، ولولا توفيقُه لم يكن للدِّين حصولٌ،

---

(١) روى البخاري في «صحيحه» (٨٧٦) ومسلم في «صحيحه» (٨٥٥) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة».

(٢) في (ف): «وأقومهم».

(٣) انظر: «تفسير البغوي» (٣/ ١٣).

(٤) رواه البخاري في «صحيحه» (٤٥)، ومسلم في «صحيحه» (٣٠١٧).

(٥) في (ف): «الأيام لأهل» بدل من «أيام أهل».

(٦) في (أ): «بتوفيق».

ولولا تحقيقُه لم يكن للدِّينِ قَبول، وقوله تعالى: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ النِّعمة في الحقيقةِ ما لا يَقطعُك عن المنعم، بل يُوصِلُك إليه(١).

ثمَّ الدِّينُ مضافٌ إلى العبد في هذه الآية؛ لأنَّه سالكٌ(٢) طريقتَهُ، ويُضافُ إلى الله؛ لأنَّه شارعٌ حقيقتَهُ، والنِّعمةُ مضافةٌ إلى الله في هذه الآيةِ؛ لأنَّه مُعطيها، وتُضافُ إلى العبد أيضاً؛ لأنَّه المتقلِّبُ فيها.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ﴾؛ أي: أصابَتْهُ الضَّرورةُ والحاجةُ إلى شيءٍ مِن هذه المحرَّمات في مجاعةٍ، فتناوله(٣)، هذا مضمرٌ.

وقوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾؛ أي: غيرَ متمايلٍ إليه قصداً، أو متناولٍ منه إسرافاً، أو مُدَّخر منه اختياراً.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾؛ أي: يَغفرُ له فلا يعاقبُه، ويَرحمُه فلا يُعذِّبُه.

والخمص: ضمورُ البطن، مِن حَدِّ: شَرُف، وعند الجوع يَضمرُ البطنُ، قال الأعشى:

تَبيتونَ في المشتى مِلاءً بطونُكم وجاراتُكُمْ غَرثى يَبِتن خمائِصَا(٤)

ويتَّصِل هذا بأوَّل(٥) الآيةِ؛ فإنَّه استثنى حالةَ الضَّرورةِ عن حُرمةِ هذه الأشياءِ المذكورة.

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٤٠١).

(٢) في (ر): «سلك».

(٣) في (أ): «فناوله»، وفي (ف): «فيتناوله».

(٤) انظر: «ديوان الأعشى» (ص٣٦٦) ـ طبعة الرضواني.

(٥) في (ف): «بهذا أول» بدل: «هذا بأول».

(٤) ـ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ قال مقاتل: نزلَت الآيةُ في عَدِيِّ بنِ حاتم الطَّائيِّ وزيد بن مُهَلهل الطَّائيِّ، ويقال له: زيدُ الخيل، وسمَّاهُ النَّبيُّ ﷺ زيدَ الخير[١]، قالا للنبيِّ ﷺ: إنَّ كلابَ آل ذُريح يأخذون البقرَ والحُمُر والظِّباء، فمنها ما يُقتَل، ومنها ما يُدرَك ذكاتُه، وقد حرَّمَ الله[٢] الميتةَ، فنزلَت الآيةُ: ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾؛ أي: الذبائح[٣].

وقيل: أي: الحلالاتُ المذكورةُ في أوَّلِ هذه السُّورةِ وغيرها.

وقيل: أي: المستطاباتُ مِن الحبوب واللُّحمان التي لم يَرِد تحريمُها.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ﴾؛ أي: وصيدُ ما علَّمتم، هذا مضمرٌ.

والجوارحُ: الكواسبُ للصَّيدِ مِن الكلابِ والفهودِ والبُزاةِ والصُّقور ونحوها، وقد جَرحَ واجترحَ؛ أي: اكتسبَ، قال اللهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الجاثية: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠]، وجوارحُ الإنسان هي آلاتُ الاكتساب.

---

(١) خبر تسمية النبي ﷺ له بزيد الخير رواه الطبراني في «الكبير» (١٠٤٦٤)، وابن عدي في «الكامل» (٢/ ١٨٤ ـ ١٨٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٧٦)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه. قال ابن عدي: هذا حديث منكر، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٩٤): فيه عون ابن عمارة وهو ضعيف.

(٢) بعدها في (ر): «علينا».

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٤٥٤).

وقيل: هي مِن الجِراحة[١]، وهي جوارحُ الصُّيود، ويُشترَطُ لحلِّها الجَرْحُ، فلا تَحِلُّ بالخَنق.

وقوله تعالى: ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ نصب على الحال؛ أي: مُضَرِّينَ لها حتَّى تَستكْلِبَ[٢] وتَضْرى بالصَّيد، فتعتادَ أخذَه، وقد استكلبَ العدوُّ وتَكلَّب، أي: اشتدَّ وضَرِي وكلَّبَهُ غيرُه.

وقوله تعالى: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: الجوارح، وتعليمُها أنْ تَنزجرَ بزجرِك، وتَمضي لإرسالِك، ولا تعدلَ عن سَنَنِ إرسالِك، وتَقتلَ الصَّيدَ جَرْحاً، لا خنْقاً، وتمتنعَ بمنعك، ولا تأكلَ مِن الصَّيدِ.

وقوله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ﴾؛ أي: ممَّا[٣] لم يأكلن، فإذا أكلْنَ، حرم، وهذا في صيدِ الكلبِ ونحوِه، فأمَّا صيدُ البازي ونحوِه، فأكلُه لا يُحرِّمُه، ويُعرَفُ هذا في الفقهيات.

وقوله تعالى: ﴿مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ﴾ قيل: «من» زائدةٌ، كما في قوله: ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ﴾ [الأنعام: ١٤١].

وقيل: هو للتبعيض؛ فإنَّ منها ما يُؤكَل، وهو اللُّحومُ والشُّحوم، ومنها ما لا يُؤكَل، كالدَّم والريشِ والعظم.

وقيل: التبعيضُ في أنَّ المجروحَ منها يُؤكل دون المخنوق.

وقوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾؛ أي: عند الإرسال، وهو شرطُ الحِلّ.

---

(١) في (ر): «الجوارح الجارحة» بدل: «الجراحة».

(٢) في (أ): «تسلب».

(٣) لفظ: «مما» من (ف).

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾؛ أي: واحذروا مخالفةَ أمرِ الله في هذا كلِّه وفي غيره، إنَّ الله محاسبُكم على أفعالِكم، ومجازيكم[1] عليها، ولا يلحقُه فيه لبثٌ لتذكُّرٍ ولا قطعٌ بشغْلٍ.

وقال أبو رافع[2]: استأذن جبريلُ على النبيِّ ﷺ، فأذن له، فلم يَدخل، فأخذَ النبيُّ ﷺ رداءَه وخرجَ، فرآه[3] فقال: «أذنَّا لك[4]»، فقال: أجل، ولكنَّا معشرَ الملائكة لا ندخلُ بيتاً فيه كلبٌ أو صورةٌ، فالتمَسوا، فوجدوا جرواً قد دخل بيتهم، فلمَّا أصبحنا أمَرني رسولُ الله ﷺ بقتلِ الكلاب، فقتلتُ كلابَ المدينة، فقالوا: يا رسولَ الله، ماذا يحلُّ لنا مِن هذه الأُمَّة التي نقتلُها؟ فسكتَ النَّبيُّ ﷺ، فأنزل اللهُ تعالى هذه الآية[5].

فأذِنَ لهم النبيُّ ﷺ باقتناءِ الكلاب التي يُنتفَع بها، وأمَرَ بقتلِ الكلبِ العَقور، وقال: «أيُّما قومٍ اتَّخذوا كلباً، ليس بكلب حرثٍ أو صيدٍ أو ماشية؛ فإنَّه يَنقصُ مِن أجورِهم كلَّ يومٍ قيراط»[6]. وفي رواية: «قيراطان»[7].

---

(١) في (ف): «يحاسبكم... ويجازيكم».

(٢) في (ف): «أبو بكر بن رافع» بدل: «أبو رافع».

(٣) لفظ: «فرآه» ليس في (ف).

(٤) في (ر): «آذناك».

(٥) رواه ابن أبي شيبة (١٩٩١٩) مختصراً، والطبري في «تفسيره» (٨/ ١٠٠ ـ ١٠١)، والطبراني في «الكبير» (٩٧٢) من طريق موسى بن عبيدة عن أبان بن صالح عن القعقاع بن حكيم عن سلمى أم رافع عن أبي رافع به. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/ ٤٢ ـ ٤٣): فيه موسى بن عبيدة الربذي، وهو ضعيف. اهـ. ولم يتفرد به موسى بن عبيدة، بل تابعه محمد بن إسحاق، فرواه من طريقه الحاكم في «المستدرك» (٣٢١٢)، والبيهقي في «الكبرى» (١٨٨٦٦) دون ذكر قصة جبريل عليه السلام.

(٦) رواه النسائي في «المجتبى» (٤٢٨٠) من حديث عبد الله بن مغفل رضي الله عنه، ورواه مسلم في «صحيحه» (١٥٧٥): (٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بألفاظ قريبة.

(٧) رواها ابن ماجه في «سننه» (٣٢٠٥) من حديث ابن مغفل، ورواها مسلم في «صحيحه» (١٥٧٥) =

وقيل لابن المبارك: ولم ذاك؟ قال: لأنَّه يَنبحُ على الضَّيفِ، ويُروِّعُ السَّائِل[١].

ودلَّتِ الآيةُ على فضلِ العلم؛ فإن الكلبَ الخسيس بالتعلم جلَّ قدرُه، وحلَّ صيدُه، وفيه عِظَةٌ، وهو أنَّه بتركِ علمِه والأكلِ من صيدِه يُحكَمُ بجهلِه وزوالِ علمه، فلا يَحِلُّ صيدُه، فكذا مَن علم من النَّاس، فخالفَ عِلْمَهُ، وقد سمَّى اللهُ تعالى مخالفَ علمِهِ جاهلاً، قال تعالى خبراً عن يوسف عليه السلام: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣]، وقال: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾ [يوسف: ٨٩].

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: لـمَّا كان الكلبُ المعلَّمُ تركَ حظَّهُ، وأمسكَ ما اصطادَهُ على صاحبِهِ، حلَّت فريستُه، وجازَ اقتناؤهُ، وسقطَتْ نجاستُه وخساستُه؛ كذلك مَن كانت أعمالُه وأحوالُه لله تعالى محضةً، ولا يشوبُها حظُّ نفسِه، تَجِلُّ رتبتُه، وتَعلو حالتُه.

قال: ويُقال: حسنُ الأدب يُلْحِقُ الأخِسَّةَ برتبةِ الأكابر، وسوءُ الأدبِ يَردُّ الأعزَّةَ إلى حالةِ الأصاغر[٢].

***

(٥) ـ ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

= (٥٧) من حديث أبي هريرة.

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ١٩).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٠٣).

وقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ كرَّرَ المنَّة بهذا؛ تأكيداً.

وقيل: الأوَّلُ بيانُ الحكم، وهذا بيانُ المنَّةِ، و﴿ٱلْيَوْمَ﴾ بمعنى الآن حين أكملتُ لكم الدِّينَ، وأتممتُ عليكم النِّعمةَ.

وقيل: هو يوم نزولِ هذه الآية.

وقيل: هو إشارةٌ إلى عصرِ النَّبيِّ ﷺ، وتُذكَرُ هذه اللَّفظة لحالةٍ دائمة، يقال: لا يصلحُ اليومَ منِّي هذا الأمرُ، ولا يَقدِرُ أحدٌ أنْ يَظلِمَ اليوم.

وقوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾؛ أي: ذبائحُهم، قيَّدناهُ به؛ لأنَّ سائرَ الأطعمةِ لا يَختصُّ حِلُّها بالملَّة.

وقوله تعالى: ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾؛ أي: بالبيع والهبةِ والإباحةِ ونحوِها.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾؛ أي: أُحِلَّ لكم العفائفُ بالنِّكاح، وليس هذا لاشتراط صحَّةِ النِّكاح، بل للاستحباب.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾؛ أي: العفائفُ مِن الكتابيَّات، ويَستوي فيه الحرائرُ والإماء، وهذا عندنا(١)، وقال الشافعيُّ رحمه الله: لا يجوزُ نكاحُ الأمة الكتابيَّة(٢)، وتُحمَلُ المحصنات هاهنا على الحرائر، وعامَّةُ أهلِ التَّفسير على ما قلنا أنَّ المحصنات هاهنا العفائف، والاسمُ يَشملُ الحرائرَ والإماء، وقد بيَّنَّا وجوهَ الإحصانِ في سورةِ النِّساء.

---

(١) انظر: «المبسوط» للسرخسي (٥/ ١١٠).

(٢) انظر: «الأم» للشافعي (٦/ ٢١)، و«روضة الطالبين» للنووي (٧/ ١٣٢).

قوله تعالى: ﴿إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾؛ أي: سمَّيتُم لهنَّ ذلك، وألزِمتُموه[١]، وقد مَرَّ تحقيقُه في سورة النساء[٢].

وقوله تعالى: ﴿مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖ﴾ فسَّرنا هذه الكلمات في سورة النساء[٣]، ومعناه هاهنا: طالبين التَّعففَ بنكاحهنَّ، لا سافِحين الماءَ بالزِّنى حيثُ شئتُم، ولا متَّخذِي خليلاتٍ على الخصوصِ تزنون بهنَّ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ قال قتادة: ذُكِرَ لنا أن ناساً من المسلمين قالوا: كيف نَتزوَّجُ نساءَهم وهم على غيرِ دينِنا، فنزل هذا[٤]؛ يعني أنَّ أهلَ الكتاب وإنْ أُلْحِقَ حكمُهم في حلِّ ذبائحِهم لنا وحلِّ نكاحِ نسائِهم لنا بحكم المسلمين، فإنَّهم لم يفارقوا المشركين[٥]، بل كفروا بالإيمان؛ أي: جَحدوا به أنْ يكونَ ديناً حقًّا لا يُقبَلُ غيرُه، وحَبِطَ[٦] بذلك عملُهم، وهو تديُّنهم بالكتابِ وبنُبوَّة موسى وعيسى عليهما السَّلام.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ خسِروا ثوابَ عنائِهم[٧] في الدُّنيا، وقيل: مِن الهالكين، وقيل: معناه أنَّ الكتابيَّة قد يَميلُ إليها زوجُها المسلمُ، فتَدعوهُ إلى دينِها، فحذَّرهُم ذلك.

---

(١) كذا شكلت في (ف)، ووقع في (أ): «والتزموه». وفي (ر): «والتزمتموه».

(٢) عند تفسير الآية (٢٤) منها.

(٣) عند تفسير الآية (٢٥) منها.

(٤) في (ر): «فنزلت هذه الآية» بدل: «فنزل هذا». والخبر رواه الطبري في «تفسيره» (٨/ ١٥٠).

(٥) في (أ): «المسلمين».

(٦) في (ف): «ويحبط».

(٧) في (ف): «عبادتهم».

وقيل: قوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ﴾؛ أي: المؤمَنِ[١] به، مصدرٌ بمعنى المفعول به، وهو الكفرُ بالله، وبما يَجبُ الإيمانُ به.

وقال أبو الهيثم السجزيُّ: الباءُ صلةٌ، كما في قوله: ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦]، وقوله: ﴿تَنبُتُ بِالدُّهْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠]، ومعناه: ومَنْ يَكفُر بالإيمان، ويستره[٢] بجحودِه، فقد حبِطَ عملُه؛ أي: بطَلَ جميعُ سعيِه في الإسلام بالكفرِ بعده.

* * *

(٦) ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ ومن الوفاءِ بالعقودِ المأمورِ به في أوَّلِ السُّورةِ هذا؛ قوله[٣]: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾[٤].

وقال زيدُ بنُ أسلم: أي[٥]: قمتم مِن النَّوم[٦]، وهو حدَثٌ، فلا حاجةَ على هذا القول إلى إضمار: وأنتم محدثون.

---

(١) في (ر): «المؤمن».

(٢) في (ر): «يستره»، وفي (ف): «أي يستره».

(٣) لفظ: «قوله» من (أ).

(٤) من قوله: «ومن الوفاء بالعقود» إلى هنا ليس في (ف).

(٥) بعدها في (ر): «إذا».

(٦) رواه مالك في «الموطأ» (١/ ٢١)، والطبري في «تفسيره» (٨/ ١٥٦).

وفي «تأويلات الإمام أبي منصور رحمه الله»: قال النبيُّ ﷺ: «العينانِ وِكاءُ السَّه فمن نام فليتوضأ»(١)، قال: وروي عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان ينامُ ثمَّ يُصلِّي، فلا يتوضَّأ، فسئل عن ذلك فقال: «إنِّي لستُ كأحدِكم، إنَّه لتنامُ عيناي، ولا يَنامُ قلبي، ولو أحدثتُ لعلِمت»(٢).

وقال آخرون: معناهُ: إذا أردتُم القيامَ إليها، كما في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ [النحل: ٩٨]، وقوله: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ [الطلاق: ١].

وقوله تعالى: ﴿فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ ﴾ الآيةُ ظاهرُها يَقتضي الأمرَ بالوضوء عند كلِّ قيامٍ؛ محدثاً كان أو طاهراً، وقد كان رسولُ الله ﷺ يتوضَّأُ لكلِّ صلاةٍ قبل فتح مكَّة، فلما كان ذلك اليوم صلَّى الصَّلواتِ الخمسَ بوضوءٍ واحد، فقال عمر رضي الله عنه: صنعتَ يا رسول الله ما(٣) لم تكن تصنعهُ، فقال: «عمداً فعلتُ كي لا تُحرَجَ أمَّتي»(٤)، فثبتَ بذلك أنَّ الأمرَ بالوضوءِ عند الحدث، وهو مضمَرٌ فيه، وتقديره:

---

(١) رواه أبو داود (٢٠٣)، وابن ماجه (٤٧٧) من حدث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وضعف إسناده الشيخ شعيب الأرناؤوط. ولم يرد هذا الحديث في «تأويلات أهل السنة» للماتريدي.

(٢) كذا أورده الماتريدي رحمه الله في «تأويلات أهل السنة» (٣/ ٤٦٩)، وأورده الجصاص في «أحكام القرآن» له (٣/ ٣٣٣) من رواية أبي يوسف عن محمد بن عبد الله عن عطاء، وأخرج البخاري في «صحيحه» (١١٤٧)، ومسلم في «صحيحه» (٧٣٨) من حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال لها: «يا عائشة، إن عيناي تنامان ولا ينام قلبي».

(٣) في (أ) و(ف): «شيئاً».

(٤) أورده السرخسي في «المبسوط» (١/ ٥) بلفظ: «عمداً فعلت يا عمر كي لا تحرجوا»، ورواه مسلم في «صحيحه» (٢٧٧) بلفظ: «عمداً صنعته يا عمر».

وأنتم محدثون[١]، أو هو للاستحبابِ في حقِّ الطَّاهر، وللإيجاب في حقِّ المحدث؛ لقولِه ﷺ: «الوضوءُ على الوضوء نورٌ على نور»[٢]، وقوله: «لا صلاة إلَّا بطَهور»[٣].

ومعنى قوله: ﴿فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾؛ أي: فليَغسِل كلٌّ مِنكم وجهَه؛ لأنَّ مقابلةَ الجمعِ بالجمع تَقتضي مقابلةَ الإفراد بالإفراد، كما في قوله تعالى: ﴿جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ﴾ [نوح: ٧]، والوجهُ حدُّه من القُصاص[٤] إلى الذَّقن، ومن الأذُن إلى الأذن، وهو مِن المواجهة، وهذا القدرُ هو المواجِه[٥] عند الملاقاة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ جمع مرفق، وهو مجتمَعُ طرَفي السَّاعدِ والعَضُد، وفيه لغتان؛ فتحُ الميم مع كسر الفاء، وقلبُ ذلك، و﴿إِلَى﴾ للغاية، فينتهي عندها حكمُ الغَسْلِ عند زُفَر[٦] ومالك[٧]، فلا يَجِبُ غسلُها؛ لأنَّ الحدَّ لا يَدخلُ في

---

(١) في (ر): «فأنتم محدث» وفي (ف): «أنتم محدثون» بدل: «وأنتم محدثون».

(٢) قال المنذري في «الترغيب والترهيب» (١/ ٩٨): لا يحضرني له أصلٌ من حديث النَّبي ﷺ ولعلَّه من كلام بعض السّلف، وَالله أعلم. وقال العراقي في «المغني عن حمل الأسفار» (١/ ١٣٤) (بهامش الإحياء): لم أجد له أصلاً. اهـ. ونقل السخاوي في «المقاصد الحسنة» عن شيخه الحافظ ابن حجر أنه قال: إنه حديث ضعيف، رواه رزين في «مسنده».

(٣) روى مسلم نحوه في «صحيحه» (٢٢٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، بلفظ: «لا تقبل صلاة بغير طهور».

(٤) قصاص الشعر حيث تنتهي نبتته من مقدمه ومؤخره (والمراد هنا مقدمه كما لا يخفى) وفيه ثلاث لغات؛ قُصاص وقَصاص وقِصاص، والضم أعلى. قاله الجوهري في «الصحاح» (مادة: قصص).

(٥) في (أ) و(ف): «المواجهة».

(٦) بعدها في (ر): «والشافعي». انظر: «المبسوط» للسرخسي (١/ ٦). ومذهب الشافعي أن المرافق مما يغسل. انظر: «الأم» للشافعي (٢/ ٥٦)، و«المجموع» للنووي (١/ ٣٨٥).

(٧) المشهور من مذهب المالكية أنه يجب غسل المرفقين. انظر: «القوانين الفقهية» لابن جزي (ص٨٣). ونسب النووي في «المجموع» القول بعدم وجوب غسلهما لزفر وأبي بكر بن داود.

المحدود؛ كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ [البقرة: ١٨٧]، وعندنا يَجِبُ غَسلُها؛ لأنَّ اليدَ اسمٌ لها إلى الإبط، فكان التحديدُ بالمرافق إخراجاً لما ورائها، لا تبليغاً إليها، فبَقيَت في الغَسل.

وقوله تعالى: ﴿وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ﴾ والمسحُ إمساسُ الماء دون التَّسييل، ثم عند مالكٍ يُفترض مسحُ كلِّ الرأس[١]؛ لأنَّه أطلقَ ذكرَها، فصار كإطلاق ذِكر[٢] الوجوه.

وقلنا: لم يقل: فامسحوا رؤوسَكم، بل قرنَه بالباء، وهو للتَّبعيض، يقال: مسحتُ يدي بالمنديلِ، وبالحائط، ويقال: أخذتُ بالزِّمام، ولو قيل: أخذتُ الزِّمام، كان ذلك دليلاً على الكلِّ.

ثم يقولُ الشافعيُّ: إذا مسحَ ثلاث شعرَات منه كفى؛ لأنَّه بعض[٣].

وقلنا: أمرَ الله تعالى به قصداً، فلا يَتقدَّر بما يَحصُل[٤] مِن غير قصدٍ، فقدَّرناهُ بثلاث أصابع مِن اليد[٥]؛ لأنَّها هي آلةُ المسح، والثلاثُ أكثرُها، وللأكثرِ حكمُ الكلِّ.

وفي رواية عن أصحابنا: هو مقدَّرٌ بالرُّبع؛ لأنَّه يُحكَى عن الكمال، يقول الرجل: رأيتُ فلاناً، وإنَّما رأى جانباً منه، وهو ربعه.

---

(١) انظر: «القوانين الفقهية» (ص٨٤).

(٢) في (ف): «كل».

(٣) هو قول أبي العباس بن القاص من الشافعية، والمشهور من مذهب الشافعية أن لا يتقدر وجوبه بشيء، بل يكفي فيه ما يمكن، حتى لو مسح بعض شعرة واحدة أجزأه. انظر: «المجموع» للنووي (١/ ٣٩٨).

(٤) في (ف): «يتحصل».

(٥) انظر: «المبسوط» للسرخسي (١/ ٦٣).

وقوله تعالى: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ قرأ نافعٌ والكسائيُّ وعاصمٌ في رواية حفص بالنصب[1] عطفاً على قوله: ﴿وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾، فيَدلُّ على فرضيَّةِ غسلِها.

وقرأ [2]الباقون بالخفضِ، وهو في الظاهر عطفٌ على «برؤوسكم»، فتعلَّق القائلون بأنَّ وظيفتَها المسحُ مِن الرَّوافضِ بظاهِرِها، لكنَّا نَقول: خفضُه على الجوار، كما في قول العرب: جحرُ ضبٍّ خَرِبٍ، وماءُ شنٍّ باردٍ، وفي القرآن: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ﴾ إلى قوله: ﴿وَحُورٍ عِينٍ﴾ بالخفض[3]، وهنَّ لا يُطافُ بهنّ، لكن خفضُها على الجوار، وهو كقول امرئ القيس:

كبيرُ أناسٍ في بِجادٍ[4] مُزَمَّلِ[5]

ولأنَّها محمولةٌ على حال لبسِ الخفَّين، ووظيفتُهما المسحُ في هذه الحالة بهذهِ القراءة، والغَسلُ في حالِ كونهما باديتين بتلك القراءة، والغَسلُ هو المذكورُ في الأحاديثِ المشهورة، وعليه عملُ كلِّ الأُمَّة.

---

(١) وهي قراءة ابن عامر أيضاً من السبعة. انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٢٤٢)، و«التيسير» للداني (ص: ٩٨).

(٢) «قرأ»: زيادة من (أ) و(ف).

(٣) هي بالكسر قراءة حمزة والكسائي. انظر: «السبعة» (ص: ٦٢٢)، و«التيسير» (ص: ٢٠٧).

(٤) في هامش (ف): «البجاد كساء مخطط».

(٥) «ديوان امرئ القيس» (ص: ٢٥)، وصدره:

كأن أباناً في أفانين وَدْقِهِ

وأبان: اسم جبل، وأفانين: ضروب، والودق: المطر. انظر: «شرح القصائد العشر» للتبريزي (ص: ٥٢). قال شارح «الديوان»: شبَّه الجبل حين غشيهُ المطر وعمه الخصب بشيخٍ ضعيفٍ في بجاد، والبجاد: الكساء المخطَّط، وخص الشيخ؛ لأنه متدثر أبداً، متزمل في ثيابه.

وقوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾؛ أي: إلى كعبي كلِّ رجلٍ، والكَعبُ هو العظمُ النَّاتِئ عند أسفل السَّاق، وهو مأخوذٌ مِن قولهم: كَعَبتِ[1] الجاريةُ، إذا نَتأَ ثدياها، فهي كاعبٌ، وهما داخلانِ في وظيفة الغُسل كالمرافق؛ لما مرَّ.

وفرائضُ الوضوء هذه الأربعةُ، وما ورائها سننٌ وفضائلُ تُعرَفُ في الفقهيَّات، والواوُ للجمع المطلقِ، فلا تقتضي التَّرتيب.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا﴾ هو جمعٌ، **وقوله تعالى**: ﴿فَٱطَّهَّرُوا۟﴾؛ أي: تَطهَّروا، وهو غسلُ جميعِ ظاهرِ البدن، ويَدخل فيها الفمُ، والأنفُ، والأذنُ، والسُّرَّةُ، وخِلالُ الأصابع، ومنابتُ الشَّعر.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾ جمعُ مريض، فيقع على كل مرضٍ.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ يتناولُ كلَّ سفرٍ أيضاً.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾؛ أي: وجاءَ أحدُكم مِن الغائط؛ أي: المكانِ المطمئنِّ، كنايةً عن قضاءِ الحاجة؛ لأنَّهم كانوا يأتونه لذلك.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾؛ أي: جامعتم.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً﴾؛ أي[2]: في السَّفر، وقد أحدثتُم بالمجيء من الغائطِ، أو أجنبتُم بالمجامعة، وفاتَ الماءُ الذي كان به الوضوءُ مِن الحدثِ، والاغتسالُ مِن الجنابةِ، أو عجَزتُم عن استعمالِه مع وجوده؛ في المرض الذي يُخافُ باستعمال الماء فيه اشتدادُه أو امتدادُه: يكفيكُم التَّيمُّم بالصَّعيد عن الوضوء

---

(١) في (أ): «كعب».

(٢) بعدها في (ر): «فلم تجدوا ماء».

والاغتسال، وذلك قولُه تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ التَّيمُّمُ: القصدُ، والصَّعيدُ: وجهُ الأرض، والطَّيِّبُ: الطَّاهر.

وقوله تعالى: ﴿فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُ﴾ هو بيانُ كيفيَّتِه، وهما ضربتان؛ ضربةٌ للوجهِ، وضربةٌ لليدين إلى المرفقين، مع المرفقين عندنا، وفيه اختلافٌ كثيرٌ، يُذكر في الفقهيات.

وقوله تعالى ﴿مِّنۡهُ﴾؛ أي: من الصَّعيد، والآيةُ نزلَت في قصَّة عائشةَ رضي الله عنها، قال عمار بن ياسر رضي الله عنه: كان رسولُ الله ﷺ في سفرٍ، ومعه عائشةُ رضي الله عنها، ففقد عقد لها مِن جَزْع، فاحتبسَ النَّاسُ في طلب عقدِها حتَّى أصبحوا في مكانِهم ذلك، وليس معهم ماءٌ، فأتاها أبو بكرٍ رضي الله عنه، فتغيَّظ لها في حبسِها النَّاس، فبينما هم على ذلك، أنزلَ اللهُ تعالى الطَّهورَ في التَّمسُّح بالصَّعيد، فأتى أبو بكرٍ عائشةَ فقال[١]: واللهِ ما علمتُ إنَّك لمباركةٌ[٢].

وفي رواية أنَّ أسيدَ بنَ حُضير قال لأبي بكر: ما أعظمَ بركتِكُم يا آلَ أبي بكر، إنَّ اللهَ تعالى لم يُنزَل بكم نازلةً إلَّا جعلَ للمسلمين فيها فرجاً ومَخرجاً[٣].

وقيل: نزلَت في عبدِ الرَّحمن بنِ عوف، كان به جُدَريٌّ، فأصابتهُ جنابةٌ وعنده

---

(١) في (ف): «وقال لها».

(٢) رواه أحمد (١٨٣٢٢)، وأبو داود في «سننه» (٣٢٠)، والنسائي في «المجتبى» (٣١٤)، وابن ماجه (٥٦٥). وقول أبي بكر لعائشة هو من بلاغات الزهري.

(٣) قول أسيد رواه البخاري في «صحيحه» (٣٣٤)، ومسلم في «صحيحه» (٣٦٧): (١٠٨) من حديث عائشة رضي الله عنها في آخر قصتها، بلفظ: ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر، وفي رواية مسلم (٣٦٧): (١٠٩) قال أسيد: جزاكِ الله خيراً فوالله ما نزل بكِ أمر قط إلا جعل الله لك منه مخرجاً، وجعل للمسلمين فيه بركة.

ماءٌ، فخشيَ[(١)]، فرخَّص اللهُ تعالى له في التَّيمُّم[(٢)] بالصعيد. قاله مقاتلُ بنُ حيان.

وقولـه تعالـى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ﴾؛ أي: ضيق، وقيل: مشقة[(٣)]؛ أي: لا يريدُ بتكليفِ الوضوءِ والاغتسالِ والتيمُّمِ إيَّاكم تضييقَ الأمر عليكم، وإلحاقَ المشقَّة بكم.

وقولـه تعالـى: ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ﴾؛ أي: ولكن يريدُ تطهيرَكُم مِن الحدثِ والجنابة.

وقيل: أي: مِن الذُّنوب، وفي الأحاديث المشهورة أنَّ العبدَ إذا غسلَ أعضاءَ وضوءِه سقطَت ذنوبُه مع قطراتِ الماء[(٤)].

وقيل[(٥)]: أي: يريدُ أن تُطيعوهُ، فتوصَفوا بذلك بالطَّهارة التي يُوصَفُ بها المطيعون، وهو نظيرُ التَّزكية.

وقوله تعالى: ﴿وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾؛ أي: ويريدُ إتمامَ النِّعمةِ عليكم بإباحةِ التَّيمُّمِ لكم والتخفيفِ في حالة المرضِ والسَّفرِ عليكم.

---

(١) في (ف): «يخشى استعماله».

(٢) في (ف): «بالتيمم» بدل: «له في التيمم».

(٣) في (ف): «مشقة أي» بدل من «أي: مشقة».

(٤) من ذلك ما رواه مسلم في «صحيحه» (٢٤٤) من حديث أبي هريرة، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن، فغسل وجهه، خرج من وجهه كلُّ خطيئةٍ نظر إليها بعينيه مع الماء، أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل يديه خرج من يديه كلُّ خطيئةٍ كان بطشتها يداه مع الماء، أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسلَ رجليه خرجَت كلُّ خطيئةٍ مشتها رجلاهُ مع الماء أو مع آخر قطر الماء، حتى يخرجَ نقيًّا من الذُّنوب».

(٥) لفظ: «وقيل» ليس في (أ).

وقال سعيدُ بن جُبَير: أي: ويدخلكم الجنة؛ فإنَّه لا يتم نعمة[١] إلَّا به[٢].

وقيل: هو الختم على الإسلام، قاله[٣] عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه.

وقيل[٤]: تمامُ النِّعمة شهودُ المنعم.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ أي: لِتشكروا له[٥] قولاً وفعلاً وعقداً.

وقال القشيريُّ رحمه الله: لا صلاةَ إلَّا بطَهورٍ، وكما أنَّ للظواهر طهارةً، فللسَّرائر طهارة، فطهارةُ الأبدانِ بماءِ المطر، وطهارةُ القلوب بماء النّدمِ والخجَل، ثمَّ بماءِ الحياء والوجَل.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ أي: يُطَهِّرَ ظواهرَكُم عن الزَّلَّة بعصمتِه، ويُطَهِّرَ قلوبَكم عن الغفلةِ برحمتِه.

يُطهِّرَ سرائرَكم عن ملاحظة الأشكال، ويُفرِّغَ ظواهرَكم عن الوقوع في شباك الأشغال.

يُطَهِّر[٦] عقائدَكم عن التَّدنُّسِ بما يُوهِنُها، وأعمالَكم عن الاعتمادِ عليها.

قوله تعالى: ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ إتمامُ النِّعمةِ لقومٍ بنجاة نفوسِهم ولقومٍ بنجاتِهم عن نفوسهم، وشتَّانَ بين قومٍ وقومٍ[٧].

---

(١) في (ف): «تتم نعمته».

(٢) أخرجه عبد بن حميد وأبو الشيخ، كما في «الدر المنثور» (٥/ ٢١٧).

(٣) في (ف): «وقال».

(٤) «وقيل:» ليس في (ف). فالقول الآتي في (ف): منسوب لعلي رضي الله عنه.

(٥) في (أ): «الله».

(٦) في (ف): «ويطهر» في هذا الموضع والذي قبله.

(٧) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٠٥).

(٧) ـ ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ قيل: هي المذكورةُ في قوله: ﴿وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾ [المائدة: ٣].

وقيل: هي إثباتُ الرُّخصِ المذكورةِ في هذه السُّورة.

وقيل: هي الإسلام.

وقيل: هي كلُّ النِّعَم، وأفردَ لأنَّه اسمُ جنس.

وقوله تعالى: ﴿وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ﴾؛ أي: عهدَه الذي عاهدَكم به، وأوثقَه[١] عليكم، وهو مِن العقودِ المذكورةِ في صدر هذه السُّورة.

وقيل: هو قَبولُ[٢] الأمرِ والنَّهي.

وقيل: هو عهدُ الله الذي أخذَهُ على العباد بعد الإيمانِ؛ بأداءِ حقوق اللهِ، وحقوقِ العباد.

وقال ابنُ عباس رضي الله عنهما: هو بيعة الرضوان[٣]، يقول: واذكروا أيضاً ميثاقه؛ أي: ميثاقَ رسول الله ﷺ الذي واثقَكم به، حين بايعتُموه على السَّمع والطَّاعة في المنشطِ والمكره، وقد كان ذلك غيرَ مرَّةٍ؛ ليلةَ العقبة، وتحتَ الشَّجرة،

---

(١) في (ف): «وأوقعه».

(٢) في (أ): «قول».

(٣) لم أقف عليه، وأخرج الطبري في «تفسيره» (٨/ ٢٢٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه قال في تفسيرها: يعني: حيث بعث الله النبي ﷺ، وأنزل عليه الكتاب، فقالوا: آمنَّا بالنبي وبالكتاب، وأقررنا بما في التوراة، فذكَّرهم اللهُ ميثاقَه الذي أقرُّوا به على أنفسِهم، وأمرهم بالوفاء به.

وبعد دخول المدينة، فأضافَهُ إلى نفسِه؛ تشريفاً للنبي ﷺ، كما قال في سورة الفتح: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠]، لهذا، أو لأنَّه(١) كان بأمرِ الله.

وقوله تعالى: ﴿إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا﴾؛ أي: سمعنا قولَك، وأطعنا أمرَك، وكان أهلُ بيعةِ الرِّضوان ألفاً وستَّ مئةِ رجلٍ مخلص(٢).

وقال ابنُ عباس رضي الله عنهما في روايةٍ: هو ميثاقه على بني إسرائيل(٣)، وقد مرَّ بيانُه في سورة البقرة في آيات.

وقال مجاهدٌ رحمه الله: هو ميثاق ذريَّة آدم(٤)، وكذلك قال الكلبيّ(٥)، وقال: «اذكروا»؛ أي: احفظوا.

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾؛ أي: في نقض الميثاق، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾؛ أي: بسرائر الصُّدورِ، مِن الخيرِ والشَّرِّ، وهذا وعدٌ ووعيد.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: الآيةُ إشارةٌ إلى التَّعريف السَّابق، الذي لولاه لما

---

(١) في (ف): «ولأنه».

(٢) هو قول موسى بن عقبة، نقله عنه الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (٧/ ٤٤١)، وفي «صحيح البخاري» (٤٨٤٠)، و«صحيح مسلم» (١٨٥٦) من حديث جابر أن الذين بايعوا النبي ﷺ يوم الحديبية ألف وأربع مئة. وفي «صحيح البخاري» (٣٥٧٦)، و«صحيح مسلم» (١٨٥٦): (٧٢) عن جابر أيضاً أنهم كانوا خمس عشرة مئة. وذكر الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» الخلاف في ذلك، وجمع بين الروايات بأنهم كانوا أكثر من أربع مئة، فمن قال: ألفاً وخمس مئة جبر الكسر، ومن قال: ألفاً وأربع مئة ألغاه.

(٣) روى الطبري في «تفسيره» (٨/ ٢٢٠) عنه معناه، وذكرت نصه قريباً فانظره.

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (٨/ ٢٢٠).

(٥) انظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٧/ ٢٨٨).

عَلِمتَ مَن هو، فأمرَهم بتَذكُّرِ ما سبقَ لهم من القسَم وهو[١] في كتْمِ العدم، ما للأغيارِ عنهم خبر، ولا لهم عينٌ ولا أثر، ولا وقع لأحدٍ عليهم بصر[٢]، وقد سمَّاهم بالإيمان، وحكمَ لهم بالغُفران قبل حصولِ العصيان، ثمَّ لـمَّا أظهرَهُم، عرَّفهم التوحيدَ قبل أنْ كلَّفهُم الحدودَ، وعرضَ عليهم بعد ذلك الأمانةَ، وحذَّرهُم الخيانةَ، فقابلوا قولَه بالتَّصديق، ووعدوا مِن أنفسِهم الوفاءَ بشرطِ التَّحقيق، فأمدَّهم بحسن التَّوفيق، وثبَّتَهم[٣] على سواءِ الطَّريق، ثمَّ شكرَهُم حيث أخبرَ عنهم بقوله: ﴿إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، ثمَّ قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: في نقضِ ما أبرمتُم مِن العقود، والرُّجوعِ عمَّا قدَّمتم من العهود؛ إنَّه عليمٌ، لا يخفى عليه شيءٌ مِن خطراتِ قلوبِكم، وفكرات[٤] صدوركم.

* * *

(٨ ـ ١٠) ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٨) وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ وهذا من العقود[٥] أيضاً، وفسَّرنا ذلك في سورة النساء[٦].

---

(١) في «لطائف الإشارات»: «وهم».

(٢) بعدها في (ر): «وقد سبق». وهي مقحمة.

(٣) في (ف): «ونبههم».

(٤) كذا في (ر) و(ف)، وفي «لطائف الإشارات»: «ونيات».

(٥) من قوله: «عما قدمتم من» إلى هنا ليس في (أ).

(٦) عند تفسير الآية (١٣٥).

وقيل: أراد هاهنا[١]: أكملتُ لكم دينكم، فكونوا قائمين[٢] بأمرِ الدِّين، في حياةِ نبيِّكم وبعد وفاته، مُبيِّنينَ مُبرهنِينَ مُبلِّغينَ مُعلِّمين.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾؛ أي: ولا يحملنَّكُم بغضُ قومٍ على تركِ العدلِ فيهم.

وقوله تعالى: ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ ﴿هُوَ﴾ إشارةٌ إلى العدلِ المذكور دِلالةً في قوله: ﴿ٱعْدِلُوا۟﴾، **وقولِه تعالى:** ﴿أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾، ولا يُقال: العدلُ تقوى، ولا يكونُ الشَّيءُ أقربَ إلى نفسِهِ؛ لأنَّ معناه: وعدلُكم في حقِّ الأولياءِ والأعداء أقربُ إلى أن تكونوا متَّقين مجتنبين كلَّ السَّيِّئات.

وقيل: معناه: أقربُ إلى اتِّقاءِ النَّارِ والعقوبات.

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾؛ أي: في كلِّ أمرٍ ونهي.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ هو وعدٌ ووعيد، ولذلك ذكرَ بعدها آيتين؛ إحداهما في الوعد، وذلك **قوله:** ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾، وهذا ظاهرٌ، والأخرى في الوعيد، وذلك **قولُه:** ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾، وهذا ظاهرٌ أيضاً، ثمَّ قولُه: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾، وقوله: ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ مرفوعان، ولم يُنصبا بقوله: ﴿وَعَدَ﴾؛ لأنَّهما على الاستئناف، وما قبلَهُ تامُّ المعنى؛ لأنَّ الوعدَ المطلقَ هو الإطماعُ في المسارِّ.

وقيل: قوله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾ في حقِّ اليهودِ

---

(١) بعدها في (ر): «اليوم».

(٢) في (ف): «قوامين».

الذين ذهبَ النَّبيُّ ﷺ يَستعينُ بهم في ديةٍ، فهمُّوا بقتلِه، وقصدَ المسلمون مجازاتَهم، فنزلَت هذه الآية[1].

ولا يقال: إنَّ قتلَ الكفَّار جائزٌ، بل[2] واجب فما[3] معنى الأمر بالعدل فيهم؟ لأنَّا نقولُ: قد تقعُ المعاملةُ منَّا معهم لا على وجهِ العدلِ بالمثلةِ والقذفِ بالفاحشة وقتْلِ الأولاد الصغار لغيظ الكبار، وذلك محرَّمٌ علينا في مقابلة[4] الكفَّار.

***

(١١) - ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ ﴾ قال الكلبيُّ: بعث رسولُ الله ﷺ سريةً سبعةً وعشرين رجلاً إلى بني عامرِ بن صعصعة، وكان طريقُهم على بني سُليم، وأمَّرَ عليهم المنذرَ بنَ عمرو، فنزلوا على بني سُليم، وهم صلحٌ لرسول الله ﷺ، فبعث بنو سُليم إلى بني عامر، فأخبَروهم بأمرِ القوم، فلمَّا كان عند الرحيلِ أضلُّوا بعيراً لهم، فتَخلَّفوا، وسارَ المنذِرُ حتَّى أتاهُم وقد جمعوا لهم، واستعدُّوا بالسِّلاح، فالتقوا ببئر معونة، فاستُشهِدوا جميعاً، ثم إنَّ الأربعةَ الذين تَخلَّفوا لطلبِ البعيرِ اتَّبعوا أصحابَهم،

---

(١) أخرجه الطبري: (٨/ ٢٢٣) من قول عبد الله بن كثير، وخبر استعانة النبي ﷺ باليهود في «سيرة ابن هشام» (١/ ٥٦٣)، وفيها أنه نزل في هذه الواقعة الآية التالية، وهي قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ...﴾.

(٢) بعدها في (ر): «هو».

(٣) في (ر): «كما»، وفي (ف): «جاء» بدل: «فما»، والعبارة غير واضحة.

(٤) في (ف): «مقاتلة».

فلقيتهم أمةٌ لبني عامر مسلمةٌ، فقالت: مِن أصحاب محمَّدٍ أنتم؟ قالوا: نعم؛ رجاءَ أن تُسلِم، قالت: النَّجاء النجاء، فإنَّ إخوانَكم[1] قتلوا جميعاً على الماء، تعتورهم النُّسورُ والعقبان، فقال أحد الأربعة: ما ترون؟ قالوا: نَرى أن نرجعَ إلى رسول الله ﷺ، فنخبرَهُ بالأمر، قال: لا، ولكنِّي والله لأتغدينَّ[2] مِن غداء أصحابي، ارجعوا واقرؤوا على رسول الله ﷺ سلامي، قالوا له: فأمهِلنا حتَّى نَتغيَّبَ عنك، فلمَّا تغيَّبوا عنه، صعِدَ الجبلَ، فأشرف على أصحابه، فإذا هم مقتولون، وإذا المشركون قعودٌ يَتغدَّونَ، فانحدرَ بسيفِه فجالدَهم حتَّى قُتِلَ.

وقصدَ الثَّلاثةُ[3] المدينةَ، فلقوا رجلينِ من بني سُليم خارجين من المدينة، فقالوا لهما: من أنتما؟ قالا: مِن بني عامر، قالوا: من الذين قتلوا إخوانَنا[4]، فقتلوهُما لا يَشكُّون أنَّهما مِن بني عامر، وأخذوا سَلَبَهُما، ثمَّ دخلوا المدينةَ، فوجدوا الخبرَ قد سبق إليه، فقال لهم: «قتلتُم رجلين من بني سُليم، مِن أهل ميثاقي، وهذه كسوتُهما بئس ما صنعتم».

وجاء رهط السُّلمين، فقالوا: يا رسول الله، أَقِدنا مِن قتل صاحبينا، فقال لهم: «ليس لكم القوَد؛ لأنَّ صاحبيكم اعتزيا إلى عدوِّنا من بني عامر، ولكنَّا نؤدِّي إليكم ديتَهما».

فانطلقَ رسولُ الله ﷺ يسألُ من ميثاقِه، ومعه أبو بكرٍ وعمرُ وعثمان وعليٌّ رضي الله عنهم، فبدأ ببني قريظة[5]، فأتاهم فقال: «تَعلمون ما أصابنا من دمِ الرَّجلين،

---

(١) بعدها في (ر): «قد».

(٢) في (ف): «لا أتغدين».

(٣) بعدها في (ر): «إلى».

(٤) في (أ): «أخوالنا».

(٥) في «تفسير مقاتل» (١/ ٤٥٩)، و«تفسير الثعلبي» (٤/ ٣٥) أنه ﷺ بدأ ببني النضير.

ونحن نريدُ أنْ نؤدِّي ديَتهما، فاتَّخذوا عندنا يداً نجزيكم بها»، قالوا: مرحباً يا أبا القاسم، إخوانُنا بنو النَّضير، لا نَقضي أمراً دونَهم، نُعلِمُهم ذلك، ثمَّ تأتينا يومَ كذا وكذا، وقد جمعنا لك الذي تُريد.

فرجعَ رسولُ الله ﷺ، فلمَّا كان ذلك اليوم، أتاهم ومعه أبو بكر وعمرُ وعثمانُ وعليٌّ رضي الله عنهم، فأدخلوهُ في صُفَّةٍ لهم، ثمَّ خرجوا يَجمعون السِّلاح، ويَنتظرون كعب بن الأشرف وهو غائبٌ بالمدينة(١) أن يَقدُمَ عليهم؛ ليثوروا به، فنزل جبريلُ عليه السلام، فأخبرَهُ بما يُرادُ به.

فقام رسولُ الله ﷺ، ولم يُؤذِن أحداً مِن أصحابِه؛ مخافةَ أنْ يثوروا به، فخرجَ فقام على الباب، فلمَّا أبطأ على أصحابِهِ، خرجَ أبو بكرٍ في طلبِه، فإذا هو بالباب، فقال: «قد غدرَت بي اليهود ـ اللهمَّ العنْهُم ـ فقم(٢) مكانك، فإذا خرج بعضُ أصحابِكَ فأخبرهُ الخبرَ، وأقِمهُ مكانَك حتَّى يَخرجَ إليه صاحبُه»، ففعلَ، ثمَّ خرجَ عمرُ، فقال له ذلك، ثم خرج عثمانُ(٣)، فقال له عمر ذلك، ثم خرج عليٌّ، فقال له عثمانُ ذلك، حتَّى لحقوه، ونزلت هذه الآيةُ، وعلمَ به اليهودُ بعد ذلك، فتحيَّروا، فقوله(٤): ﴿اذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ خطابٌ لكل الصحابة(٥)؛ فإنَّ النَّبيَّ ﷺ لو أصيبَ كان(٦) ذلك على الكلِّ(٧).

---

(١) بعدها في (ف): «إلى».

(٢) في (ف): «فقف».

(٣) قوله: «فقال له ذلك، ثم خرج عثمان» من (ر).

(٤) في (ف): «وذلك قوله تعالى».

(٥) في (أ): «أصحابه».

(٦) في (ف): «لكان».

وقوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّ قَوْمٌ﴾؛ أي: قصدَ قوم[١]. ﴿أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: يَمدُّوها بالقتل.

وقوله تعالى: ﴿فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾؛ أي: منعَها.

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾؛ أي: في كلِّ شيءٍ، واثبُتوا على التَّقوى.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ وأنتم مؤمنون، فافعلوا ذلك.

وقال جابرُ بنُ عبد الله الأنصاريُّ: نزلَ رسولُ الله ﷺ منزلاً، وتَفرَّق النَّاس في العضاهِ[٢] يَستظِلُّون تحتَه، فعلَّقَ النَّبيُّ ﷺ سلاحَهُ بشجرةٍ، فإذا أعرابيٌّ جاء إلى سيف رسولِ الله ﷺ فسلَّهُ، ثمَّ أقبلَ على النبيِّ ﷺ فقال: مَن يمنعُك منِّي؟ فقال: «الله تعالى»، قالَها ثلاثاً، والنبيُّ ﷺ يقول: «الله»، فشامَ[٣] الأعرابيُّ السَّيفَ، فدعا رسولُ الله ﷺ أصحابَه فأخبرَهم، فنزلَتِ الآية.

وذكر قتادةُ: أنَّ قوماً أرسلوا هذا الأعرابيَّ، وفيهم نزلَت هذه الآية[٤].

وعن قتادة أيضاً: أنَّ هذا كان في الغزوة السابعة، وقد نزلَ بنخلةٍ، فأرادَ بنو ثعلبة وبنو محارب أنْ يَفتِكوا به، وندبوا هذا الأعرابيَّ لذلك، وفيها نزلَت صلاة الخوف[٥].

= (٤/ ٣٥) نحوه مختصراً عن مجاهد وعبد الله بن كثير وعكرمة والكلبي.

(١) في (ف): «قصدوا» بدل: «قصد قوم».

(٢) العضاه: شجر أم غيلان، وكل شجر عظيم له شوك، الواحدة: عِضَةٌ، بالتاء، وأصلها: عِضهة. انظر: «النهاية في غريب الحديث» (مادة: عضه).

(٣) الشيمُ: الإغماد، وهو من الأضداد، يكون سلاًّ وإغماداً. انظر: «النهاية» (مادة: شيم).

(٤) رواه عبد الرزاق في «تفسيره»: (٦٨٤)، ومن طريقه الطبري: (٨/ ٢٣٢ ـ ٢٣٣). وهو بألفاظ قريبة في «صحيح البخاري» (٤١٣٩)، و«صحيح مسلم» (٨٤٣) دون قول قتادة الأخير.

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (٨/ ٢٣٢).

وقيل: كان ذلك حين حاصرَ غطفان، وجاءَ هذا الأعرابيُّ ورسولُ الله ﷺ متقلِّدٌ سيفَه، فقال له: يا محمَّد، أرني سيفَك، فأعطاهُ، فجعلَ يهزُّه، ويقولُ: مَن يمنعُك منِّي، إلى آخره كما ذكرنا[١].

* * *

(١٢) ـ ﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ اتصالُها بما قبلَها أنَّ الله تعالى يقولُ لنبيِّه: لا تَعجبنَّ مِن نقض هؤلاء اليهود ميثاقهم معك، وقصدِهم قتلَك؛ فإنَّهم مِن أولادِ قومٍ أخذنا ميثاقَهم فنقضوا.

وقوله تعالى: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ أي: وبعثَ موسى هؤلاءِ بأمرِنا، والنَّقيبُ هو الملِكُ على قولِ ابن عبَّاس؛ أي: على كلِّ سبطٍ مِن بني إسرائيل ملكاً ورئيساً[٢]، وهو مَنْ نَقَّب الشَّيء، سُمِّيَ به؛ لأنَّه يُنقِّبُ عن أحوالِ قومِه، فيَقِفُ على مكنونِ أسرارِهم، ومنه المناقب، وهي الفضائل؛ لأنَّها تَظهرُ بالتَّنقيب عنها.

وقيل: النُّقباءُ: الأمناء[٣]، وبعثَ موسى من الأسباطِ الاثني عشر اثنَي عشر أميناً؛ ليَتعرَّفوا أخبارَ القوم الذين كانوا بأرض الشام مِن الجبَّارين، وكان الله وعدَ بني

---

(١) في (ر): «ذكرناه»، وفي (ف): «ذكر». وانظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ٣٥).

(٢) انظر: «تفسير أبي الليث» (١/ ٤٢٢).

(٣) هو قول الربيع، رواه عنه الطبري في «تفسيره» (٨/ ٢٣٦).

إسرائيل حين أخرجَهُم مِن مصر أنْ يَجعلَ تلك البلادَ لهم، فأمَرَهُم موسى بالمسيرِ إليهم لقتالِهم، واختارَ مِن كلِّ سبطٍ رجلاً منهم، يتجسَّسون[1] الأخبارَ، ويَرجعون فيُخبرون قومَهم، فيعمَلون[2] على ذلك.

وقيل: هم الأمراء.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: وقال أبو عوسجة: هم المنظورُ إليهم، والمصدورُ عن رأيِهم.

وقال أبو عبيد: هم الأمناءُ والضُّمناء[3].

وقال مقاتل: هم الشهداء[4].

وقال محمَّدُ بنُ إسحاق: هم الكفلاء. وقال هو: وأسماؤُهم فيما يُذكر أهل التوراة: بحشون[5] بن عميم رأسُ سبطِ بيت يهوذا، وياليل بن صَعُوراء رأسُ سبطِ بيت يشتاخر، وإلياب بن جولان رأسُ سبط بيت زبالون[6]، ونصور بن شازورا[7] رأسُ سبطِ بيت روبيل، وشلامور بن صوريا رأسُ سبطِ بيت شمعون، والياسف بن رعويل رأسُ سبطِ بيت حاذٍ، واليَسع بن عيهود رأسُ سبط بيت أفراييم بن يوسف، وجميل بن ترينون رأسُ سبط بيت منشا بن يوسف، وأبيدن بن خرعون رأس سبط

---

(١) كذا في النسخ، ولعل الصواب: «يتحسسون».

(٢) في (ر): «فيعلمون».

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٣/ ٤٨٠).

(٤) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٤٦٠).

(٥) في (ر): «يجشون»، ووقع بعدها فيها: «لقيام».

(٦) في (أ): «ذبالون»، وفي (ف): «روبالون».

(٧) في (ف): «شابورا».

بيت بنيامين، وخيعور بن شبوذا رأسُ سبط بيت دان، وخيعل بن جعون رأسُ سبطِ بيت أنشا بن يعقوب، وأجزع[١] بن عينان رأسُ سبط بيت نفتايل[٢].

وفي بعض الروايات: من سبطِ روبيل شامول بن بكول، ومن سبطِ شمعون ساقط بن حزن، ومن سبطِ يهوذا كالب بن يوفنَّا، ومن سبطِ أفراييم بن يوسف يوشع بن نون، ومن سبطِ بنيامين رقود[٣] بن فلطا، ومن سبطِ زبالون[٤] جدي[٥] بن شوراهم، ومن سبطِ منشا بن يوسف جويّ بن شوسا، ومن سبط دان حمايل بن آزر، ومن سبط أنشا تور بن مكايل، ومن سبط نفتايل فولايل بن مكيد، ومن سبط يشاخر[٦] أخدع بن عينان[٧].

سارَ بهم موسى عليه السَّلام إلى الأرض المقدَّسةِ بأمر الله تعالى، حتَّى إذا نزلَ بريةً[٨] بين مصر والشام، وهي بلادٌ ليس بها خَمَر[٩]، دعا موسى ربَّه حين آذاهم

(١) في (ف): «وأخرع»، وفي (ر): «وأخزع».

(٢) وردت أسماء النقباء في رواية ابن إسحاق في «تفسير الطبري» (٨/ ٢٣٩ ـ ٢٤٠)، وفيه اختلافٌ عما هنا، وبعض الأسماء فيه موافق لما سيأتي في الرواية التالية، فمن أرادها فليرجع إليها فيه.

(٣) في (ف): «رفود».

(٤) في (أ) و(ف): «ذبالون».

(٥) في (ف): «خدي».

(٦) في (أ): «يستاحر».

(٧) قوله: «ومن سبط يشاخر أخدع بن عينان» ليس في (ف).

(٨) في «تفسير الطبري»: «نزل التيه».

(٩) في (ف): «بلاد محرَّة»، وفي «تفسير الطبري» (٨/ ٢٣٩): «بلاد ليس فيها خمر ولا ظل» بدل: «بلاد ليس بها خمر». ووقع في هامش (أ) ما نصه: «الخمر: ما وراك من الشجر أو من الجرف». وانظر: «النهاية» لابن الأثير (مادة: خمر).

الحرُّ، فظلَّلَ الله بالغمام[١]، ودعا لهم بالرِّزق، فأنزلَ الله تعالى عليهم المنَّ والسَّلوى، وأمرَه[٢] الله تعالى أن يُرسِلَ رجالاً يتجسَّسون[٣] له أخبارَ الأرض المقدَّسةِ التي وهبَ اللهُ لبني إسرائيل، فقال لهم: اصعدوا الجبلَ، وانظروا ما في الأرض التي يسكنونَها أقليلٌ أم كثير؟ وهم أقوياءُ أم ضعفاء؟ وانظروا أرضَهم، أذاتُ شجرٍ مثمرة، أم لا؟ وإن كانت ذات شجرٍ مثمرةٍ فاحملوا إلينا من ثمرِها[٤].

فحملوا عنقوداً بين خمسةِ رهْطٍ، وسمُّوا ذلك الوادي وادي العنقود، ثمَّ رجعوا بعد أربعين يوماً، فأتَوا موسى وهارون، وقصُّوا عليهما، وقالوا: هي أرضٌ تَفيضُ لبناً وعسلاً، وهذه من ثمرِها، وأهلُها أقوياءُ أشدَّاءُ، ولهم حصونٌ وثيقةٌ، فقال كالوب[٥] ويوشع: إنَّ لنا بهم قوة، وقال الباقون: إنَّ بها جبابرةً، ورجالاً جساماً، ونحن في أعيُنِهم مثلُ الجراد، وبكوا من ذلك، فخرَّ موسى وهارون سجوداً، وخرَّق كالوب ويوشع ثيابَهما.

فأوحى اللهُ تعالى إلى موسى: إنْ كان أولئك لا يَقدِرون على دخولِها، فإنِّي غَفرتُ لهم بكلمتِك، وأمَّا كالوب ويوشع فإنِّي أدخلُهما تلك الأرضَ حتَّى يراهما[٦] مَن فيها مِن العماليق والكنعانيين.

---

(١) في (أ) و(ر): «الغمام».

(٢) في (أ) و(ف): «وأمر»، وفي «تفسير الطبري»: «وأمر الله موسى».

(٣) كذا في النسخ، ووقع في «تفسير الطبري»: «يتحسسون»، وهو الأصح.

(٤) انظر رواية ابن إسحاق في «تفسير الطبري» (٨/ ٢٣٨ ـ ٢٤١).

(٥) كذا! وفي «تفسير مقاتل» (١/ ٤٦٦)، و«تفسير الطبري» (٨/ ٣٠١): «كالب»، وكذا ذكر اسمه في ما سلف.

(٦) في (ف): «نريهما».

وقيل: لمَّا أرادَ موسى أنْ يبعثَ هؤلاء، قالوا: إنَّ أولئك أقوياء، ونحن نخافُهم، فوعدَهُمُ الله الحفظَ بما شرَطَ عليهم[١]، وذلك قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾؛ أي: قال لهم: إنِّي حافظُكم، كما قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ﴾ [الأنفال: ١٢]، وقال موسى: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى﴾ [الشعراء: ٦٢]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

وقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾، قوله: ﴿لَئِنْ﴾ لام قسم، وقوله: ﴿لَّأُكَفِّرَنَّ﴾ لامُ جواب، و﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ اسمُ جنس، وأريد بها كلُّ الصَّلوات، والتَّعزير: النُّصرة في قول الزَّجَّاج[٢] والتعظيم في قول أبي عبيدة[٣]، وأنشد:

وكم من ماجدٍ لهم كريمٍ ... ومِن ليثٍ يُعزَّرُ في النَّدِيِّ[٤]

وأصلُ العَزْرِ: المنع، قال القطاميُّ:

ألا بَكَرَتْ سلمى بغيرِ سَفاهةٍ ... تُعَنِّفُني والمرءُ يَنفعُه العَزْرُ[٥]

---

(١) «بما شرط عليهم» ليس من (ف).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ١٥٩).

(٣) نص قول أبي عبيدة في «مجاز القرآن» (١/ ١٥٦): وعزَّرتموهم: نصرتموهم وأعنتموهم ووقَّرتموهم وأيَّدتموهم.

(٤) البيت دون نسبة في «مجاز القرآن» (١/ ١٥٧)، و«الأضداد» للأنباري (ص: ١٤٧). والنَّديُّ والنادي والنَّدوةُ والمنتدى: مجلس القوم نهاراً، أو المجلس ما داموا مجتمعين فيه. انظر: «القاموس» (مادة: ندا).

(٥) انظر: «ديوان القطامي» (ص: ١٢٤)، وفيه: «مي» بدل: «سلمى»، و«تعاتب والمودود» بدل: =

والتَّعزيرُ المشروع في حق الجُناة: هو منعُهم عن المعاودةِ[1] بالتَّأديبِ، وتعزيرُ الأنبياء: نصرتُهم بمنعِ الأعداء عنهم.

وقيل: العَزْرُ متعدٍّ، والتَّعزير: التَّكثير، والتَّكرير منه، وهو نصرتُهم مرَّةً بعد أخرى.

والإقراضُ الحسَنُ: وراء الزَّكاة، وهو الإحسانُ إلى كلِّ محتاجٍ في أيِّ وقتٍ وقعَ مِن غير كراهةٍ في القلب وامتنانٍ على الفقير، بل يَطلُبُ به رضا اللهِ، وتطيبُ به نفسُه.

وقوله تعالى: ﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ قال الكلبيُّ: أي: فمَن نقضَ منكم هذا العهدَ فقد أخطَأَ قصْدَ الطَّريق، وضلَّ عن الهُدى.

قال: فأطاع منهم خمسةٌ، أخذوها بحقِّها، وعمِلوا بطاعةِ الله، وأبَى سبعةٌ منهم، فاستحلُّوا المحارمَ، وسعَوا في الأرض بالفسادِ، وقَتلوا الأنبياءَ، وخرج خلال الاثني عشرَ نقيباً اثنان وثلاثون كذاباً، يأخذونَ الـمُلكَ بالسَّيف، فلم يَفوا بما أُخِذَ عليهم مِن العهد.

* * *

(١٣) ـ ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ «ما» زائدة. وقيل: مؤكِّدة.

= «تعنفني والمرء». وظاهر أن معنى العزر في هذا البيت: اللوم كما فسره الأنباري في «الأضداد» (ص: ١٤٧) لا المنع كما ذكر المصنف، فلا يصلح البيت شاهداً لكلامه.

(١) في (ف): «العادة».

قوله تعالى: ﴿لَعَنَّـٰهُمْ﴾؛ أي: طردناهم وبعَّدناهم عن الرَّحمة.

وقال ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما: عذَّبناهم بالجزيةِ.

وقال الحسن: مسخناهم(١).

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً﴾ قرأ حمزةُ والكسائي: ﴿قَسِيَّةً﴾، والباقون: ﴿قَـٰسِيَةً﴾(٢)، والقاسيةُ أظهر، والقَسيَّةُ أبلغ، والقسوةُ: اليُبْسُ والصَّلابةُ، فلا تَلينُ، ولا تَنقاد لأحكامِ الدين(٣).

وقيل: القَسيَّةُ: الفاسدة، من قولهم: دِرْهمٌ قسِيٌّ؛ أي: فاسد.

وقوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾؛ أي: يُغيِّرون كلماتِ التوراة عن مواضعِها، و﴿ٱلْكَلِمَ﴾ جمع كلِمة، كالشَّجر جمعُ شجرة، ولذلك جعل لها مواضع، ولكن قال: ﴿مَّوَاضِعِهِۦ﴾ ذهاباً إلى ظاهره؛ لأنَّه على وزنِ الكذبِ واللَّعب الذي هو واحدٌ مذكَّرٌ.

والتحريفُ له وجهان: كتابةُ غيرِها مكانَها، كما قال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٩].

والثاني: فسادُ التأويل.

وقوله تعالى: ﴿وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾؛ أي: وترَكوا نَصيباً ممَّا وُعِظوا به مِن الإيمانِ بمحمَّدٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾؛ أي: أبداً تقِفُ على خيانةٍ منهم،

---

(١) انظر قولي ابن عباس والحسن في «تفسير الثعلبي» (٤/ ٣٨).

(٢) انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٢٤٣)، و«التيسير» للداني (ص: ٩٩).

(٣) في (ر): «الله عز وجل» بدل: «الدين».

مصدرٌ على وزنِ: فاعلة، كقوله: ﴿فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ [الحاقة: ٥]، وقوله: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ [الواقعة: ٢]، وهو كقولِهم: سمعتُ راغيةَ الإبل، وثاغيةَ الغنم.

وقيل: معناه: تَطَّلِعُ على فرقةٍ خائنةٍ منهم؛ على النَّعت.

وقيل: أي: على خائنٍ منهم، والهاء للمبالغةِ، كقولهم: فلانٌ راويةُ الشِّعر، وعلَّامة، ونسَّابة.

ويعني به: يهودَ بني النَّضير، منهم كعبُ بنُ الأشرف حين أتاهم النبيُّ ﷺ يَستعينُهم في ديةِ المسلمين، فهمُّوا بقتلِه وقتلِ من معه[1].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ عبد الله بن سلام وأصحابه.

وقوله تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾؛ أي: اترك مكافأتهم للحال[2]، ﴿وَاصْفَحْ﴾ أي: أعرِض عن قتلِهم إلى وقت الأمرِ بالقتال، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ العافينَ الصافحين، ثم نسخَتْها آيةُ السَّيف.

وقال ابنُ حيَّان: والقليل منهم: كفَّارٌ لا يخونون[3].

وقال السُّدِّيُّ: من تحريفِهم آيةُ الرَّجم.

وقال إبراهيمُ: كان في التوراة: يا أبناءَ أحباري، فكتبوا: يا أبناء أبكاري[4].

ثم في قوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾، وقوله: ﴿وَنَسُوا حَظًّا﴾، وقوله: ﴿عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ﴾ إثباتُ أفعال العباد، وفي قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ إثباتُ

---

(١) انظر ما سلف عند تفسير الآية (١١) من هذه السورة.

(٢) لفظ: «للحال» ليس في (أ).

(٣) انظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٧/ ٣٠٦).

(٤) انظر: «تفسير البغوي» (٣/ ٣٣).

التَّخليق مِن الله، وهو حجَّةُ[1] أهلِ السُّنَّة والجماعة على الجبريَّة والقدريَّة.

وقال الإمامُ القشيريُّ رحمَه الله: قسوةُ القلبِ: عدمُ التَّوجُّعِ بما يُمتحَنُ به مِن الصَّدِّ، وعن قريبٍ يُمتحَنُ بالرَّدِّ، والرَّدُّ نهايةُ الفراق، وغايةُ البعد، وأوَّل حالِها فوتُ الصَّفوةِ، ثمَّ استيلاءُ الشَّهوةِ، ثمَّ جريانُ الهفوةِ، ثمَّ استحكامُ القَسوةِ، فإن لم يوفَّق للإقلاع عن جملتِها، فهو تمامُ الشِّقوة[2].

***

(١٤) ـ ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ ذكرَ نقضَ العهدِ وتركَ الوفاءِ بالعقد من النَّصارى أيضاً، كما ذكرَ من اليهود.

وقال الحسن: قوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ﴾[3] دليلٌ على أنَّهم ابتدَعوا النصرانيَّة وتلقَّبوا بها[4].

وفي روايةٍ عنه قال: قيل للنَّصارى: كونوا أنصارَ الله، فقالوا: بل نكونُ نصارى[5].

---

(١) في (أ): «إثبات».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤١١).

(٣) لفظ: «قالوا» من (ر).

(٤) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٤/ ٤٢)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٧/ ٣٠٧).

(٥) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٣/ ٤٨٢).

وقوله تعالى: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ الإغراءُ بالشَّيء: الإلصاقُ به من جهةِ[١] التَّسليط عليه، قال تعالى: ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾؛ أي: لنُسلِّطنَّك عليهم.

وقيل: هو التَّحريش[٢]، وأصلُه ما قلنا، وقد أغريتُه بالشَّيءِ فغَرِيَ، والغِراء اللُّزوق؛ لما له مِن صفة اللَّزق[٣].

وقال الكلبيُّ: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ﴾ [المائدة: ٦٤]، وهي التي تُفضي إلى التَّعدي بالأفعال[٤]، ﴿وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ العداوةُ الكامنة في القلب.

وقال إبراهيم: هي الأهواء المتفرِّقة[٥].

وقال مقاتلُ بن حيَّان: أغرينا بين النُّسطوريَّة منهم الذين قالوا: عيسى[٦] ابنُ الله، وبين اليعقوبيَّة منهم الذين[٧] قالوا: إنَّ اللهَ هو المسيحُ بن[٨] مريم، وبين الملكانيَّة منهم الذين يقولون: إنَّ الله ثالثُ ثلاثة[٩]، فهي عداوةٌ ملصقةٌ لا تُفارقهم، عوقِبوا بها لنقضِهم ميثاقَهم.

---

(١) في (أ): «رؤية».

(٢) في (ف): «التحريض».

(٣) في (أ) و(ر): «اللزوق».

(٤) في (ر): «في الأفعال» بدل: «بالأفعال».

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» للقشيري (٨/ ٢٥٨).

(٦) في (ف): «إن الله هو المسيح».

(٧) من قوله: «قالوا: عيسى ابن الله» إلى هنا ليس في (ف).

(٨) من قوله: «ابن الله وبين» إلى هنا ليس في (أ).

(٩) وهو قول مقاتل بن سليمان في «تفسيره» (١/ ٤٦٣).

وقيل: هذا الإغراءُ بين النَّصارى واليهود، وقد سبق ذكرُهم جميعاً في الآيتين، وذلك ظاهرٌ في قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ الآية [البقرة: ١١٣]، ثمَّ قال: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ مع ما قال: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ الآية [النساء: ١٥٩].

وقيل: ذلك عند نزولِ عيسى عليه السلام من السماء؛ لأنَّ معناه ـ والله أعلم ـ: بقاءُ هؤلاءِ المصِرِّينَ على نقضِ العهدِ على هذه العداوة إلى الموت.

وقوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ هذا وعيدٌ لهم في الآخرة مع ما ذكرَ لهم من وعيدِ الدُّنيا؛ ﴿يُنَبِّئُهُمُ﴾ به توبيخاً، ثمَّ يُجازيهِم عليه تعذيباً وتخليداً.

والوعيدُ بهذا الإغراء ثابتٌ أيضاً في حقِّ اليهود. قال تعالى في هذه السورة: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٦٤].

* * *

(١٥) ـ ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ خطابٌ لليهود والنَّصارى جميعاً، وقد سبقَ ذكرُهم.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: محمَّدٌ عليه الصَّلاة والسلام. قال الإمام أبو منصور

رحمه الله: لم يَذكر اسمَهُ؛ ليُعلَم أنَّ الرُّسلَ يُعرفون بالآياتِ المعجزة، دون الأسامي. وفيه دليلٌ أنَّ مَن آمنَ بالرُّسلِ كلِّهم يكون مؤمناً، وإن لم يَعرِف أسماءَهم[1].

و﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا﴾ هو الرَّجمُ المذكور في التَّوراة، والبِشارةُ بالنبيِّ المصطفى محمَّدٍ ﷺ في التَّوراة والإنجيل، وقصَّةُ أصحاب السَّبتِ الذين مُسِخوا قردةً، كانوا يخفونَه[2]؛ لما فيه من السُّبَّة.

وقال الحسين بن الفضل رحمه الله: ومنها ملَّةُ إبراهيم، وحرمةُ لحوم الإبل وألبانِها، كتموها عن السَّفِلة، وقصَّة عيسى.

وقوله تعالى: ﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾؛ أي: يَتركُ بيانَه لكم، وإن أعلمَهُ اللهُ به؛ لأنَّ ما بيَّنهُ حُجَّةٌ كافيةٌ عليكم.

وروي أنَّ يهوديًّا قال: ما الكثيرُ الذي يَعفو عنه؟ فأعرض عنه، فسأله ثانياً وثالثاً، فأعرضَ[3]، وكان قصد اليهودي أن تظهرَ منه مناقضتُه بتركِ العفو، فلمَّا أعرضَ تيقَّنَ بصدقِه وأسلمَ.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ﴾ وهو محمَّدٌ ﷺ؛ لأنَّه يُستضاءُ به من ظلماتِ الكفرِ والأهواء.

وقوله تعالى: ﴿وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ هو القرآنُ، يُبيِّنُ كلَّ شيءٍ بنا إليه حاجةٌ مِن أمورِ الدِّين.

* * *

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٣/ ٤٨٤).

(٢) في (ف): «يحرفونه».

(٣) بعدها في (ر): «عنه».

(١٦) ـ ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾؛ أي: يُرشِد اللهُ بالقرآن مَن كان همُّه اتِّباعَ مرضاةِ اللهِ بطلب الحقِّ، لا التَّعصُّبِ لدينِ آبائه، إلى طرقِ السَّلامةِ من مكاره الدَّارين.

و﴿ٱلسَّلَٰمِ﴾: السَّلامة.

وقيل: ﴿ٱلسَّلَٰمِ﴾ هاهنا اسمُ الله تعالى، كما في قوله: ﴿ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ﴾ [الحشر: ٢٣]؛ أي: إلى طريق الله، وهو دينُ الله.

وقيل: ﴿ٱلسَّلَٰمِ﴾ اسمُ الجنَّة، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: ٢٥]؛ أي: إلى الطَّريق الذي يُفضي بسالكِهِ إلى الجنَّة.

وقيل: ﴿ يَهْدِى بِهِ ﴾ يرجعُ إلى محمَّدٍ والقرآن؛ لأنَّهما ذُكِرا قبلَه: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾، وكلُّ واحدٍ منهما يقعُ به الهدايةُ بالدِّلالة، وإنَّما وحَّدَ لأنَّ كلَّ واحدٍ منهما يُساوي الآخرَ في الهداية.

وإنَّما قال: ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ جمعاً، ودينُ الإسلامِ طريقٌ واحدٌ، ولذلك قال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]؛ لأنَّ أصلَ الدِّينِ واحدٌ، ولكنَّ طرقَ الطَّاعات مُتفنِّنةٌ، وكلُّ طريقٍ يُفضي بسالكِه[1] إلى الجنَّة بوعدِ الله على تلك الطَّاعة، ولأنَّ سالكيه متعدِّدون، فجَمعَهُ لاجتماع السَّالكين، كما قال: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧] والميزانُ واحدٌ، لكنَّ الموزوناتِ متعدِّدةٌ، فجمعَ ﴿ٱلْمَوَٰزِينَ﴾ لتعدُّدِ الموزونات.

---

(١) في (ف): «بصاحبه».

وقوله تعالى: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ﴾؛ أي: يُخرِجُهم مِن ظُلماتِ الشِّركِ وهي أنواعٌ، إلى نورِ الإيمان وهو واحدٌ.

وقيل: أي: مِن الشُّكوكِ إلى اليقين.

وقيل: أي: من الجهالاتِ إلى العِلْم.

وقيل: أي: من الضَّلالاتِ إلى الرُّشد.

وقيل: الإخراجُ هاهنا مجازٌ عن الحفظِ، فقد ذكرَ أوَّلاً: ﴿يَهْدِى بِهِ﴾، وما بعد الهداية يكونُ حِفظاً.

وقوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ أي: يُثبِّتُهم على الدِّين[1] الحقِّ القيِّم، ومنهم مَن جعلَ قوله: ﴿يَهْدِى بِهِ﴾، ﴿وَيُخْرِجُهُم﴾، ﴿وَيَهْدِيهِمْ﴾ شيئاً واحداً والتَّكرار للتَّأكيد، والصَّحيحُ أنَّ الأوَّلَ إعطاءُ[2] الهداية، والثَّاني: حفظُهم عن الغِواية[3]، والثالث: إبقاؤهم عليه تجديداً للفوائد.

* * *

(١٧) ـ ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ هذا

---

(١) في (ف): «الطريق».

(٢) في (ف): «أعطى».

(٣) في (أ): «عن الهداية» وكتب تحت: «عن»: «على».

توبيخٌ للنَّصارى، وإبطالٌ لقولِهم بقولِهم؛ لأَنَّهم قالوا: هو ابنُ مريم، فكيف يكون إلهاً؟ والأمُ أقدمُ من الولدِ، فهو حادثٌ، والحادثُ لا يكون إلهاً، وهو بعضُها في أصلِ الخلقةِ، والمتبعِّضُ لا يكون إلهاً، وهو منتقِلٌ مِن الرَّحمِ إلى الأرض، والمتمكِّنُ في مكانٍ، والمنتقلُ مِن مكانٍ إلى مكان؛ لا يكون إلهاً.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ استفهامٌ بمعنى النفي؛ أي: فمَن يَمنعُ اللهَ مِن شيءٍ يُريدُ أنْ يفعلَهُ؛ لأنَّ مَن منعَ غيرَهُ عن فعلٍ فقد ملكَ عليه أمرَهُ.

وقوله: ﴿فَمَن يَمْلِكُ﴾ أي: فمن كان يملك؛ لأَنَّه[1] ذكرَ إهلاكَ عيسى وأمِّه، وهي مريم، وهي يومئذٍ كانت ميتةً، وإهلاكُها حقيقةً يكونُ في حياتِها، فيكون هذا في معنى الماضي؛ أي: مَن كان يَمنعُ اللهَ عن إهلاك عيسى وإهلاكِ أمه حالَ حياتِها[2]، ونظيرُ هذا[3] المستقبل قولُ القائل:

فانْضَحْ جوانبَ قبرِهِ بدِمائها[4] ... فلقد يكونُ أخا دمٍ وذبائحِ[5]

أي: فلقد كان يكون.

وقيل: أرادَ بالإهلاكِ: التَّعذيبَ في القيامة، وبيَّن بهذا غايةَ ضلالتِهم في اعتقاد عيسى إلهاً مع أنَّه مقدورٌ عليه، مقهورٌ مجبور.

---

(١) بعدها في (ر): «كان».

(٢) في (ر): «حياتهما».

(٣) بعدها في (ف): «في».

(٤) في (أ): «برجائها». وهو تحريف

(٥) البيت لزياد الأعجم يرثي المغيرة بن المهلب، انظر: «الشعر والشعراء» لابن قتيبة (١/ ٤٣١)، و«شعر زياد الأعجم» (ص: ٥٤)، وانظر تتمة تخريجه ثمة.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ وعيسى منهم، فكان مملوكاً مخلوقاً.

وقوله تعالى: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ كما يشاء، بأبٍ وغير أب، فليس فيه ما يُوهِم أنَّ عيسى إله.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ يخلق ما يشاء كيف يشاء.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: من اشتملَ عليه أرحامُ الأمَّهات، متى يفارِقُه نقصُ البَشريَّة؟ ومَن لاحت عليه شواهدُ التَّغيير أنَّى يَليق به نعتُ الرُّبوبيَّة؟ ولو قطعَ البقاءَ عن جميع ما أوجَدَ، فأيُّ نقصٍ يعودُ إلى الصَّمديَّة[١]؟

* * *

(١٨) ـ ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ قال محمَّدُ بنُ إسحاق: قال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: إنَّ نعمانَ بنَ أضاء، وبحريَّ بنَ عمرو[٢]، وشاس بنَ عَدي، كلَّموا رسول الله ﷺ، فدعاهُم إلى الله، وحذَّرهُم نِقْمتَه، فقالوا: ما تُخَوِّفُنا يا محمد، فنحن أبناءُ الله وأحباؤه[٣].

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤١٣ ـ ٤١٤).

(٢) تحرف اسماهما في النسخ الخطية إلى: «عثمان بن أمار وجدي بن عمرو». والمثبت من مصادر تخريج الخبر.

(٣) رواه ابن إسحاق كما في «سيرة ابن هشام» (١/ ٥٦٣)، والطبري في «تفسيره» (٨/ ٢٦٩).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إنَّ الآيةَ نزلت في يهود المدينة، كعبِ بن الأشرف، وكعبِ بن أسد، وسعيد بن عمرو، ووهب بن يهوذا، وزيد بن التَّابوت، وبحريِّ[١] بن عمرو، وسائر رؤساء اليهود، ومن نصارى نجران السيِّدُ والعاقِبُ ومَن معهما، خاصموا أصحابَ رسول الله ﷺ في الدِّين، فعيَّرهم أصحابُ رسولِ الله ﷺ بالكفرِ، وبغضبِ الله عليهم، فقالت اليهود: إنَّما غضبَ[٢] اللهُ علينا كما يغضبُ[٣] الرَّجلُ على ولدِه، ثمَّ يَرضى عنه، وإنَّا أبناءُ الله وأحباؤه.

وهم معترفون أنَّهم يُعذَّبون في النَّارِ أربعينَ يوماً، عدَّةَ الأيَّام التي عَبدوا فيها العجلَ، فردَّ اللهُ عليهم بهذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾؛ أي: بالنَّارِ، ولا يُعذِّبُ والدٌ ولدَهُ بالنَّار.

وقال الإمامُ أبو منصور رحمه الله: أي: لم جعلَ منكم القردةَ والخنازيرَ، والوالِدُ لا يَفعلُ ذلك بولده[٤].

وقال سعيدُ بنُ المسيَّب: أرادوا بقولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ أنَّ منَّا عُزَيراً، وهو ابنُ الله على زعمهم، ومنَّا المسيح، وهو كذلك عندَهم[٥]، وهو كقولِ الواحد من القوم: نحنُ الكُتَّاب، ونحن[٦] الفوارس، يعني بذلك: أنَّ منَّا كذا.

---

(١) في النسخ الخطية: «وجدي» وهو تحريف.

(٢) في (ف): (يغضب».

(٣) في (ر) و(ف): «كغضب» بدل: «كما يغضب».

(٤) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٣/ ٤٨٧ ـ ٤٨٨).

(٥) انظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٧/ ٣١٦).

(٦) في (ف): «ومنا».

وقوله تعالى: ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ أي: خلقٌ مِن خلقِه، فلا بُنوَّةَ.

وقوله تعالى: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ أي: يَغفِرُ لمَن تابَ مِن النَّصرانيَّةِ واليهوديَّة، ويُعذِّبُ مَن ماتَ عليهما.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ فله التَّصرُّفُ فيهم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾؛ أي: إلى جزائِه مرجعُ الكلِّ.

* * *

(١٩) ـ ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: يا أهلَ اليهوديَّة والنَّصرانيَّة، وأراد بالكتاب الكتابَين؛ التوراة والإنجيل، وكذلك فيما تقدَّمَ في هذه السُّورة، لكنَّ الكتابَ مصدرٌ، أو اسمُ جنسٍ، فصلحَ للتَّثنية، ولأنَّهما[1] يَعتقدان التَّوراة، فأضيفوا جميعاً إليها.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا﴾؛ أي: محمَّدٌ ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾؛ أي[2]: ما لكم وعليكم.

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾؛ أي: حالَ فتورِ أمرِ الرُّسلِ بانقطاعِ مجيئِهم مدَّةً يَدْرُسَ فيها الدِّينُ، أو يَكاد يَدرُس.

وقوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾؛ أي: لئلَّا يَقولوا يومَ القيامةِ: كنَّا في زمانٍ فترةٍ، فاتَّبعْنا النَّاسَ على ما أدركناهُم عليه، ولم يَكن عندنا علمٌ بما بدَّلوا

---

(١) في (ف): «وإنهما».

(٢) بعدها في (ر): «يبين لكم».

وغيَّروا، فقَطَعَ اللهُ احتجاجَهُم بهذا، و﴿أَن تَقُولُواْ﴾ بمعنى: لئلَّا تقولوا، كما بيَّنَّا في قوله: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْ﴾ [النساء: ١٧٦].

﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ﴾؛ يعني: نبيٌّ مبشِّرٍ بالجنَّةِ المطيعين، ﴿وَلَا نَذِيرٖ﴾ يُنذِر بالنَّارِ الجاحدين.

وقوله تعالى: ﴿فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞ﴾ وهو محمَّدٌ ﷺ، فانقطعت حُجَجُكم، وبَطَلَتْ معاذيرُكم بإتيانِه وتبيانه.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ كانوا يقولون: لا رسولَ بعد موسى، فقال: إنَّ اللهَ قادرٌ على إرسالِ محمَّدٍ وإقامةِ المعجزاتِ له، كما كان قادراً على إرسالِ موسى وإقامة المعجزاتِ له، وعلى كلِّ شيء[١].

وقال ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما وقتادة: الفترةُ بين عيسى ومحمَّدٍ خمسُ[٢] مئةٍ وستُّون سنة[٣].

وقال الضحاك ومقاتل: ستُّ مئة سنة[٤].

وقال الكلبيُّ ومجاهدٌ: خمسُ مئةٍ وأربعون سنة[٥].

وقال الكلبيُّ: كان بين موسى وعيسى ألف وسبع مئة سنة[٦]، وكان بينهما ألف

---

(١) في (ف): «وهو على كل شيء قدير» بدل: «وعلى كل شيء».

(٢) في (أ): «ست مئة».

(٣) رواه عن قتادة عبد الرزاق في «تفسيره» (٦٩١)، والطبري في «تفسيره» (٨/ ٢٧٥).

(٤) انظر قول الضحاك في «تفسير الثعلبي» (٤/ ٤٠)، وقول مقاتل في «تفسيره» (١/ ٤٦٤).

(٥) انظر قول الكلبي في «تفسير أبي الليث» (١/ ٤٢٦)، و«تفسير الثعلبي» (٤/ ٤٠).

(٦) ذكره عن الكلبي الزمخشري في «تفسيره» (١/ ٦١٩).

نبيٍّ، وكان بين مولدِ عيسى ومولدِ محمَّد ﷺ خمسُ مئةٍ وتسعٌ[١] وستُّون سنة[٢]، وكان عيسى حينَ رُفِع ابنَ اثنتين وثلاثين سنة وستَّةَ أشهر.

* * *

(٢٠) ـ ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ ﴾؛ أي: واذكُرْ يا محمَّدُ إذ قال موسى لبني إسرائيلَ حين أنجاهمُ اللهُ مِن فرعون وقومِه، وأخرجَهم مِن أرضِ مصر، ووعدَهم إسكانَهُم أرضَ الشَّام، وأمرَهم بجهادِ أهل أرضِ أريحا مِن بلادِ فلسطين، فذكروا أنَّها أرضونَ لا علمَ لهم بها، ولا يَهتدون لوجهِ قتالِ أهلِها، فبَعثَ موسى اثني عشرَ نقيباً يتجسسون[٣] أخبارَها، فأتوهم وهم أقوياءُ طوال، وقد التقطَهُم بعضُهم، وجعلَهم في حجرِه، وجاء بهم إلى ملكِهم، فنثرَهُم بين يديه، وقال: هؤلاء الذين يَغزوننا وخلَّاهُمُ الملكُ؛ ليَرجعوا ويُخبروهم بحالِهم، فجاؤوا موسى فأخبروهُ به، فقال: اكتموا بني إسرائيلَ ما شاهدتُم؛ لئلَّا يَجبُنوا، فلم يَكتُموا إلَّا رجلين[٤]، نذكرُهما من بعد.

---

(١) في (ف): «وسبع».

(٢) ذكر المباركفوري في «الرحيق المختوم» (ص: ٤١) أن مولد سيد المرسلين ﷺ كان في أبريل سنة (٥٧١م) حسبما حققه العالم الكبير المنصورفوري، والمحقق الفلكي محمود باشا.

(٣) كذا، ولعل الأقرب: «يتحسسون».

(٤) هذا الخبر رواه الطبري في «تفسيره» (٨/ ٢٩٠ ـ ٢٩١)، وابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٥/ ٢٤٥ ـ ٢٤٦) عن ابن عباس. وهذا الخبر من الإسرائيليات الباطلة، كما نبه عليه الشيخ محمد أبو شهبة في «الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير» (ص: ١٨٥).

فانتشـرَ الخبـرُ في بني إسـرائيلَ مِن جهة العشـرة النُّقبـاء، فأظهـروا الامتناعَ عن قتالِهـم، فحَرَّكهـم[١] موسـى علـى الجهاد بهـذا، وهو قولـه: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا﴾، وذِكْـرُ النِّعمـةِ يَسـتَدعي الشُّـكرَ، وطاعـةَ المنعـمِ فيمـا أمـر، ونِعَمُ اللهِ كثيـرةٌ، ومنها مـا قـال: ﴿جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ﴾ والأنبياءُ بعد إبراهيـم كلُّهم مِن نسـلِ إبراهيـم، وبنو إسـرائيل أولاده.

وقوله: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا﴾ قال الحسن: أحراراً تملكون أنفسَكم بعد ما كنتم في أيدي القبط كأهل الجزية فينا[٢].

وقال مقاتل[٣]: أي: لا يُدخَلُ عليكم إلَّا بإذنٍ[٤]، وكان قومُ فرعون يَدخلون عليهم متى شاؤوا[٥] من غير استئذان تهاوناً بهم.

وقال عطاء: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا﴾: آتاكم مِن النِّعمةِ: فَلْقَ البحرِ، وإغراقَ العدوِّ، والآيات[٦].

وقال الضَّحَّاك: كانت منازلُهم واسعةً، فيها مياهٌ جاريةٌ ومن كان له مسكنٌ واسعٌ، وفيه ماءٌ جارٍ، فهو ملك[٧].

وقال قتادة: جعلَ لكم الخدمَ مِن بني آدم، وهم أوَّلُ قومٍ جعلَ لهم ذلك[٨].

---

(١) في (ف): «فحرضهم».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٨/ ٢٨١) لكن من قول السدي، وانظر: «التفسير البسيط» (٧/ ٣٢٢).

(٣) في (ف): «وقيل» بدل: «وقال مقاتل».

(٤) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٤٦٥).

(٥) في (أ): «شاء».

(٦) ذكر الواحدي في «التفسير البسيط» (٧/ ٣٢٢) أنه من رواية عطاء عن ابن عباس.

(٧) انظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٧/ ٣٢١).

(٨) رواه الطبري في «تفسيره» (٨/ ٢٨٠ ـ ٢٨١).

وقيل: أي: جعلَكم بعد ما كنتم[١] تُستَعبدون تَقصِدون الملوكَ وتُجاهِدون.

وقال ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: أي: جعلَ لكم الخَدَمَ والحشَم[٢].

وقال ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه: مَن كان له بيت وخادم فهو ملك[٣].

وقال مجاهدٌ: كان بنو إسرائيل يقولون: من كان له دار وخادم وزوجة فهو ملك[٤].

وقد روى زيدُ بن أسلم عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ مَن كان له مسكنٌ وزوجةٌ وخادمٌ فهو مَلِك»[٥].

وقال الحسن في روايةٍ: أي: جعل لكم المركَبَ والخادم[٦].

وقيل: أي: وجعلَ فيكم الأنبياء، وبهم قوامُ الدين، وجعلَ فيكم الملوكَ، وبهم قوامُ الدُّنيا؛ أي: هيَّأ[٧] أسبابَ معاشِكم ومعادِكم، فاشكروا له بطاعتِكم وجهادِكم.

وقوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: عالمي زمانِكم.

وقيل: هو التوراة.

---

(١) لفظ: «كنتم» من (ف).

(٢) روى الطبري في «تفسيره» (٨/ ٢٨٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في الآية: البيت والخادم، وفي رواية أخرى: كان الرجل من بني إسرائيل إذا كنت له الزوجة والخادم والدار يسمى ملكاً.

(٣) لم أقف عليه عن ابن مسعود.

(٤) روى الطبري في «تفسيره» (٨/ ٢٧٩) نحوه عن الحكم.

(٥) رواه أبو داود في «المراسيل» (٢٠٤)، والطبري في «تفسيره» (٨/ ٢٧٩). قال ابن كثير: هذا مرسل غريب.

(٦) رواه الطبري في «تفسيره» (٨/ ٢٧٩).

(٧) بعدها في (ر): «لكم».

وقيل: هو فلقُ البحر.

وقيل: تظليلُ الغَمام، وإنزالُ المنِّ والسَّلوى.

لكن عند بعضِهم كان هذا في التيه، وكان ذلك بعد هذا الأمرِ بالجهاد، فهو على سائر ما أوتوهُ مِن الآياتِ وأنواع الكرامات.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: أمر اللهُ بني إسرائيلَ على لسان نبيِّه أنْ يَذكروا نعمَةَ الله، وأمر هذه الأمة بخطابِ نفسِه، لا على لسان مخلوق؛ بأنْ يَذكروهُ، فقال تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ [البقرة: ١٥٢]، ثمَّ جعلَ جزاءَ أولئك ثوابَه الذي هو فعلُه، وجعلَ جزاء هؤلاء ذكرَه الذي هو قولُه.

وقال في قوله: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا﴾ الملِكُ مِن المخلوقين: مَن عبدَ اللهَ الملِكَ الحقيقيَّ. وقال: الملكُ: مَن مَلَك هواهُ، والمملوكُ مَن هو في رِقِّ شهواتِه ومُناه.

قال: ويقال: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا﴾ لم يُحوِجكُم إلى أمثالِكم، ولم يَحجبكُم عن نفسِه بأشغالِكم، وسهَّل سبيلَكُم إليه في عمومِ أحوالِكم.

وقال في قوله: ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: لئن آتى بني إسرائيلَ بمقتضى جودِه، فقد أغنى عن الإيتاء هذه الأمة فاكتفوا بوجوده، والاكتفاء بوجوده أتم من الاستغناء بمقتضى جوده[1].

* * *

(٢١) ـ ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾.

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤١٥).

وقوله تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ ﴿ٱلۡمُقَدَّسَةَ﴾: المطهَّرة، وقيل: المباركة.

قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: هي أرض بيت المقدس أريحا وغير ذلك[١].

وقال قتادة: أرض الشام[٢].

وقال الكلبيُّ: دمشق وفلسطين وبعضُ الأردن[٣].

وتَقَدُّسها[٤]: بكونها مستقرَّ الأنبياء والعُبَّادِ والزُّهَّاد.

وقيل: مقدَّسة: مطهَّرة من الشِّركِ والفواحش، وبركتُها: بكثرةِ الماء والشَّجرِ والثَّمر، قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾[٥] [الإسراء: ١]، قالوا: بكثرةِ الماء و[٦]الشجر والثَّمر وسَعَة العيش.

وقال ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما: هي مدينةُ الجبَّارين[٧].

قوله تعالى: ﴿ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ أي: قضى أنْ يكون لكم، وقيل[٨]: جعلَها اللهُ لكم.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: قيل: أي: كتبَ اللهُ عليكم قتالَ أهلِها

---

(١) روى الطبري في «تفسيره» (٨/ ٢٨٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه فسرها بأريحا.

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٦٩٥).

(٣) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ٤٢).

(٤) في (أ): «وتقديسها».

(٥) قوله: «من المسجد الحرام» من (ر).

(٦) قوله: «الماء و» من (ر).

(٧) رواه الطبري في «تفسيره» (٨/ ٢٩٨).

(٨) بعدها في (ر): «أي».

ليُسلِموا، والـلامُ بمعنـى: «علـى»، كما فـي قولـه: ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسـراء: ٧]؛ أي: فعليها[١].

وقال القتبيُّ: أمرَكُم بدخولِها[٢].

فإن قالوا: رُويَ أنَّهم لـمَّا لم يجيبوا إلى الجهادِ[٣] بَقوا في التِّيه أربعين سنةً، وماتوا فيها، فكيف كانت مكتوبةً لهم، وماتوا قبل أن يدخلوها[٤]؟ قلنا عنه أجوبة:

أحدها: أنَّ هذا كان وعداً مقيَّداً بشرطِ الجهاد؛ لأنَّه وإنْ أُطلِقَ في أوَّل هذه الآية، فقد قال في آخرها: ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾، وقد خالَفوا الشَّرطَ فحُرِموها.

والثَّاني: أنَّ الخطابَ لبني إسرائيل، وقد وقع الفتحُ على أيدي أولادِ هؤلاء، ودخلوها، فتَحقَّق الوعدُ.

والثَّالث: أنَّ بعض مَن بقيَ في التِّيه الذين كانوا مع موسى حين خاطَبهم، منهم يوشع بن نون وكالب؛ قد[٥] فتحوها ودَخلُوها.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾؛ أي: ولا تَرجِعوا موَلِّينَ ظهورَكُم منهزمين، فتَخسروا ما وعدَ لكم؛ مِن الاستيلاءِ على بلادِهم في الدُّنيا، ومن الثَّوابِ في العُقبى.

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٣/ ٤٩١).

(٢) انظر: «تفسير غريب القرآن» لابن قتيبة (ص: ١٤٢).

(٣) في (ر): «القتال».

(٤) قوله: «وماتوا قبل أن يدخلوها» من (ف).

(٥) في (ف): «وكالوب وقد» بدل: «وكالب قد».

(٢٢) ـ ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ قال ابنُ عرفة: أي: أهل سَطوةٍ وقَهرٍ.

وقال ابنُ اليزيديِّ[١]: ﴿جَبَّارِينَ﴾؛ أي: عظماء.

وقال الأزهريُّ: ﴿جَبَّارِينَ﴾؛ أي: عاتين[٢].

وقيل: عِظامُ الأجسام، يُقال: نخلةٌ جبَّارةٌ: طويلةٌ عظيمة.

وقال قتادة: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾؛ أي: أشدَّ منَّا قوَّةً، وأطولَ منا أجساماً[٣].

وقال الزُّهريُّ[٤]: كان عوج الجبَّار في فلسطين، وقد غلبَ عليها كلَّها.

وقال محمد بن إسحاق: كان أهلُ الكتاب يقولون في عوج: إنَّ السَّحابَ كان يكون إلى معقدِ إزارِه، وكان يَضربُ بيدهِ الحوتَ مِن أسفلِ البحر، فيَشويهِ بقَرنِ

---

(١) هو أبو إسحاق إبراهيم بن يحيى بن المبارك، بصريّ سكن بغداذ، وكان ذا قدر وفضل، وحظ وافر من الأدب، وكان شاعراً مجيداً، سمع من أبي زيد الأنصاري والأصمعي، وله كتاب «ما اتفق لفظه واختلف معناه» و«مصادر القرآن» و«المقصور والممدود»، توفي سنة (٢٢٥هـ). انظر: «إنباه الرواة» للقفطي (١/ ٢٢٤ ـ ٢٢٦)، و«بغية الوعاة» للسيوطي (١/ ٤٣٤ ـ ٤٣٥).

(٢) انظر أقوال ابن عرفة وابن اليزيدي والأزهري في «الغريبين» للهروي (١/ ٣٠٩ ـ ٣١٠) (مادة: جبر)، ووقع في مطبوعه: «عاتبين» بدل: «عاتين»! وانظر أيضاً «تهذيب اللغة» للأزهري (١١/ ٥٨).

(٣) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٧٠١).

(٤) في (ف): «الأزهري».

الشَّمس، ثمَّ يأكلُه، وكان عُمْرُ[١] ثلاثةَ آلافٍ وست مئة سنة، وولد في دار[٢] آدم، ثمَّ عاش حتى قتلَهُ موسى عليه السَّلام[٣].

وقيل: كان طولُ هؤلاء الجبارين ثمانين ذراعاً.

وقيل: مئة ذراع.

وقيل: أربع مئة ذراع.

وقيل[٤]: ثمان مئة ذراع.

وقيل في عوج: عاج بن عوج.

وقيل: هو الذي أخذَ الاثني عشر نقيباً وجعلَهم في كُمِّه، ثمَّ خلَّاهم، فلمَّا رجعوا أخبر العشرةُ منهم بني إسرائيلَ بحال هؤلاء، فخافوا، فلذلك قالوا: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾[٥].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا﴾؛ أي: بالقتال، ﴿حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا﴾ بغيرِ قتال، فيُسلِّموها لنا، ﴿فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا﴾ أي: يسلِّموها لنا طائعين، أو بغيرِ قتال، ﴿فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ بلادَهم حينئذٍ.

* * *

(١) في (أ): «عمره».

(٢) في (ف): «زمن».

(٣) خبر عوج بن عنق من خرافات وأباطيل بني إسرائيل. انظر بيان ذلك في «تفسير ابن كثير» عند هذه الآية، و«الإسرائيليات» لأبي شهبة (ص: ١٨٥).

(٤) بعدها في (ر): «كان طول عوج».

(٥) لا يخفى أن هذا من الإسرائيليات التي لا يوافقها عقل ولا نقل، وقد نبهت عليها غير مرة. والله الهادي.

(٢٣) ـ ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ﴾؛ يعني: قال اثنان مِن أولئك الاثني عشر، وهما يوشعُ بنُ نون وكالب بن يوفنَّا، وهما مِن الذين يَخافون اللهَ، ولا يَخافون غيرَهُ، وذلك بإنعامِ الله عليهما بالتَّوفيق للاعتماد عليه، والأمنِ بوعدِه.

وقيل: أي: من الذين يَخافون الجبَّارينَ طبعاً كخوف غيرهما، لكن أنعمَ اللهُ عليهما بالثِّقةِ بوعدِه، ومجاهدةِ النَّفسِ في الائتمار بأمرِه.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله[١]: وعن سعيد بن جبير أنَّه كان يَقرؤها: (يُخافون) بضمِّ الياء[٢].

قال أبو عبيد: جعلَ الرجلين من الجبارين وقد أسلما فاتبعا موسى عليه السلام[٣].

وقوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ﴾؛ أي: قالا لهم: ادخلوا أنتم بابَ بلدِهم، فإذا دخلتم انهزَموا، وكانت الغلبةُ لكم.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾؛ أي: إنَّ الإيمانَ بالله يوجِبُ الثِّقةَ بوعد الله، والاعتمادَ على نُصرةِ الله، والائتمارَ بأمرِ الله.

---

(١) قوله: «وقال الإمام أبو منصور رحمه الله»: ليس في (ف).

(٢) لم أقف عليها في «تأويلات أهل السنة» لأبي منصور الماتريدي، (١/ ٤١١)، والقراءة في «مختصر في شواذ القرآن» لابن خالويه (ص: ٣٨) عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير، وفي «المحتسب» (١/ ٢٠٨) عن سعيد بن جبير ومجاهد.

(٣) القول في «تفسير الثعلبي» (٤/ ٤٣) دون نسبته لأبي عبيد.

(٢٤) ـ ﴿قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾.

وقال الكلبيُّ: قالوا: يا موسى أتكذِّبُ عشرةً، وتُصدِّقُ اثنين؟ وعادوا إلى الكلامِ الأوَّل، وذلك قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا﴾؛ أي: وإنْ كثُرَ القول، وامتدَّ الزَّمان.

وقوله تعالى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ﴾ مِن أهل الظَّاهرِ مَن حمل هذا على الظَّاهر، وقال: اعتقدوا في الله الذَّهابَ، وهو كفرٌ مِنهم، لكن لا وجهَ لهذا؛ لأنَّهم لو قالوا ذلك اعتقاداً، وكفروا به لحاربَهم موسى عليه السلام، ولم تكن مقاتلةُ الجبَّارينَ أولى من مقاتلةِ هؤلاء، لكن له وجهان صحيحان:

أحدهما: اذهب أنت، وربُّك جلَّ جلالُه يعينُك على قتالِك، وهو كقوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧].

والثاني: ﴿وَرَبُّكَ﴾؛ أي: سيِّدُك، وهو أخوك الأكبرُ هارون، اذهبا جميعاً فقاتلاهم، وقولُه: ﴿أَنتَ﴾ زِيدَ عماداً لضمير ﴿فَٱذْهَبْ﴾، ويجوزُ في المرفوع إثباتُه وحذفُه، قال تعالى: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَـٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا﴾ [النمل: ٦٨]، وقال: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ﴾ [النمل: ٦٧]، وفي المخفوضِ لا بدَّ مِن الإثبات؛ أي: لا بد من إعادة العامل(١).

وقوله تعالى: ﴿فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ «ها» تنبيهٌ و«هنا» إشارةٌ إلى المكان الحاضر، وهناك إشارة إلى المكان الغائب، و﴿قَـٰعِدُونَ﴾؛ أي: مستَقِرُّون ثابتون، لا نَتقدَّم إلى بابِ بلدِهم، ولا نُقاتل أهلَه.

---

(١) قوله: «أي لا بد من إعادة العامل» من (ف).

وقال المقدادُ بن الأسود رضي الله عنه للنَّبيِّ ﷺ: إنَّا لا نقولُ لك: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾، ولكن نقول: اذهب أنت، وربُّك يعينُك، وإنَّا معكم مقاتلون[١].

* * *

(٢٥) ـ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾؛ أي: قال موسى: يا رب، إنِّي لا أملكُ إلَّا نفسي، وأخي أيضاً لا يملِكُ إلَّا نفسَه، فلا نقدِرُ على تكليف هؤلاء شيئاً، وهو رفعٌ عطفاً على موضع الضمير في ﴿أَمْلِكُ﴾، كما في قوله تعالى: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ الآية [الأنعام: ١٤٨].

وقيل[٢]: ﴿إِلَّا نَفْسِي﴾ وإلَّا أخي، فإنَّه يُطيعُني ولا يُخالِفُني، فأنا مالكٌ أمرَه بظاهرِ الحال وموافقتُهُ[٣] إيَّاي في كلِّ شيءٍ.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: ولـمَّا ادَّعى أنَّه يَملِكُ نفسَه، عُرِّفَ عجزَهُ عن ملكِهِ نفسَه، حيث أخذَ برأسِ أخيهِ يجرُّه إليه.

ويقال: ﴿لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي﴾؛ أي: لا أدَّخرها عن البذلِ في أمرِك، ولا أملِكُ إلَّا أخي، فإنَّه لا يُؤثِرُ بنفسِه عن الذي كلَّفتُهُ مِن قبلك[٤].

وقوله تعالى: ﴿فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾؛ أي: أخْرِجنا مِن[٥] عدادهم، ولا تُلحِقنا بهم في استحقاقِ العقوبة.

---

(١) رواه بنحوه البخاري في «صحيحه» (٣٩٥٢) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) بعدها في (ر): «﴿لَآ أَمْلِكُ﴾ أي».

(٣) في (أ): «ولموافقته».

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤١٧).

(٥) في (أ): «عن».

وقيل: أي: اقضِ بيننا وبينَهم، قال تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤]؛ أي: يُقضى.

وقيل: أي: باعِدْ بيننا وبينَهم، قال الرَّاجزُ:

يـا رَبِّ فافـرُق بيــنَه وبيـنـــي أَشَدَّ مـا فرَّقـتَ بيـن اثْنيـنِ[1]

وقيل: أي: ميِّز بيننا وبينَهم في الآخرة، فيكونُ هؤلاء في النَّار، وهؤلاء في الجنَّة، ولم يقل: بيننا وبينهم؛ لأنَّ فيهم مَن أطاعَهُ، كيوشع وكالب، فلذلك قال: ﴿وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ على التَّخصيص.

* * *

(٢٦) - ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: فإنَّ الأرضَ المقدَّسةَ ممنوعةٌ عليهم أنْ يَدخلوها ويَسكنوها، والتَّحريمُ: المنع، قال تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ [القصص: ١٢]، وهو تَفعيلٌ مِن الحرمان، وكان ذلك عقوبةً لهم بعصيانِهم.

وقيل: أي: التَّوبةُ محرَّمةٌ عليهم، فلا يَتوبون.

وقولـه تعالـى: ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ ظـرفٌ لقولـه: ﴿مُحَرَّمَةٌ﴾، وقيـل: لقولـه: ﴿يَتِيهُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: يَبقون مُتحيِّرين في الأرضِ التي هُم فيها، وهي البرّ.

---

(١) ذكره أبو عبيدة في «مجاز القرآن» (١/ ١٦٠)، والطبري في «تفسيره» (٨/ ٣٠٥)، وانظر ما علقه عليه الشيخ محمود شاكر في تعليقه على «تفسير الطبري» (١٠/ ١٨٨).

والتِّيهُ: التَّحيُّر الذي لا يُهتَدى لأجلِه للخروجِ إلى الطَّريقِ المستقيم، والتِّيهُ: التكبُّر، مِن ذلك، والتَّيهاءُ: الأرضُ التي لا يُهتَدَى فيها، وكان التِّيهُ مقدارَ ستَّةِ فراسخ عرضاً، في اثني عشرَ فرسخاً طولاً.

وقال مقاتل: أوحى اللهُ تعالى إلى موسى عليه السَّلام أنِّي أحبِسُهم بالنَّهار، وأسيِّرُهم باللَّيل أربعينَ سنة، فإذا بلغَ أجلُهم أربعين سنةً، أرسلتُ عليهم الموتَ، فلا يَدخلُها إلَّا خلوفُهم، غير يوشعَ وكالب، وهما يسوقان بني إسرائيلَ إلى تلك الأرضِ، فتاهَ القومُ في ستة فراسخ، وقالوا لموسى: ما صنعْتَ بنا، ونَدِمَ موسى على ما دعا عليهم[1].

وقيل: لم يقصد موسى بالدُّعاء هذا النوعَ من العذاب، بل أرادَ بهم ما هو أخفُّ منه، وحَزِنَ بهذا، فخفَّفَ الله تعالى عليه ذلك، وذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾؛ أي: لا تحزَن عليهم بما أصابَهم وهم فاسقون مستحِقُّون لذلك.

قال مقاتل: ثمَّ إنَّ اللهَ تعالى أخرجَ ذراريهم بعد أربعين سنةٍ، وقد هلكَتِ العُصاةُ في التِّيه، فأتَوا أريحا، فقتلوا مقاتليهِم، وسبوا ذراريهم، وقتلَ ثلاثةً مِن الجبَّارين، ومات في التِّيهِ كلُّ ابن عشرين سنة، ومات هارونُ في التِّيهِ، ومات موسى بعدَهُ بسنةٍ، واستخلف على بني إسرائيل يوشع بن نون[2].

وقيل: قد أُجيبَتْ دعوةُ موسى في الفَرْق بينه وبينهم؛ فإنَّهم كانوا محبوسين في التِّيه، وموسى وهارون ويوشع وكالب لم يكونوا محبوسين، بل كانوا مخيَّرين،

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٤٦٧ ـ ٤٦٨).

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٤٦٨).

وإنَّما مَكثوا في التِّيهِ حفظاً لهم على الإسلام والطَّاعة؛ فإنَّهم كانوا يَرجعون عن الدِّين لولاهم.

وقيل: إنَّ قوله: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ ما علمَ به بنو إسرائيل، بل علِم به هو، أو[1] هؤلاء الثلاثة معه على الخصوص، ولو علموا بذلك لما تَكلَّفوا المسيرَ كلَّ يومٍ مع علمِهم بالحبسِ.

وقيل: إنَّ تظليلَ الغمامِ وإنزالَ المنِّ والسَّلوى كان في هذا.

وقيل: هذا نعمةٌ، وكان حبْسُهم محنةً، بل ذلك كان حين خرجوا من البحرِ، ودخلوا تلك البَرِّيَّة، وهذه البَرِّيَّةُ غيرُ تلك البَرِّيَّةِ[2].

وقيل: يَجوزُ أن يكون هذا في هذه البَرِّيَّة، والعقوبةُ في الدُّنيا لا تُنافي النِّعمةَ؛ فإنَّها ليست بدار الجزاءِ على الحقيقة.

وفي تفسير الربيع بن أنس أنَّ حبسَهُم في التِّيهِ كان أربعينَ سنةً، ثمَّ زالَ، فدخلوا تلك الأرض[3].

والصَّحيحُ أنَّهم ماتوا فيها، وفُتِحَت تلك البلادُ لأولادهم.

***

(٢٧) ـ ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على أهلِ الكتاب هؤلاء؛ الذين قال أسلافُهم

---

(١) قوله: «هو أو» ليس في (ف).

(٢) لفظ: «البرية» من (أ).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٨/ ٣٠٧ ـ ٣٠٨) مطولًا.

لموسى ذلك، وهؤلاء الذينَ في عصرِك مِن أولادِهم يَحسدُونك، وقد همُّوا أنْ يَبسطوا أيديَهم إليك بالقتل، فأخبِرهم بقِصَّةِ ابنَي آدمَ، الذي بَسطَ يدَهُ إلى صاحبِه بالقتلِ حسداً له، وإلى ماذا صار أمرُه مِن خُسران الدُّنيا والآخرة، فكذلك حالُ هؤلاء.

وقيل: يَرجِعُ هذا إلى قوله: ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [المائدة: ١٥]، وكان من ذلك هذه القصَّة.

وقوله تعالى: ﴿نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ﴾؛ أي: خبرَهما.

وقوله تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: ليَعتبروا ويتذكَّروا، لا ليَحمِلوه على اللَّعبِ والباطل ككثيرٍ مِن الأقاصيص التي هي من لهوِ الحديث.

قال الحسن: وبعض الناس يقولون[١]: إنَّ هذين الرجلين من بني إسرائيل[٢]، وضربَ اللهُ المثلَ بهما؛ لبيانِ أنَّ التَّحاسُدَ في بني إسرائيل قديمٌ، وبلغ ذلك حتَّى قَتلَ مَن رُدَّ قربانُه مَن قُبِلَ قربانُه؛ حسداً له على ما آتاهُ الله من فضلِه، وهؤلاء أولادُ أولئك، فلا تُنكِر يا محمَّدُ حسدَهم إيَّاكَ.

وسمَّاهما ابنَي آدم؛ لأنَّهما مِن نوافله، كما سمَّانا بني آدم، وهذا وإن كان أقربَ إلى النَّظم، فهو خلافُ المأثورِ المشهورِ أنَّهما وَلَدا آدمَ لصلبه؛ هابيل وقابيل، على ما رُويَ عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما أنَّه قال: كانت حوَّاءُ تَلِدُ في كلِّ بطنٍ اثنين؛ غلاماً وجاريةً، وقد ولدَت خمسَ مئة بطنٍ، فولَدَت أوَّل بطنٍ قابيلَ وأختَه إقليما، ثمَّ مكثَت سنتَين، ثمَّ ولدَت البطنَ الثَّاني هابيلَ وأخته لبوذا[٣].

---

(١) في (ر) و(ف): «بعده يقول» بدل: «يقولون».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٨/ ٣٢٤). وذكره ابن كثير في «تفسيره»، وقال: وهذا غريب جدًّا، وفي إسناده نظر.

(٣) اسم أخته في «تفسير مقاتل» (١/ ٤٦٩)، و«تفسير أبي الليث» (١/ ٤٢٩): «ليوذا»، و«تفسير =

فلمَّا أدركوا، أمرَ اللهُ تعالى آدمَ أنْ يُنكِحَ قابيلَ أختَ هابيل، وأنْ يُنْكِحَ هابيلَ أختَ قابيل، فرضيَ هابيلُ بالذي أُمِر، وسخِطَ قابيل؛ لأنَّ أختَه كانت أحسنَهُما، وقال: ما أمرَ اللهُ آدمَ بهذا قطّ، ولا أزوِّجُ هابيلَ أختي، قال آدمُ: فقرِّبا قُرباناً، فمِن أيِّكما تُقُبِّل تزوَّجَها، فقرَّبَ هابيلُ حملاً سميناً مِن خيرِ غنمِه [و][1] لبناً وزُبداً، وقرَّبَ قابيلُ فسيلاً مِن شرِّ زرعِه، فانطلقَ بهم آدمُ إلى الجبلِ، فأضمرَ قابيلُ في نفسِه: ما أبالي تَقبَّل اللهُ منِّي أم لا، لا يَتزوَّج هابيلُ أختي أبداً، وأضمرَ هابيلُ في نفسِه الرِّضا لله، فنزلَت نارٌ مِن السَّماء، فتَقبَّل اللهُ تعالى مِن هابيل؛ لأنَّه كان زاكيَ القلب، ولم يَتقبَّل مِن قابيل، فنزلوا من الجبلِ وتَفرَّقوا.

ثمَّ أتى قابيلُ هابيلَ وهو في غنمه، فقال له: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾[2]، قال: ولم؟! قال: لأنَّ اللهَ تعالى قبلَ قربانَك وردَّ قُرباني، وستَنكِحُ[3] أختي الحسناء، وأنكِحُ أختَك القبيحةَ، فيَتحدَّثُ النَّاسُ أنَّك خيرٌ منِّي، ويَفخَرُ ولدُكَ على ولدي، قال له هابيل: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي[4]: ممن كان زاكي القلبِ[5]، ورُدَّ عليك لأنَّك لست بزاكي القلبِ. وروي أن الكبش كان أبيض[6] أعين أقرن.

وقال السُّدِّيُّ: كان قابيلُ أكبرَ مِن هابيل، فأرادَ آدمُ الخروجَ إلى مكَّة، فطلبَ

= التعلبي» (٤/ ٤٩).

(١) ما بين حاصرتين من «تفسير الثعلبي» (٤/ ٥٠).

(٢) بعده في (ف): «وهو قوله تعالى: ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ قال قابيلُ لهابيل: لأقتلنَّك».

(٣) في (أ) و(ف): «وتنكح».

(٤) قوله: «من المتقين أي» ليس في (أ)

(٥) قوله: «أي: ممن كان زاكي القلب» ليس في (ر).

(٦) «أبيض»: زيادة من (أ) و(ف).

إلى السَّماء أنْ تحفظَ عليه أهلَه وولدَه بأمانةِ الله، فأبت، وطلبَ إلى الأرضِ، فأبَت، وطلبَ إلى الجبالِ، فأبت، فقال قابيل[1]: أنا أحفظُهم عليك بأمانة الله، فضَمَّنهُ ذلك، وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، وانطلق آدمُ إلى مكَّة، فطاف بالبيت، فطلب هابيلُ إلى قابيل أنْ يُزوِّجَهُ أختَه، فقال له قابيل: أنا أكبرُ منك، وأنا وصيُّ أبي، فقال له هابيل: ما أنت خيراً مني، تعال فلنقرِّب قُرباناً، فأيُّنا تُقبِّلَ قربانُه فهو خيرٌ مِن صاحبه، وكان قابيلُ صاحبَ زرعٍ، وهابيلُ صاحبَ غنمٍ، فأخرج قابيلُ سُنبلاً، وأخرج هابيلُ كبشاً سميناً، فجاءت نارٌ فأخذت الكبشَ، وتركتِ السُّنبلَ، فحسَده قابيلُ، فقال: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾، فقال هابيل: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ﴾؛ أي: تَقرَّبا إلى الله بقربانٍ؛ قابيلُ بالسُّنبلة، وهابيلُ بالكبش، فتُقُبِّلَ مِن هابيل، ولم يُتقبَّل مِن قابيل، **وقوله تعالى:** قربا قرباناً؛ أي: قرَّبَ كلُّ واحدٍ منهما[3] قرباناً، أو هو مصدرٌ، فصَلَح للاثنين والجمع.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾؛ أي: قال قابيلُ ذلك؛ أي: كيلا يَقولَ النَّاسُ إذ رأوك ورأوني: هذا مقبولُ القُربان، وهذا مردود القربان[4].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: قال ذلك هابيل، قال فضالةُ بنُ

---

(١) في (أ): «هابيل».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٨/ ٣٢٢ ـ ٣٢٣) من رواية السدي عن أبي مالك وأبي صالح عن ابن عباس، وعن مرة عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ.

(٣) لفظ: «منهما» من (ف).

(٤) في (أ): «مردوده وقول قابيل»، وفي (ر): «مطرود القربان» بدل: «مردود القربان».

عبيد: لأنْ أكونَ أعلمُ أنَّ اللهَ قد تَقبَّل منِّي مثقالَ حبَّةٍ من خردل أحبُّ إليَّ مِن الدُّنيا وما فيها، وتلا هذه الآية[١].

وقالوا: قُبِلَ قُربان هابيل لتعظيمه، ورُدَّ قُربان قابيلَ لتحقيرِه، وما ينبغي لأحدٍ أنْ يَترُكَ تعظيمَ الله فيما يَتقرَّبُ به إليه، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ الآية [الحج: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾ الآية [الحج: ٣٧] ـ اجتمع في قابيل عقوقُ الأبِ، وحَسَدُ الأخ، وتحقيرُ القُربان، والتَّأخيرُ في الائتمار، فأفضى به ذلك إلى ردِّ الأمر والوقوعِ في الكفر، وكذلك إيثارُ[٢] المعاصي والإصرارُ عليها والاستهانةُ بها.

* * *

(٢٨) ـ ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: لئن مددتَ، و(اللَّام) للقسم، وكذلك أجيب بـ ﴿مَآ﴾ الذي هو مِن جواب القسم، ولولاه لكان بالفاء، لأنَّ جوابَ الشرط كذلك، وإذا اجتمعا، وصَدرُ الكلامِ للقَسَم، كان اعتبارُه أولى.

وقوله تعالى: ﴿مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾ قيل: أي: أستَسْلِمُ وأصبرُ، ولا أعارض، وكانت معارضةُ القاتِلِ يومئذٍ حراماً، والتَّسليمُ واجباً، فأخبرَ أنَّه يَخافُ الله، ولا يَرتكبُ الحرام.

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٧٨ ـ زوائد حماد)، وابن أبي الدنيا في «الإخلاص والنية» (٢٠)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ١٧).

(٢) في (ف): «إتيان».

وقيل: بل كان واجباً ذلك؛ فإنَّ تركَ المعارضةِ إهلاكُ نفسه، ومشاركةُ القاتل[١] في إثمه، لكن معناه: ﴿مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ﴾ مبتدئاً ظالماً لقصدِك ذلك منِّي، وكان عازماً على مدافعتِه إذا قصدَ قتلَهُ، لكن أخذَهُ على غفلةٍ وهو نائم، فشدخَ رأسَه، فلم يُمكنهُ دفعُه.

وذكر[٢] الإمامُ أبو منصورٍ رحمه الله في «تأويلاته»: أنَّ أبا موسى الأشعريَّ رَوى عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «كسِّروا قِسِيَّكُم، وقَطِّعوا أوتارَكم، والزموا أجوافَ البيوت، وكونوا كخيرِ ابني آدم»[٣].

قال الشيخ: هذا في الذين يَقتتلان مع غير إمامٍ عادلٍ[٤] بحميَّةٍ أو عصبيَّةٍ، فهما على الخطأ، فأمَّا الخوارجُ على إمام الهدى فقتالُهم واجبٌ بالإجماع[٥].

روى أنسٌ وأبو سعيدٍ الخدريُّ رضي الله عنهما: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «سيكونُ في أمَّتي اختلافٌ وفرقةٌ، قومٌ[٦] يُحسِنونَ القولَ، ويُسيئون العملَ، يَمرقون مِن الدِّين كما يَمرقُ السَّهمُ مِن الرَّميَّةِ، ولا يَرجعون، هم شرُّ الخليقةِ والخلق، طُوبى لـمَن قتلَهم وقتلوه، ويدعون إلى كتابِ الله وليسوا منه في شيءٍ، مَن قتلَهُم كان أولى بالله منهم»[٧].

---

(١) في (ر) و(ف): «للقاتل».

(٢) في (ف): «وقال».

(٣) لم أره في «تأويلات أهل السنة» لأبي منصور الماتريدي، والحديث أخرجه أبو داود (٤٢٥٩)، وابن ماجه (٣٩٦١).

(٤) في (ف): «عدل».

(٥) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٣/ ٤٩٩).

(٦) في (ف): «وهم» بدل: «قوم».

(٧) رواه أبو داود في «سننه» (٤٧٦٥).

وقال النبيُّ ﷺ: «قاتِلْ دون مالِكَ حتَّى تمنعَ مالَك، أو تكونَ مِن شهداءِ الآخرة»[١].

وقال: «من قُتِلَ دون مالِه فهو شهيدٌ»[٢].

***

(٢٩) ـ ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ﴾؛ أي: تَرجِعَ، وقيل: أي: تَحتمل[٣].

وقوله تعالى: ﴿بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ﴾؛ أي: بإثمِ قتلِك إيَّايَ، وبسائرِ ما أثِمْتَ به؛ مِن عقوقِ الأب، والحسد، والحقد، والكُفر. أضافَ الإثمَ إلى نفسِهِ أوَّلاً؛ لأنَّه أثِمَ بسببِه، فيَجوزُ إضافتُه إلى كلِّ واحدٍ منهما، وهو كقوله: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ [نوح: ٤]، وقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ [الأعراف: ٣٤]، أضافه إلى المؤجَّلِ تارةً، وإلى المؤجِّلِ له تارةً أخرى، فيُضافُ الإثمُ أيضاً إلى الآثم بالجناية، وإلى المجنيِّ عليه أيضاً، وهذا معنى قول قتادةَ ومجاهدٍ والضَّحَّاكِ والسُّدِّيِّ رحمهم الله[٤].

ثمَّ ليس هذا رضا بالذَّنب، بل هو إرادةُ عقوبةِ المذنب، ولذلك جاء في بعض التفاسير: إنِّي أريدُ أنْ تبوءَ بعقوبة إثمي؛ أي: بعقوبةِ إثمِك في قتلي، ﴿وَإِثْمِكَ﴾؛ أي: بعقوبةِ سائر آثامك.

وقيل معناه: أريدُ أن تكون عليك آثامي التي كانت بذنوبي بسببِ قتلكَ إيَّاي،

---

(١) رواه النسائي في «سننه» (٤٠٨١) من حديث مخارق رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري في «صحيحه» (٢٤٨٠)، ومسلم في «صحيحه» (١٤١) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٣) في (ر) و(ف): «تتحمل».

(٤) روى أقوالهم الطبري في «تفسيره» (٨/ ٣٣٠ ـ ٣٣٢).

فقد رُويَ أنه يؤخَذُ من سيِّئات المظلومِ يوم القيامة فتحمَلُ على الظالـم[١].

وقوله تعالى: ﴿فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: فتعذَّبَ بالنَّار إذا بُؤتَ بالإثم، وذلك جزاءُ مَن قتلَ نفساً بغيرِ حقٍّ، واختارَ الدُّنيا على الآخرة، ومَن فعل ذلك، فقد نقصَ نفسَهُ حظَّها مِن ثوابِ الله تعالى.

* * *

(٣٠) ـ ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ﴾ يقال: طاعَ لفلانٍ كذا؛ أي[٢]: أتاه طوْعاً منقاداً، وطَوَّعَ متعدٍّ له؛ أي: سهَّلَت له نفسُهُ قتلَ أخيه حتَّى فعلَ غيرَ خائفٍ، ولا مُتفكِّرٍ في عاقبتِه، فأطاعَ هواهُ، وقتلَ أخاهُ.

وقال قتادة: زَيَّنَت له نفسُه.

وقال مجاهدٌ: شجَّعتهُ[٣].

وقال أبو عبيد: أعانَتهُ على ذلك[٤].

وقال الكلبيُّ: تابعتهُ نفسُه على ذلك.

---

(١) روي في هـذا المعنـى أحاديـث؛ منهـا مـا رواه البخـاري فـي «صحيحـه» (٢٤٤٩) عن أبـي هريرة رضـي الله عنـه، قال: قال رسـول الله ﷺ: «مـن كانت له مظلمـةٌ لأخيه من عرضه أو شـيء، فليتحلَّلهُ منـه اليـوم قبـل أن لا يكون دينـارٌ ولا درهـمٌ، إن كان له عمـلٌ صالحٌ أخـذَ منه بقدر مظلمتـه، وإن لم تكـن له حسـناتٌ، أخذ من سـيئات صاحبه فحُمِـلَ عليه».

(٢) في (ف): «إذا».

(٣) قولا قتادة ومجاهد رواهما الطبري في «تفسيره» (٨/ ٣٣٧).

(٤) انظر: «تهذيب اللغة» للأزهري (٣/ ١٠٥)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٧/ ٣٤١).

وقال يمانُ بن رئاب: سهَّلت له[١].

وقال عبد العزيز بن يحيى[٢]: أجابتهُ إلى ذلك.

وقال أبو عبيدة[٣]: جرَّأتهُ[٤].

وقال المؤرِّج: رخَّصت له[٥].

وقال عطاء[٦]: سوَّلت له نفسُه[٧].

وقوله تعالى: ﴿فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾؛ أي: صار خاسراً دنياهُ وآخرتَهُ، فقد أسخطَ والديه، وفقدَ أخاهُ، وأسخطَ ربَّه، وصار إلى النَّار.

وفي بعض الآثار أنَّه لم يَدرِ كيف يقتلُه، فتمَثَّل له إبليسُ ـ لعنه الله ـ في هيئة طائرٍ، فأخذَ طائراً، فقطعَ رأسَهُ[٨]، ثمَّ وضعَهُ بين حجرَين، فشدخَ رأسَه يُعلِّمُه القتلَ،

---

(١) انظر: «تفسير البغوي» (٣/ ٤٣).

(٢) هو عبد العزيز بن يحيى الكناني المكي، ينسب له كتاب «الحيدة»، (قال الذهبي: لم يصح إسناده إليه فكأنه وضع عليه)، وله تصانيف، كان يلقب الغول لدمامة منظره، كان من أهل العلم والفضل، تفقه للشافعي واشتهر بصحبته. ترجم له المزي في «تهذيب الكمال»: (١٨/ ٢٢٠ ـ ٢٢١) تمييزاً، والذهبي في «ميزان الاعتدال»: (٢/ ٥٥٧).

(٣) في (أ): «عبيد».

(٤) نص قول أبي عبيدة في «مجاز القرآن» (١/ ١٦٢): أي: شجعته وآتته على قتله، وطاعت له؛ أي: أطاعته.

(٥) قول المؤرج من (أ).

(٦) في (ر): «وقيل» بدل: «وقال عطاء».

(٧) بعدها في (ر): «فقتله».

(٨) كذا في النسخ!!

فطلبَهُ ليقتلهُ، حتَّى انتهى إليه في ظلِّ جبلٍ نائماً، وغنمُه تَرعى حولَهُ، فأخذَ صخرةً، فضربَ بها رأسَهُ فمات[١].

وقال الأعمش: لمَّا قتلَ ابنُ آدم أخاهُ، نَشِفَتِ الأرضُ دمَهُ، فلُعِنَت، فلم تَنْشَف دماً[٢] بعده[٣].

وقال النبيُّ ﷺ: «لا تُقتَلُ نفسٌ ظلماً إلَّا كان على ابنِ آدم كِفْلٌ مِن دمِها، وذلك أنَّه أوَّلُ مَن سنَّ القتلَ»[٤].

وقال عبدُ الله بنُ عمر رضي الله عنهما: وقابيلُ: هو أبو يأجوجَ ومأجوج.

وقال عليُّ بن الحسين: وُكِّلَ به ملكان، يَطلُعان بهِ مع الشَّمس إذا طَلَعَت، ويَغرُبان به مع الشَّمسِ إذا غربَت، ويَنضحانِه بالماء الحارِّ مع حرِّ الشَّمس، حتَّى تقومَ السَّاعة[٥].

وقال ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: لـمَّا قتلَ قابيلُ هابيلَ، وآدمُ بمكَّةَ؛ اشتاكَ الشَّجرُ، وتَغيَّرَتِ الأطعمةُ، وحَمِضَتِ الفواكهُ وأمرَّ الماءُ، واغبرَّتِ الأرضُ، فقال آدم: حَدثَ في الأرضِ حادثٌ، فأتى الهندَ وهو يقول:

تَغيَّـرتِ البـلادُ ومَـن عليها ... فوجـهُ الأرضِ مغبَـرٌّ قبيـحُ

تَغيَّـرَ كـلُّ ذي لـونٍ وطعـمٍ ... وقلَّ بشاشـةُ الوجـهِ الصَّبيـح[٦]

---

(١) روى الطبري نحوه في «تفسيره» (٨/ ٣٣٨) عن ابن جريج.

(٢) بعدها في (ر): «آخر».

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٨/ ٣٤٥)، وقول الأعمش هذا لم يرد في (ف).

(٤) رواه البخاري (٣٣٣٥)، ومسلم (١٦٧٧) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٥) ذكره الجرجاني في «درج الدرر» (٢/ ٦٦٦).

(٦) يروى بجر القافية على الإقواء (وهو أن يأتي بيت مجروراً وآخر مرفوعاً)، ويروى بنصب =

وما لي لا أجودُ بسكبِ دمعٍ وهابيلٌ تَضمَّنهُ الضَّريحُ

أرى طولَ الحياة عَلَيَّ غَمًّا فهل أنا مِن حياتي مُستريحُ[(١)]

ورُوي أنَّ الوحوش والطيور كانت تألَفُ أولادَ آدم، فلمَّا وقعَ هذا نفرَتْ واستوحشَتْ، وهاجَتْ ريحٌ أظلمَتْ لها الدُّنيا، وكان آدمُ في مناسكِ الحجِّ، فقال لجبريل عليه السَّلام: ما هذا؟ فقال: هذا مِن شؤمِ قتلِ ابنكَ قابيل أخاه هابيل، فحزنَ لذلك آدمُ، وبكى، ولم يَضحَكْ[(٢)] مئةَ سنةٍ لذلك.

ورُوي أنَّه لم يَقرَبْ آدمُ بعد ذلك حوَّاء مدَّة حياتِه.

***

(٣١) ـ ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: قتلَ أخاه، ولم يَدْرِ ما يَصْنَعُ به، فأرسلَ اللهُ غراباً يُثيرُ التُّرابَ عليه.

= «بشاشة» من غير تنوين، ورفع: «الوجه المليح» (أو الصبيح) قال أبو حيان في «البحر المحيط» (٨/ ١٦٣ ـ ١٦٤): وليس بلحن، قد خرجوه على حذف التنوين من «بشاشة»، ونصبه على التمييز، وحذف التنوين لالتقاء الساكنين.

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (١١/ ٢٨٠ ـ ٢٨١) (١٢٦٠) (طبعة دار التفسير) دون البيتين الأخيرين، وجاء ذكرهما عن ابن عباس أيضاً في الرواية التالية (١١/ ٢٨٣) (١٢٦١). قال الزمخشري في «الكشاف» (١/ ٦٢٦): وهو كذب بحت، وما الشعر إلا منحول ملحون. وقد صحّ أن الأنبياء عليهم السلام معصومون من الشعر.

(٢) بعدها في (ر): «بعد ذلك»، وفي (ف): «ما يضحك».

وقوله تعالى: ﴿لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾؛ أي: ليُبْصِرَهُ كيف يُخفي جثَّةَ أخيه، وقد كانت أنتنَت، فسُمِّيَت سوأةً لذلك.

وقيل: السوءةُ: العورةُ هاهنا، كما في قوله: ﴿يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ﴾ [الأعراف: ٢٦]، وقوله: ﴿لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ﴾ [الأعراف: ٢٧].

وقال قتادةُ: قَتَلَ غرابٌ غراباً، ثمَّ جعلَ يحثو عليه[(١)].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: جاء غرابٌ حيٌّ إلى غرابٍ ميتٍ، فواراهُ في التُراب[(٢)].

وقال الحسينُ بن الفضل: بعث اللهُ غراباً يَبحثُ في الأرضِ بمنقارِه، فعلم أنَّه يَبحثُ الأرضَ ليدفنَ بها أخاه.

وقال بعضُهم: جاء الغرابُ وأثارَ الأرضَ، ووارى به هابيل[(٣)].

وظاهرُ الآيةِ يَحتمِلُ كلَّ ذلك، واللهُ أعلمُ بحقيقة ما كان.

والإمامُ أبو منصور رحمه الله جعل الروايةَ الصَّحيحةَ مواراةَ الغرابِ هابيلَ، لا الغراب الآخر؛ لأنَّه قال: ﴿سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾، والغرابُ لا يكون له سوأةٌ[(٤)].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ﴾؛ أي: قال قابيل: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ وهي كلمةُ تأسُّف على ما فَعَلَ، فلا نفعَ له.

وقيل: الويلُ والويلة: الهلاك، وهذا على وجهِ النِّداء، والألفُ في آخرِه للنُّدبة، وتقديرُ النِّداء في مثل هذا: يا ويلةُ احضري، فقد آنَ أوانُك.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٨/ ٣٤٣).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٨/ ٣٤٢).

(٣) في (ف): «أخاه» بدل: «هابيل».

(٤) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٣/ ٥٠١).

وقوله تعالى: ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـٰذَا ٱلْغُرَابِ﴾ استفهامٌ بمعنى التعجُّب، وتقديره: أعجَزتُ عن أن أكونَ، وهذا تَحسُّرٌ منه على ما فاتَه مِن مقدارِ هذا العلم الذي وقفَ عليه الغرابُ.

قوله تعالى: ﴿فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِى﴾ نصبَ بالفاء في جوابِ الاستفهام.

وقوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ﴾؛ أي: صار نادماً على حملِه، لا على قتلِه، قال وهبُ بن منبِّه: حملَهُ ثلاثةَ أيَّامٍ لا يَدري ما يَصنع به، حتَّى بعثَ اللهُ تعالى الغُرابين.

وقال الكلبيُّ رحمه الله: حملَهُ سنةً.

وقال مجاهدٌ: حملَهُ مئة سنةٍ يَطوفُ به.

وقال الكلبيُّ: ندم على حملِه والتَّطوافِ به، ولو كانت ندامتُه على قتلِه، لكانت توبةً له.

وقال الحسينُ بنُ الفضل رحمه الله: كانت ندامتُه على ذنبِه، وكذلك قال في قوله تعالى: ﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَـٰدِمِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٧]: إنَّهم ندموا على قتلِها، لكنَّ ندمَ الأوَّلين لم يكن توبةً، وكانوا يعاقَبون على جنايتِهم بعد ندامتِهم، كما عُرِف في الذين عَبدوا العجلَ وندِموا، كما قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الأعراف: ١٤٩]، ومع ذلك عُوقِبوا بقَتلِ أنفسِهم، وإنَّما جُعِلَ النَّدمُ توبةً في حقِّ هذه الأمَّةِ خاصَّةً.

وقال الإمام أبو منصورٍ رحمَه الله: ويَحتمل أن يكون: ﴿فَأَصْبَحَ﴾ بمعنى: فيصبح، يعني: في القيامة، ماضٍ بمعنى المستقبل، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ١١٦][(١)].

وقيل: لـمَّا قتلَهُ نُودي: كنْ خائفاً أبداً، لا تَرى أحداً إلَّا خفتَهُ أنْ يَقتلك.

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٣/ ٥٠٠).

وقيل: لما قتلَهُ اسودَّ جسدُه[1]، فلما رآه آدمُ قال له: أين هابيل؟ قال: لم أكن وكيلاً عليه، قال آدم: بل أنت قتلتَهُ، ولذلك اسودَّ جسدُك[2]. قال الواقديُّ: فالسُّودان من ولدِه.

وقيل: لـمَّا هامَ به في الأرض خائفاً كان يَرميه مَن رآهُ بحجرٍ، فرآهُ بعض ولدِه، فرماهُ بحجرٍ فقتلَه[3].

وقيل: أمرَ اللهُ تعالى الرِّيحَ فألقتهُ في أحرِّ موضعٍ في الدُّنيا، فهو يُقاسيهِ في الصَّيف، وتُلقيهِ في أبردِ موضعٍ في الدُّنيا، فهو يُقاسيهِ في الشِّتاء.

وقيل: قَتَلَ أخاه وهو غيرُ مستحِلٍّ له، ولا رادٍّ للأمر، فكان عاصياً، بخلافِ أبيه، وقتلِ أخيه، واستئثارِ أختِه، لكن حملَهُ شؤمُ المعصيةِ على الكفر، وسببُ ذلك أنَّ إبليسَ ـ لعنه الله ـ تَمثَّلَ له في صورةِ إنسانٍ، وقال له: أتدري لم قُبِلَ قربانُ أخيك؟ قال: لا، قال: إنَّه كان يُعظِّمُ النَّارَ، ويَتواضَعُ لها، فلذلك أكلَتْ[4] قربانَهُ، فاسجُد أنت للنَّار، فسجدَ لها مِن دون الله، فكفرَ بذلك، وهو أوَّلُ مَن سجدَ للنَّار[5].

وقال محمَّدُ بن عليٍّ التِّرمذي رحمه الله: إنَّ قابيلَ تولَّدَ مِن قوَّةِ حبَّةٍ أكلَها آدمُ مِن الشَّجرةِ مع النَّهي، فأثَّر في فسادِ هذا الولد، فصار أباً ليأجوج ومأجوج الذين يَكثُر فسادُهم في آخر الزَّمان على وجهٍ لا تُعرَفُ غايتُه.

---

(١) في (ف): «وجهه».

(٢) في (ف): «وجهك». وفي هامش (ف): «جسدك».

(٣) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ٥٣).

(٤) في (ر): «قبلت».

(٥) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ٥٣)، وهذا الخبر وأمثاله مما سبق، مما لم يصل إلينا من طريق صحيح، وأغلبه من الإسرائيليات، فلا يعول عليه. والله أعلم.

(٣٢) ـ ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ أي: بسبب ذلك أكَّدنا القولَ على بني إسرائيلَ، وغلَّظنا[1] الميثاقَ عليهم، وخَصَّ بني إسرائيلَ بالذِّكرِ، والحكمُ ثابتٌ في[2] الكلِّ؛ لأنَّ المخالفين في عصرِ النَّبيِّ ﷺ بقيَّةُ بني إسرائيل، وكانوا يَدينون بالتَّوراة والإنجيل، فذكَّرهم ذلك.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: بغير نفسٍ قتلَها هو، فاستحقَّ القِصاص بذلك.

قوله: ﴿أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: ردَّةٍ؛ فإنَّ الفسادَ اسمٌ للكفر، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

وقيل: أي: زَنَى وهو محصَنٌ، قال النبيُّ ﷺ: «لا يَحِلُّ دمُ امرئٍ مسلمٍ إلا بإحدى معانٍ ثلاثة: زنًى بعد إحصان، وكفرٌ بعد إيمان، وقتلُ مؤمنٍ بغير حقٍّ»[3].

وقوله تعالى: ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ قال ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: هذا في حقِّ مَن قتلَ نبيًّا أو إماماً عدلاً[4]، فالآيةُ في حقِّ بني إسرائيل،

---

(١) في (ف): «أي غلظنا».

(٢) بعدها في (ر): «حق».

(٣) رواه أبو داود في «سننه» (٤٥٠٢)، والترمذي في «سننه» (٢١٥٨)، والنسائي في «سننه» (٤٠١٩)، وابن ماجه (٢٥٣٣) من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه.

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (٨/ ٣٤٨ ـ ٣٤٩).

وكانـوا معروفيـن بقتـلِ الأنبيـاءِ، وقتلُهم قتـلُ كلِّ العالـم، أو هو في حـقِّ كلِّ مقتولٍ، لكـن خُـصَّ بنو إسـرائيل بهـذا التغليـظ، كمـا خُصُّـوا بسـائرِ التَّغليظات.

وقيل: هو في حقِّنا كذلك، ومعنى الآية: أنَّ نفعَ هذا الواحدِ كان يَصلُ إلى كلِّ المؤمنين، وكان يقوم ببدنِه في مصالحِ كلِّ المؤمنين، وكان يقول بلسانِه: اللهمَّ اغفر للمؤمنين والمؤمنات، فيَصِلُ ذلك إلى كلِّ المؤمنين.

وقال الحسينُ بنُ الفضل رحمه الله: هذا في حقِّ قتل المؤمن، فقد قال النَّبيُّ ﷺ: «المسلمون كنفسٍ واحدة»[١]، فكان قتلُه قتلَهم.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ويَحتمِلُ أنَّه في أول قتيلٍ[٢] قُتِل، حتَّى جعلَ النَّاسُ يَقتلون بعد ذلك بعضَهم بعضاً، يَستنُّون به، وقال النبيُّ ﷺ: «من سنَّ سنةً سيِّئةً، فلهُ وِزرُها ووِزرُ مَن عمِلَ بها إلى يوم القيامة»[٣].

وقيل: أي: يَجِبُ عليه من القَتلِ ما يَجبُ عليه لو قتلَ النَّاس جميعاً.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ وهو في العفوِ عن القصاصِ، وإبقائه حيًّا، وهو إبقاءُ النَّفعِ منه على كلِّ النَّاس، فهو كإحياءِ كلِّ النَّاس.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾؛ أي: ولقد جاء بني إسرائيلَ هؤلاء ﴿رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الواضحاتِ الدَّالَّاتِ على صدقِهم.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾؛ أي: بعد

(١) لم أقف عليه.

(٢) لفظ: «قتيل»: ليس في (أ).

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٣/ ٥٠١)، والحديث رواه مسلم في «صحيحه» (١٠١٧) من حديث جرير رضي الله عنه.

ذلك المجيء بالدِّلالات لَمُجاوِزون حدَّ الأمرِ والنَّهي، وناقضونَ الميثاقَ بالعصيان والكُفر.

وقال عطاءٌ: أي: يُسرِفون على أنفسهم.

وقال الكلبي أي: لمشركون، فمِن قائلٍ: الملائكةُ بناتُ الله، وقائلٍ: عزيرٌ ابنُ الله، وقائلٍ: المسيحُ ابن الله، وقائلٍ: الأصنامُ شركاء الله.

وقال مقاتل: المسرفون في سفكِ الدِّماء واستحلالِ المعاصي[1].

***

(٣٣) - ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا﴾ لـمَّا ذكرَ عقوبةَ مَن قتلَ نفساً بغيرِ نفسٍ أو فسادٍ في الأرض، ذكرَ بعدَه عقوبةَ مَن يَسعى بالفساد في الأرض، وهم قطَّاع الطَّريق، وجعلَهم محاربين اللهَ ورسوله؛ لأنَّهم يُحارِبون المؤمنين، وهم أولياءُ الله ورسولِه، فشرَّفَهم بجعلِ محاربتِهم محاربتَه ومحاربةَ رسوله، وقال النبيُّ ﷺ: «يقول الله تعالى: من أهان لي وليًّا فقد بارزَني بالمحاربة»[2]، وهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأحزاب: ٥٧]، وقال في ضدِّه: ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ [الحشر: ٨].

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٤٧٢).

(٢) رواه البخاري في «صحيحه» (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب».

وقيل: معناهُ: يُخالِفون اللهَ ورسولَه؛ فإنَّه لا محاربةَ بدون المخالفة.

ثمَّ جعلَ أخذَ مالِ المسلمين بغير حقٍّ محاربةً لله ورسوله بأيِّ طريقٍ كان، فقال في الأخذ قهراً ومجاهرةً: ﴿يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، وقال في الأخذ لطفاً ومعاقدةً: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧٩].

وقوله: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾؛ أي: بفسادٍ.

وقيل: هو على الحال مصدرٌ بمعنى النَّعت، وتقديره: فاسدين أو مفسدين.

وقيل: هو مفعول ﴿وَيَسْعَوْنَ﴾؛ بمعنى: يكسبون، كما قال: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩]؛ أي: كسبَ، وأصلُهُ المشيُ عن سرعةٍ، واستُعيرَ في الكسبِ والتَّصرُّف؛ لأنَّه به يَحصُلُ غالباً.

وقوله تعالى: ﴿أَن يُقَتَّلُوٓا۟﴾ التَّقتيلُ: تكثيرُ القتل وتكريرُه.

وقوله: ﴿أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟﴾ التَّصليبُ: تكثيرُ الصَّلْبِ وتكريرُه، وهو نوعُ قتلٍ يكونُ مع التَّعليق في جذع.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ التَّقطيعُ: تكثيرُ القطعِ وتكريرُه، و﴿مِّنْ خِلَٰفٍ﴾؛ أي: تقطع اليدُ اليمنى والرِّجلُ اليسرى.

وقوله: ﴿أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ النَّفيُ: التَّبعيد، وقيل: هو التَّسييرُ في البلاد(١)، وتركُ التَّقرير في مكان، وقيل: هو الحبسُ في السِّجن.

و ﴿أَوْ﴾ في هذه الآية ليس للتَّخيير، بل هو للتَّفصيل، وقد بيَّنَّا وجوههُ(٢) في

---

(١) في (ف): «السير في الأرض» بدل: «التسيير في البلاد».

(٢) في (أ): «وجوه أو» بدل: «وجوهه».

أوائل سورة البقرة، ومعناه: أن يقتَّلوا، ويُكتفى به إذا كان مِن أحدِهم قتلُ أحدٍ مِن أهل الطَّريق، ويُصَلَّبوا مع ذلك، إذا كان منهم قتلٌ وأخذُ مالٍ، وتُقطَّعَ أيديهم وأرجلهم من خلاف، إذا أخذوا المال، ولم يكن منهم قتلٌ، ويُحبَسوا[1] في السِّجن إذا خَوَّفوا النَّاسَ في الطَّريق، ولم يكن منهم قتلٌ ولا أخذُ مالٍ، وهذا الحبسُ يكون نفياً عن الأرض معنًى؛ إذ لا يبقى لهم تَقلُّبٌ في الأرض، وقد قال بعض المسجونين شعر:

خرَجنا مِن الدُّنيا ونحنُ مِن اهْلِها فَلَسْنا مِنَ الأحياءِ فيها ولا الموْتَى
إذا جاءَنا السَّجَّانُ يوماً لحاجةٍ عَجِبنا وقُلنا جاءَ هذا مِن الدُّنيا[2]

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا﴾؛ أي: فضيحةٌ، و﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى المذكورِ قبلَه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؛ أي: مع عقوبةِ الدُّنيا.

وقال الكلبيُّ عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما: إنَّ رسولَ الله ﷺ وادعَ هلالَ بنَ عويمر ـ وهو أبو بردةَ الأسلميُّ ـ على ألَّا يعينَه، ولا يعينَ عليه، ومَن أتاهُ مِن المسلمين فهو آمن من[3] أنْ يُهاج، فمرَّ أناسٌ مِن بني كنانة يُريدون الإسلام بأناسٍ من[4] أسلمَ من قوم هلال، ....

---

(١) في (ر) و(ف): «أو يحبسوا».

(٢) اختلف في نسبتها، فنسبها الجاحظ في «المحاسن والأضداد» (ص: ٣٧ـ٣٨) لعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، ونسبت في «أمالي المرتضى» (١/ ١٤٥)، و«معجم الأدباء» (١/ ٣٣١)، و«إنباه الرواة» (١/ ٩٧) لصالح بن عبد القدوس، ونسبها ابن عبد البر في «بهجة المجالس» (٣/ ١٠٧ ـ ١٠٨) لعلي بن الجهم.

(٣) لفظ: «من» ليس في (ف).

(٤) تحرفت في النسخ الخطية إلى: «ممن».

ولم يكن هلال شاهداً يومئذٍ، فنهدوا[١] إليهم، فقتلوهم، وأخذوا أموالَهم، فبلغَ ذلك إلى رسولِ الله ﷺ، فنزل جبريلُ عليه السَّلام بالقضية فيهم: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الآية[٢].

فقال له جبريل: ابعثْ في طلبِ القوم، فمن قدَرْتَ عليه وقد قُتِلَ وأَخَذَ المال، فحَدُّهُ الصَّلب، وإنْ وجدتَه قد قَتَلَ ولم يَأخذِ المالَ فحدُّه القتل، وإنْ وجدتَه قد أخذَ مالاً ولم يَقتُل، فحَدُّهُ القطعُ، تُقطعُ يدُه اليُمنى ورجلُه اليُسرى، ومَن لم يقدِر عليه نُفِيَ مِن الأرض، والنَّفيُ مِن الأرض إذا عجَزوا عن إدراكِه، أن يُنادى عليه: مَن لقيه قتلهُ.

وقال سعيدُ بنُ المسيَّب: نزلَتِ الآية في العُرَنيِّين الذين ارتدُّوا، واستاقوا الإبلَ، وقَتلوا الرِّعاء، والقِصَّةُ مشهورةٌ[٣].

***

(٣٤) ـ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْۖ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ﴾ فتَسقطُ عنهم هذه الحدودُ.

وقوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[٤] يَغفرُ لهم بالتَّوبة فلا يُعذِّبُهم، ويَرحمُهم، فلا يُعاقِبُهم.

---

(١) يقال: نهد إلى العدو ينهد؛ أي: نهض. انظر: «الصحاح» للجوهري (مادة: نهد).

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ٥٥).

(٣) لم أقف عليه عن سعيد بن المسيب، ورواه الطبري في «تفسيره» (٨/ ٣٦٢) وغيره عن سعيد بن جبير، وقصة العرنيين رواها أيضاً البخاري (٢٣٣)، (٤١٩٢)، (٥٧٢٧)، ومسلم (١٦٧١) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٤) بعدها في (أ): «غفور».

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: والفرق بينه وبين سائر الحدود:

أنَّ التَّوبةَ مِن غيرِ المحارب لا تَظهرُ حقيقةُ، فلا تَظهرُ في إسقاطِ ما وجَبَ، وفي المحارب تَظهرُ.

والثاني: أنَّه لو لم يُقبَل منه ذلك لتَمادى في السَّعيِ في الأرض بالفساد، فيَلحقُ بالمسلمين مِن الضَّررِ أكثرُ مِن أخذِهم بذلك[1].

وقال القشيريُّ: السَّعيُ[2] بالفساد على ضربين؛ بالظَّاهرِ، وعقوبتُه هذه الظَّواهر، وبالباطن وعقوبتُه واردةٌ على السَّرائر، وذلك بقطعِ ما كان متَّصِلاً من وارداتِ الحقِّ، والسِّترِ بعد الكَشْف، والحجابِ بعد البَسط، واستشعارِ الوَحْشَة بعد الأنس، وتبديلِ تَوالي التَّوفيق بتتابعِ صنوفِ الخِذلان، والنَّفي عن بساطِ العبادة، والإخراجِ إلى متابعات النُّفوس، وذلك ـ والله ـ خزيٌ عظيمٌ، وعذابٌ أليم.

وقال في قوله: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ ﴾: مَن أقلعَ عن معاصيه، وارتدعَ عن ارتكاب مساويه، قبل أنْ يَنهتِكَ[3] عنه سِتْرُ السَّداد، لا تقامُ عليه في الظَّاهر حدودُ الشريعة، ولا يؤاخِذُه الحقُّ سبحانهُ وتعالى بسالفِ الجريمة، وإذا قَدَر عليه الإمامُ قبلَ إظهارِ التَّوبةِ، أقامَ عليه الحدَّ وإنْ تَقنَّع بنقابِ التَّقوى والخشية، وكذلك إذا سقطَ العبدُ عن عينِ الله، لم يصل بعدَهُ إلى ما كان عليه مِن تقريبِ اللهِ إيَّاه بالمشاهدة[4].

***

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٣/ ٥٠٨).

(٢) بعدها في (ر): «في الأرض».

(٣) في (أ): «نهتك».

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٢٠ ـ ٤٢١).

(٣٥) ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ فلا تُؤذوا عبادَ الله، وثِقُوا بوعدِ الله، ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

وقوله تعالى: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾؛ أي: القُربة بالتَّقوى، فلن يُقرِّبكُم إليه غيرُه، لا كما يَفعلُ هؤلاء اليهود بالتَّوسُّل بآبائهم[1]، والإفراطِ في ذلك، حتى يقولوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨].

وقوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ﴾ هؤلاء اليهودَ وسائرَ الكُفَّار.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾؛ أي: لِتأمنوا ما تخافون، وتَنالوا ما تَرجون.

وقيل: لمَّا قال: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ وهي القربة، قطعَ وَهْمَ القُربةِ بالمكانِ، فقال: ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ﴾؛ أي: هذا التَّقرُّب بسلوكِ سبيل طاعتِه واجتنابِ مخالفتِه.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: ابتغاءُ الوسيلة: التَّبرِّي عن الحولِ والقُوَّةِ، والتَّحقق بشهودِ الطَّولِ والمنَّة.

ويقال: ابتغاءُ الوسيلةِ: التَّقرُّب إليه بما سبقَ إليك مِن إحسانِه.

ويقال: هو خلوصُ العقدِ عن الشِّرك[2].

ويقال: هو استدامةُ الصِّدق في الوَلاء إلى آخر العمر.

---

(١) في (أ) و(ف): «بآبائهم» بدل من «إلى آبائهم».

(٢) في «لطائف الإشارات»: «الشك» بدل: «الشرك».

ويقـال: هـو تجريـدُ الأعمـالِ عـن الرِّيـاءِ، وتفريـدُ الأحـوالِ عـن الإعجاب، وتخليـصُ الأنفـاسِ عن الحظـوظ[١].

***

(٣٦) - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ذكرَ وعيدَ المتباعِدين بعد وعد المتوسِّلين، يقول: لو أنَّ الكُفَّار ملكوا جميعَ ما في الأرض، وملكوا مثلَ ذلك؛ ليفتدوا به، فيُخلِّصوا أنفسَهم مِن عذابٍ حضر[٢]، لم يُتقَبَّل ذلك منهم، ولم يُخلَّصوا، ولهم عذابٌ وجيع.

وقـال أنـسُ بـن مالك رضـي الله عنهما: قـال رسـول الله ﷺ: «يُقـالُ للكافر يوم القيامـة: أرأيت لـو كان لك ملءُ الأرض ذهبـاً، أكنتَ تفتدي به؟ فيقـول: نعم، فيقال: لقد سُـئلتَ أيسـرَ من ذلك»[٣].

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: اليوم يُقبَلُ مِن الأحبابِ مثقالُ ذرَّةٍ، وغداً لا يُقبَلُ مِن الأعداءِ ملءُ الأرضِ ذهباً ودرَّاً[٤].

***

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٢١).

(٢) في (ر): «جهنم».

(٣) رواه البخاري (٦٥٣٨)، ومسلم (٢٨٠٥): (٥٢).

(٤) في (أ) و(ر): «ودرة». وانظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٢٢).

(٣٧) ـ ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ قيل: أي: يَطمعون، كما يقولُ الرَّجلُ لآخر: إنَّما أريدُ أنْ تُعطيني كذا؛ أي: أطمع، وهو قولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠]، وقال أبو الدرداء[١]:

يقولُ المرءُ فائِدتي ومالِي ... وتقوى اللهِ أفضلُ ما استَفادَا[٢]

يُريدُ المرءُ أنْ يُعطَى مُناهُ ... ويَأبَى اللهُ إلَّا ما أَرادَا[٣]

فمعناه: يَطمعون اليومَ أنْ يَخرُجوا منها غداً، فقطعَ طمعَهم بقوله: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا﴾.

وقيل: معناه: أي: يَتمنَّون في النَّار أنْ يَخرجوا منها، ولا يكونُ ما يَتمنَّون.

وقيل: هو قصدُهم في النَّار إلى الخروج[٤]، ولا يمكَّنون منه، قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠].

وقيل ـ وهو قول الضَّحَّاك ـ: هو سؤالُهم الإخراجَ مِن النَّار، قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٧]، وقال[٥]: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ [فاطر: ٣٧].

---

(١) في (ر) و(ف): «الشاعر» بدل: «أبو الدرداء».

(٢) البيت الأول من (أ).

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في «التقوى» كما في «الدر المنثور» للسيوطي (١/ ١٣٦)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٢٢٥).

(٤) في (أ): «إليه» بدل: «إلى الخروج»، وليس في (ف).

(٥) في (ر): «وقالوا».

وقيل: معناه: يكادونَ يَخرجون منها إذا رفعَتهم بلهبِها، وهو كقوله: ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾ [الكهف: ٧٧].

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ وهذا الخلودُ للكفَّار، وصدرُ الآيةِ فيهم.

وقال مجاهدٌ: إذا أُخرِجَ[١] المؤمنون من النَّار، تمنَّى الكفار أن يكونوا مسلِمين، فذلك قولُه تعالى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر: ٢][٢].

وقال عوفٌ للحسن البصريِّ رحمه الله: بمَ يدخلون النَّار؟ قال: بذنوبِهم، قلت: وبم يَخرجون؟ قال: بإيمانهم.

* * *

(٣٨) ـ ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ﴾ السَّرقةُ: أخذُ ما ليس له مستخفياً، هذا هو حقيقتها لغةً، واستراقُ السَّمعِ كذلك، والسَّرقةُ الموجبةُ في الشَّرع للقطع: هي أخذُ النِّصابِ مِن الحرزِ على استخفاء، والسَّارقُ: الرجل الفاعل لذلك، والسارقةُ: المرأة، وبدأ بالرَّجل هاهنا، وبالمرأةِ في قوله: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى﴾؛ لأنَّ الدَّاعي إلى ذلك الفعلِ يَنشأ مِن جهتِها غالباً، وهذا الفعلُ وهو السَّرقةُ وجودُه يكونُ مِن الرَّجل غالباً.

وقوله تعالى: ﴿فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ أضافَ الأيدي إليهما، فيكون عن كلِّ واحدٍ منهما يدٌ واحدةٌ، كما في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤]، وتقديرُه: صغى قلبُ كلِّ واحدٍ منكما، فكذلك هاهنا، وتقديرُه: فاقطعوا يدَ كلِّ واحدٍ منهما،

---

(١) في (ف): «خرج».

(٢) روى نحوه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٤٢٩)، ومن طريقه الطبري (١٤/ ١١).

ثمَّ لم يعرف تعيينُ اليدِ التي تُقطع فيها، ولا[١] موضعُ القطعِ منها بإطلاقه، فتوقَّفَ على بيان[٢] النبيِّ ﷺ، وقد بيَّنَهُ فعلاً بقطعِ[٣] يمين السَّارقِ من المفصل[٤]، فصارَ ملتحقاً بالنصِّ كالمنطوقِ به، ولذلك قرأ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (فاقطعوا أيمانَهما)[٥]، وهو جمعُ يمين.

وقيل: إنَّما جمعَ الأيدي؛ لأنَّ السَّارقَ اسمُ جنس، وكذلك السَّارقة، وأريد بهما الجمع، فلذلك قال: الأيدي؛ لأنها أفرادٌ مضافةٌ إلى الجمع، وقال: ﴿أَيْدِيَهُمَا﴾ على التثنية، ولم يقل: أيديهم؛ لظاهرِ اللَّفظ، وهذا جمعٌ بين اعتبارِ اللَّفظِ واعتبارِ المعنى في كلامٍ واحد، وهو سائغٌ[٦] لغةً، كالجَمعِ بين تذكيرِ المعنى وتأنيث اللَّفظ، قال الشاعر:

أبــوك خليفــةٌ وَلَدَتْــهُ أُخْــرى   وأنتَ خَلِيفــةٌ ذاكَ الكمــالُ[٧]

---

(١) في (ف): «ولأن موضع كل واحد منهما» بدل: «ولا».

(٢) في (أ): «إطلاق».

(٣) في (ف): «نبه النبي ﷺ فعلى ذلك تقطع» بدل: «بينه فعلا بقطع».

(٤) خبر قطع اليد من المفصل رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (١٧٢٤٨ ـ ١٧٢٥٠) من حديث عدي وجابر وعبد الله بن عمرو رضي الله عنهم، وقطع اليد اليمنى لا خلاف فيه بين العلماء. انظر: «تفسير القرطبي» (٧/ ٤٦٨)، وجاء في حدبث عبد الله بن عمرو أخرجه أحمد (٦٦٥٧)، والطبري في «تفسيره» (٨/ ٤١١)، وفي إسناده ابن لهيعة.

(٥) رواها عنه الطبري في «تفسيره» (٨/ ٤٠٧ ـ ٤٠٨)، وذكرها الفراء في «معاني القرآن» (١/ ٣٠٦)، وابن خالويه في «مختصر في شواذ القرآن» (ص: ٣٩).

(٦) في (ف): «شائع».

(٧) البيت في «معاني القرآن» للفراء (١/ ٢٠٨)، وتفسير الطبري (٥/ ٣٦٢)، و«المذكر والمؤنث» لابن الأنباري (٢/ ١٤٤)، و«تفسير الثعلبي» (٣/ ٥٩) وغيرها دون نسبة.

واتِّصـالُ هـذه الآية بمـا قبلَهـا: أنَّ ذلك في أخـذِ مال الغيـرِ ظاهـراً، وهذا في أخـذِه باطناً.

وقولـه تعالـى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾؛ أي: مكافـأةً لهمـا علـى مـا فعلا مِـنْ فِعلِ السَّـرقةِ.

وقـال الإمـام أبو منصـور رحمـه الله: فإن قيل: مـا الحكمةُ فـي قطعِ يـدٍ قيمتُها ألوفٌ بسـرقةِ عشـرة دراهـم، وقد قـال تعالـى: ﴿ مَن عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ﴾ [غافر: ٤٠]؟

قلنا: جزاءُ الدنيا محنةٌ يُمتحَنُ بها المرءُ، ولله تعالى أنْ يَمتحن عباده[1] بما شاء ابتداءً مِن غير جزاءٍ على كَسْب، ولأنَّ القطعَ ليس بجزاءِ ما أخذَ مِن المال، ولكن لـمَا هتكَ مِن الحُرمة، ألا ترى أنَّه قال: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا﴾، فيجوز أنْ يَبلغ جزاءُ هتكِ تلك الحرمة قطعَ اليد، وإنْ قصرَ عن البشر علمُ ذلك؛ لأنَّ مقاديرَ العقوبات إنَّما يَعلمُها مَن يَعلمُ مقاديرَ الإجرام، وإذا كان كذلك، فحقُّه التَّسليمُ والانقياد[2].

وقوله تعالى: ﴿نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾؛ أي: عقوبةً رادعةً لهما من العود، ولغيرِهما مِن الاقتداء بهما، مأخوذٌ من النُّكول، وهو الامتناعُ، وقد شرحنا ذلك في قِصَّة القِردة مِن سورة البقرة[3].

وقولـه تعالـى: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ ﴿عَزِيزٌ﴾ أي: منيـعٌ لا يُعـارَضُ فـي حكمِه، ﴿حَكِيمٞ﴾ فيمـا حكـمَ بـه فـي شـرعِه، فهـو تحصيـنٌ للأمـوال، ومنـعٌ للعِبـاد عـن سـيِّء الأفعال.

---

(١) لفظ: «عباده»: من (ر).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٣/ ٥١٢ ـ ٥١٣).

(٣) عند تفسير الآية (٦٦) منها.

قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: نزلت الآيةُ في طُعمَة بن أُبيرِق الظَّفَري سارقِ الدِّرع[١]، وقد بيَّنَّا القصَّة في سورة النِّساء[٢].

* * *

(٣٩) - ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ﴾؛ أي: سرقتِه، كما في قوله: ﴿فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يوسف: ٧٥]؛ أي: السَّارقين.

وقوله تعالى: ﴿وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِ﴾؛ أي: ردَّ المسروقَ، وأَرْضى الخصمَ.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِ﴾ أي: يقبلُ توبتَه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ أي: يَغفِرُ ذنبَه، فلا يَفضحُه، ويَرحمُه فلا يُعذِّبُه.

وقال الإمامُ القشيريُّ رحمه الله: مَن ندِمَ على ما صنعَهُ، وتَداركَ ما ضيَّعَهُ، وأصلحَ مِن أمرِه ما أفسدَهُ، أقبلَ اللهُ عليهِ بفضله فغفرَه[٣]، وأعادَ[٤] عليه باللُّطفِ وجبرَه[٥].

* * *

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ١٨٨) عن الكلبي.

(٢) عند تفسير الآية (١٠٥) منها.

(٣) في (ف): «لذنبه فغفره».

(٤) في (أ) و«لطائف الإشارات»: «وعاد».

(٥) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٢٣).

(٤٠) ـ ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ ﴾؛ أي: يا محمَّدُ، وقيل: أي: يا إنسان؛ خطابٌ لكلِّ مكلَّف، وقيل: الخطابُ للنَّبيِّ ﷺ، والمرادُ جميعُ أمَّتِه.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ والمرادُ مِن هذا الاستفهام الأمرُ؛ أي: اعلَمْ أنَّ ملكَ السَّماواتِ والأرض لله.

وقوله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ﴾؛ أي: السَّارقَ، يأمرُ بقطعِه مع توبتِه.

وقوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ﴾ يُسقِطُ الحدَّ عن قاطعِ الطَّريق إذا تابَ قبل أنْ يُقدَرَ عليه، نَفى بذلك وَهْمَ من يقول في نفسه: لم افترقَ حكمُهما؟ فيقول: الملكُ لي، والحكمُ لي، فلا اعتراضَ على فعلي.

وقال الكلبيُّ: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ﴾ مَن ماتَ على كُفرِه، ﴿وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ﴾ لمَن تابَ مِن ذنبِه.

وقال الضَّحَّاك: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ﴾ على الصَّغيرةِ إذا أصرَّ عليها، ﴿وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ﴾ الكبيرةَ إذا نزعَ عنها[١].

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي: على التعذيبِ والمغفرةِ وغيرِهما.

* * *

(٤١) ـ ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ

---

(١) انظر قولي الكلبي والضحاك في «تفسير الثعلبي» (٤/ ٦٣).

سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ خاطبَ سائرَ الأنبياءِ باسم التعريف: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ﴾ [البقرة: ٣٣]، ﴿يَٰنُوحُ﴾ [هود: ٣٢]، ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ [هود: ٧٦]، ﴿يَٰلُوطُ﴾(١)، وخاطبَ محمَّداً ﷺ باسم التَّشريفِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾ [الأنفال: ٦٤].

﴿وَلَا يَحْزُنكَ﴾ لا يغمك المسارعون ﴿فِى ٱلْكُفْرِ﴾.

قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ وهم المنافقون.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ عطف على المنافقين.

وقوله تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ أي: هم ﴿سَمَّٰعُونَ﴾، أضمرَ الابتداء.

وقيل: تمَّ الكلامُ الأوَّلُ بذكرِ المنافقين، وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ ابتداءٌ، و﴿سَمَّٰعُونَ﴾ خبره، وانتظامُها بما قبلَها: أنَّ أخذَ المال بقطع الطَّريق والسَّرقة أورث(٢) العقوبةَ، وأخذَ اليهودِ أموالَ النَّاس لتحريف الكتاب أورثَ الكفرَ.

وقوله: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ مبالغةٌ في السَّماع.

---

(١) وقع خطاب لوط في كلام الملائكة في قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ [هود: ٨١]، وفي مخطابة قومه له: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ...﴾ [الشعراء: ١٦٧].

(٢) في (أ): «أوجب».

وقال الحسنُ رحمه الله: معناه: ﴿سَمَّٰعُونَ﴾ منك ليَكذِبوا عليك[١].

وقوله تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَ﴾؛ أي: يَسمعون منك ليُخبِروا مَن لم يَأتِك، والسَّمَّاعون: هم كبارُ اليهود، والذين لم يَأتوك هم عوامُّهم الذين اشتَغلوا بمعايشِهم؛ يعني: يَنقُلون عنك إليهم[٢] غيرَ ما قلت، يَحتالون بذلك للتَّحريف، وكانوا يُفتونهم[٣] بآرائهم، ويُروِّجون ذلك بقولهم: نأتي محمَّداً فنسمعُه يقولُ كذلك، وهو حكمُ الله في كتابنا وكتابهم، يقول: إنَّ عوامَّهم لا يأتونَك فيعرفوا أحكامَ الإسلام.

وقيل: معنى قوله: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ﴾؛ أي: قابلونَ لكذب أحبارهم في أخبارهم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١]؛ أي: قالوا: قبلنا، وهم لا يقبلون.

وقوله: ﴿سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَ﴾؛ أي: جواسيسُ يأتونك فيتجسَّسون، ثمَّ يَرجِعون فيُخبِرون، وهو كقوله: ﴿وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡ﴾ [التوبة: ٤٧].

وقوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾؛ أي: مِن بعد إنزالِ الله تلك مذكورةً في مواضعها، و﴿ٱلۡكَلِمَ﴾ جمعٌ على صيغةِ الواحد، فجَمَعَ المواضعَ، ووحَّد الكنايةَ في آخرِها لذلك.

وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾؛ أي: يقولُ أحبارُهم لعوامِّهم: إنْ حَكَمَ لكم محمَّدٌ بما أخبرَنا أنَّه في كتابِنا فاقْبَلوه.

---

(١) انظر قول الحسن في «النكت والعيون» للماوردي (٢/ ٣٨)، وزاد نسبته للزجاج، وهو في «معاني القرآن» له (٢/ ١٧٤).

(٢) بعدها في (ر): «اليهود».

(٣) في (ف): «يفتنونهم».

وقوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟﴾ أي: إنْ حكمَ بخلافِ هذا، فلا تَقبلوهُ، وتَحرَّزوا عن حكمِه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ قطعَ رجاءَ محمَّدٍ ﷺ عن إيمانِ هؤلاء، فقال: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ﴾ إضلالَهُ في الدُّنيا، وتعذيبَهُ في الآخرةِ، فلن تمنعَ أنت يا محمَّدُ[1] عنهم ذلك. والفتنةُ: قد تكون بمعنى الإضلال، قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ [النور: ٦٣]، وقد تكون بمعنى العذاب، قال تعالى: ﴿ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [الذاريات: ١٤].

وقال الزَّجَّاج: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ﴾؛ أي: فضيحتَهُ[2] وإخزاءَهُ بإظهار حاله.

ودلَّت الآيةُ على إرادة الله تعالى أفعالَ العبادِ وخلقها، وهو في من علم أنَّه يَختارُ الكفرَ.

وقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾؛ أي: عن الكفرِ؛ لعلمِه منهم اختيارَ الكفر.

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وخزيُ الدُّنيا هو ما قال: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ [البقرة: ٦١]، وقال: ﴿مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦١].

وقيل: هو أخذُ الجزيةِ منهم.

وقيل: هو السَّبيُ والجلاء.

---

(١) قوله: «يا محمد» من (ر).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ١٧٦).

وقال مقاتل: نزلَت الآيةُ في المنافقين واليهود، والذين هادوا[١] كعبُ بن الأشرف، وكعبُ[٢] بن أسيد، وسعيد[٣] بن عمرو، ومالك بن صوريا[٤]، وكنانة، وشاس بنُ قيس، وأبو نافع[٥]، ويوسف، وعازار[٦]، وسلول[٧]، ومختار بن عمرو بن سلول[٨]، وهم ﴿سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ﴾ أي: ليهودِ خيبر، ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾[٩] أي: أمر الرَّجم، وذلك أنَّ رجلاً [يسمى يهوذا] وامرأةً اسمُها بسرة من يهود خيبر زنيا، وكانا في شرفٍ، فكرهوا رجمَهما، وقالوا: إنَّ في دين محمد الضَّرب، فلو كان نبياً كما يَزعُم، فليس على صاحبنا رجم، فكتب يهودُ خيبرَ إلى يهود المدينة، وبعثوا نفراً منهم، وقالوا: سلوا محمَّداً عن الزانيين إذا أحصنا، ما حدُّهما؟ فإن أمرَكم بالجلد فاقبلوا منه، وإن لم تؤتوه ـ أي: الجلد ـ وأمرَكُم بالرَّجم، فلا تَقبلوه منه.

فجاؤوا وسألوا، فأتاهُ جبريلُ بالرَّجم، وقال جبريل: اجعل بينك وبينَهم ابنَ صوريا الأعور، وسلهم عنه، فقال النبيُّ ﷺ: «هل تعرفون غلاماً شاباً أبيضَ أمردَ أعور، يَسكن فدك، يقال له: ابنُ صوريا؟» قالوا: نعم، هو أعلمُ يهوديٍّ بقي في[١٠] الأرض، فأرسلَ

---

(١) بعدها في (ف): «في».

(٢) في (ف): «وفي كعب».

(٣) في (ف): «وسعد».

(٤) في مطبوع «تفسير مقاتل» (١/ ٤٧٤): «وسعيد بن مالك وابن صوريا».

(٥) في «تفسير مقاتل»: «وأبو رافع».

(٦) في «تفسير مقاتل»: «ويوسف بن عازار».

(٧) في (أ): «وشاول».

(٨) في «تفسير مقاتل»: «وسلول بن أبي سلول والبخام بن عمرو».

(٩) في (أ) و(ف): «عن» بدل: «من بعد».

(١٠) بعدها في (ف): «وجه».

إليه النَّبيُّ ﷺ، فجاءَ فقال له: «أنت أعلمُ اليهود؟» قال: كذلك يزعمون، قال النبيُّ ﷺ: «اجعلوه بيني وبينكم»، قالوا: قد رضينا بما رضيت، فقال له: «فإنِّي أنشُدكَ اللهَ الذي لا إلهَ إلا هو، إلهَ موسى وإلهَ بني إسرائيل، الذي أخرجَكم مِن مصر، وفلقَ لكم البحرَ، فأنجاكم وأغرقَ آل فرعون، وأنزلَ عليكم كتاباً فيه حلالُه وحرامه، وظلَّل عليكم الغمامَ، وأنزلَ عليكم المنَّ والسَّلوى، هل وجدتُم في كتابكم الرَّجم على مَن أحصِن؟» قال: نعم، ولولا مخافةُ أنْ أهلِكَ إن كتمتُ أو كذبتُ، ما اعترفت لك به، فقال له قومُه[١]: ما أسرعَ ما أخبرتَهُ به، فأمر النبيُّ ﷺ بهما فرُجِما[٢].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: فيه وجوهٌ من الدَّلائل:

أحدها: أنَّه ظهرَ بكتمانِهم الحقوقَ التي بينَهم وبين الله تعالى خيانتُهم في كتمانِهم بعثَ النبيِّ ﷺ.

والثاني: إثباتُ رسالته إذ باللهِ عَلِمَ.

والثالث: أنَّهم لـمَّا طلبوا منه الرُّخصةَ والتَّخفيفَ في الحدِّ، دلَّ أنَّهم عرَفوا أنَّه رسولٌ؛ إذ لا يُطلَبُ ذلك مِن غير الرَّسول؛ لكنَّهم عاندوا.

والرابع: جوازُ شهادة بعضِهم على بعض؛ إذ قبلَ شهادةَ ابنِ صوريا عليهم بالرَّجم[٣].

وقال الكلبيُّ: نزلَت الآيةُ في أبي لُبابة بنِ عبد المنذر: وذلك لمَّا استشارَهُ بنو

---

(١) بعدها في (ف): «ما أسرع ما اعترفت به وقال له قومه».

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٤٧٤ ـ ٤٧٦)، وانظر أيضاً: «تفسير الثعلبي» (٤/ ٦٣ ـ ٦٤)، والخبر فيه دون نسبته لمقاتل. وهذا الخبر رواه ابن إسحاق كما في «سيرة ابن هشام» (١/ ٥٦٤)، ومن طريقه الطبري في «تفسيره» (٨/ ٤١٤ ـ ٤١٥).

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٣/ ٥٢٢).

قريظة: أننزل[١] على حكم سعد بن معاذ[٢]؟ فأشار عليهم بيده أنَّه الذبح، قال أبو لبابة: فما زالتْ قدمايَ حتَّى علمتُ أنِّي خنتُ اللهَ ورسولَه[٣].

وقال قتادة: ذُكِر لنا أنَّ هذا كان في قتل بني قريظة والنَّضير، رجل من قريظةَ قتلَهُ النَّضير، وكانت النَّضيرُ إذا قَتلت مِن قريظةَ لم يُقيدوهم[٤]، وإنَّما يُعطونَهم الدِّيَةَ؛ لفضلِهم عليهم، وكانت قريظةُ إذا قتلَت مِن النَّضير لم يَرضَوا إلَّا بالقَوَد؛ لفضلِهم في أنفسِهم تَعزُّزاً، فقدِمَ النَّبيُّ ﷺ على هؤلاء، فأرادوا أن يَرفعوا ذلك إلى النَّبيِّ ﷺ ليَحكمَ بينهم، فقال رجلٌ مِن المنافقين لهم: إنَّ قتيلَكُم هذا عمدٌ[٥]، ومتى تَرفعوه إلى محمَّدٍ أخشى عليكم القَوَدَ، فإنْ قَبِلَ منكم الدِّيةَ فخذوه[٦]، وإلَّا فكونوا على حَذَرٍ[٧].

وقال الإمامُ القشيريُّ رحمه الله: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ﴾ من أرسلَ عليه قوارعَ[٨] الهوى، وسلَّطَ عليه نوازعَ المُنى، وأذلَّهُ بسُوءِ القضاء، فليس يُلقى عليه غيرُ الشَّقاء[٩].

---

(١) في (أ) و(ر): «أنزل»، ولعل المثبت هو الصواب.

(٢) «أنزل على حكم سعد بن معاذ»: سقط من (ف).

(٣) ذكره أبو الليث في «تفسيره» (١/ ٤٣٦)، ولم ينسبه للكلبي. وأخرجه سعيد بن منصور: (٩٨٧ ـ تفسير)، والطبري: (١١/ ١٢٢)، وابن أبي حاتم: (٥/ ١٦٨٤) (٨٩٧٥) عن عبد الله بن أبي قتادة لكن في سبب نزول قوله تعالى: ﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ [الأنفال: ٢٧]، وهو مرسل.

(٤) في (أ): «يقدهم». وفي (ف): «يقودوهم».

(٥) في النسخ الخطية: «عبد» والمثبت من مصدر التخريج.

(٦) في (ر): «فاقبلوا».

(٧) رواه الطبري في «تفسيره» (٨/ ٤٢٦).

(٨) في «لطائف الإشارات»: «غاغة» بدل: «قوارع». والغاغة تطلق على الكثير المختلط من الناس. انظر: «الصحاح» للجوهري: (غوى).

(٩) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٢٤).

(٤٢) ـ ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ له وجهان كما مرَّ، وهو نعتٌ لـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾؛ أي: الحرام المستأصل، وقد سَحَتَهُ وأَسْحَتَهُ إذا استأصَلَهُ، قال تعالى: ﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ [طه: ٦١].

وقال الزَّجَّاج: سُمِّي الحرامُ به؛ لأنَّه يُعقِبُ عذابَ الاستئصال[١].

وقيل: لأنه لا بركةَ فيه، فيزولُ عن قريب.

وقال الخليل: هو القبيحُ الذي فيه العار، فيُسْحِتُ مروءةَ الرَّجل[٢].

وقيل: هو حرامٌ يَحمِلُ عليه الشَّرَهُ، من قولهم: فلانٌ مسحوتُ المعدة، إذا كان أكولاً شَرِهاً. والسُّحت هاهنا: هو الرشوة في الفُتيا والحكمِ وتحريفِ الكتاب.

قال مقاتل بن حيان: هو كعبُ بنُ الأشرف، كانت اليهودُ تَحاكَمُ إليه، فيَرتشي، فيَقضي لمن رشاهُ.

وقال الحسن: كان الحاكمُ في بني إسرائيل إذا أتاهُ أحدهم برشوةٍ جعلَها في كمِّه، فيريها إيَّاه، فينظرُ إليها، ويَتكلَّمُ بحاجتِه، فيَسمع منه، ولا يَنظرُ إلى خصمِه، فيَأكلُ الرشوةَ، ويَستمعُ للكذب[٣]، فأنزلَ اللهُ تعالى فيهم: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ١٧٧).

(٢) انظر: «العين» للخليل (٣/ ١٣٢) (مادة: سحت).

(٣) انظر: «تفسير البغوي» (٣/ ٥٨).

وقال مسروق: سألتُ ابنَ مسعودٍ رضي الله عنه عن السُّحت، أهو الرشوةُ في الحكم؟ قال: لا، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ و﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ و﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٤٤، ٤٥، ٤٧]، ولكنَّ السُّحتَ أنْ يَستعينَك على مَظْلَمَةٍ فيُهدي لك، فتَقبلَه، فذلك السُّحتُ(١).

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: إذا دفع مالاً ليدفع الظلم عن نفسه أو ماله فهو معذور، رويَ ذلك عن الحسن وعطاء والشَّعبي(٢).

وقال أبو الشَّعثاء: لم نَجِد في زمنِ زياد شيئاً أنفعَ لنا من الرِّشا(٣).

وأمر النبيُّ ﷺ بلالاً أن يُعطيَ رجلاً(٤)، وقال له: «اقطعْ عنِّي لسانَه»(٥).

وقوله تعالى: ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ قال الكلبيُّ: ﴿فَإِن جَآءُوكَ﴾؛ يعني: أهل خيبر، ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ﴾ بالرَّجمِ، ﴿أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ فلا تقضِ بينهم، أنت في ذلك بالخيار.

قال ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما: ثمَّ نُسِخَ الخيار، ووجبَ الحكمُ بقولِه: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩](٦).

---

(١) رواه سعيد بن منصور في «سننه» (٧٤١ ـ تفسير)، والطبري (٨/ ٤٣٠).

(٢) لم أقف على هذا الكلام في «تأويلات أهل السنة» للماتريدي.

(٣) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٤/ ٨٦)، وقول أبي الشعثاء جابر بن زيد رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢١٩٩٠).

(٤) بعدها في (ر): «شيئاً».

(٥) رواه العقيلي في «الضعفاء الكبير» (٣/ ٤١٤)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٢١١٣٠) عن عكرمة، قال البيهقي: هذا منقطع.

(٦) رواه ابن أبي حاتم (٤/ ١١٣٥) (٦٣٨٨)، والحاكم في «المستدرك» (٣٢١٧).

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا﴾؛ أي: لن يقدروا على الإضرارِ بك.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾؛ أي: وإن اخترتَ ذلك فاحكم بالعدلِ، إنَّ اللهَ يُحِبُّ العادلين.

وقال عمرُ وعليٌّ وابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهم: السُّحتُ: الرِّشوةُ في الحكمِ، ومهرُ البَغِيِّ، وحلوانُ الكاهن، وثمنُ الكلبِ، وثمنُ الميتةِ، والدَّمِ، والخنزير، وعسَبُ الفحل، وأجرُ النَّائحة والمغنِّيةِ والساحر والقائف، وأجرُ مصوِّر التَّماثيل، وهديَّة الشَّفاعة، والاستعجال في المعصية[1].

وقال الحسن: إنَّما ذلك في الحَكَمِ إذا رشوتَهُ ليُحِقَّ لك باطلاً، أو ليُبطِلَ عنك حقًّا، فأمَّا أنْ يُعطي[2] الرَّجلُ الواليَ يخافُ ظلمَه وعدوانَه شيئاً؛ ليَدرأَهُ عن نفسه، فلا بأسَ به له، وعليه[3] وِزرُه[4].

* * *

(٤٣) ـ ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

---

(١) كذا في النسخ، والصواب: «والاستعجال في القضية»، انظر: «تفسير الطبري» (٨/ ٤٣٣ ـ ٤٣٤)، والخبر فيه مروي عن علي رضي الله عنه، وفيه معظم الأصناف المذكورة. ورواه سعيد بن منصور في «سننه» (٧٤٥ ـ تفسير)، ومن طريقه البيهقي في «الكبرى» (١١٠٥٠) من طريق حبيب بن صالح عن ابن عباس، قال البيهقي: هذا منقطع بين حبيب بن صالح وابن عباس، وهو موقوف. وروى الطبري في «تفسيره» (٨/ ٤٣١) عن عمر قال: بابان من السحت؛ الرشا في الحكم، ومهر الزانية.

(٢) بعدها في (ر): «حق».

(٣) في (ف): «وعليك»، وفي (ر): «عليك وعلى الظالم»، بدل: «له وعليه».

(٤) انظر: «تفسير البغوي» (٣/ ٥٨).

وقولـه تعالـى: ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ﴾ استـفهامٌ بمعنى الاستنكار؛ يعنـي: كيـف يجعلونـكَ حاكماً فيَرضـون بحكمِـكَ، وعندَهـمُ التَّوراة فيهـا حكـمُ الله، فلا يَرضـون به؟

قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: هو الرَّجم[١].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: الرَّجم فلا يقبلونه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ للحال بكتابهم؛ لأنَّهم قد حرفوه.

وقيل: أي: لا يؤمنون في المستقبلِ بكَ وبكتابِك[٢]، وهذا في قومٍ عَلِمَ اللهُ منهم أنَّهم لا يؤمنون.

وقال قتادة: ﴿فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ﴾ بيانُ ما تَشاجروا في أمر قتيلِهم[٣]، قال تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ ﴾، وهم يَقتلون النَّفسَين بالنَّفس، وفيها: العين بالعين، وهم يَفقَؤون العينين بالعين.

* * *

(٤٤) ـ ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٨/ ٤٤٩) من قول السدي، وروى (٨/ ٤٤٨) عن ابن عباس أنه فسر حكم الله بحدود الله.

(٢) في (ر): «وبحكمك».

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٨/ ٤٤٨ ـ ٤٤٩).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞ﴾؛ أي: هدايةٌ إلى الدِّين، ونورٌ يُضيءُ طريقَ[1] الصَّواب في الأحكام.

وقوله تعالى: ﴿يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ﴾؛ أي: انقادوا لحكمِ اللهِ تعالى في التَّوراة، وهو كقوله: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨]، وهو هاهنا مِن الأوصافِ اللَّازمةِ التي ذُكِرَت للمدحِ والتَّشريف، لا مِن الأوصافِ المحتمِلة التي تُذكَرُ للتَّمييز والتَّعريف.

وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ هَادُواْ﴾؛ يعني: على اليهود، واللامُ بمعنى «على»، كما في قوله: ﴿وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧]؛ أي: فعليها.

وقال مقاتلُ بن حيَّان: أي: لهم وعليهم[2].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ﴾ عطفٌ على قوله: ﴿ٱلنَّبِيُّونَ﴾، والرَّبانيُّون: العالِمون العامِلون، نُسِبوا إلى الربِّ؛ لأنَّهم عالمون بهِ عاملون له.

وقيل: لأنَّهم يُربُّون النَّاسَ بعلمِهم.

قوله: ﴿وَٱلۡأَحۡبَارُ﴾ جمع حبر؛ بفتح الحاء وكسرها، وهو العالمُ الذي يُحَبِّرُ الأمورَ تحبيراً[3]؛ أي: يُحَسِّنُها.

وقال قطرب: هو مِن الجمالِ والهيئة، والعالم له[4] جمالُ العلم وبهاؤه، وفي

---

(١) بعدها في (ر): «الهدى و».

(٢) رواه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ كما في «الدر المنثور» للسيوطي (٥/ ٣١٩).

(٣) «تحبيراً»: سقط من (ف).

(٤) في (أ): «به».

الحديث: «يخرجُ رجلٌ مِن النَّارِ قد ذهبَ حِبْرُهُ وسِبْرُهُ»[١]؛ أي: جماله وهيئته[٢].

وقوله تعالى: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ قيل: الباء[٣] صلةُ «الأحبار»؛ أي: العلماءُ المحسنون بسبب حفظِ الكتاب.

وقيل: الباء صلة ﴿يَحْكُمُ﴾؛ أي: يَحكمون بالتَّوراة بسبب استحفاظِهِمُ الكتابَ.

وسينُ الاستفعالِ للطَّلب والسُّؤال، والحفظُ يكونُ عن النِّسيان، ويكونُ عن التَّضييعِ، وقد أُخِذَ عليهم الأمران جميعاً؛ أنْ يَحفظوها فلا يَنسَوها، ويُراعوا حقَّها[٤] فلا يُضَيِّعوها، فالحكمُ الذي يَحكُمُ به هؤلاء هو الرَّجمُ في الزِّنى، والقِصاصُ في قتلِ العمد، وغير ذلك، وقد ذُكر هذان الأمران قبلها وبعدها.

قوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾؛ أي: كان هؤلاء جميعاً شهوداً على أنَّه كتابُ الله وحكمُه، وأمرُه ونهيُه.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ ولمَّا كان الاستحفاظُ لِئلَّا يُحرِّفوا، وكان التَّحريفُ لأمرين؛ لخوفِ الكِبار، وطمعِ العوام، سدَّ عليهم البابين فقال: لا تَخشوا كبارَ القومِ واخشون[٥]، ولا تَستبدلوا بأحكامِ دِيني عرضَ الدُّنيا.

---

(١) أورده أبو عبيد في «غريب الحديث» (١/ ٢٢٠)، وقال: وفي هذا الحديث اختلاف، وبعضهم يرفعه وبعضهم لا يرفعه، يقول: عن مطرف بن عبد الله بن الشخير. اهـ. وأخرج الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٥٤٨) عن مطرف بن عبد الله، في قوله: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٥٥] قال: «والله لولا أنه عرفه ما عرفه، لقد غيرت النار حبره وسبره».

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ٧٠).

(٣) بعدها في (ف): «كونه».

(٤) في (ف): «حفظها».

(٥) بعدها في (ر): «ولا تشتروا».

وقال الحسينُ بنُ الفضلِ البَجليُّ رحمَه الله: إنَّ اللهَ استحفظَ أهلَ الكتابِ كتابَه، فبَدَّلوا، وحفظَ القرآنَ بنفسِه فما بدلوا، قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، وكان المعنى في ذلك أنَّه كان بعد التَّوراةِ نزولُ الإنجيل، فعرَّفهم تبديلَ اليهودِ التَّوراة، وكان بعد الإنجيلِ نزولُ القرآن، فعرَّفهُم تبديلَ النَّصارى الإنجيلَ، ولم يكن بعد القرآنِ كتابٌ آخرَ، ولا بعد النَّبيِّ[1] نبيٌّ آخرُ يُعرِّفُهم لو وقعَ التَّحريفُ، فحفِظَهُ بنفسِه عن التَّبديل؛ ليَبقى لهم هادياً إلى سواءِ السَّبيل.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ «من» اسمُ جنسٍ تَصلحُ للجمعِ فوحَّد الشَّرطَ لتوحيدِ لفظِه، وجمع الجزاء لاجتماعِ معناه، ومعناهُ: ومَن لم يرَ الحكمَ به ولم يعتقده.

وقال عكرمةُ: من جحدَ شيئاً مِن حدود الله فقد كفر، ومن أقرَّ بها ولم يَحكُم بها فهو ظالمٌ فاسق[2].

وقال مقاتل: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ﴾ أهلَ خيبرَ أنْ تُخبِروهم بالرَّجم، ﴿وَٱخْشَوْنِ﴾ إنْ كتمتمُوه[3].

وقال الكلبيُّ: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ﴾ في إظهارِ صفةِ محمَّدٍ، والعملِ بالرَّجمِ، ﴿وَٱخْشَوْنِ﴾ في كتمانِ ذلك، ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟﴾ بالقرآنِ وبمحمَّدٍ عرضاً يسيراً مِن مآكلِ الدُّنيا، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ في القرآن، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾.

وقال الضَّحَّاك رحمه الله: نزلت الآيات الثلاث: ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ و﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ و﴿ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ في حقِّ اليهود[4].

---

(١) قوله: «بعد النبي» من (ف).

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ٧٠).

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٤٨٠).

(٤) روى الطبري في «تفسيره» (٨/ ٤٥٧) عن الضحاك أنها في أهل الكتاب.

وقال الإمامُ القشيريُّ رحمه الله: مَن اتَّخذ غيرَ اللهِ حكماً، ولم يَحمد(١) تحت جريانِ حُكمِهِ سِلماً، فعن شِرْكٍ خامَرَ قلبَهُ، وكفرٍ قارنَ سِرَّهُ، وهيهات أنْ يكونَ معه سواه(٢).

***

(٤٥) ـ ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾؛ أي: في التوراة أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ؛ أي: الواحدةُ تَقتصُّ بالواحدة، وقد خالفتُم ذلك، ففَضَّلتم بني النَّضيرِ على بني قُريظة بالتَّضعيف، ثمَّ أخبرَ أنَّ القِصاصَ فيما دون النَّفس كذلك، وهو قولُه تعالى: ﴿وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ﴾، قرأ الكسائيُّ بالرَّفع، وقد روى أنسٌ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قرأ كذلك إلى آخر الآية(٣)، وهو اختيارُ أبي عبيد(٤)،

وقرأ عاصمٌ ونافعٌ وحمزةُ كلَّها بالنَصب عطفاً على ﴿ٱلنَّفْسَ﴾.

وقرأ ابنُ كثير وابنُ عامر وأبو عمرو بالنَّصب إلَّا قولَه: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾(٥)؛ لأنَّ الأوائلَ على نهج الأول، وهذا أُفرد بخبرٍ، فاستؤنف به.

---

(١) في (ف): «يدخل»، وفي «لطائف الإشارات»: «يجد».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٢٦).

(٣) يعني: أنه نصب: ﴿ٱلنَّفْسَ﴾، ورفع: ﴿وَٱلْعَيْنَ﴾ وما بعدها. والخبر رواه أبو داود في «سننه» (٣٩٧٦، ٣٩٧٧)، والترمذي (٢٩٢٩). قال الترمذي: حديث حسن غريب. قال محققو «سنن أبي داود»: إسناده ضعيف.

(٤) انظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٢)، و«تفسير الثعلبي» (٤/ ٧١).

(٥) انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٢٤٤)، و«التيسير» (ص: ٩٩).

وقال أبو حاتم: الرَّفعُ أولى؛ لأنَّها جملٌ تامَّةٌ، فالاستئنافُ أولى، كما في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ [لقمان: ٢٧]، ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ [الجاثية: ٣٢] و﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

وقوله: ﴿وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ﴾؛ أي: العينُ الواحدة تُقتَصُّ بالعين الواحدة، وكذلك ما بعدها، وهو قوله تعالى: ﴿وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾؛ أي: فيما يمكنُ حفظُ المساواةِ فيه؛ تحقيقاً لمعنى القصاص.

وقوله تعالى: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾؛ أي: عفا عنه، ﴿فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ للعافي بإحسانه.

وقيل: ﴿فَهُوَ كَفَّارَةٌ﴾ للمعفوِّ عنه بسقوطه، ثمَّ أجرُ العافي على الله.

وقال مجاهدٌ: معناه: فمَن جنى، وخفيَ ذلك على وليِّ الجناية، فأقرَّ به، وسلَّمَ نفسَهُ، فهو كفارةٌ له إذا اقتُصَّ منه.

وقال الضَّحَّاك: كان لبني إسرائيل القصاصُ والعفو، ولم يكن لهم الدِّية، ولنا هذه الأشياءُ الثَّلاثة.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كانوا لا يَقتلون الرَّجلَ بالمرأةِ، فنزل قوله: ﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾.

وقال مقاتل: قالت بنو قريظة ـ منهم أبو لبابة وسعيد[1] بن عمرو الليثي لكعب بن الأشرف: إخوانُنا بنو النضير[2]، أبونا واحدٌ، ودينُنا واحدٌ، وكتابُنا

---

(١) في «تفسير مقاتل»: «وشعبة».

(٢) كذا في النسخ الخطية، وهو مضطرب، والصواب كما في «تفسير مقاتل» أن أبا لبابة ومن معه قالوا =

واحد، فإنْ قتلَ بنو النضير منَّا قتيلاً، أعطونا سبعين وسقاً من تمرٍ، وإنْ قتَلنا منهم واحداً، أخذوا منا مئةً وأربعين وسقاً، فإنْ كان القتلى بواءً[١]، فلِم صارَت جراحاتنا على أنصافِ جراحاتهم؟ فاقض بيننا وبينَهم.

وكانت بنو قريظة بينهم وبين بني النضير دماء، قال: فإنِّي أحكمُ أنَّ دمَ القُرَظيِّ وفاءٌ مِن دمِ النَّضيريِّ، ودمَ النَّضيري وفاءٌ مِن دمِ القرظي، وذلك قبل أن يبعثَ الله محمداً ﷺ، ليس لأحدِهما فضلٌ على الآخر في دمٍ ولا عقلٍ ولا جراحةٍ، الدَّمُ بالدَّم، والجِراحةُ بالجِراحة، فغضبَ بنو النضير مِن ذلك، وقالوا: لا نَرضى بحكمِك؛ فإنَّك لنا عدوٌّ، وإنَّك لا تألوا من وضعِنا وتَصغيرنا، فأنزل الله: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾؛ يعني: حكمَهم الأول ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ﴾؛ أي: لا أحدَ أحسن ﴿مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[٢] [المائدة: ٥٠]، ثمَّ أخبرَ أنَّه كتبَ عليهم القِصاص في النَّفس، وفي ما دون النَّفس بهذه الآية[٣].

قولُه تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ أي: الواضعون الأمرَ غيرَ موضعه.

* * *

(٤٦) ـ ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾؛ أي: أتبعنا، وقد قَفَاه يَقفُوه قفواً أي: تبعَهُ،

= للنبي ﷺ: إخواننا بنو النضير كعب بن أشرف وكعب بن أسيد و...، أبونا واحد...

(١) يعني: سواء. انظر: «الصحاح» للجوهري (مادة: بوأ).

(٢) قوله: «﴿وَمَنْ أَحْسَنُ﴾ أي لا أحد أحسن ﴿ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾» من (أ).

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٤٨٠).

ومنه القفا والقافية، وقفَّاه يُقَفِّيه تقفيةً؛ أي: أتبعَهُ، ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ أي: آثارِ الذين أسلموا.

وقيل: على آثار الربانيِّين والأحبار.

وقوله تعالى: ﴿بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ﴾؛ أي: أرسلناهُ بعدَهم.

وقوله تعالى: ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾؛ أي: صدَّق[1] بما تَقدَّمه من نزول التوراة أنَّها حقٌّ، وأنَّها مِن عند الله، وأنَّ العملَ بها واجبٌ عليهم إلى ورود نَسخِ ما نُسِخَ منها.

وقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ﴾؛ أي: وأعطينا عيسى الإنجيلَ، ﴿فِيهِ﴾؛ أي: في الإنجيل ﴿هُدٗى﴾؛ أي: بيانُ التَّوحيد والطَّاعة، ﴿وَنُورٞ﴾ أي: وضياءٌ للطَّريق الحقّ.

وقوله تعالى: ﴿وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾ أي: وجعلنا الإنجيلَ موافقاً لما تَقدَّمَهُ مِن التَّوراة في أصل التَّوحيد والطَّاعة.

وقوله تعالى: ﴿هُدٗى﴾؛ أي: هادياً إلى الحقِّ، مُرشِداً إليه، ﴿وَمَوۡعِظَةٗ﴾؛ أي: واعظاً، ﴿لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ خصَّهم بها؛ لانتفاعِهم بها، كما قال في أول سورة البقرة: ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] مصدران بمعنى النعتين، فوصف الكتابَ بها بطريق التَّسبيب.

* * *

(٤٧) ـ ﴿وَلۡيَحۡكُمۡ أَهۡلُ ٱلۡإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلۡيَحۡكُمۡ أَهۡلُ ٱلۡإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾؛ أي: في الإنجيل مِن الأحكام.

---

(١) في (ف): «مصدقاً».

وقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾؛ أي: الخارجون عن الطَّاعة.

* * *

(٤٨) ـ ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: وأنزلنا إليك يا محمَّدُ القرآن ببيانِ الحقِّ، موافقاً لما تَقدَّمه مِن التَّوراة والإنجيل.

وقوله تعالى: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ قال الكسائيُّ: أي: شاهداً عليه[١]، وأنشد:

إن الكتاب مهيمن لنبينا والحق يعرفه ذوو الألباب[٢]

وقال ابنُ عبَّاس وقتادةُ والحسنُ ومجاهد: أميناً عليه[٣].

وقال الزَّجاج: أصلُه: مؤيمن[٤] بالهمزة مفيعل بمعنى الفعيل، كقولهم: مبيطِر،

---

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ٧٣).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٧٣)، والواحدي في «الوسيط» (٢/ ١٩٥) و«البسيط» (٧/ ٤٠٧)، والبغوي في «تفسيره» (٣/ ٦٥). وفي «ديوان حسان» (١/ ٣٤٣) في قصيدة يهجو بها الحارث بن المغيرة قريب منه، ولفظه:

أخواتُ أُمِّك قد عَلِمْتَ مكانَها والحقُّ يَفهمُهُ ذوو الألبابِ

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٨/ ٤٨٧ ـ ٤٩٠) عن ابن عباس والحسن ومجاهد.

(٤) في «معاني القرآن» للزجاج: «مؤتمن».

بمعنى البَطير، وأبدلت الهمزة بالهاء لتقاربهما، كما في قولهم: أرقتُ الماءَ وهَرَقْتُه، وإيَّاك وهيَّاك، وأيهات وهيهات(١).

وقيل: حفيظاً.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: قال أبو عوسجة: مسلَّطاً(٢).

وقال الأصم: هي كلمةٌ مأخوذةٌ مِن كتُبهم، غيرُ مأخوذةٍ مِن لسان العرب؛ ليَعلموا أنَّه إنَّما عرف بالله لا أنَّه استخرجَه بلسانه.

ومعنى الكلِّ أن يُؤدِي ما في الكتبِ المتقدِّمة على وجهه وحقيقتِه، مِن غيرِ زيادةٍ ولا نقصان في المعنى، ويُخبِرُ عن تحريف أهل الكتاب وخيانتِهم فيها، ومعنى تصديقِه الكتبَ موافقتُها في التوحيد والعبادة، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، ذكر إنزالَ التَّوراة على موسى، ثمَّ إنزالَ الإنجيلِ على عيسى، ثمَّ إنزالَ القرآنِ على محمَّدٍ صلواتُ الله عليهم، وبيَّن أنَّه ليس للسَّماع فحسب، بل للحكم به، فقال في الأولى: ﴿يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ﴾، وقال في الثَّانية: ﴿وَلۡيَحۡكُمۡ أَهۡلُ ٱلۡإِنجِيلِ﴾، وقال في الثَّالثة: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾(٣)؛ أي: بالرَّجمِ على المحصَن، وبالتَّسوية في القِصاص بين القرظي والنَّضيري(٤).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾؛ أي: في تركِ القَوَد، وإعطاءِ الدِّيةِ، وتركِ

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ١٨٠).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٣/ ٥٣٤).

(٣) قوله: «وقوله تعالى: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾» ليس في (ف).

(٤) بعدها في (ف): «وقوله تعالى: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ قد تقدم الكلام عليه».

الرَّجـم واختيـارِ الجلد، وهذا ناسـخٌ لما تَقـدَّمَ مِن التَّخييـر: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ [المائدة: ٤٢].

وقولـه تعالـى: ﴿عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ قيـل: أي: ميـلاً عمَّـا جاءَك مِـن الحق، أضمـرَ فيـه هذا.

وقيل: أي: بعد ما جاءَك. و«عن» و«بعد» يتناوبان، قال تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ وقال: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾.

وقوله: ﴿مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾؛ أي: البيانِ في القرآن.

وقال الإمامُ القشيريُّ: قدَّم اللهُ تعريفَ رسولِه قصصَ المتقدِّمين بين يديهِ على تكليفِهِ اتِّباعَ ما أُنزِلَ إليه؛ لئلَّا يَسلُكَ سبيلَ الذين سبقوهُ فيستوجب ما استوجبوه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾؛ أي: لا تَستميلنَّك مودَّةُ قريبٍ، واعتنِق ملازمةَ أمرِ الله بتركِ كلِّ نصيب[(١)].

وقوله تعالى: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗا﴾؛ أي: جعلنا لكلِّ أمَّةٍ شريعةً، وهي في الأصل: المدخلُ إلى الماءِ، وبه الحياةُ والطَّهارةُ والمصالح[(٢)]، وشرائعُ الدِّين ـ وهي أحكامُه وحدودُه ولوازمُه ـ كذلك.

﴿وَمِنۡهَاجٗا﴾؛ أي: طريقاً واضحاً؛ كأنَّه قال: جعلنا لكلٍّ منكم مورداً وطريقاً إليه، أخبرَ أوَّلاً أنَّ هذا مصدِّقٌ لما قبلَهُ والأصلُ واحد، ثمَّ بيَّن أنَّ الطُّرقَ مختلفةٌ، وكلُّها مؤدِّيةٌ إلى واحد.

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٢٨).

(٢) لفظ: «والمصالح»: ليس في (أ).

وقال ابنُ عباس رضي الله عنهما: الشَّريعةُ: المنصوصُ عليها في الكتاب، والمنهاج: الثَّابتُ بالسُّنَّةِ[١].

وقال مجاهدٌ والزَّجَّاج: الشِّرعةُ والمنهاج واحدٌ، وهو الطَّريق؛ أي[٢]: الدِّين[٣]، وهو كقوله: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ و﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾، وهو تكرارُ اللَّفظِ واتِّحادُ المعنى، كقول القائل:

حُيِّيتَ مِن طَلَلٍ تَقادَمَ عهدُه أقوى وأقفرَ بعد أمِّ الهيثمِ[٤]

وقال مقاتل: شِرْعةُ اليهودِ القِصاص، ولا عفوَ ولا ديةَ، وشرعةُ النَّصارى العفوُ لا غير، وشرعتُنا في العمدِ كل ذلك، وكذلك الحدُّ في الزِّنى مختلفٌ[٥].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ على شرعةٍ واحدةٍ، وهي الإسلام، بلا اختلافٍ ولا تفاوت.

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾؛ أي: جعلَ الشَّرائعَ مختلفةً؛ أي: ليَختبركُم فيما أعطاكُم مِن الدِّين.

وقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾؛ أي: فابتَدروا إلى العملِ بالشَّرائع، فهي خيراتٌ كلُّها، جامعةٌ خيرَ الدَّارَين.

وقوله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ أيُّها الأمم، ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ

---

(١) روى الطبري في «تفسيره» (٨/ ٤٩٦ ـ ٤٩٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١١٥١، ١١٥٢) (٦٤٨٢، ٦٤٨٥) عنه قال: ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾: سبيلاً وسنةً.

(٢) في (ر) و(ف): «إلى».

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ١٨٤).

(٤) البيت لعنترة، وهو في «ديوانه» (ص: ١٨٥).

(٥) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٤٨٢).

﴿تَخْتَلِفُونَ﴾ وهو وعدٌ ووعيد؛ أي: كنتم مختلفين، فكان بعضُكم يُضيفُ شيئاً إلى الله أنَّه شَرعَهُ، وينفيه آخر، فأُثيبُ منكم المحقَّ على حقِّه، وأجزي المبطِلَ جزاءَ مثله.

وقال الإمام القشيري: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ أي: أفردنا[1] كلَّ واحدٍ منكم معاشرَ الأنبياء بطريقةٍ، وأما أنت يا محمَّدُ، فلا يُدانيكَ أحدٌ في طريقتِك على الحقيقة، فأنت المقدَّمُ على الكافَّةِ، والمفضَّلُ على الجملة، ولو شاءَ الله لسوَّى مراتبَكم، ولكن غاير بينكم ابتلاءً، وفضَّلَ بعضَكم على بعضٍ امتحاناً.

وقوله تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾؛ أي: سارعوا إلى الطَّاعات، ومسارعةُ كلِّ أحدٍ على ما يَليقُ بوقتِهِ، فالعابدون يُسارِعون بقدمِهم من حيث الأوراد، والعارفون بهمَمِهم[2] مِن حيثُ المواجيد.

قال: ويقال: استباقُ الزَّاهدين برفضِ الدُّنيا، واستباقُ العابدين بقطعِ الهوى، واستباقُ العارفينَ بنفي الـمُنى، واستباق الموحِّدين بتركِ الورى، واستباقُ المقرَّبين بنسيانِ الدُّنيا والعُقبى[3].

***

(٤٩) ـ ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾.

---

(١) بعدها في (ف): «بقوله».

(٢) في (ر): «بفهمهم»، و(ف): «بهمهم».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٢٨).

وقوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ قيل: يتَّصِلُ بقوله: ﴿ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ وبـ ﴿وَأَنِ ٱحْكُم﴾، ولا يصلح عطفاً على قوله: ﴿فَٱحْكُم﴾ ﴿وَأَنِ ٱحْكُم﴾(١).

وقيل: يتَّصِل بقوله: ﴿مُصَدِّقًا﴾؛ أي: أنزلناه بتصديقِ ما بين يديه وبـ ﴿وَأَنِ ٱحْكُم﴾.

وقيل: يقعُ عليه الإنزالُ، وتقديره: إنَّا أنزلناه إليك ﴿وَأَنِ ٱحْكُم﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ قال أبو عبيد: أي: يصرفوك، وقال قطرب: أي: يَستزِلُّوك، وهو كقوله: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾؛ أي: فإنْ أعرضوا عن الانقيادِ لحكمك، فاعلم أنَّ اللهَ يُريدُ أنْ يُعجِّلَ لهم عقوبة بعضِ ذنوبِهم في الدُّنيا، فإنَّ الدُّنيا ليست بدار كمالِ الجزاء، وعذابُ الدُّنيا عذابُ بعض الذُّنوب؛ لأنَّه لا يَدوم، وعذابُ الآخرةِ عذابُ جميعِ الذُّنوب؛ لأنَّه يَدوم، وقد أصابَهم بذلك، وهو قتلُ بني قريظة، وإجلاءُ بني النَّضير.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: معناه: عِظْهُم بلسانِ العلم، فإنْ أبَوا قَبوله، فشاهِدهم بعينِ الحكم، [ويقال:] أشِرْ(٣) عليهم باعتناقِ لوازم التكليف، فإن أعْرَضوا، فعاينهُم بعينِ التَّصريف(٤)، فإنَّ الحقَّ سبحانه وتعالى بشرطِ التَّكليفِ

---

(١) من قوله: «قيل يتصل يقوله» إلى هنا ليس في (ف).

(٢) انظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٧/ ٤١٤).

(٣) في «لطائف الإشارات» للقشيري: «اشدد» بدل: «أشر»، وما بين حاصرتين منه.

(٤) في (ف): «التصديق».

يُلزمُهم، وبحكمِ التَّصريفِ يُؤخِّرُهم ويقدِّمُهم(١)، فالتَّكليفُ فيما أوجبَ، والتَّصريفُ فيما أوجدَ، والعبرةُ للإيجادِ لا للإيجاب(٢).

وقال مقاتلٌ: إنَّ رؤساءَ يهودِ بني النَّضير قال بعضُهم لبعض: انطلِقوا بنا إلى محمَّدٍ ﷺ نفتِنُه، ونَردُّه عمَّا هو عليه، إنَّما هو بشرٌ، فأتَوهُ فقالوا له: هل لك أنْ تَحكُم لنا على أصحابِنا في أمر الدِّماء(٣) كما كنَّا عليه مِن قبل، فإنْ فعلتَ فإنَّا نبايعك، وإن بايعناك تابعكَ أهلُ الكتابِ كلُّهم، فإنَّا بقيَّتُهم وخيارُهم، فأنزلَ الله هذه الآية يُحذِّرُهُ ويقول: لا تتَّبع أهواءَهم، واحذرْهُم أنْ يَصدُّوك عن بعضِ ما أنزلَ اللهُ إليك من التَّسوية في الدِّماء، فإن أبَوا حكمك، فاعلم أنَّ اللهَ يُريد أنْ يُصيبَهم؛ أي: يُعذِّبَهم في الدُّنيا بالقتلِ والجلاء.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: من رؤساء اليهود وغيرهم ﴿لَفَٰسِقُونَ﴾ خارجون عن الطَّاعة، فلمَّا نزل هذا، قال كعبُ بن الأشرف ومالكُ بن الصَّيف: لا نرضى بحكمك، فنزل قوله تعالى:

(٥٠) ـ ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾(٤) الألفُ ألفُ الاستفهام، وهو للاستنكار والاستعظام.

و﴿ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ حالةُ الشِّرك، والجهلُ المطلقُ يقع على(٥) جهل الكفار، قال تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤].

---

(١) في (ف): «ويعذبهم».

(٢) في «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٢٩): «والعبرة بالإيجاد والإيجاب».

(٣) في (ر): «الدنيا»، وفي (ف): «الدين»، والمثبت موافق لما في «تفسير مقاتل».

(٤) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٤٨٢ ـ ٤٨٣).

(٥) في (أ): «هو»، وفي (ف): «و» بدل: «يقع على».

والبُغاء: الطَّلبُ بضمِّ الباء، يقول: أتطلبون حكمَ أهل الجاهليَّةِ في حدِّ الزِّنى والقصاص حيث لم تَرضوا بحكم التَّوراةِ والإنجيلِ والقرآن.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا﴾ استفهامٌ بمعنى النَّفي؛ أي: لا أحسنُ حكماً مِن الله ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أنَّ لهم إلهاً، فيعلمون أنَّه لا أحسنُ حكماً منه[1]؛ لأنَّه على المصلحةِ والحكمةَ، لا على المجازفة والشَّهوة.

وقيل: معناه: عند قومٍ يوقنون بالله وبحكمته، وحرفُ اللَّام، وكلمة «عند» يتقاربان، يقال: لفلانٍ العلمُ بهذا الأمرِ، و: عندهُ العلمُ بهذا الأمر.

وقال الإمام القشيريُّ: أيعودون في ظُلمةِ الحِجاب بعدما انهتكَ سِتْرُ الارتياب؟! أيَطلبون منك أنْ تَحيدَ عن المحجَّة الـمُثلى والطريقة العظمى، بعدما اتَّضحَ لك البراهيُن وتَجلَّى اليقين[2]؟!

* * *

(٥١) ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾؛ أي: لا تَتولَّوهم.

وقال الإمام أبو منصور: ويَحتملُ: لا تَدينوا بدينهم؛ فإنَّكم إذا فعلتُم ذلكَ صِرْتُم لهم أولياء[3].

وقوله تعالى: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾؛ لاتِّفاق أديانِهم، فإذا تولَّيتُموهم كنتم على دينِهم.

---

(١) في (ف): «من الله» بدل: «منه».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٢٩).

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٣/ ٥٣٧).

وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ وهذا إذا تولَّاهم لدينِهم، وأمَّا الصُّحبةُ لمعاملةٍ أو شراءِ شيءٍ منهم، أو لطلب عملٍ منهم، مع المخالفةِ في الاعتقادِ والأمور الدينيَّة، فليس فيه هذا الوعيد.

وقال الإمامُ أبو منصور رحمَه الله: قوله: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ دليلٌ على أنَّ الكفرَ كلَّه مِلَّةٌ واحدةٌ باطلة(١).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: لا يُرشِدُ الظالمين أنفسَهم بتركِ إخوانِهم المؤمنين وموالاةِ الكافرين.

قال مقاتل: نزلت في أبي لبابة واسمُه مروان، ورجلين آخرين، وذلك أنَّه لـمَّا كان يومُ أحد، خاف ناسٌ مِن المسلمين أن يُدالَ الكفَّارُ عليهم، فقال أحدُهما: إنِّي آتي فلاناً اليهوديَّ فأتهوَّدُ، وقال آخرُ: إنِّي آتي الشَّامَ فأتنصَّر، فنزلَت الآيةُ(٢).

وقال عياض الأشعري: قدم أبو موسى الأشعري على(٣) عمر، ومعه كاتبٌ له نصرانِيٌّ، فدعا به، فقرأ كتاباً، فأعجبَهُ ظرفه وحفظُه، فلمَّا كان يومُ الجمعة قال له عمر: ادع كاتبَك، قال: إنَّه لا يَدخلُ المسجدَ، فقال: أجنبٌ هو؟ قال: لا، ولكنَّه نصرانيّ، فقال: لا تُكرِموهم إذْ أهانَهم الله، ولا تُعِزُّوهم إذ أزلَّهمُ الله، ولا تَأتمِنوهم إذ خوَّنهمُ الله، ولا تُدنوهم إذْ أقصاهمُ الله(٤).

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٣/ ٥٣٨).

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٤٨٣)، وليس فيه تسمية الرجلين بل جاء ذكر أبي لبابة والرجلين في الكلام عن الآية التالية، فلعله انتقال بصر، والله أعلم. والخبر أخرجه أيضاً الطبري في «تفسيره» (٨/ ٥٠٦)، وابن أبي حاتم (٤/ ١١٥٥ ـ ١١٥٦) (٦٥٠٧) من قول السدي.

(٣) قوله: «الأشعري على»: من (ر).

(٤) رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (٢٠٤٠٩).

وقال عطية العوفي: جاء عبادةُ بنُ الصَّامت إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله[١]، إنَّ لي مواليَ مِن يهودَ كثيرٌ عددُهم، وإنِّي أبرأُ إلى الله وإلى رسولِه من وَلايتِهم، فقال عبد الله بنُ أبيٍّ: إنِّي رجلٌ أخافُ الدَّوائرَ، ولا أبرأُ مِن ولاية مواليَّ. وهم يهود بني قينقاع، فقال رسول الله ﷺ لعبدِ الله بنِ أُبيّ: «ما بخِلتَ به مِن ولايةِ يهود على عبادةَ فهو لك»، فقال: قد قبِلتُ، فأنزل الله فيهم: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ﴾ إلى قوله: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾[٢]، أي: نفاقٌ ﴿يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾؛ أي: في ولايتهم، ونزلَ في عبادة: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المائدة: ٥٥].

وقال عكرمة: نزلَتْ في أبي لبابةَ بنِ عبد المنذر حين تَنصَّح إلى بني قريظةَ، فأشار إليهم أنَّهُ الذبح[٣].

***

(٥٢) ـ ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾؛ أي: فتُبصِرُ يا محمَّدُ المنافقين الذين في قلوبهم شكٌّ في الدِّين، وغِلٌّ على المؤمنين، يُبادِرون في موالاةِ اليهودِ والنَّصارى والكافرين، ثمَّ يَحتجُّون بما لا حُجَّة فيه، وذلك قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ هي الدولةُ الدائرةُ من قومٍ إلى قوم؛ أي: يقولون: نخافُ أنْ يكون للدَّهر دائرةٌ على المؤمنين، فنضطرَّ إلى هؤلاءِ الكفَّار والالتجاءِ بهم،

---

(١) في (ف): «وقال» بدل من «فقال: يا رسول الله».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٨/ ٥٠٤).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٨/ ٥٠٦ ـ ٥٠٧).

فخيَّبَ اللهُ ظنَّهم، وذلك قوله تعالى: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾.

قال الكلبيُّ رحمه الله: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾؛ أي: شكٌّ ونِفاق، ﴿يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ﴾ أي: في ولايةِ اليهودِ ونصارى أهلِ نجران؛ لأنَّهم كانوا أهلَ ريفٍ، وكانوا يَميرونهم ويُقرِضونهم، ويقولون: ﴿نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾؛ أي: سنةٍ جدْبَةٍ[1]، ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ﴾؛ يعني: فتح مكة، ﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾؛ أي: الخصب لمحمَّدٍ وأصحابه، ﴿فَيُصْبِحُوا۟﴾؛ أي: فيَصيروا؛ يعني: أهلَ النِّفاق ﴿عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟﴾؛ أي: أضمَروا في أنفسِهم؛ أي: في قلوبِهم ﴿نَٰدِمِينَ﴾؛ أي: على ما كان مِن ولايتِهم ودسِّ الأخبارِ إليهم[2].

وقيل: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ﴾ أي: بالفرج[3] من غدرِ اليهودِ؛ بقهرهم حتَّى يُذعِنوا لهم بالذِّمَّةِ وقَبول الجزية، ﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾ بإهلاكهم.

وقال الضَّحاك: ﴿بِٱلْفَتْحِ﴾ لقُرى اليهود فدك وخيبر[4]، ﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾ إجلاء[5] بني النَّضير، وقتلِ بني قريظة.

والفتحُ: هو حلُّ الأمورِ المنعقدة، وفتحُ الأبوابِ المنغلقة.

و«عسى» من اللهِ إطماعٌ، وإطماعُ الكريم إيجابٌ، ومعنى الإطماعِ بهذه الكلمة بدون كلمة التَّحقيق: تعليقُ القلوب بحسن الرَّجاء، وحملُ المؤمنين على صدقِ

---

(١) في (ف): «مجدبة».

(٢) في (أ) و(ف): «الأخبار إليهم» بدل من «الأحبار اليهود».

(٣) في (أ): «بالفرح»، وفي (ف): «بالفرح والسرور».

(٤) ذكره الواحدي في «البسيط» (٧/ ٤٢٢)، والبغوي في «تفسيره» (٣/ ٦٨).

(٥) في (ف): «بإجلاء».

الالتجاء، وكذلك إدخال ﴿أَوْ﴾ بين الأمرين، مع علم الله أنَّه يكون هذا أو هذا؛ لتعلُّقِ القلوبِ بلطفِ الله بهم، دون اعتمادهم على أمرٍ كائنٍ لهم.

قوله تعالى: ﴿فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾ ولـمَّا تحقَّقوا ذلك ندموا، لكنَّ ندامتَهم لم تكن على نفاقِهم؛ لأنَّه توبةٌ منهم، بل على تولِّيهم إيَّاهم، واعتدادِهم به، وجملتُه أنَّ اللهَ أخبرَ بهذا الكلام أنَّه لا يكونُ لليهود علوٌّ على المسلمين مِن بعد، وأنَّ المنافقين يَندمون على ذلك، وكان كذلك.

وقال عطاء[1]: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ عبدُ الله بنُ أُبيٍّ وأصحابُه، ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾ في مودَّة بني قينقاع[2]، وكانوا أسارى في يدِ رسول الله ﷺ، فما زال بالنبيِّ ﷺ حتَّى قال: «خُذهُم، لا باركَ اللهُ لك فيهم»، فما بقيَ منهم نافخُ ضَرْمَةٍ[3].

***

(٥٣) ـ ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ قرأ أبو عمرو[4] بالنَّصبِ عطفاً على: ﴿فيصبحوا﴾، والباقون بالرَّفع على الاستئناف[5].

---

(١) كذا، ولعل الصواب: «عطية»، وهو العوفي.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٨/ ٥١٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٥١١) (٦٥٢٠). والضرمة: النار

(٣) أورده الجرجاني في «درج الدرر» (١/ ٥٧٠) عن عطية.

(٤) في (ر): «ابن عامر» بدل: «ابن عمرو»، وهو تحريف.

(٥) انظر: «السبعة» (ص: ٢٤٥)، و«التيسير» (ص: ٩٩).

وقولـه تعالـى: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡ﴾؛ أي: يقـول المؤمنـون لليهـود: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ المنافقين ﴿ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ مجتهديـن غايةَ جهدِهم فيهـا ﴿إِنَّهُمۡ﴾؛ أي: الحالفـون ﴿لَمَعَكُمۡ﴾ أيُّها اليهود ومتولُّوكـم وأعوانُكم، وقد وثِقتُم بهـم، وقـد ظهـرَ كذبُهم فـي أيمانِهـم، وخيبةُ ظنونِكـم بهم.

وقيل: معناه: ويقول المؤمنون بعضُهم لبعض: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ المنافقون الذين حلَفوا أنَّهم معكم أيُّها المؤمنون، كما قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ﴾ [البقرة: ١٤]، وقد أظهرَ اللهُ أنَّهم يُوالون أهلَ الكتابِ، فهتكَ أستارَهم.

وقولُه تعالى: ﴿حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾؛ أي: بَطَلَت أعمالُ المنافقين في موَالاةِ أهل الكتاب، وانقَطَعتْ أطماعُهم.

وقوله تعالى: ﴿فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ﴾؛ أي: في الدُّنيا والآخرة؛ بفوات المعونةِ، ودوامِ العقوبة.

وقـال الإمـام القشـيري: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: إنَّ الذيـن سَـقِمت ضمائرُهـم، وضَعفـت فـي التَّحقيـقِ بصائرُهـم، سـبقَ إلـى قلوبِهم هـوادةُ الأعـداءِ؛ خوفـاً مـن معرَّتِهم، وطمعـاً في المأمـولِ مِـن صُحبتِهم، ولو اسـتيقَنوا أنَّهم في أسرِ العجزِ وذلِّ الإعـراض، لأمَّلـوا مـن الله الموعـودَ من كفايتِـه، والمعهودَ مِـن رعايته، ولكـنْ حُجِبـوا عن محـلِّ التَّوحيـد والإيمـان، فتَفرَّقوا فـي أوديةِ الظُّنون والحسـبان، وعـن قريبٍ يأتيكم الفَـرَجُ أيُّها المؤمنـون، وهم يَستشـعِرون النَّدمَ، ويُقاسـون الألـمَ، وأنتـم تَعلـو رؤوسُـكم، وتضيءُ بزواهـرِ القُرَب قلوبُكـم، وتَصلون مِـن الموعودِ إلى ما يُربـي علـى المقصودِ.

* * *

(٥٤) - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ﴾؛ أي: مَن يرجِعُ منكم عن دينِ الإسلام بموالاة الكفَّار، فليَعلم أنَّ اللهَ لا يُخْلِي دينَه عن أنصارٍ يَحمونَه، وذلك قوله تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾؛ أي: يرضى منهم أعمالَهم، ويُثني عليهم بها، ويُطيعونَهُ ويُؤْثِرون رضاه.

وقوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ جمع ذَلُول، وهو اللَّيِّنُ، يقال: دابَّةٌ ذَلولٌ بيِّنَةُ الذِّلِّ؛ بكسر الذَّال، ورجلٌ ذليلٌ بيِّنُ الذُّلِّ بضمِّ الذَّال، قال تعالى: ﴿لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ [البقرة: ٧١]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا﴾ [الملك: ١٥]، وقال: ﴿فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗا﴾ [النحل: ٦٩]. **وقوله تعالى:** ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ جمع عزيز، وهو الشَّديد، يُقال: ناقةٌ[1] عزوز، إذا تعذَّر استخراج لبنها[2]، وأرضٌ عَزَازٌ؛ أي: صُلبة؛ أي: يأتي بقومٍ رحماءَ بالمؤمنين عاطفين عليهم، غلاظٍ على الكفَّار أشداءَ عليهم.

وقوله تعالى: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: يَبذُلون المجهودَ في قتال الكفَّار؛ حملاً لهم على الإسلام، ومنعاً عن عبادةِ الأصنام.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖ﴾؛ أي: لا يَخشون في إظهارِ دينِ الله ملامةَ مَنْ يَلومُهم مِن أقاربِهم الكفَّارِ على قطيعةِ الرحم.

---

(١) في (أ): «جوزة»، وفي (ف): «حورة».

(٢) في (أ): «لبها».

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾ اتِّصافُهم بهذه الأوصافِ ممَّا آتاهمُ اللهُ مِن فضلِهِ؛ ثواباً لهم على حُسنِ نيَّاتِهم.

وقوله تعالى: ﴿يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ يُعطيه مَن يعلَمُهُ أهلاً له؛ باختيارِه طاعتَه، وكراهيةِ معصيته.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ يَسَعُ فضلُه جميع خلقِه، عَليمٌ بمَن هو مِن أهلِه.

وقال محمَّد بنُ كعبٍ القُرظي: هو في رِدَّة مقيس بن صبابة(١)، وطُعمةَ بنِ أُبيرق، والعرنيين ورجالٍ معدودين، والقومُ الذين ﴿يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ أهلُ اليمن، قَدِموا وأسلموا، وهم ألفان أو ثلاثةُ آلاف(٢)، قال أبو هريرة رضي الله عنه: قال النبيُّ ﷺ: «أتاكُم أهلُ اليَمَن، هم ألينُ قلوباً، وأرقُّ أفئدةً، الإيمانُ يمان، والحكمةُ يمانية»(٣).

وقال عياضُ الأشعري: لـمَّا نزلَ قولُه تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٍ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ قال النَّبيُّ ﷺ لأبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه: «هم قومُ هذا»(٤).

وقال الكلبيُّ: ارتدَّ بعد وفاةِ رسولِ الله ﷺ بنو تميمٍ، وبنو حنيفةَ وأسدٍ وغطفان، وأناسٌ مِن كِندة، وفيهم الأشعثُ بن قيس، وبقيَ ثلاثةُ مساجدَ لم يَرتدُّوا بمكَّةَ والمدينة والبحرين، فأتى الله بخيرٍ مِن الذين ارتدُّوا، فشدَّد بهم الدِّين، وهم أحياءٌ

---

(١) في (ف): «صبابة».

(٢) لم أقف عليه.

(٣) رواه البخاري في «صحيحه» (٤٣٨٨)، ومسلم في «صحيحه» (٥٢).

(٤) رواه الطبري (٨/ ٥٢١)، وابن أبي حاتم (٤/ ١١٦٠) ٦٥٣٥، والطبراني في «الكبير» (٧/ ٣٧١) (١٠١٦)، والحاكم في «المستدرك» (٣٢٢٠)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ٣٥١ ـ ٣٥٢). وهو حديث مرسل، كما جزم بذلك ابن أبي حاتم، فعياض بن عمرو الأشعري عنده تابعي، وهو الأصح، فلم تثبت صحبته، انظر: «تهذيب الكمال» (٢٢/ ٥٧١).

مِن اليمن؛ مِن كندة ومن النَّخَع ومن بَجيلة، ألفان من النَّخَع، وخمسةُ آلافٍ من كِنْدَة وبَجيلة، وثلاثةُ آلافٍ من سائر النَّاس، فجاهدوا في سبيل الله يوم القادسيَّة[١].

وقال عطاء: ﴿بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ قال: هم[٢] الأنصار.

وقال ابنُ عبَّاسٍ والحسنُ البَصريُّ وقتادةُ والضَّحَّاك: هم أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه وأصحابُه، وذلك أن عامة العرب بعد وفاة رسول الله ﷺ قالوا: أما الصلاة فإنا نصلي وأما الزكاة فلا تغصب أموالنا، فقال أبو بكر رضي الله عنه: لو منعوني عناقاً مما أدوا إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه[٣]، فقال عمر: أليس قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها» فقال أبو بكر رضي الله عنه: هذا من حقِّها[٤].

وقال الإمامُ أبو منصور: وفيه إثباتُ إمامةِ أبي بكرٍ الصِّديق رضي الله عنه؛ لأنَّ اللهَ مدحَ المجاهدين معه بأمرِه[٥]، فثبتَ أنَّ الائتمارَ بأمرِهِ طاعةٌ وأنَّه مفترَضُ الأمر، وفي ثبوتِ خلافتِهِ ثبوتُ خلافةِ عمرَ وعثمان وعليٍّ رضي الله عنهم.

قال: وفيه دليلٌ على أنَّ عليًّا رضي الله عنه لم تكنْ له الخلافةُ حين قُبِضَ

---

(١) انظر: «تفسير البغوي» (٣/ ٧١).

(٢) في (ف): «وهم» بدل من «قال: هم».

(٣) انظر: «تفسير الطبري» (٨/ ٥١٨ ـ ٥٢١)، والخبر فيه بطوله عن قتادة، ورواه عن الحسن والضحاك مختصراً.

(٤) رواه البخاري (١٣٩٩، ١٤٠٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه أن أبا بكر أجاب عمر بقوله: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها. وبرواية: هذا من حقها. رواه الشافعي في «مسنده» (٨٣٧).

(٥) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٣/ ٥٤٢).

رسولُ الله ﷺ؛ إذ لا يَحتمِلُ أنْ يَرى الحقَّ[1] لنفسِه في زمن أبي بكر رضي الله عنه، ثمَّ يتركَ طلبَها، وفيه تضييعُ حقِّ الله عليه، مع قوله: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖ﴾[2].

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ﴿يُجَٰهِدُونَ﴾ بنفوسِهم باستدامةِ الطَّاعات، وبقلوبِهم بقطعِ المنى والطَّلبات، وبأرواحهم بحذفِ العِلاقاتِ، وبأسرارِهم بالاستقامةِ على الشُّهودِ في دوام الأوقات[3].

* * *

(٥٥) ـ ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ نهى عن موالاةِ الأعداء، وأَخبرَ أنَّ وليَّهم هو اللهُ الذي يتولَّى مصالِحَهُم ومراشِدَهم، ويَأمرُ رسولَهُ أنْ يَتولَّاهم بالنَّصيحةِ والدُّعاءِ إلى طاعة الله وطلبِ مرضاتِه، ورَسولُهُ يَأمرُ المؤمنين بأنْ يتولَّوهم بالشفقةِ[4] والمعاونة على التَّقوى والطَّاعة.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وهذا من صفاتِ الذين آمنوا.

قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ رَٰكِعُونَ﴾؛ أي: هم خاشعون لله، مع استكثارِهم نوافلَ الصَّلوات والصَّدقات.

ورويَ أنَّ الآيةَ نزلَت في عليٍّ رضي الله عنه، تَصدَّق بخاتَمه في ركوعِه، فعلى هذا يكون قوله: ﴿وَهُمۡ﴾ واو الحال، وظاهرُه العموم.

---

(١) في (ف): «الأمر».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٣/ ٥٤٢ ـ ٥٤٣).

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٣٣).

(٤) بعدها في (ر): «والمعونة».

وقال ابنُ عباس: إنَّ بلالاً أذَّن للظُّهر، فخرجَ النَّبيُّ ﷺ والنَّاسُ يُصلُّون، فإذا هو بمسكينٍ يَطوفُ ويَسألُ النَّاسَ، فدعاهُ رسولُ الله ﷺ وقال: «هل أعطاكَ أحدٌ شيئاً؟» قال له: نعم، قال: «ماذا؟» قال: خاتم فضة، قال: «من أعطاك؟» قال: ذاك الرَّجلُ القائم، فنظرَ إليه النَّبيُّ ﷺ، فإذا هو عليٌّ رضي الله عنه، فقال: «على أيِّ حالٍ أعطاكَهُ؟» قال: أعطاني وهو راكعٌ، فنزلتِ الآيةُ[١].

وقيل: قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ في الفرائضِ، وقوله: ﴿وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ في النَّوافل.

وقال ابنُ عبَّاس: إنَّ رهطاً مِن مؤمني أهلِ الكتاب عبدَ الله بن سلام وأسيد[٢] وثعلبة لـمَّا أمرَهُم رسولُ الله ﷺ أنْ يَقطعوا مودَّة اليهودِ، ففعلوا، قالت قريظةُ والنَّضير: ما بالُنا نودُّ أهلَ دينِ محمَّد ﷺ، وقد تبرَّؤوا منَّا، فوالذي نحلف به، لا نُكلِّمُ أحداً منهم، ولا نجالِسُهم، فبلغَ ذلك ابنَ سلامٍ وأصحابَه، فأتوا رسولَ الله ﷺ، فقالوا: إنَّ قومَنا قد هجَرونا، وأقسموا ألَّا يجالسونا، ولا نَستطيعُ مجالسةَ أصحابِك؛ لبُعدِ المنازل، فنزلَتِ الآيةُ، فقرأَها عليهم رسولُ الله ﷺ، فقالوا: رضينا بالله وبرسولِه وبالمؤمنين أولياء[٣].

***

(١) رواه ابن مردويه كما في «تفسير ابن كثير» و«الدر المنثور» (٥/ ٣٦١) من طريق محمد بن السائب الكلبي، وهو متروك، عن أبي صالح، عن ابن عباس رضي الله عنهما.
قال ابن تيمية في «منهاج السنة» (٧/ ١١): أجمع أهل العلم بالنقل على أنها لم تنزل في علي بخصوصه، وأن عليًّا لم يتصدق بخاتمه في الصلاة، وأجمع أهل العلم بالحديث على أن القصة المروية في ذلك من الكذب الموضوع.

(٢) «وأسيد»: ليس في (ر). وفي (ف): «وأسد وأسيد».

(٣) لم أقف عليه عن ابن عباس، وأورده الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٨٠)، والواحدي في «البسيط» (٧/ ٤٣٣)، والبغوي في «تفسيره» (٣/ ٧٢) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٥٦) ـ ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾؛ أي: ومَن جعلَ اللهَ وليًّا له، يَتولَّى مصالحَهُ ونَصْرَهُ[١]، وجعلَ رسولَه وليًّا له يَدلُّه على مراشدِه، وجعل المؤمنين أولياءَ له[٢]، يَعتضِدُ بهم في أمورِه، ويَجعلُهم موضِعَ سرِّه وصلتِه وبرِّه، فهو مِن حزب الله.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ قال الحسن: ﴿حِزْبَ ٱللَّهِ﴾ جندُه، وقيل: أنصاره.

والتَّحزُّبُ: التَّجمُّع لدفعِ ما يَحْزُبُ؛ أي: ينوبُ، فأخبرَ أنَّ الغلبةَ لحزب الله، وقد كان كذلك، فقد جعلَ الغلبةَ للمسلمين على اليهود، فقتَلَهُم وأجلاهُم، وفرَّقَهم وسباهم، وخيَّب ظنونَ مَنْ تولَّاهم.

وقال الإمام القشيري: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ لا موالاة بين أولياء الله وأعداء الله، أعداءُ الله[٣]: أعداءُ الدِّين وأعداءُ المسلمين، وأعدى عدوِّكَ نفسُك التي بين جنبيك، ومَن عادى نفسَهُ، لم يَخرج بالمخاصمةِ عنها على الخلق، وبالمعارضةِ فيها مع[٤] الحقِّ.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ الفانون عن حظوظِهم، الذين هم خصمُ الحقِّ على أنفسِهم، لا خصمُ أنفسِهم على مولاهم، والغلبةُ بالحجج[٥] والبُرهان لا باليدِ واللِّسان[٦].

---

(١) في (ف): «ونصيره».

(٢) في (أ): «أولياءه» بدل: «أولياء له».

(٣) قوله: «أعداء الله» من (أ).

(٤) في (أ): «عن».

(٥) في (أ): «بالحجاج».

(٦) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٣٣).

(٥٧) ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ﴾ قرأ أبو عمرو والكسائيُّ: ﴿والكفارِ﴾ بالجرِّ؛ عطفاً على قوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ﴾؛ أي: ومِن الكفَّارِ، وقرأ الباقون بالنَّصبِ؛ عطفاً على قوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ﴾[1].

نهى عن موالاةِ كلِّ الكفَّارِ على العموم بعد ما نَهى عن موالاةِ أهل الكتاب على الخصوص، يقول: ﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾ اليهودَ والمشركين ﴿أَوْلِيَاءَ﴾، ووَصفهُم فقال: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا﴾؛ أي: سخريةً ﴿وَلَعِبًا﴾؛ أي: عبثاً؛ أي: يهزؤون به، ويقولون: هو محدَثٌ، لا قرارَ له ولا ثبات، ولا هو مِن عندِ الله آت.

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: واحذروا عذابَ اللهِ؛ في تركِ ما أمرَكُم به، وفعلِ ما نهاكُم عنه مِن اتِّخاذِ الكفَّارِ أولياء وغيرِ ذلك، إن آمنتم، فإنَّ الإيمانَ يُوجِبُ طاعةَ اللهِ، وتركَ موالاةِ أعداءِ الله.

***

(٥٨) ـ ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾؛ أي: وإذا أذَّنَ مؤذِّنُكم، فدعا إلى الصَّلاة، اتَّخذوا الصَّلاةَ سخريةً وعبثاً، وقالوا: هذا أمرٌ لا ثباتَ له، فإذا كان صنيعُهم هذا بأجلِّ أمورِ دينكم، فكيف يَجوزُ لكم أنْ تُوالوهم وتَثِقوا بهم؟

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾؛ أي: إنَّما يَفعلون ذلك لأنَّهم سفهاءُ،

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٢٤٥)، و«التيسير» (ص: ١٠٠).

لا يَعلمون ما في الصَّلاةِ والدُّعاءِ إليها مِن النَّهيِ عن الفحشاءِ والمنكر في الدُّنيا، والثَّوابِ الجزيلِ في العُقبى.

وروي أنَّهم كانوا إذا سمعوا النداء والإقامة قالوا: قد قاموا لا قاموا، قد صلَّوا لا صلَّوا[1].

وقال السُّدِّيُّ: إنَّ نصرانيًّا بالمدينة كان إذا سمعَ المؤذِّن يقول: أشهد أنَّ محمَّداً رسول الله، يقول: حُرِّقَ الكاذبُ، فدخلَ خادِمهُ بنارٍ ليلاً، فتطايرَت شرارةٌ، فاحترقَ بها هو وأهلُه[2].

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: نبَّههم على موجبِ التَّحيُّزِ عنهم، والتَّميُّزِ منهم، فإنَّ المخالِفَ في العقيدةِ لا يكونُ موافقاً في الحقيقة، وأمرهم بأن لا يلاحظوهم إلَّا[3] بعين الاستصغار، كما لاحظوا دينَ المسلمين بعين الاستحقار.

ثمَّ الأذانُ دعاءٌ إلى محلِّ النَّجوى، فمَنْ تَحقَّق بعلوِّ المحلِّ فسَماعُ الأذانِ يوجِبُ له روحَ الرُّوح[4]، ومَن كان محجوباً عن حقيقةِ الحال، لاحظَ ذلك بعينِ اللَّعِب، وأصغى إليه بأذنِ الاستهزاء، وذلك حكمُ الله غايَرَ بين عبادِه على ما[5] يشاء[6].

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٦/ ٢٧٤ ـ ٢٧٥) من طريق محمد بن مروان السدي عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، والسدي عن الكلبي عن أبي صالح سلسلة الكذب.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٨/ ٥٣٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١١٦٣ ـ ١١٦٤) (٦٥٥٧).

(٣) لفظ: «إلا» من (ف).

(٤) في «لطائف الإشارات»: «روح القلب واسترواح الروح» بدل: «روح الروح».

(٥) في (أ) و(ر): «من» بدل: «ما».

(٦) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٣٤).

(٥٩) ـ ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: هل تَعيبون؟ وقيل: تكرهون؟ وقيل: تَطعنون[١]، وقال أبو عوسجة: تُنكِرون؟[٢]

وقال ابن عباس في سبب نزولها: أنَّ نفراً مِن اليهود، منهم أبو ياسر بن أخطب ورافعُ بنُ أبي رافع وغيرُهما، أتوا رسولَ الله ﷺ، فسألوهُ عمن يؤمِنُ به من الرُّسل؟ فقال: «أؤمنُ باللهِ وما أُنزِل إلينا، وما أُنزِل إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباطِ، وما أُوتيَ موسى وعيسى، وما أُوتيَ النَّبيُّون مِن ربِّهم، لا نُفرِّقُ بين أحدٍ منهم، ونحن له مسلمون»، فلمَّا ذكرَ عيسى، جحدوا نبوَّتَه، وقالوا: لا نؤمِنُ بما[٣] آمنتَ به، فأمرَ اللهُ تعالى[٤] نبيَّه ﷺ أنْ يقولَ لهم: ما الذي تَعيبون منَّا في تديُّننا بالإسلام إلَّا أنَّا لم نُفرِّق بين الأنبياء والكتبِ، فآمنَّا بكلِّ مَن أرسلَهُ اللهُ، وبكلِّ ما أنزلَهُ اللهُ، وليس نداؤنا بالصَّلاة والشَّهادةِ لمحمَّدٍ بالرِّسالة جحوداً لـمَن يَنتحلونَهم مِن الأنبياء؛ مِن موسى وغيرِه، بل هو جامعٌ للشَّهادة لله بالتَّوحيد، وللأنبياءِ بالرِّسالة، فلا عيبَ علينا، بل العيبُ عليكم إذ بدَّلتُم وخالفتُم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ خارجون عن الطَّاعة، وبعضُكم أسلمَ وأطاعَ، كعبد الله بن سلام وأصحابِه.

---

(١) في (أ): «تقطعون».

(٢) ذكره الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٣/ ٥٤٨).

(٣) في (ف): «به كما»، بدل: «ما».

(٤) في «تفسير الطبري» (٨/ ٥٣٧ ـ ٥٣٨)، و«تفسير ابن حاتم» (٤/ ١١٦٤) (٦٥٥٩) والخبر مخرج فيهما: فأنزل الله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ...﴾ الآية بدل: فأمر الله نبيه... إلخ.

(٦٠) ـ ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ قيل: هذا جوابٌ لكلامٍ محذوف، وهو قولُهم للمؤمنين: إنَّ ثوابَكم على دينِكم ما أنتُم فيه من الفقرِ والضُّرِّ، ولو كنتم مُحقِّين لكنتُم للخيرِ والبِرِّ مستحقِّين، فنزلَ قوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُم﴾ بمَن هو شرٌّ مثوبةً منَّا؛ أي: جزاء. وقد أثابَهُ؛ أي: جزاه[١]، والمثوبة: الثَّواب، وهو الجزاء.

وقوله تعالى: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: هو أنتم وأسلافُكم، و﴿مَن﴾ اسمُ جنسٍ، ولفظه فردٌ ومعناه جمع، فلذلك وحَّد قوله: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾، ثمَّ جمعَ: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ﴾، واللَّعْنُ في سلفِهم ما ذكرَ: ﴿كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ﴾ [النساء: ٤٧]، وقال: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [المائدة: ٧٨].

وقوله تعالى: ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ كما قال: ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ [البقرة: ٩٠]، فسلبَهُم مُلكَهم، وشتَّتَ شملَهم، وضربَ عليهم الذِّلَّةَ والمسكنة.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾ قيل: جعل أصحابَ السَّبتِ قردةً، وجعلَ أصحابَ المائدة خنازير.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كلا الصِّنفين مِن أصحابِ السَّبت، فشُبَّانهم مُسِخوا قردةً، ومشايخُهم مُسِخوا خنازير[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ عطف على قوله: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: ومَنْ عبدَ

---

(١) في (ف): «جازاه».

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ٨٥).

الطَّاغـوت، وهـو ما عُبِـدَ مِـن دونِ الله، وجَعَلَهُـم بطاعتِهـم أحبارَهُـم ورهبانَهم فيما أَمروهُـم به مِن معصيـةِ الله عابدينَ لهم، كما قـال: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١].

وقيل: أراد بِهِ عبادةَ العجلِ.

وقيـل: أراد بــ ﴿ٱلطَّٰغُوتَ﴾ كعـبَ بـنَ الأشـرف، كمـا قلنـا فـي قولـه تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٦٠].

وقرأ حمزة: ﴿وعَبُدَ الطَّاغوتِ﴾ بفتح العينِ وضمِّ الباء ونصبِ الدال وخفضِ تاء ﴿الطَّاغوتِ﴾ على الإضافة[1]، والصَّحيحُ من وجهِ قراءته أنَّه أرادَ به جمعَ العبد، يقال: عبدٌ وعبيدٌ وعُبُدٌ جمع الجمعِ، وهو كقولهم: السَّرير والسُّرُر، ثمَّ نُقِلَت ضمَّة العينِ فتحاً؛ لئلَّا يجتمع ضمَّتان، ومعناه: وجعلَ منهم عبدةَ الطَّاغوتِ؛ على الإضافة.

وقرأ بعضُهم: (عُبَّدَ الطَّاغوت)[2]، وهو جمع عابد.

وقولـه تعالـى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: هـؤلاء الذيـن هـذه صفاتُهـم أردأُ منزلـةً، وأبعـدُ عـن قصـدِ الطَّريـق ـ وهـو الهـدى ـ ممَّـن قلتـم.

ثمَّ ذكر في أول الآية ﴿بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ﴾، وقال في آخرها: ﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾، وقال: ﴿وَأَضَلُّ﴾، ولا شرَّ ولا ضلالَ في المؤمنين، فكيف يكون الفريقُ الآخرُ شرًّا منهم وأضلَّ منهم؟! ومعناه: أنَّه أرادَ به أنَّ حالَكُم شرٌّ مِن حالِ مَن ظننتُم أنَّه في شرِّ حالٍ، وهو ما فيه المؤمنون مِن الفقرِ والضُّرِّ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٢٤٦)، و«التيسير» (ص: ١٠٠).

(٢) نسبها ابن خالويه في «مختصر في شواذ القرآن» (ص: ٤٠) للأعمش، ونسبها ابن جني في «المحتسب» (١/ ٢١٤) لابن عباس رضي الله عنهما.

وقيل: هو خطابٌ لهم على ما في زعمهم، كما قال ذلك في الخير: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩]، ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩].

ولـمَّا نزلَت هذه الآيةُ عيَّرهم المسلمون، وقالوا: يا إخوةَ القردةِ والخنازيرِ، فنكسوا رؤوسَهم بما فضحهم اللهُ تعالى على لسان رسولِه ﷺ.

* * *

(٦١) ـ ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾؛ أي: مِن هؤلاء اليهودِ منافقون يَلقونكُم بوجهٍ، ويَلقون الكفَّارَ بوجهٍ، فإذا جاؤوا مجلسَ الرَّسول ﷺ قالوا: آمنَّا بما أنزلَ الله، قولاً مجملاً.

وقوله تعالى: ﴿وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ﴾؛ أي: دخلوا وهم كافِرون.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ﴾ وخرجوا وهم كافرون، كما يُقال: دخلَ بردائِه وطَيلسانِه؛ أي: وهو لابِسهما، ﴿وَهُمْ﴾ تأكيدٌ أنَّ الكفرَ منهم، ونفيٌ أنْ يكون من أمر[١] النبيِّ ﷺ سبب يوجب[٢] لهم الكفرَ.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ﴾؛ أي: بما لم يزالوا يُضمِرون من النِّفاق والحقد عليكم.

* * *

---

(١) لفظ: «أمر» من (ر).

(٢) في (أ): «موجب».

(٦٢) - ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾؛ أي: مِن اليهود ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ﴾؛ أي: الوزر، ﴿وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾؛ أي: الظُّلم، ويجوزُ أن يكونَ الإثمُ في القولِ، والعدوانُ في الفِعل، كما قال في الآية التي بعدها: ﴿عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾؛ أي: الحرام.

وقوله تعالى: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ هي كلمةُ ذمٍّ.

* * *

(٦٣) - ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ﴾؛ أي: هلَّا[١] يَنهاهم العلماءُ العُمَّال، ﴿وَٱلْأَحْبَارُ﴾ هم العلماءُ المحسِنون، ﴿عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ﴾ هو تغييرهم نعتَ النَّبيِّ ﷺ، ﴿وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ أي: الحرام، ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾، هو ذمُّ العلماء، والأوَّلُ ذمُّ العامة، وقوله: ﴿كَانُوا۟﴾ وصفٌ لهم أنَّهم لم يَزالوا كذلك.

وقال الحسن: ﴿ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ﴾ علماءُ أهلِ التَّوراة، ﴿وَٱلْأَحْبَارُ﴾ علماءُ أهلِ الإنجيل.

وقال الضحاك: هي أخوف آيةٍ في القرآن، حيث أنزلَ[٢] تاركَ النَّهيِ عن المنكرِ منزلةَ مرتكبِ المنكر[٣].

---

(١) في (أ): «فلا» بدل من «هل لا».

(٢) في (ف): «أوجبت إنزال» بدل من «حيث أنزل».

(٣) رواه ابن المبارك في «الزهد» (٥٧)، والطبري في «تفسيره» (٨/ ٥٥١).

(٦٤) ـ ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ ولـمَّا استوى عامَّتُهم وعلماؤهم في المعاصي ابتلاهُمُ اللهُ تعالى بالسِّنين، وكذلك كانت سُنَّتُه في الماضين، قال الله تعالى: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢]، وقال: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٠]، وقال في قصة نوح: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [نوح: ١٠ ـ ١١]، فلم يَنتبهوا، ولم ينتهوا، لكن تَجاهلوا وتَسفَّهوا، ووَصفوا اللهَ تعالى بالبخلِ بمنعِ الخصبِ، وتسليطِ المحل، فقالوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾؛ أي: هو بخيلٌ لا يُعطينا ما يَنفعُنا ولا يَضرُّه، والعربُ تُسمِّي البخيلَ مغلولَ اليدين؛ أي: ممسكَ اليدينِ عن العطاء، كالذي هو مغلولٌ حِسًّا، وهو كما قال الله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: ٢٩].

وقوله تعالى: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾؛ أي: هم الذين قُبِضَت أيديهم عن الإعطاء، فهم الموصوفون بكمالِ البُخل، كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ٥٣].

وقيـل: وهـو وعيـدٌ لهـم بالغُلِّ فـي الآخـرة، كما قـال تعالـى: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾ [غافر: ٧١].

وقوله تعالى: ﴿وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟﴾؛ أي: بُعِّدوا عن الرَّحمةِ وطُردوا.

وقال الكلبيُّ: نَزلت في فِنحاص بن عازورا اليهوديِّ وأصحابِه، وذلك أنَّ اللهَ تعالى كان بسطَ على اليهود حتَّى كانوا أكثرَ النَّاس مالاً، وأخصبَهُم ناحيةً، فلمَّا

عصوا اللهَ تعالى في محمَّدٍ، وكفروا به، كفَّ اللهُ عنهم بعضَ الذي بسطَ عليهم مِن السَّعة، فقال فِنحاص وأصحابُه: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾؛ أي: ممسِكةٌ عنَّا في الرِّزق، محبوسةٌ، لا يَبسطُ[١] علينا كما كان يَبسطُ[٢]، فقال الله تعالى: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾؛ أي: أُمسِكتْ أيديهِم أنْ يُنفِقوا في خير.

وقال يمانُ بن رئاب: شدَّد وثقَّلَ عليهم الشَّرائعَ، وهو قوله: ﴿وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧][٣].

وقال الحسنُ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾؛ أي: مكفوفةٌ عن عذابِنا، فليس يُعذِّبُنا إلَّا بما يَبرُّ بهِ قسَمَه قدرَ ما عبدْنا العجلَ سبعةَ أيام، قال الله تعالى: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾[٤].

وقيل: إنَّهم قالوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ حين نزلَ قولُه تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، قالوا: هو[٥] فقيرٌ يَستقرِضُ مِن عبادِه، وقالوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ لا يوسِّعُ الدُّنيا على محمَّدٍ وأصحابِه.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ اليدُ والعينُ والمجيءُ والإتيانُ ونحوُها صفاتُ الله، وردَ بها القرآنُ فنُثبِتُها لله على اعتقادِ ما أراد اللهُ تعالى بها، مع نفيِ الجوارح عنه وما لا يَليقُ بصفاتِه، ومَن فسَّر اليدَ بالنِّعمة أو بالقُدرة فقد جعل الصفتين واحدةً، واللهُ تعالى أثبتَ كلَّ ذلك، فنُثْبِتُ ذلك كلَّه على ما بيَّنَّا.

---

(١) في (أ): «ينبسط».

(٢) في (أ) و(ف): «ينبسط». والخبر أورده الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٨٧) عن ابن عباس وعكرمة والضحاك وقتادة.

(٣) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ٨٨).

(٤) انظر: «تفسير البغوي» (٣/ ٧٦).

(٥) في (ف): «هذا».

والمفهومُ مِن هذه الكلمةِ هاهنا ردُّ ما قالوا، وإثباتُ سَعَةِ فضلِه وسبوغِ نعمِه على عبادِه.

وقال بعضُ أصحاب المعاني: إنَّهم لـمَّا قالوا: يدُ اللهِ مغلولةٌ، على طريقِ الـمَثَلِ، ذكرَ اللهُ تعالى في مقابلةِ كلامهم ما هو أتمُّ منه في ضدِّ معناه؛ أي: نِعَمُ[1] اللهِ أكثرُ مِن أنْ تُحصَى، وعطاياهُ أوسعُ، وخزائنه[2] أكثر، ومعنى التَّثنية أنَّ المتعارَفَ في الإعطاءِ مِن البشرِ المناولةُ بيدٍ واحدةٍ، فالمناولَةُ باليدين أوسعُ منه[3] وأكثر[4]، فأثبتَ اللهُ صفتَه[5] بإكثار العطاء وإسباغِ النعماء بهذهِ الكلمة؛ على مطابقة كلامهم، ونظيرُه من المطابقة والمقابلة قولُه: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، وقولُه: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة: ١٩٤]، وقولُه: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ [النساء: ١٤٢]، وقولُه: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ [محمد: ٧]، ونظائرُه.

وقيل: أرادَ باليدينِ نعمةَ الدُّنيا ونعمةَ الدِّين.

وقيل: أراد به أنَّه يَملِكُ الثَّواب والعقاب.

وقيل: أي: ﴿مَبۡسُوطَتَانِ﴾ بالمغفرةِ والتعذيب؛ أي: يَغفرُ لمَن يشاء، ويُعذِّبُ مَن يَشاء.

وقال الإمامُ القشيري: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾: بل قدرتُه بالغةٌ، ونعمتُه سابغةٌ، ومشيئتُهُ نافذةٌ، وإرادتُه ماضيةٌ.

---

(١) في (أ): «أنعم».

(٢) في (ف): «وخير الله».

(٣) لفظ: «منه» ليس في (أ).

(٤) من قوله: «ومعنى التثنية» إلى هنا ليس في (ف).

(٥) في (ف): «فأثبتت لله صفته» بدل: «فأثبت الله صفته».

قال: وقيل: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ يَضعُ ويَرفعُ، ويَدفعُ ويَنفعُ، فلا يَخلو أحدٌ مِن نعمةِ الدَّفْعِ، وإنْ خلا عن نعمةِ النَّفع[1].

وقوله تعالى: ﴿يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾؛ أي: يَرزقُ مَن يشاءُ ما يشاءُ على ما يشاءُ مِن توسيعٍ وتضييق، فله الحكمُ والمشيئةُ في كلِّ البَرِيَّة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ اللامُ للقَسم، وهو للتَّأكيد، ومعناهُ أنَّ كثيراً مِن هؤلاء اليهود يَزداد ـ عند نزولِ القرآنِ بكشفِ سرائِرهم القبيحةِ ـ عناداً وثباتاً على الكفر، وهذا من إضافة الفعل إلى السَّبب؛ كما قال: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا﴾ [التوبة: ١٢٥]، وقال: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا﴾ [نوح: ٦].

وقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فسرَّناه في هذه السُّورة مرَّة[2]، وهذا عقوبةٌ لهم على ما كان منهم، وامتنانٌ على النبيِّ عليه السلام وأصحابِه؛ فإنَّ ذلك يُورِثُ الفشلَ لعدوِّهم.

وقال مقاتل: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم﴾ بني النَّضير، ﴿مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ في أمرِ الرَّجمِ[3] في القرآن، ﴿طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ بالقرآن، ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ﴾ بين اليهودِ والنَّصارى ﴿ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ أبداً[4].

وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ مجازٌ عن همِّهم بتهييجِ الحروبِ على النبيِّ ﷺ، وإبطالِ الله ذلك.

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٣٧).

(٢) عند تفسير الآية (١٤) منها.

(٣) في (ف): «من الله في أمرهم» بدل: «من ربك في أمر الرجم».

(٤) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٤٩٠).

وقال قتادة: لا تَلقى اليهودَ في بلدةٍ[١] إلَّا وهم أذلُّ أهلها، ولقد جاءَ الله بالإسلامِ وهم تحتَ أيدي المجوس[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ قيل: بالمعاصي.

وقيل: باختداع الضَّعفة[٣]، وصدِّهم عن الإسلام.

وقيل: بأخذِ الرِّشا وتغييرِ الكتاب.

وقيل: بقطعِ الطَّريقِ، وإخافةِ السَّبيل، وقد ذكر ذلك في هذه السورة مِن صفاتهم.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ هذا ظاهرٌ.

* * *

(٦٥) ـ ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟﴾؛ أي: اجتنبوا المعاصي، ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ السَّالفة، ﴿وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ في الآخرة؛ أي: لا يُعذِّبهم بما قالوا، لحاجةٍ له إلى تعذيبهم، بل جزاءً لهم على كفرِهم وتكذيبِهم، ولو أنَّهم آمَنوا وأسلموا، لأَمِنوا وسَلِموا.

وقال الإمامُ القشيريُّ رحمه الله: شرطَ في حقِّهم الإيمانَ والتَّقوى لإدخالهم

---

(١) في (أ): «ببلدة» بدل من «في بلدة».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٨/ ٥٦٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١١٦٩) (٦٥٩٠).

(٣) في (ف): «بالاختداع للضعفة».

الجنَّة، ووعد للظَّالمين مع السَّابقين والمقتصدين مِن هذه الأُمَّة إدخالَ الجنَّة فقال: ﴿جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ [الرعد: ٢٣][(١)].

***

(٦٦) - ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَنةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَنةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾؛ أي: أقاموا العملَ بذلك على الاستقامةِ دون التَّحريف.

وقيل: أي: نصَبوا ذلك بأعينِهم فاتَّبعوه ولم يُخالِفوه، واتَّبعوا القرآنَ أيضًا، وذلك في حكمِ الرَّجمِ والقِصاصِ، وبيانِ نعت[(٢)] النبيِّ ﷺ، وغيرِ ذلك.

وقيل: هو المحافظةُ على ذلك، كإقامةِ الصَّلوات.

وقوله تعالى: ﴿لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾؛ أي: لتابَعْنا عليهم بركات السَّماء بالأمطارِ وبركاتِ الأرض بالنَّبات[(٣)]، وهو كقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى ءَامَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وقال الفرَّاء: هو كقولهم: فلانٌ في الخيرِ مِن قرنِه إلى قدمِه[(٤)].

وقيل: ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾ مِن الثِّمار، ﴿وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ من الحبوب.

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٣٧).

(٢) في (ف): «بعث».

(٣) في (أ): «السماء والأرض بالأمطار والنبات»، وفي (ر) «من السماء بالأمطار وبركات الأرض» بدل: «السماء بالأمطار وبركات الأرض بالنبات».

(٤) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٣١٥).

وقيل: أي: من الجبلِ والسَّهل.

ودلَّ ذلك على أنَّ العملَ بطاعةِ الله سببٌ لسَعَةِ الرِّزق، وهو كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢]، وقولِه: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ الآيات [نوح: ١٠ ـ ١١]، وقولِه: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ الآية [الجن: ١٦].

وقيل: هذا إشارةٌ إلى ما جرى على اليهودِ؛ مِن قطعِ نخيلِهم، وإفسادِ زروعِهم، وإجلائِهم.

وقيل: هو جوابُ قولِهم: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ يعنون البخل؛ أي[1]: مُنِعَ ذلك عنهم ليس للبخل، بل حُرِموه للكفر.

وقوله تعالى: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾؛ أي: جماعةٌ جاريةٌ على القصدِ، وهو الطريق العادل؛ أي: لم يزيغوا، ولم يَغلُوا في دينِهم، ولم يَقولوا في المسيح وفي أمِّه غيرَ الحقِّ، وهم الذين آمَنوا بموسى وعيسى ومحمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام، كالنَّجاشيِّ وأصحابِه، وعبدِ الله بن سلام وأشكالِه، وبَحيرى الرَّاهب، وسلمان، ورهطٍ مِن الشَّام.

وقوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ سائر اليهود؛ مِن الكفر، وصدِّ الناس عن الإيمان، واستحلالِ السُّحت.

* * *

(٦٧) ـ ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

---

(١) في (ف): «الذي».

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ قيل: أي: مِن مقابحِ هؤلاء، ولا تَنظُر إلى قلَّةِ المقتصدين منهم وكثرةِ الفاسقين.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ قرأ عاصمٌ في رواية أبي بكرٍ ونافعٌ وابنُ عامر: ﴿رِسَالَتَهُۥ﴾ على الجمع، والباقون على الواحد(١).

قالت الملاحدةُ ـ لعنهم الله ـ: هذا كلامٌ لا يُفيد، وهو كقولِك لغلامِك: كلْ هذا الطَّعامَ، فإنْ لمْ تَأكلهُ فإنَّك ما أكلتَهُ.

قلنا: هذا قصورُ فهمٍ منكم، وبلادةُ طبع، وقلَّة معرفةٍ بكلام النَّاس، وله وجوهٌ صحيحةٌ:

أحدُها: أنَّ قولَه: ﴿مَآ أُنزِلَ﴾ للعموم، ومعناه: بلِّغ جميعَ ما أُنزِل إليكَ؛ فإنْ لم تُبلِّغ شيئاً منه فإنَّك(٢) لم تبلِّغ رسالاتي كلَّها، وهو كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ [النساء: ١٥٠]، ثمَّ قال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥١]، جعلَ الكفرَ ببعضٍ محبطاً أصلَ الإيمان. قاله عليُّ بن مهدي الطبريُّ(٣).

والثاني: قول الحسين بنُ الفضل البجليُّ رحمه الله: معناه: بلِّغ ما أنزل إليك من ربِّك الآن، ولا تَنتظر به كثرةَ الشَّوكةِ والقُوَّة والعُدَّة، فإن لم تُبلِّغ كنتَ كمَن لم يُبلِّغ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٢٤٦)، و«التيسير» (ص: ١٠٠).

(٢) في (ر) و(ف): «فكأنك».

(٣) هو أبو الحسن، علي بن محمد بن مهدي، تلميذ الشيخ أبي الحسن الأشعري، كان من المبرزين في علم الكلام، والقوامين بتحقيقه، له كتاب «تأويل الأحاديث المشكلات الواردات في الصفات». انظر: «طبقات الشافعية الكبرى» (٣/ ٤٦٦ ـ ٤٦٧).

وقيل: معناه: بلِّغ ذلك محتسِباً غيرَ خائفٍ أحداً، فإنْ لم تُبلِّغ على هذا الوصف فكأنَّك لم تُبلِّغهُ أصلاً.

وقال الإمامُ أبو منصور رحمه الله: أي: إنْ لم تُبلِّغ ما أُنزِلَ إليكَ لما تَخشى مِن الإهلاكِ والمكر بك، فكأنَّك لم تُبلِّغ الرسالةَ أصلاً، لم يعذرهُ في تركِ تبليغِ الرِّسالةِ إليهم، وإن خافَ على نفسِهِ الهلاكَ، وليس كمَن أُكرِهَ على الكفرِ، رُخِّصَ له أنْ يَتكلَّم به إذا خافَ الهلاكَ على نفسِه، ولا يُرخَّصُ تركُ تبليغِ الرِّسالةِ لذلك؛ لأنَّ تبليغَ الرِّسالةِ باللِّسانِ دون القلب، والإيمانُ تَعلُّقهُ بالقلب، فإذا أُكرِهَ على الكفرِ وقلبُه مطمئنٌّ بالإيمان، رُخِّصَ له ذلك، وأمَّا الرِّسالةُ فلا سبيلَ له أنْ يُبلِّغَها إلَّا باللِّسان، فلذلك لم يُرخَّص له(١) تركُها وإنْ خاف.

وهذا دليلٌ لقولِنا في المكره على الطَّلاق أو العتاق(٢): إذا تكلَّم به عمل، لأن تَعلُّقَ ذلك باللِّسان، لا بالقلب، والإكراه لا يمنع فعلَ اللِّسان، فلا يمنعُ النَّفاذ(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: يَحفظُكَ منهم.

قالت الملحدةُ لعنَهمُ الله: كيف عصمَهُ منهم وقد شجُّوه وأدمَوهُ وقصدوهُ وآذوهُ.

قلنا: وَعَدَهُ العِصمةَ مِنَ القَتْلِ، وقد حفظَهُ عن ذلك، فأمَّا سائرُ البلايا والمِحَن، فذلك ممَّا كان يَجري على سائرِ الأنبياء والأولياء، قال الله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُم﴾ الآية [البقرة: ٢١٤]،

---

(١) بعدها في (ف): «على».

(٢) في (ف): «والعتاق».

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٣/ ٥٥٧).

وقـال النَّبـيُّ ﷺ: «أشـدُّ النَّاسِ بـلاءً الأنبياءُ، ثـمَّ الأولياء، ثـمَّ الأمثـل فالأمثل»(١).

وقـال محمَّـدُ بـنُ كعـب القرظـي: كان رسـولُ الله ﷺ يُحـرَسُ باللَّيـل، وكان يَخـاف العـدوَّ، فلمَّا نزلَت الآيـةُ، ووَعَـدَهُ الله ذلك، تـرك ذلك(٢)، وكان الشـجُّ وغيرُ ذلـك قبـل هذا.

وقال أنس: كان رسولُ الله ﷺ يُحرَسُ باللَّيل، حتَّى نزلت: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ ليلاً، فأخرجَ رسولُ الله ﷺ رأسَه مِن قبَّة أدم، وقال: «انصرفوا أيُّها(٣) النَّاس؛ فقد عصَمني الله»(٤).

وقيل: إنَّ رسول الله ﷺ دعا اليهودَ إلى الإسلام، فأكثرَ الدَّعوةَ، فجعلوا يستهزؤون به ويقولون: تريدُ أنْ نتَّخِذَك حناناً، كما اتَّخذتِ النَّصارى عيسى حناناً، فسكتَ رسولُ الله ﷺ تثبتاً، فنزلَتْ هذه الآيةُ في التَّحريض، فعاد إلى دعوتهم، وقال: «ما أُبالي مَن خذلَني ومن نصرني»(٥).

وقولـه تعالـى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: لا يُرشِـدُ إلـى الحـقِّ أهلَ الكفـر، ما دامـوا مختاريـن للكفرِ.

---

(١) رواه الترمذي في «سننه» (٢٣٩٨)، والنسائي في «الكبرى» (٧٤٣٩)، وابن ماجه (٤٠٢٣) من حديث سعد رضي الله عنه دون قوله: «ثم الأولياء»، ورواه أحمد في «مسنده» (١٤٨١)، وفيه: «ثم الصالحون» بدل: «ثم الأولياء».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٨/ ٥٧٠).

(٣) في (ف): «يا أيها».

(٤) أورد الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٩١) عن أنس: كان النبي ﷺ يحرس، وقالت عائشة: فكنت ذات ليلة إلى جنبه... فذكره مطولاً. ورواه البخاري (٢٨٨٥)، (٧٢٣١)، ومسلم (٢٤١٠) من طريق عبد الله بن عامر بن ربيعة عن عائشة رضي الله عنها.

(٥) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٤٩١ ـ ٤٩٢)، و«تفسير أبي الليث» (١/ ٤٤٩).

(٦٨) ـ ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾؛ أي: من الدِّين الحق، ﴿حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾؛ أي: حتَّى تعملوا بجميعِ هذه الكتب على الاستقامةِ والدَّوام.

وقوله تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴾؛ قد ذكرنا أنَّ إضافةَ زيادةِ[1] الكفر والطُّغيان إلى نزولِ القرآن بطريقِ التَّسبيب.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾؛ أي: لا تَحزن على أنْ لم يدخلوا في دينِك، ولم يَصيروا مِن أتباعِك، فليسوا ممَّن يُتأسَّفُ بفوتهم، وهو كقوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ﴾ [فاطر: ٨].

وقيل: معناه: لا تَحزن بنزولِ العذابِ عليهم؛ فإنَّهم كفارٌ، ليسوا منك ولستَ منهم.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: هذا في الحقيقة تنبيهٌ للكلِّ أنَّه لا قدرَ لأحدٍ ولا لعملٍ، إلَّا بمراعاةِ الأمرِ والنهي، والمحاماةِ على أحكام الشَّرع[2].

* * *

(٦٩) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾.

---

(١) لفظ: «زيادة» ليس في (ف).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٣٩).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّـٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فسَّرنا الآيةَ في سورةِ البقرة[١]، ولـمَّا ذكر وعيدَ الكافرين في الآية الأولى، ذكر وعدَ المؤمنين في هذه الآية.

ثمَّ قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّـٰبِـُٔونَ﴾ رفعَهُ مع تقدُّم الكلمة[٢] الناصبة، وهي ﴿إِنَّ﴾ كَثُرَت فيه الأقاويل، وأوضحُها قولُ الكسائيِّ والفرَّاء والمبرِّد وجماعة: إنَّ قوله: ﴿وَٱلصَّـٰبِـُٔونَ﴾ محمولٌ على التَّأخير، مرفوعٌ بالابتداء، وتقديرُه: إنّ الذين آمنوا والذين هادوا مَن آمنَ مِنهم بالله واليومِ الآخر وعملَ صالحاً، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والصَّابئون والنَّصارى كذلك[٣]، وهو كقول الشَّاعر:

وإلَّا فاعْلَمُوا أنَّا وأنتُم ... بُغاةٌ ما حَيينا في شِقاقِ[٤]

وتقديره: فاعلموا أنَّا بغاةٌ ما حيينا في شقاقٍ، وأنتم كذلك، وأنشد الفرَّاء:

يا ليتَني وأنتِ يا لميسُ ... ببلدٍ ليسَ بهِ[٥] أنيسُ[٦]

---

(١) عند الآية (٦٢) منها.

(٢) بعدها في (ر): «السابقة».

(٣) كذا نسب المصنف هذا القول للكسائي والفراء والمبرد، والصواب أنه قول سيبويه في «كتابه» (٢/ ١٥٥ ـ ١٥٦)، ونسبه له مكي في «مشكل إعراب القرآن» (١/ ٢٣٣)، ونسبه الزجاج في «معاني القرآن» (٢/ ١٩٣)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢/ ٢١٩) لسيبويه والخليل ونحاة البصرة. ومذهب الكسائي أنه معطوف على موضع اسم «إن» لأن الأصل فيه الرفع (وهو ما سيذكره المصنف قريباً عن قطرب)، وقال الفراء مثل قوله، غير أنه ذكر أن هذا يجوز في النسق على مثل «الذين» والمضمر. انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٣١٠ ـ ٣١٢)، و«معاني القرآن» للزجاج، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٣٢)، و«البحر المحيط» لأبي حيان (٨/ ٣٢٢).

(٤) البيت لبشر بن أبي خازم، وهو في «ديوانه» (ص: ١٦٥)، و«الكتاب» (٢/ ١٥٦).

(٥) في (أ): «بها».

(٦) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٣١١)، ولم ينسبه.

وأنشد المبرِّدُ:

يـا ليتَنـي وهُمـا نَخـلو بِمـنزلَـةٍ حتَّى يَـرى بعضُنـا بعضـاً ونأتلِـفُ[١]

وقال قطرب: هو مرفوعٌ عطفاً على قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، ومحلُّه رفعٌ بالابتداء، و«إنَّ» نصبُها أضعفُ مِن نصبِ أخواتها، مثل: «كأنَّ» و«ليت» و«لعلَّ»؛ لأنها أحدثَت في الكلام معاني، وهي التَّشبيه والتَّرجي والتَّمنِّي، و«إنَّ» لم تُحدِث شيئاً، فيَجوزُ تركُ عملِها، وتصير كأنَّ ابتداءَ الآية: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وعلى ذلك قولُ قائلِهم:

فمَنْ يكُ أَمْسى بالمدينةِ رَحْلُهُ فـإنِّـي وقـيَّـارٌ بـهـا لغريبُ[٢]

وقيـل: هـو عطـفٌ علـى ضميـرِ ﴿هَادُواْ﴾، وتقديـرُه: والذيـن هـادوا هـم والصَّابئـون[٣].

وقيل: هو رفعٌ على الذَّمِّ، وكما يُنصب على الذمِّ قطعاً عمَّا قبلَه مِن غير النَّصب، يجوزُ رفعُه أيضاً قطعاً عمَّا قبلهُ مِن غيرِ الرَّفع.

وقيل: لمَّا ضعُفَ عمل «إنَّ» فلم يَعمل في خبره لـمَّا[٤] بعُد[٥]، لم تعمل في المعطوف عليه إذا بَعُدَ أيضاً.

= والبيت لجران العود. انظر: «ديوانه» (ص: ٥٢)، و«خزانة الأدب» (١٠/ ١٨)، وذكره ثعلب في «مجالسه» (١/ ٢٦٢) دون نسبة.

(١) أنشده الفراء أيضاً في «معاني القرآن» (١/ ٣١١) دون نسبة.

(٢) البيت لضابئ بن الحارث البُرْجُمي، وهو في «الكتاب» (١/ ٧٥)، و«الأصمعيات» (ص: ١٨٤)، و«خزانة الأدب» (١٠/ ٣١٢، ٣٢٠).

(٣) وهو منسوب للكسائي. انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ١٩٢)، و«البحر المحيط» (٨/ ٣٢٢).

(٤) في (أ): «عما». وفي (ف): «أما».

(٥) في (أ): «عما بعد»، وفي (ف): «أتى بعده».

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: بيَّن أنَّهم وإن اختلفت أحوالهم، فبعدما جمعَهم التَّوحيد، فلهمُ الأمانُ مِن الوعيدِ والفوزِ بالمزيد(١).

***

(٧٠) ـ ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ أي: في كتبِهم بالإيمانِ بالله وبجميعِ الأنبياء.

وقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾؛ أي: في تجديدِ هذا الميثاق.

وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ﴾؛ أي: لا يوافِقُ أهواءَهم.

وقوله تعالى: ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾؛ أي: فريقاً كانوا يَقتلون، فإنَّه إخبارٌ عن سَلَفهم، وذاك ماضٍ، فدلَّ أنَّ «كانوا» مضمرٌ.

قال ابنُ كيسان: كان الأنبياء ضربين(٢)؛ أصحاب كتبٍ وشرائع، لم يصلوا إلى قتلِهم، مثل: نوحٍ وإبراهيمَ وموسى وعيسى(٣) وداود وسليمان، وأنبياء(٤) لم يكن لهم كتبٌ وشرائع قتلوهم، مثل: زكريَّا ويحيى وغيرهما.

وبلغني أنَّهم قتلوا في يومٍ سبعين نبيًّا، وهذا نقضٌ مِنهم للميثاق والعهد، وقد أمرَ في ابتداءِ السُّورة بالوفاء بالعهدِ، ثمَّ ذمَّ في بقيَّةِ السُّورة النَّاقضين للعهد.

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٣٩).

(٢) بعدها في (ر): «ضرب».

(٣) قوله: «وعيسى» من (ر).

(٤) في (ف): «والذين».

(٧١) ـ ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ قرأ أبو عمرو وحمزةُ والكسائيُّ بالرَّفع، وتقديرُه: أنَّه لا يكونُ، والباقون بالنَّصب[١]. بأن يقول: أصرُّوا على الذُّنوب، وظنُّوا لطولِ إمهالِ الله إيَّاهم ألَّا يقع عليهم من الله عقوبة، من قوله: ﴿ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ﴾ [الذاريات: ١٤][٢].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: قال قائلون: الفتنةُ: المحنة؛ أي: حسِبوا ألَّا تأتيَهم الرُّسلُ بامتحانِهم على خلافِ ما أحدَثوا بهوى أنفسِهم[٣].

وقوله تعالى: ﴿فَعَمُواْ وَصَمُّواْ﴾؛ أي: أَلِفوا المعاصيَ، فصاروا لرَين القلوبِ عُمياً، فلا يُبصِرون قبحَها، وصمًّا، فلا يَسمعون وعظَ النَّاهي عنها.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾؛ أي: ثمَّ أرسلَ اللهُ رُسُلاً، فأجابوهُم، وتابوا لله، فقبِلَ اللهُ توبتَهم.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ﴾؛ أي: ثمَّ امتدَّتِ المهلةُ، فعادوا إلى المعاصي، وألفوها، فصاروا كما كانوا عُمياً وصُمًّا، وهو كقولهم: حبُّك الشَّيءَ يعمي ويُصِمُّ[٤].

وقوله تعالى: ﴿كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ﴾ جمعَ الفعلَ مع التَّقدُّم على الفاعل؛ لأنَّه فعلُ

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٢٤٧)، و«التيسير» (ص: ١٠٠).

(٢) من قوله: «بأن يقول أصروا» إلخ لعل موضعها قبل ذكر قراءة أبي عمرو ومن معه.

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٣/ ٥٦١).

(٤) انظر: «جمهرة الأمثال» للعسكري (١/ ٢٨٨).

قومٍ تَقدَّم ذِكرُهم[١]، ثمَّ قولُه: ﴿كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ تفسيرُ قدرِ فاعلِيهِ؛ كما في قوله: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ [الأنبياء: ٣]، هذا تفسيرُ وصفِ فاعلِيه.

وقيل: هو على لغةِ بعض العرب، وهو جمعُ الفعلِ مع التقدُّم، يقولون: ذهبوا أصحابُك، قال الشاعر:

أَلْفَيَتا عيناكَ عندَ القَفا ... أَوْلَى فأَوْلَى لكَ ذا واقِيَهْ[٢]

وقال الزَّجَّاج: ﴿كَثِيرٌ﴾ خبرٌ لابتداءٍ محذوف؛ أي: العميُ والصُّمُّ كثيرٌ منهم[٣].

ثمَّ إنَّما ذكرَ الكثيرَ لا الكلَّ؛ لأنَّ مِنهم مَن أبصر وسمع، فآمنَ وتبعَ ووفَّى بالعهد ولم يمتنع.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: بأعمال الأسلاف والأخلاف، فيُجازِيهم على الاستحقاق في الوِفاقِ والخلاف.

وقال مجاهد: فـ﴿تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ تجاوزَ عنهم برفع البلاء[٤].

وقيل: ﴿فَعَمُواْ وَصَمُّواْ﴾ بعدَ موسى، ﴿ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ على عهدِ عيسى، ﴿ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ﴾ بعد عيسى.

---

(١) بعدها في (ف): «ثم ذكرهم».

(٢) البيت لعمرو بن مِلْقَط من قصيدة له، ذكرها أبو زيد في «النوادر» (ص: ٦٢)، وعبد القادر البغدادي في «الخزانة» (٩/ ٢١) قال البغدادي: ألفيتا؛ أي: وجدتا، وقوله: أولى لك، كلمةُ وعيدٍ وتهديد، والواقية: مصدر بمعنى الوقاية. يصفُه بالهروب، ويقول: أنت ذو وقايةٍ مِن عينيك عند فرارك، تَحترِسُ بهما، ولكثرة تلفُّتِك إلى خلفك حينئذٍ، صارت عيناك كأنهما في قفاك.

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ١٩٦).

(٤) في (أ): «البلايا».

وقال الحسن: ﴿وَحَسِبُوٓاْ﴾ ألَّا يُبتلَوا في الدِّين، ولا يُفرَض عليهم طاعةُ محمَّدٍ ﷺ، ﴿فَعَمُواْ﴾ عن الدِّين، ﴿وَصَمُّواْ﴾ فيه، ﴿ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ فاستنقذَهم بمحمَّدٍ ﷺ، فكذَّبوه[١]، ﴿ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ﴾[٢] أقاموا على اليهوديَّةِ.

وقال مقاتل: ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ بلاءٌ وقحْطٌ، ﴿فَعَمُواْ﴾ عن الحقِّ، فلم يُبصِروه، ﴿وَصَمُّواْ﴾ فلم يسمعوهُ، ﴿ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ رفعَ البلاءَ عنهم، فلم يَتوبوا، ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ من قتلِ الأنبياءِ وتكذيب الرُّسُل[٣].

وقال الإمامُ القشيريُّ رحمه الله: اغترُّوا بطولِ الإمهال، فأصرُّوا على قبيحِ الأعمال[٤]، فلمَّا أخذَتهم فجأةُ الانتقامِ، ونوائبُ الأيَّام، لم يَنفعهُم النَّدم، ولم يُثبِت لهم القدم[٥].

* * *

(٧٢) ـ ﴿لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ قال الكلبيُّ: هو في نصارى بني نجران، وهو قولُ اليعقوبيَّة مِن النَّصارى أنَّ عيسى إلهٌ.

---

(١) قول الحسن: فاستنقذهم بمحمد فكذبوه. ذكره الواحدي في «التفسير البسيط» (٧/ ٤٧٩).

(٢) في (أ) و(ف): «فعموا» بدل: «ثم عموا».

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٤٩٤).

(٤) في (ر): «الأفعال».

(٥) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٣٩).

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾؛ أي: هو معترفٌ بأنَّه عبدُ الله ورسولُه، وأنَّ اللهَ ربُّه وربُّ بني إسرائيل، ويقولُ لهم: لا تُشرِكوا بالله، ويَتوعَّدُهم عليه، وذلك: قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾[1]؛ أي: أحداً مِن خلقِه، ﴿فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾ وهو تحريمُ المنعِ، لا تَحريمُ التَّكليف كما في قوله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ [القصص: ١٢].

وقوله تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾؛ أي: وما للمشركين أعوانٌ يمنعونَهم.

والظُّلم: الشِّركُ، قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وهو وضعُ الشَّيء غيرَ موضعِه.

***

(٧٣) - ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ثم ذكر قول عامَّةِ النَّصارى، وذلك قولُه تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ وذلك أنَّ النُّسطوريَّة واليعقوبيَّة[2] والـمَلكانيَّة يقولون: المعبودُ واحدٌ بالجوهر، ثلاثةٌ بالأقنوم، والأقانيمُ ثلاثةٌ؛ الأبُ، والابنُ، وروحُ القدس، والابنُ: هو الكلمة، والرُّوح: الحياةُ وكلُّ ذلك إلهٌ واحدٌ، ولا يقولون: ثلاثةُ آلهة، وهي لازمةٌ لهم على قضيَّة مقالهم عقداً، وإن امتنعوا عن إطلاقِه لفظاً، وهي مِن أشنعِ ضلالةٍ، وأقبحِ جهالةٍ، وأفسدِ مقالة.

---

(١) بعدها في (ف): «فقد حرم الله عليه الجنة إنه من يشرك بالله».

(٢) «واليعقوبيَّة»: سقط من (ف).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ وهو إلهُ الخلقِ أجمعين.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ﴾؛ أي: إنْ لم يَرجِعوا عن هذا القول.

وقوله تعالى: ﴿لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ أي: ليُصِيبنَّ الذين كفروا، ولم يقل: ليَمسنَّهم؛ لأنَّه لو قال ذلك، لخَصَّ الفريقَ الثانيَ به، والمرادُ به كلا الفريقين، فلذلك قال: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ على العموم.

وقوله تعالى: ﴿مِنْهُمْ﴾؛ أي: مِن كفَّار النَّصارى، وهو زيادةُ تشديدٍ لهم بالتَّخصيص[1] بهذا العذاب هاهنا، وإن كان كلُّ الكفَّار يَستحقُّونَه، وهو كقوله في آخر سورة الفتح: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم﴾ [الفتح: ٢٩]، والكلامُ بدون هذه الكلمة تامٌّ؛ لأنَّه أرادَ به التَّخصيصَ بهذا الوعدِ المذكورين قبلَه والذين معه إلى آخره.

وقوله تعالى: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قيل: في الدُّنيا، وقيل: في الآخرة، وقيل: فيهما جميعاً.

* * *

(٧٤) ـ ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ﴾ استفهامٌ بمعنى الأمر؛ أي: فليَتوبوا إلى الله مِن هذه المقالات، وليُؤمنوا، وليَستغفروا الله بألسنتِهم.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يَغفرُ ذنوبَ التَّائبِ، ويَرحمُه، فلا يَردُّ توبتَه ولا يعذِّبُه.

---

(١) في (أ): «للتخصيص».

وقال الإمامُ القشيريُّ رحمه الله: لم يُغلِق بابَ التَّوبة عليهم مع قبيح أقوالهم[1]، وفسادِ عقائدهم وأعمالهم؛ تقويةً لأطماعِ المؤمنين وآمالهم[2].

* * *

(٧٥) - ﴿مَا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾؛ أي: ليس عيسى ﴿إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ يأتي بمثلِ ما أتى به أولئكَ مِن المعجزات، ولم يكن ما أَتوا به مِن الآياتِ مُخرِجاً لهم مِن العبوديَّة، مُثبِتاً لهم استحقاقَ الرُّبوبية، فكذلك عيسى، وكانت أمُّه صِدِّيقةً؛ أي: بَرَّةً تقيَّةً، صَدَقتْ في أعمالِها وأقوالِها وأحوالِها، وذلك لا يوجبُ لها أن تكون إلهاً.

وقوله تعالى: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾؛ أي: كانا يحتاجان إلى ما يُقيمُهما مِن الغذاءِ، وكانا يَجوعانِ ويَشبعان، ويكونُ مِنهما ما يكونُ ممَّن يأكلُ الطَّعام، وهو كنايةٌ عن قضاءِ الحاجةِ، فآثارُ الحدوثِ فيهما ظاهرةٌ، وحاجتُهما إلى ما يقيمُهما ماسَّةٌ، وهذا ممَّا لا يَتهيَّأ للنَّصارى دفعُه، فكيف تصحُّ دَعواهم فيما يَدَّعون.

وقوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾؛ أي: تَدبَّر وأبصر بعينِ قلبِك كيف نوضِحُ لهم الدلائل؟!

---

(١) في (ف): «أفعالهم».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٤٠).

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾؛ أي: كيف يُصرَفون عن الحقِّ؟! وهذا تَعجيبٌ مِن الله في ذهابِهم عن الفرقِ بين الرَّبِّ والمربوب.

* * *

(٧٦) ـ ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ استفهامٌ بمعنى التَّوبيخ؛ أي: إذا كان المسيحُ وأمُّه يَحتاجان إلى ما يُقيمُهما، لم يَملِكا لأحدٍ ضرًّا ولا نفعاً إلَّا بإذن مالكِهما، كسائر المربوبين، فكيف يعبدان؟!

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾؛ أي: يَسمعُ مقالاتِ[1] النَّصارى، ويَعلمُ اعتقاداتِهم، فيُجازِيهم جزاء مثلهم، وهذا وعيد.

وقال الإمامُ القشيريُّ رحمه الله: تعليقُ القلبِ بدون الرَّبِّ في استدفاع الشَّرِّ واستجلابِ الخير: إمضاءُ الوقت بما لا يُجدِي، وإذهابُ العمرِ فيما لا يُغني؛ إذ المتفرِّدُ بالإيجادِ بريءٌ عن الأنداد[2].

* * *

(٧٧) ـ ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾؛ الغلوُّ:

(١) بعدها في (ف): «من».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٤١).

مجاوزةُ الحدِّ إلى الازدياد، وضِدُّه التَّقصير، وهو النُّقصان عن بلوغ الحدِّ، وكلاهما فاسدٌ[١]، والحقُّ في الوقوفِ عند الحدِّ.

وهذا نهيٌ لليَهود والنَّصارى عن مجاوزةِ الحدِّ في عيسى؛ فإنَّ اليهودَ جاوزوا الحدَّ فيه، حيث نَسبوهُ إلى غيرِ رِشْدَةٍ، والنَّصارى جاوزوا[٢] الحدَّ فيه، فاتَّخذوه إلهاً.

وقوله: ﴿غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بغير الحقِّ، وهو الباطل.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ﴾؛ أي: أسلافكم، ﴿قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: أحدَثوا هذه الأباطيلَ، فضلُّوا بها في أنفسِهم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا﴾؛ أي: مِن الناس بدعوتِهم إيَّاهم إليها.

وقوله تعالى: ﴿وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ أي: ثَبتوا على[٣] ذلك الضَّلال.

وقيل: الضَّلالُ الأوَّلُ هو في أصل المذهبِ عن طريقِ الحقِّ، والثاني: ضلالُهم في إضلالِ النَّاس، فإنَّه ضلالٌ، والرُّشدُ: هو الدَّعوةُ إلى الحقِّ دون الضَّلال، ولأنَّهم يُؤاخَذون بضلالِ غيرِهم؛ لأنَّهم هم الذين حملوهُم عليه، قال تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣]، وقال: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٥].

***

(٧٨) ـ ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾.

---

(١) في (ف): «فساد».

(٢) في (أ): «حاذروا».

(٣) في (أ): «عن».

وقوله تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ﴾ قال ابن عباسٍ رضي الله عنهما: لُعنوا في الزَّبورِ على لسان داود، وفي الإنجيلِ على لسان عيسى بن مريم(١).

وقال الكلبيُّ ومجاهدٌ وقتادة: لُعِنوا على لسان داود، فصاروا قردةً، وهم أصحابُ السبت، ولعنوا على لسان عيسى فصاروا خنازير وهم أصحاب المائدة(٢).

وإنَّما خصَّ داودَ وعيسى بالذِّكر؛ لأنَّ مَن قارب عهدَ موسى كانوا على الحقِّ، وإنَّما حدَثت هذه الضَّلالاتُ بعد ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾؛ أي: ذلك اللَّعنُ والمسخُ لعصيانِهم أمرَ الله، وعدوانِهم على خلقِ الله.

* * *

(٧٩) ـ ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ﴾؛ أي: كان لا يَنهى بعضُهم بعضاً عن الفعلِ القبيح الذي فَعلوه.

وقوله تعالى: ﴿لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ وهو كلمةُ ذمٍّ؛ أي: ما أسوأ تركَ الأمرِ بالمعروف والنَّهيِ عن المنكر.

ورويَ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «لـمَّا وقعَ النَّقصُ مِن بني إسرائيل، جعلَ الرَّجلُ

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٨/ ٥٨٦ ـ ٥٨٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١١٨١ ـ ١١٨٢) (٦٦٦٢).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٨/ ٥٨٧) عن مجاهد، ورواه عبد بن حميد وأبو الشيخ، كما في «الدر المنثور» (٥/ ٣٩٩) عن قتادة.

مِنهم يَرى أخاهُ على الذَّنْبِ، فيَنهاهُ عنه، ولا يَمنعُه ذلكَ مِن أن يكون أكيلَهُ وشريبَهُ وجليسَهُ، فضربَ اللهُ قلوبَ بعضِهم ببعضٍ، وأنزلَ فيهم القرآن: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ إلى آخر الأربع آيات»، وكان رسولُ الله ﷺ مُتَّكئاً، فاستوى قاعداً[١]، ثمَّ قال: «كلَّا والذي نفسي بيدِه، حتَّى تأخذوا على يدي الظَّالم، فتأطروهُ على الحقِّ أطراً»[٢]، أي: تَعطِفوه.

***

(٨٠) ـ ﴿ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ ﴾ قيل: أي: مِن كلِّ أهلِ الكتاب، وقيل: مِن اليهودِ خاصَّةً، وهو أظهر.

وقوله تعالى: ﴿يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ أي: عَبدةَ الأوثان، وهذا لليهودِ خاصَّةً، وكان منهم منافقون يتولَّونَ أصنافَ المشركين لتَذبذبِهم.

وقوله تعالى: ﴿لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾؛ أي: لبئس ما قدَّموا لأنفسِهم ذُخراً لآخرتِهم.

وقوله تعالى: ﴿أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ «أن» مع الفعل مصدرٌ، ومحلُّه رفعٌ، تقديرُه: لبئس ما قَدَّمت لهم أنفسُهم سَخَطُ الله، وهو كقولك: بئس رجلاً زيدٌ[٣].

---

(١) في (أ) و(ف): «جالساً».

(٢) رواه أبو داود (٤٣٣٦)، والترمذي (٣٠٤٨) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وهو ضعيف لانقطاع في إسناده، فقد جاء الخبر من طريق أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن أبيه، ولم يسمع منه.

(٣) في (ف): «ارتد».

وقيل: هو نصب بفعلِ التَّقديم؛ أي: قدَّمَت لهم أنفسُهم سخطَ الله.

وقيل: حُذِفت منه اللام، وتقديرُه: لأنْ سخِطَ اللهُ عليهم.

وقوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾؛ أي: في جهنَّم، وهو ما قدمت لهم أنفسُهم.

***

(٨١) ـ ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾؛ أي: ولو كان هؤلاء اليهودُ يؤمنون بالله، وبموسى، وما أنزل إليه، وهو التوراة، ما اتَّخذوا المشركين أولياء؛ لاختلاف أديانهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾؛ أي: كثيرٌ منهم مع كفرِهم متمرِّدون، منهمِكُون في المعاصي.

وقيل: معنى الآية: لو كان المنافقون يؤمنونَ بالله، وبمحمَّدٍ، وبما أنزل إليه؛ أي: القرآن، ما اتَّخذوا المشركين أولياء في السِّرِّ، وهم يدَّعون الإسلامَ في العلانية، ولكنَّ كثيراً من المنافقين لا يُبالون بارتكابِ المعاصي.

وقيل: ولو كان هؤلاء المشركون يؤمنون باللهِ، وبمحمَّدٍ، ما اتَّخذوا هؤلاء المنافقين مِن اليهود أولياء.

وقال الإمامُ القشيريُّ رحمه الله: شرُّ خصال اللِّئامِ مطابقةُ مَنْ يُضادُّ الصَّديقَ مِن الأنام، فإذا كان سَخَطُ الله في موالاة أعدائِه، فرحمتُه في معاداةِ أعدائه[1].

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٤٢).

(٨٢) ـ ﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ﴾؛ أي: قَسماً إنَّك يا محمَّدُ تَجِدُ اليهودَ أشدَّ النَّاسِ عداوةً للمؤمنين على الإيمان؛ لأنَّ الغالبَ على اليهود قساوةُ القلوب، والإفراطُ في الحسَد، حتَّى خرجوا بذلك إلى تكذيبِ الأنبياءِ وقتلِهم، وقد قال النبيُّ ﷺ: «ما خلا يهوديٌّ بمسلم إلَّا همَّ بقتله»(1)، وكذلك المشركون، وذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾، وهو تعجيبٌ مِن اليهود وبلوغِ تمرُّدِهم المبلغَ الذين أَلِفوا البعداءَ، وتولَّوا الكفَّارَ أهلَ الأوثان، وبَعُدوا عن القُرباء إليهم، وهم النَّصارى، مع أنَّ الأصلَ أنَّ ذوي الأديان المختلفةِ يتَّحابون على الأديان، ويُعادونَ مَن لا يَرجِعُ إلى دينٍ، ألا ترى أنَّ المسلمين في ابتداء الإسلام كانوا يَتعصَّبون لأهلِ الكتاب من الرُّوم، والمشركون يَتعصَّبون للمجوس مِن فارس؛ إذ كان الرُّوم أهل كتابٍ، ولم يكن المجوسُ أهلَ كتابٍ كالمشركين، وكان يجبُ على هذا الأصل أنْ يكونَ أهلُ الكتابِ يَسمعون قولَ مُحمَّدٍ، ويَتديَّنون بما أمرَ به، وإنْ كان المشركون يُعرِضونَ عنه، فلمَّا وافقَ اليهودُ المشركين، عجَّب الله المسلمين مِنهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ قيل: هو في عامَّة النَّصارى، ومعناه أنَّ الغالبَ مِن حال اليهود القساوةُ

---

(1) أخرجه ابن حبان في «المجروحين»: (٣/ ١٢٢) في ترجمة يحيى بن عبيد الله بن موهب، قال ابن حبان: وكان من خيار عباد الله، يروي عن أبيه ما لا أصل له. انتهى. وقال الحافظ ابن حجر في «التقريب»: متروك.

والإصرارُ على ما هم عليه؛ إشفاقاً مِن زوالِ الرِّئاسةِ والمأكلة[١]، فأيأسَ اللهُ المؤمنين من إيمانِهم والإجابةِ لدَعوتِهم، وكذلك المشركون فيهم الحسدُ والأَنَفَةُ وحَميَّةُ الجاهليَّةِ والنُّفوسُ الأبيَّة، فهم في الإجابة كاليهود، وحرَّضَهم على دعوة النَّصارى وبيَّن أنَّ الأغلبَ عليهم التَّرهُّبُ، ورفضُ الدُّنيا، وميلُهم إلى التَّخلِّي عنها، فقلوبُهم رقيقةٌ، وطبعُهم التَّواضُعُ، فالطمعُ في[٢] انقيادِهم للإسلامِ أقوى.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ قال ابنُ زيدٍ: القِسِّيسُ: العابدُ[٣]، وكذلك القَسُّ، وتَعارفوا إطلاقَه على رؤوسِ العُبَّاد مِنهم، والرُّهبان جمعُ راهب، وهو الخائفُ مِن الله، وهو كالرُّكبان؛ جمع راكب، والفرسان؛ جمع فارس، وقد يُطلَقُ على الواحد، ويُجمَعُ: على: رهابين، كالقُربان والقرابين، قال الشَّاعر:

لـو عايَنَـتْ رُهبـانَ ديْـرٍ فـي القُلَل ... لانْحـدَرَ الرُّهبـان يَمشـي ونَـزَلْ[٤]

وقيل: القَسُّ والقِسِّيس، كالشَّرِّ والشِّرير[٥]: العالمُ الواقفُ على الحقِّ، الـمُخبِرُ به النَّاس، من قولك: قَسَّ الحديثَ؛ أي: نَشَرَهُ بين النَّاس، والرُّهبانُ أصحابُ الصَّوامع، فالأوَّلون أهلُ العِلم، والآخرون أهلُ العمل.

---

(١) في (ر): «والمكايدة».

(٢) في (أ) و(ف): «إلى».

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٨/ ٥٩٨).

(٤) وقع في هامش (ف): «يسعى ويصل». والرجز في «تفسير الطبري» (٨/ ٥٩٨ ـ ٥٩٩)، و«تهذيب اللغة» (٦/ ٢٩٠)، و«تفسير الثعلبي» (٤/ ١٠٠) دون نسبة.

(٥) بعدها في (ر): «وهو».

وعن سلمان رضي الله عنه أنَّه قال: قرأتُ على النبيِّ ﷺ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ﴾، فقال: (ذلك بأنَّ منهم صديقين)[١].

وقال قتادة: الآيةُ في حقِّ مَن آمنَ منهم دون الجميع، قال: وكان أناسٌ مِن أهل الكتاب على شريعةِ ما جاء به عيسى، يُؤمِنون به، ويَنتمون[٢] إليه، فلمَّا بعثَ اللهُ محمَّداً صدَّقوهُ، وآمنوا به[٣]، وكذلك القصَّةُ تدلُّ على أنَّها للمؤمنين مِنهم على الخُصوص.

وقال مقاتلٌ: ﴿قِسِّيسِينَ﴾ متعبِّدين، ﴿وَرُهْبَانًا﴾ أصحاب الصَّوامع، ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن الإيمان، نزلت الآيةُ في أربعين رجلاً من مُسلِمي أهلِ[٤] الإنجيل، منهم اثنان وثلاثون[٥] قَدِموا مِن أرض الحبشة مع جعفر، وثمانيةٌ مِن أهل الشَّام؛ منهم بَحيرى الرَّاهب، وأبرهة، وأشرف[٦]، وإدريس، وتمَّام، وقسيم، ودريد، وأيمن، والقِسِّيسون الذين حلَقوا أوساطَ رؤوسِهم؛ فإنَّهم لـمَّا سَمِعوا القرآن من النبيِّ ﷺ قالوا: ما أشبهَ هذا بالذي[٧] كنَّا نُحدَّث مِن حديث عيسى،

---

(١) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص: ٢٩٨)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٨/ ١١٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١١٨٣) (٦٦٧٢)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٦١٧٥)، وفي إسناده نصير (ويقال: نضير) بن زياد، قال الأزدي: منكر الحديث. انظر: «ميزان الاعتدال» للذهبي (٥/ ٢٧).

(٢) في «تفسير الطبري»، و«الدر المنثور» (٥/ ٤٠٩): «وينتهون».

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٨/ ٥٩٧).

(٤) بعدها في (ر): «الكتاب وهو».

(٥) في (ر): «الاثنان وثلاثين الذين» بدل: «اثنان وثلاثون».

(٦) في (أ): «الأشرف»، وفي (ف): «والأشرف».

(٧) في (ف): «بالحديث الذي».

فبكوا، وصدَّقوا، فنزلَ فيهم قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ إلى قوله: ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾؛ يعني: المهاجرين والأنصار[١].

وقال سعيدُ بنُ جُبير: بعثَ النَّجاشيُّ وفداً[٢] من أصحابِه، فقرأ عليهم رسولُ الله ﷺ القرآن، فأقرُّوا وأسلموا، وفيهم نزلَ: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً﴾، ثمَّ رجعوا إلى النَّجاشيِّ فأسلم[٣].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: وهذا التأويلُ لا يصح؛ لأنَّه يَصيرُ حاصلُ الكلام أنَّ المؤمنَ أقربُ مودَّة للمؤمنين مِن الكفَّار، وذلك كلامٌ لا يُفيد معنًى[٤]، لكنَّه على كلِّ اليهود، وكلِّ[٥] النَّصارى، وقد مرَّ بيانُ حالِ كلِّ واحدٍ مِن الفريقين في الأصل.

أو على أهل عصر النَّبيِّ ﷺ، وكان يهودُ قريظةَ والنَّضير يُعلنون العداوةَ، ويُظاهِرون المشركين على قتال النَّبي ﷺ، حتَّى قاتلَهم رسول الله ﷺ وأجلاهم، ويهودُ المدينة بايعوا أهلَ مكَّة على قتال رسول الله ﷺ، ولم يذكر من النصارى شيء من ذلك، فلذلك كانوا كذلك.

وقال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: كان رسولُ الله ﷺ بمكَّة، فخاف على أصحابِه مِن المشركين، فبعث جعفرَ بنَ أبي طالب، وعثمانَ بن مظعون، وابنَ مسعودٍ في رهْطٍ مِن أصحابِه إلى النَّجاشيِّ ملك الحبشة، فلمَّا بلغَ ذلك المشركين،

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٤٣٩).

(٢) في (ف): «نفراً».

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٨/ ٥٩٤).

(٤) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٣/ ٥٧٣).

(٥) في (ر): «وعلى كل».

بعثوا عمرَو بنَ العاص في رهْطٍ مِنهم، فسَبقوا إلى النَّجاشيِّ، وأتوهُ بهديَّةٍ مِن مكَّة، وقالوا له[١]: إنَّه قد خرجَ فينا رجلٌ سَفَّه عقولَ قريش وأحلامَها، زعمَ أنَّه نبيٌّ، وإنَّه بعثَ إليك رهطاً ليُفسِدوا قومَك عليك، فأحْبَبنا أنْ نأتيَك ونُخبرَك من هم[٢]، فقال: إن جاؤوني نظرتُ فيما يَقولون.

فقدمَ أصحابُ النَّبيِّ ﷺ، فأتوا باب النَّجاشيَّ، فقالوا: يستأذِنُ عليك حزبُ الله، فقال: ائذنوا لهم، فمرحباً بحزب الله، فلمَّا دخلوا عليه قال جعفر: السَّلامُ على مَن اتَّبعَ الهُدى، وخشي عواقبَ الرَّدى، فقال له رهْطُ المشركين: أيُّها الملِكُ، إنَّا قد صدَقناك، وإنَّهم لم يُحيُّوك بتحيَّةِ الملك، فقال لهم: ما منعَكم أنْ تُحيُّوني بتَحيَّتي، فقالوا: إنا قد حييناك بتحيَّةِ أهل الجنَّة وتحيَّةِ الملائكة، فقال لهم: ما يَقولُ صاحبُكم في عيسى وأمِّه، قالوا: إنَّه يَقولُ: عبدُ الله، وكلمةٌ مِن الله ألقاها إلى مريم، ويقولُ في مريمَ: إنَّها العذراءُ الطَّيِّبةُ البَتول، فأخذَ عُوداً مِن الأرض، فقال: ما زادَ عيسى وأمُّه على ما قال صاحِبُكم فوق هذا العود، فكرهَ المشركون قولَه، وتَغيَّرت وجوهُهم، ثمَّ قال لأصحابِ رسول الله ﷺ: هل تَعرفون شيئاً ممَّا أُنزل عليكم؟ قالوا: نعم، قال: اقرؤوا فقرؤوا[٣].

وفي بعض الروايات: قرأ جعفرُ من أوَّل سورة طه إلى قوله: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ [طه: ٩]، فانحدَرت دموعُهم ممَّا عرفوا من الحقِّ، فذلك قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾ إلى قوله: ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾، يعنون: محمداً وأمته[٤].

---

(١) في (أ): «قالوا» بدل: «وقالوا له».

(٢) في (ف): «بأمرهم»، وفي «تفسير الطبري»: «خبرهم» بدل «من هم».

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٨/ ٥٩٥ ـ ٥٩٦).

(٤) ذكره بنحوه الزمخشري في «الكشاف» (١/ ٦٦٩).

ورويَ أنَّ النَّجاشيَّ قال لهم: فهل في كتابِكم ذكرُ مريم؟ قالوا: إنَّ في كتابنا سورةً تُنسَبُ إلى مريم، قال: فاقرؤوها، فقرؤوا: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ﴾ [مريم: ٣٤]، فبكى النجاشيُّ، ثم قال: ما تقولون في إبراهيم؟ فقالوا: ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا﴾ فقال: صدقتُم، ما كانت اليهوديَّة والنَّصرانيَّةُ إلَّا بعد إبراهيم.

وفي حديث أمِّ سلمة: أنَّ أهلَ مكة بَعثوا عمرَو بن العاص وعبدَ الله بنَ أبي ربيعة مع هدايا لكلِّ البطارقة، ولـمَّا قدِموا قالوا للنجاشي: إن فتيةً[1] منَّا سفهاءَ، فارقوا دينَ قومِهم، ولم يَدخلوا في دينِك، ودخلوا بلادَك، فرُدَّهم علينا[2]، فغضب وقال: لا لعَمر الله[3]، لا أردُّهم إليهم حتَّى أدعوَهم فأكلِّمَهم[4]، قومٌ لجؤوا إلى بلادي، واختاروا جِواري على جوارِ غيري؛ فإنْ كانوا كما يقولون، رددتُهم عليهم، وإن كانوا على غير ذلكَ منعتُهم، فدَعاهم، فلما دَخلوا عليه، تكلَّم جعفرٌ، فقال له النَّجاشيُّ: ما هذا الدِّينُ الذي أنتم عليه؟ فارقتُم دينَ قومِكم، ولم تَدخلوا في يهوديَّة ولا نصرانيَّةٍ، فما هذا الدِّين؟ قال جعفر: أيُّها الملِك، كنَّا قوماً على الشِّركِ، نعبدُ الأوثانَ، ونأكلُ الميتةَ، ونسيءُ الجوارَ، ونَستحِلُّ المحارِمَ مِن سفكِ الدِّماءِ وغيرِها، فبعثَ اللهُ تعالى إلينا نبيًّا مِن أنفُسنا، نَعرِفُ وفاءَه وصدقَهُ وأمانتَهُ، فدعانا إلى أن نعبدَ اللهَ وحدَه لا شريكَ له، ونَصِلَ الرَّحِم، ونُحسِنَ الجوارَ، ونُصلِّي لله، ونصومَ له، ولا نعبدَ غيرَه، قال: فهل معك شيءٌ ممَّا جاء به؟ وقد دعا أساقفتَهُ، فأمرَهُم

---

(١) في (أ) و(ر): «فئة».

(٢) في (ف): «إلينا».

(٣) في (ف): «والله» بدل: «لعمرو الله».

(٤) في (أ): «فأحكمهم».

فنشروا المصاحفَ حولَه، فقال له جعفر: نعم، فقال: هلمَّ فاتْلُ عليَّ ما جاءَ به، فقرأ عليه صدراً من ﴿كٓهيعٓصٓ﴾، فبكى والله النَّجاشيُّ حتَّى اخضلَّتْ لحيتُه، وبكى أساقفَتُه حتَّى أخْضَلوا مصاحفَهم، ثمَّ قال: إنَّ هذا الكلامَ ليَخرجُ مِن المشكاةِ التي جاء بها عيسى[1]، انْطلِقوا راشِدينَ، لا والله، لا أردُّهم عليكم، ولا أنعمُكم عيناً، فخَرجوا من عنده.

وكان أتقى الرَّجلين[2] عبد الله بن أبي ربيعة، فقال عمرو بن العاص: والله لآتينَّهُ غداً بما استأصِلُ به خضراءَهم، فلأُخبِرنَّه أنَّهم يَزعُمون أنَّ إلهه[3] الذي يعبدُ عيسى بنَ مريم عبدٌ، فقال له عبد الله بن أبي ربيعة: لا تفعل؛ لأنَّهم وإنْ كانوا خالَفونا فإنَّ لهم رَحِماً، ولهم حقًّا، فقال: والله لأفعلنَّ.

فلمَّا كان الغدُ دخلَ عليه فقال: أيُّها الملك، إنَّهم يَقولون في عيسى قولاً عظيماً، فأرسِلْ إليهم فسَلهُم عنه، فبعث إليهم، فدخلوا عليه وعنده بطارقتُه، فقال: ما تَقولون في عيسى بنِ مريم؟ فقال له جعفر: نقول: هو عبدُ الله، ورسولُه، وكلمتُه، وروحُه ألقاها إلى مريم العذراء البَتول، فدلَّى النَّجاشيُّ يدَه إلى الأرض، فأخذ عويداً بين أصبعيه، فقال: ما عدا عيسى بنُ مريم ما قلت هذا العويد[4]، فتناخرَت بطارقتُه، فقال: وإن تَناخرتُم والله، اذهبوا فأنتم آمنون في أرضي؛ مَن سَبَّكُم غرِمَ، ثمَّ مَن سبَّكم غَرِمَ، ثمَّ مَن سبَّكم غَرِم، ما أحبُّ أنَّ لي ذهباً [وأنِّي آذيتُ رجلاً منكم]،

---

(١) في (ف): «موسى وعيسى».

(٢) في (ف): «القوم».

(٣) في النسخ الخطية: «الله»، والمثبت من «السير والمغازي» لابن إسحاق، و«دلائل النبوة» للبيهقي.

(٤) في (ف): «العود».

ووالله ما أخذَ اللهُ منِّي الرِّشوةَ حين[1] ردَّ عليَّ ملكي، فآخذَ الرِّشوةَ فيه، ولا أطاعَ النَّاسَ فيّ، فأطيعَ النَّاسَ فيه، رُدُّوا عليهما هداياهما، فلا حاجةَ لي بها، واخرجا من بلادي، فخرجا وقد ردَّ عليهما ما جاءا به.

فأقمنا مع خير جارٍ، وفي خير دارٍ، فلم نَلبث أنْ خرجَ عليه رجلٌ مِن الحبشة يُنازِعُه في مُلكِه، فوالله ما علِمنا حَزناً قطُّ كان أشدَّ منه؛ فَرقاً مِن أنْ يَظهرَ ذلك الملكُ عليه، فيأتيَ ملكٌ لا يَعرِفُ مِن حقِّنا ما كان يَعرِف، فجعَلنا نَدعو اللهَ تعالى، ونَستنصِرُه للنَّجاشيِّ، فخرجَ إليه سائراً، فقال أصحابُ رسولِ الله ﷺ: مَنْ رجلٌ يَخرُجُ فيَحضُرُ الوقعةَ حتَّى يَنظرَ على مَنْ تكون، فقال الزُّبير ـ وكان مِن أحدثِهم سناً ـ: أنا، فنَفَخوا له قِرْبةً، فجعلَها في صدرِه، ثمَّ خرجَ يَسبحُ عليها في النِّيل، حتَّى خرجَ مِن شِقِّه الآخرِ إلى حيث التقى النَّاس، فحضرَ الوقعةَ، فهزمَ اللهُ تعالى ذلك الملكَ، وقتلَهُ، وظهرَ النَّجاشيُّ عليه، فجاءنا الزُّبير، فقال: أبشِروا، فقد أظهرَ اللهُ النَّجاشيَّ، فوالله ما علمنا فرحنا[2] بشيءٍ قطُّ فرحَنا بظهورِ النَّجاشيِّ، ثمَّ خرجَ مَن خرجَ راجعاً إلى مكَّة، وأقامَ من أقام[3].

وقالت عائشةُ رضي الله عنها في قول النَّجاشيِّ: ما أخذَ اللهُ منِّي الرِّشوةَ: إنَّ والدَ النَّجاشيِّ كان له أخٌ، وله مِن ولدِه من صُلبِه اثني عشر رجلاً، ولم يكن لوالدِ النَّجاشيِّ ولدٌ غيرُ النَّجاشيِّ، فأدارت الحبشةُ رأيَها بينها، فقالوا: لو أنَّا قتلنا أبا

---

(١) في (أ): «حتى».

(٢) في (ر) و(ف): «فرحاً» بدل: «فرحنا»، والمثبت من (أ)، وهو موافق لما في المصادر.

(٣) رواه ابن إسحاق في «السير والمغازي» (ص: ٢١٣ ـ ٢١٦)، وعنه ابن هشام في «السيرة النبوية» (١/ ٣٣٤ ـ ٣٣٨)، ومن طريق ابن إسحاق أخرجه أيضاً البيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٣٠١ ـ ٣٠٤)، وما بين حاصرتين منها.

النَّجاشيِّ، وملَّكْنا أخاهُ؛ فإن له اثنَي عشر رجلاً[١] مِن صُلبِه، [فيَتوارثوا الـمُلك، لبقيَتِ الحبشةُ عليهم دهراً طويلاً] لا يكون بينها اختلاف، فعَدَوا عليه فقتلوه، وملَّكوا أخاه.

فدخلَ النَّجاشيُّ على عمِّه، حتَّى غلبَ عليه، فلم يُدبِّر أمرَهُ غيرُه، وكان لبيباً، فلمَّا رأت الحبشةُ مكانَهُ مِن عمِّه قالوا: لقد غلبَ هذا الغلامُ على عمِّه، فلا نأمنُ أنْ يُمَلِّكَهُ علينا، وقد عرفَ أنَّا قد قتلنا أباهُ، فإنْ فعلَ لم يَدَع منَّا شريفاً إلَّا قتلَهُ، فكلَّموهُ فيه، فقالوا: لنَقتُلَنَّه، أو لنُخرِجنَّه مِن بلادِنا، فمشَوا إلى عمِّه، وقالوا: لقد رأينا مكانَ هذا الفتى مِنك، وقد عرفتَ أنَّا قتلنا أباهُ، وجعلناك مكانَه، وإنَّا لا نأمنُ أنْ تُملِّكَهُ علينا، فيقتلَنا، فإمَّا أنْ تَقتلَه، وإمَّا أنْ تُخرِجَهُ مِن بلادِنا، فقال: ويحكم! قتلتُم أباهُ بالأمس، وأقتلُه اليوم؟! بل أخرجوهُ مِن بلادِكم، فخَرجوا به، فوقفوه[٢] بالسُّوق، فباعوهُ مِن تاجرٍ مِن التُّجارِ يَقذِفُهُ في سفينةٍ[٣] بستِّ مئةِ درهم أو سبع[٤] مئة[٥]، فانطلَقَ به، فلمّا كانت العشيُّ هاجَتْ سحابةٌ مِن سحابِ الخريف، فخرجَ عمُّه يَتمطَّرُ تحتَها، فأصابَتهُ صاعِقةٌ فقتَلتهُ، ففَزِعوا إلى ولدِه، فإذا هم مُحمِقون، ليس في أحدٍ منهم خيرٌ، فمرِجَ[٦] على الحبشةِ أمرُهم، فقال بعضُهم لبعض: تَعلمون واللهِ أنَّ ملِكَكُم الذي لا يُصلِحُ أمرَكُم غيرُه للَّذي بعتموهُ، فإن كان لكم بأمرِ الحبشة حاجةٌ فأدركوهُ قبلَ أن يَذهبَ.

---

(١) في (ف): «ولداً».

(٢) في (ف): «فاخرجوا به فأوقفوه».

(٣) في (ر) و(ف): «سفينته».

(٤) في (أ) و(ف): «تسع».

(٥) بعدها في (ر): «درهم».

(٦) يعني: اختلط. انظر: «مختار الصحاح» (مادة: مرج).

فخَرجوا في طلبِهِ حتَّى أدركوه، فرَدُّوه، فعَقدوا عليه تاجَه، وأجلسوهُ على سريرِه، وملَّكوه، فقال التاجر: رُدُّوا عليَّ مالي كما أخذتُم منِّي غلامي، فقالوا: لا نُعطيكَ، فقال: إذاً والله أكلِّمُه، فقالوا: وإنْ، فمَشى إليه فكلَّمَه[١]، فقال: أيُّها الملِكُ، إنِّي ابتعتُ غلاماً، وقبضَ منِّي الذين باعوهُ ثمنَه، ثمَّ عدوا على غلامي، فنَزعوهُ مِن يدي، ولم يَردُّوا عليَّ مالي، فكان أوَّلَ ما خُبِرَ[٢] مِن صلابةِ حكمِه[٣] وعدلِه أن قال: لترُدُنَّ عليه مالَهُ، أو لتَجعلنَّ يدَ غلامِه في يدِه، فليَذهبنَّ به حيث يشاء، فقالوا: بل نُعطيهِ مالَهُ، فأعطَوهُ إيَّاه، فلذلك قال: ما أخذَ اللهُ منِّي الرِّشوةَ فآخذَ الرِّشوةَ منه حين ردَّ عليَّ ملكي، وما أطاعَ الناسَ فيَّ فأطيعَهم فيه[٤].

* * *

(٨٣) ـ ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾ قال إسماعيل بن عبد الرحمن[٥]: بعثَ النَّجاشيُّ اثنَي عشر رجلاً إلى رسول الله ﷺ، فقرأ عليهم القرآنَ، فبكوا، وكان فيهم سبعةُ رهبانٍ وخمسةُ قسِّيسين، أو

---

(١) في (ف): «وإن كلمته لا نعطيك الثمن» بدل من «وإن، فمشى إليه فكلمه».

(٢) في (أ): «خير».

(٣) في (ر): «ملكه وحكمه».

(٤) رواه ابن إسحاق في «السير والمغازي» (ص: ٢١٦ ـ ٢١٧)، وعنه ابن هشام في «السيرة النبوية» (١/ ٣٣٩ـ٣٤٠)، ومن طريق ابن إسحاق أخرجه أيضاً البيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٣٠٤ـ٣٠٦)، وما بين حاصرتين منها.

(٥) هو السدي.

خمسةُ رهبانٍ وسبعةُ قِسِّيسين، ففيهم نزلَت هذه الآيةُ[١].

وقوله: ﴿تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ﴾ خطابٌ للنَّبيِّ ﷺ، وقوله: ﴿تَفِيضُ﴾؛ أي: تَسيلُ، والدَّمعُ: ماءُ العين، والمدامِع: مجاري ماءِ العين، وقد رَوينا أنَّ هذا في النَّجاشيِّ وأصحابِه حيث[٢] سمعوا بالحبشة قراءةَ جعفرٍ فبكوا، فعلى هذا يكونُ قوله: ﴿تَرَىٰٓ﴾ خطاباً لرسول الله ﷺ، على تقدير: لو أنَّك كنتَ معهم لرأيتَ ذلك، أو يكون ﴿تَرَىٰٓ﴾ بمعنى: تعلمُ وتتيقَّنُ بذلك بإخبارِ الله تعالى إيَّاك به.

وقوله تعالى: ﴿مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ بكوا حين عرفوا الحقَّ لمعنيين؛ إمَّا فرحاً بنَيلِ الإيمان، وإمَّا خوفاً مِن اللهِ تعالى بتأخيرِ الإيمان إلى الآن.

وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا﴾؛ أي: آمنَّا يا ربَّنا بك وبرسولِك وبكتابِك.

وقوله تعالى: ﴿فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: أي: اكتبنا مع محمَّدٍ وأمَّته؛ الذين جعلتَهُم يومَ القيامة شُهداءَ على النَّاس، نَشهدُ بمثل ما يَشهدون به يوم القيامة؛ أنَّه قد بلَّغَ وأنَّ الأنبياءَ قد بلَّغوا[٣].

وقيل: أي[٤]: شهِدنا بأنَّه الحقُّ، ﴿فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ بهذه الشَّهادةِ؛ أي: ألحِقنا بهم، واجعلْ أسماءَنا في صحفِ ملائكتكَ مع أسمائِهم.

***

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٨/ ٥٩٦، ٦٠١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١١٨٤) (٦٦٧٥).

(٢) في (ف): «حين».

(٣) وقع بعده في (أ): «وقيل: أي نشهد»، والأثر رواه الطبري في «تفسيره» (٨/ ٦٠٣ ـ ٦٠٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١١٨٥) (٦٦٨٢).

(٤) بعدها في (ف): «قد».

(٨٤) ـ ﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾.

وقيل: معناه: ألحقنا بالأنبياءِ الذين يَشهدون عندكَ بإيمانِ مَن آمنَ بهم، وكفرِ مَن كفر بهم، ثمَّ أظهروا مِن أنفسِهم الاستبصارَ في دينِهم؛ قطعاً لأطماعِ الكفَّار في رجوعِهم، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ ﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ﴾؛ أي: وبما جاءَنا؛ أي: أيُّ عذرٍ لنا في تركِ الإيمان.

وقوله تعالى: ﴿وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾؛ أي: مع أنَّا نرجو أنْ يُدخِلَنا اللهُ جنَّته مع[1] الصَّالحين لذلك، وقيل: أي: الصَّالحين في أنفسِهم، وقيل: هم الأنبياء، وقيل: هم أمَّةُ محمَّدٍ ﷺ في هذه الآية، وعلى هذا ذكر الجنَّةِ مضمَرٌ.

وقيل: لا إضمار، ومعنى قوله: ﴿أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾؛ أي: يُدخِلَنا في جملتهم.

* * *

(٨٥) ـ ﴿ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾؛ أي: جزاؤهم بما قالوا من كلمةِ التَّوحيد، مع ما كان لهم مِن الاعتقاد، وذلك مذكورٌ في قوله: ﴿مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾، ولا مُتعلَّق للكرَّامية بظاهرِ قوله: ﴿بِمَا قَالُواْ ﴾ في[2] أنَّ الإيمانَ بمجرَّد القولِ، فقد قلنا: إنَّه كان مع المعرفة

---

(١) في (ر): «الجنة أي مع» بدل: «جنته مع القوم».

(٢) في (ر): «من».

والاعتقاد، ويَدُلُّ عليه أنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨]، نفى الإيمان عنهم مع قولهم: ﴿ءَامَنَّا﴾؛ لعدم الاعتقادِ منهم.

* * *

(٨٦) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ هذا وعيدٌ للكافرين بعدما ذَكَرَ وعدَ المؤمنين.

وقال الإمامُ القشيريُّ رحمَهُ الله: هذا أثرُ الإعراضِ عن الأعداء، والأوَّلُ أثرُ الإقبالِ على الأولياء(١).

* * *

(٨٧) ـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾. قال الكلبيُّ: إنَّ أبا بكرٍ وعمر، وعليًّا، والمقدادَ بن الأسود، وسالماً مولى أبي حذيفة، وأبا ذر الغفاريَّ، وعبدَ الله بنَ مسعود، وعبدَ الله بن عمر، وسلمانَ الفارسيَّ، وعمَّار بن ياسر، وجماعةً رضي الله عنهم أجمعين، اجتمعوا في دار عثمان بنِ مظعون الجمحي، فذكروا القيامةَ، فرَقُّوا وبكوا، وحرَّموا على أنفسِهم الطيِّبات(٢).

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٤٤).

(٢) ذكر نحوه الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ١٠١)، و«أسباب النزول» (ص: ١٩٨ ـ ١٩٩) من قول المفسرين مطولاً، ولم يذكر فيهما عمر رضي الله عنه، وذُكر معقل بن مقرن.

وفـي روايـةِ ابن عباسٍ رضـي الله عنهما: همَّت طائفة من أصحاب رسـول الله ﷺ فقالـوا: نَقطـعُ مذاكيرنا، ونَتركُ شـهواتِ الدُّنيا، ونَسـيحُ فـي الأرضِ كما يَفعلُ الرُّهبان[١].

وفي حديث عكرمة: تَبتَّلُوا وجَلسوا في بيوتِهم[٢]، واعتَزلوا النِّساءَ، ولَبِسوا المسوحَ، وحرَّموا طيِّباتِ الطَّعام واللِّباس، وهمُّوا بالخصاء، وأجمَعوا على قيامِ اللَّيل وصيام النهار[٣].

فبلغ[٤] ذلك إلى رسول الله ﷺ، فأتى عثمانَ في منزلِه، فلم يجدهم، فقال لامرأةِ عثمان ـ أم حكيم بنت أمية السُّلَميَّة ـ: «أحقٌّ ما بَلغني عن زوجكِ وأصحابِه»، قالت: ما هو؟ فأخبرَها به، فكَرِهت أنْ تَكذِبَ رسولَ الله ﷺ حين سألَها، وكرهَتْ أن تُبديَ على زوجِها، فقالت: يا رسولَ الله، إن كان أخبرك به عثمانُ فقد صَدَقك، فقال لها رسولُ الله ﷺ: «قولي لزوجِك وأصحابِه: إنَّ رسولَ الله ﷺ يَقولُ لكم: إنِّي آكلُ وأشربُ، وآكلُ اللَّحمَ والدَسم، وأنامُ وأُصلِّي، وآتي النِّساءَ، وأصومُ وأُفطِر، فمَن رغبَ عن سُنَّتي فليس مني»[٥].

وفي رواية: جاء عثمانُ وأصحابُه، فقرأ عليهم هذه الآية، وقال: «إنَّ لأنفسِكم عليكم حقًّا، ولأهاليكم[٦] عليكم حقاً؛ فصوموا وأفطروا، وقوموا وارقدوا»، ثمَّ

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٨/ ٦١١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١١٨٧) (٦٦٨٩).

(٢) في (أ): «واجلسوا في بيوتكم» بدل: «وجلسوا في بيوتهم».

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٨/ ٦١٢).

(٤) هنا رجع إلى تتمة الرواية الأولى.

(٥) انظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» لمكي (٣/ ١٨٤٦ ـ ١٨٤٧).

(٦) في (ف): «وإن لأهاليكم».

جمعَ النَّاس وخطبَهم وقال: «ما بالُ أقوامٍ حرَّموا النِّساء، والطِّيب، والطَّعام، والنَّوم، وشهواتِ الدُّنيا، أمَا إنِّي لست آمرُكم أنْ تكونوا رهباناً وقسِّيسين، وليس في ديني تركُ اللَّحمِ والنِّساء، ولا اتِّخاذُ الصَّوامعِ، وإنَّ سياحةَ أمَّتي الصَّومُ، ورهبانيتَهم الجهادُ، اعبدوا اللهَ، ولا تُشرِكوا به شيئاً، وحُجُّوا واعتَمِروا، وأقيموا الصَّلاةَ، وآتوا الزَّكاةَ، وصوموا رمضان، واستقيموا، ولا تُشَدِّدوا على أنفسِكم؛ فإنَّما هلكَ مَن كان قبلَكم بالتَّشديد؛ شدَّدوا على أنفسِهم، فشدَّد اللهُ عليهم»(١).

وقيل: لـمَّا نزلَ ذِكرُ الرُّهبان والقِسِّيسين، ومَن صفتُهم التَّبتُّل وتركُ الشَّهوات، أحبُّوا أن يَقتدوا بهم، فنزلت الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾؛ أي: لا تَجاوزوا حدَّ الشَّرع؛ فإنَّ اللهَ لا يُحِبُّ مَن اعتدى حدودَه ونقضَ عهودَه.

وقيل: الآيةُ نزلَت في النَّهي عمَّا كان عليه بعضُ العرب مِن تحريم(٢) البحيرة والسَّائبةِ والوصيلةِ والحامي وبعضِ الزُّروع.

* * *

(٨٨) ـ ﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: اتَّقوا مخالفةَ أمرِه ونهيِه.

---

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ١٠١)، ويشهد له ما في «صحيح البخاري» (٥٠٦٣) و«صحيح مسلم» (١٤٠١) من حديث أنس رضي الله عنه من خبر الرهط الذين جاؤوا إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادته.

(٢) في (ف): «تعظيم».

وفيه دليلٌ أنَّ الإيمانَ لا يَزولُ بزوال التَّقوى، فقد أثبتَهُ الله مع ذلك.

وقال الإمامُ القشيريُّ رحمه الله: من أمارات السَّعادةِ الوقوفُ على حدِّ الأمرِ؛ إن أباحَ الحقُّ شيئاً، قَبِلَ ذلك، وإنْ حظرَ وقفَ، ثمَّ أكلُ الحلالِ الطَّيِّبِ أنْ يَأكلَ ما يأكلُ على شهودِه؛ فإن نزلَت الحالةُ عن هذا، فعلى ذِكْرِه، فأمَّا الأكلُ على الغفلةِ، فليس بطيِّبٍ عند أهلِ الحقيقة[١].

* * *

(٨٩) ـ ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ ۖ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ﴾ ولـمَّا نزلت الآيةُ في حقِّ عثمانَ بنِ مظعون وأصحابِه: ﴿لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾، وقد كانوا حلفوا؛ لا يَتنعَّمون، ولا يأتون الأهالي[٢]، ولا يَلبَسون اللَّيِّن مِن الثياب ونحو ذلك، قالوا: يا رسولَ الله، كيف بأيمانِنا التي حلفنا عليها؟ فنزلَت هذه الآية[٣].

ووجهُ آخرُ للانتظام: أنَّ السُّورة في الوفاءِ بالعقود، والأيمانُ مِن العقود، واللَّغوُ اختُلِفَ فيه، وقد تكلَّمنا فيه في سورة البقرة[٤].

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٤٤).

(٢) في (ر): «النساء».

(٣) رواه الطبري في «تفسيره (٨/ ٦١٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) عند تفسير الآية (٢٢٥).

وقيل: المرادُ هاهنا إلغاءُ تلك الأيمانِ بالحنث[١] فيها، عملاً بقول النبيِّ ﷺ: «من حلف على يمينٍ فرأى غيرها خيراً منها، فليأتِ الذي هو خيرٌ[٢] ثم ليكفر يمينه»[٣]، فأخبرَ بهذه الآيةِ أنَّهم إذا ألغوها، وحنَثوا فيها، لم يُؤاخذوا بالإثمِ، وعليهم الكفارة.

وقالت عائشةُ رضي الله عنها: اللَّغو: هو ما يَجري في كلام الناس: لا والله، وبلى والله[٤]، ولا كفارةَ فيه. وبه أخذ الشافعيُّ رحمه الله[٥].

وقال أبو هريرة وابنُ عبَّاس ويحيى بنُ سعيد الأنصاري ومكحولٌ وجماعةٌ من الصَّحابة والتَّابعين رضوان الله عليهم أجمعين: هو أنْ يَحلف على الشَّيء يَراهُ من بعيد، فيَظنُّ أنَّه كذا، فيقول: والله إنَّه كذا، فإذا هو خلافه[٦]، فلا مؤاخذةَ في هذا بإثمٍ ولا كفارةٍ، وبه أخذ أصحابُنا رحمهم الله[٧].

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ قرأ ابنُ كثير، ونافعٌ، وأبو عمرو، وعاصمٌ في رواية حفص؛ بالتَّشديد: ﴿عَقَّدتُّمُ﴾.

وقرأ حمزةُ، والكسائيُّ، وخلفٌ[٨]، وعاصمٌ في رواية أبي بكر وحمَّاد[٩] بالتخفيف.

---

(١) في (أ): «في الحنث».

(٢) بعدها في (أ): «له».

(٣) رواه مسلم في «صحيحه» (١٦٥٠): (١٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) رواه البخاري في «صحيحه» (٦٦٦٣).

(٥) انظر: «الأم» للشافعي (٨/ ١٥٥).

(٦) روى أقوالهم الطبري في «تفسيره» (٤/ ١٩ ـ ٢٠، ٢٥)، ووقع في (أ): «ليس هو كذا» بدل: «هو خلافه».

(٧) انظر: «المبسوط» للسرخسي (٨/ ١٢٩).

(٨) قوله: «وخلف» من (ف).

(٩) قوله: «وحماد» من (ف).

وقرأ ابنُ عامر في رواية ابن ذكوان[1]: ﴿عاقدتم﴾ بالألف[2].

و«ما» مع الفعل مصدرٌ، وتقديره: بعقدِكمُ الأيمان، وهو اليمينُ على أمرٍ في المستقبل، نفياً أو إثباتاً: ليفعلنَّ كذا، أو لا يفعلُ كذا؛ لأنَّ العقدَ ضِدُّ الحَلِّ، واليمينُ في المستقبل هي التي تَقبلُ الحلَّ، فهي التي يَتحقَّقُ فيها العقدُ. وعلى هذا: لا كفارةَ في اليمينِ الغموس عندنا، وهي اليمينُ الكاذبة في الماضي؛ لأنَّها غير معقودة[3]، وعند الشافعيِّ رحمه الله: العقدُ: هو القَصدُ بالقلبِ، واليمينُ الغَموس مقصودةٌ بالقلب، فكانت معقودةً، فكانت الكفَّارة فيها مشروعةً[4].

وقوله تعالى: ﴿فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ﴾ الهاءُ كنايةٌ عن قوله: «ما» في قوله: ﴿بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ﴾ هو أنْ يُغَدِّيَهم ويعشِّيهم، ويجوزُ أنْ يُعطيَهُم بطريقِ التَّمليك، وهو لكلِّ واحدٍ منهم نصفُ صاعٍ مِن حنطة، أو صاعٌ مِن شعيرٍ[5]، أو صاعٌ من تمر، وعند الشافعيِّ رحمه الله: مدٌّ مِن حنطة[6].

وقوله تعالى: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ هم مَن في عياله مِن الزَّوجةِ والأولاد والخَدَم، والأوسَطُ: بين الجيِّد والرَّديء، وبين الإسرافِ والتَّقتير، وبين

(١) قوله: «في رواية ابن زكوان» من (ف).

(٢) انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٢٤٧)، و«التيسير» (ص: ١٠٠)، و«جامع البيان» للداني (ص: ٤٨٥) و«النشر» للجزري (٢/ ٢٥٥).

(٣) انظر: «المبسوط» للسرخسي (٨/ ١٢٧).

(٤) انظر: «نهاية المطلب» للجويني (١٨/ ٣٠٤).

(٥) انظر: «اللباب في شرح الكتاب» للغنيمي (ص: ٦٠٣).

(٦) انظر: «منهاج الطالبين» (ص: ٥٤٥).

المـرَّة والثـلاث؛ يعنـي: المرتيـن، والأوسَـطُ: الأعـدل، قـال تعالـى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ [القلـم: ٢٨]؛ أي: أعدلُهـم، وقال تعالـى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]؛ أي: عدولاً.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ هو مصدرٌ، ومعناها الإلباس، و﴿أَوْ﴾ للتَّخيير، وكذلك قوله: ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾، فيختار أيَّ الثلاثةِ شاء؛ مِن إطعامِ عشرةِ مساكين، أو إلباسُ عشرة مساكين كلَّ واحدٍ كسوةً تامَّةً، يجوز له فيها الصَّلاةُ، مِن إزارٍ ورداءٍ، أو قميصٍ وسراويل، وللمرأة ذلك مع خمار، أو اعتاقُ رقبةٍ كاملةٍ ليس بها نقصانُ عمى، أو قطعِ يدين أو رجلين ونحوهما، صغيرةً كانت أو كبيرةً، مسلمةً كانت أو كافرة.

وعند الشافعيِّ رحمه الله: لا يجوزُ إلَّا المؤمنة[1]؛ استدلالاً بالرَّقَبةِ في قتل[2] الخطأ، وعندنا: هذا مطلقٌ، فيَجري على إطلاقه[3].

والمراد من الرَّقبة تمامُ البدن، ولكنَّ التَّحريرَ في معنى فكِّ الأسيرِ المغلولِ العنقِ، فلذلك ذكرَ الرَّقبة.

وقوله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ﴾ أي: فمَن لم يَجِد أحدَ هذه الأشياء، فكفَّارتُه صيامُ ثلاثةِ أيَّام، وهي مطلقةٌ عند الشَّافعيِّ رحمَه الله؛ إنْ شاءَ تابعَها، وإنْ شاءَ فرَّقَها؛ لإطلاق النَّص، وهي عندنا متتابعةٌ؛ لقراءة عبد الله بن مسعود: (فصيام ثلاثة أيام متتابعات)[4]، وقراءَتُه بمنزلةِ روايتِه عن النبيِّ ﷺ، فقيَّدنا به المطلقَ.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ﴾؛ أي: ذلك المذكور.

---

(١) انظر: «الأم» للشافعي (٨/ ١٦٠).

(٢) في (ف): «قتيل».

(٣) انظر: «اللباب» للغنيمي (ص: ٦٠٢).

(٤) رواها الطبري في «تفسيره» (٨/ ٦٥٢)، ورواها أيضاً عن أبي بن كعب رضي الله عنهما.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ وأضمر فيه: وحنثتم، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ أضمر فيه: فأفطر، وأجمعوا أنَّه لا يَجِبُ التَّكفيرُ بنفس اليمين ما لم يَحنَث فيها، واختلفوا في جوازه، فأجازه الشافعيُّ بالمال[1]، وأصحابُنا لم يجيزوا ذلك لا بالمال ولا بالصوم.

وقوله تعالى: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ قيل: أي: فلا تنسوها.

وقيل: أي: فلا تَحْنَثوا فيها.

وقيل: أي: فأَقِلُّوا منها، واحفظوا أنفسَكم عنها، قال كثير عزة:

قليلُ الألايا حافِظٌ ليَمينه وإن بدرت منه الأليَّةُ برَّتِ[2]

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ أي: كما بيَّنَ حكمَ اليمين، بيَّن سائرِ الأحكام؛ لتَشكروا نعمَهُ ببيانِ ما بكم إليه حاجةٌ.

وقيل: ﴿تَشْكُرُونَ﴾ نعمةَ رفعِ الإثم بيمين اللَّغو، وكان الأوَّلون مأخوذين بها، وكذلك شرَعَ لكم التَّحليل بالكفَّارةِ في اليمين على ما يكونُ الخيرُ في غيرِه، وكذلك رفعَ إثمَ الحنثِ بالكفَّارة، ولم يكن ذلك للأوَّلين.

وقال الإمامُ القشيريُّ رحمه الله: اللَّغوُ عند أهل المعرفةِ: ما يَجري على ألسنتِهم في حال غلباتِ الوجد؛ مِن تجديد العهدِ، وتأكيدِ العقد، فيقول: وحقِّك، لا نظرتُ إلى سواك، ولا قلتُ بغيرِك، ولا حُلْتُ عن عهدِك، وهذا كلُّه عندَهم لغوٌ،

---

(١) انظر: «منهاج الطالبين» (ص: ٥٤٥).

(٢) البيت لكثير عزَّة، وهو في «نقائض جرير والأخطل» (ص: ٤٩)، و«ديوان كثير» (ص: ٣٢٥)، وفيهما: «سبقت» بدل: «بدرت». وسلف البيت عند تفسير الآية (٢٢٤) من سورة البقرة.

وعن[١] شهودِ الأحديَّةِ سهوٌ، ومَن أنت في الرِّفعَة حتَّى تعدمن[٢] نفسَك؟ وأين في الدِّيار ديَّار حتَّى تَقولَ بتركِه ووصله[٣] أو هجره، كلَّا، بل هو الله الواحدُ القهَّار.

وكما أنَّ الكفَّارة الشَّرعيَّةَ؛ إمَّا عتقٌ، وإمَّا إطعامٌ، وإمَّا كسوةٌ؛ فإنْ لم تَستطِع فصيامُ ثلاثةِ أيَّام؛ فكفَّارتهم على موجبِ الإشارةِ؛ إمَّا بذلُ الرُّوح بحكمِ الوَجْدِ، أو بذلُ القلبِ بصحَّةِ القصدِ، أو بذلُ النَّفسِ بدوامِ الجهدِ؛ فإنْ عجزتَ فإمساكٌ وصيامٌ عن المناهي والآثام[٤].

***

(٨٩) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ﴾ ذكرَ أوَّلاً النَّهيَ عن تحريمِ الطيِّبات، ثمَّ نَهى في هذه الآية عن تناول غيرِ الطَّيِّبات[٥]، ومنها الخمرُ، وقد ذكرنا تفسيرَها ومأخذَها والاختلافَ فيها في سورة البقرة[٦].

وقال سعد بن أبي وقاص: نزلت فيَّ أربع آيات:

إحداها: أنِّي وجدتُ سيفاً يوم بدرٍ، فأخذتُه وأتيتُ رسولَ الله ﷺ وقلتُ: نفِّلنيهِ

---

(١) في (ر): «وعند».

(٢) في «لطائف الإشارات»: «تعدم» بدل: «تعدمن».

(٣) بعدها في (ف): «أو قربه».

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٤٥).

(٥) قوله: «عن تناول غير الطيبات» ليس في (أ)، ومن قوله: «ثم نهى في هذه الآية» إلى هنا ليس في (ف).

(٦) عند تفسير الآية (٢١٩) منها.

يا رسول الله، فقال: «ضعهُ حيث وجدتَه»، فأعدتُ السُّؤال، حتَّى فَعلتُ ذلك ثلاثاً، فنزل قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ١].

والثانية: كنت مريضاً، فعادَني رسولُ الله ﷺ، فقلت: يا رسولَ الله، أأوصي بجميع مالي؟ فقال: «لا»، فقلت: أأوصي بثلُثَي مالي؟ فقال: «لا»، فقلت: أأوصي بثلُثِ مالي؟ فسكتَ، فنزلَ قولُه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ إلى قوله: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ١٨٠]، وهو الثُّلُث.

والثالثة: قالتْ أمِّي: أليسَ قد أمرَ اللهُ تعالى ببرِّ الوالدين، فوالله لا أَطعمُ طعاماً، ولا أشربُ شراباً حتَّى أموتَ أو تكفر، فكنَّا إذا أردنا أن نُطعِمها أو نسقيها، شَجَرنا[١] فاها بعصا، فأوجَرناها الطَّعامَ والشَّراب، فنزلت الآية قوله: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ الآية[٢] [لقمان: ١٤].

والرابعة: صنع رجلٌ مِن الأنصارِ طعاماً، فدعانا، فأتيناهُ فأكلناهُ، وشربنا الخمرَ حتَّى سَكِرنا، وأخذنا في الحديثِ، وتفاخرنا بالأحساب، فقالت الأنصارُ: نحن أفضلُ منكم، وقالت قريشٌ: نحن أفضلُ منكم، فأخذ رجلٌ مِن الأنصار بلَحْيِ جزورٍ، فضربَ أنفي ففَزَرَهُ، فأنزلَ اللهُ تعالى هذه الآية[٣].

وقد ذكرنا ترتيبَ نزولِ آياتِ الخمرِ في سورة البقرة[٤].

---

(١) في النسخ: «شجونا»، والمثبت هو الصوب، شجروا فاها؛ أي: أدخلوا في شَجْره عوداً حتى يفتحوه به. انظر: «النهاية» لابن الأثير (مادة: شجر).

(٢) في (ر) و(ف): ﴿حسناً﴾ إلى قوله: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ بدل قوله: «وهنا على وهن الآية».

(٣) رواه أحمد في «مسنده» (١٥٦٧)، ومسلم في «صحيحه» (٤/ ١٨٧٧ ـ ١٨٧٨) (١٧٤٨): (٤٣).

(٤) عند تفسير الآية (٢١٩) منها.

وقال أنس رضي الله عنه: كنت مع جماعةٍ؛ منهم أبو عبيدة بنُ الجرَّاح، وأبيُّ بنُ كعب، وسهيلُ بن بيضاء[١]، وأبو دجانة، وغيرهم، في دار أبي طلحةَ الأنصاريِّ رضي الله عنهم، وكنت أنا ساقيهم، وهم يَشربون الخمرَ، فمرَّ علينا رجلٌ، فقال: إنَّ الخمر قد حُرِّمت، فوالله ما توقَّفوا[٢] حتَّى قالوا: أهْرِق ما في إنائكَ يا أنس، فأهرقتُه، ثمَّ ما عادوا فيها حتَّى لقوا الله عزَّ وجلَّ[٣].

ولـمَّا نَزلت الآيةُ، وفي آخرها: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾، قالوا: قد انتهينا، فقال النبيُّ ﷺ عند ذلك: «أيُّها النَّاسُ، إنَّ اللهَ قد حرَّمَ الخمرَ، فمَن كان عنده منها شيءٌ فلا يَبعْها ولا يَشربْها»[٤].

وقال أنس رضي الله عنه: فأراقوها حتى كانت أنهار المدينة تجري بالخمر[٥].

وقال أنس رضي الله عنه: قَدِمَت لحمزة روايا خمرٍ مِن الشَّام، فقيل له: أشعرتَ أنَّ اللهَ تعالى أنزلَ تحريمَ الخمرِ، قال: سمعاً وطاعةً، فقال النَّبيُّ ﷺ لأصحابه: «قوموا»، فقام أبو بكرٍ وعمرُ وعثمانُ رضي الله عنهم، فدخلوا على حمزةَ، ومع رسول الله ﷺ عَنَزَةٌ[٦]، فقال النبيُّ ﷺ: «يا حمزةُ، أين الرَّوايا؟» قال: هذه يا رسولَ الله، قال: «خلِّني حتَّى أشقَّها»، قال حمزة: لا تَشقَّها، ودَعني أردها إلى الشَّام، فقال:

---

(١) في (أ) و(ر): «وسهيل البيضاء»، و(ف): «وسهل البيضاء»، والمثبت من المصادر، انظر ترجمة سهيل في «الاستيعاب» (٢/ ٦٦٧ ـ ٦٦٨).

(٢) في (أ): «توافقوا».

(٣) رواه أحمد في «المسند» (١٢٨٦٩)، وأصله عند البخاري (٤٦٢٠)، ومسلم (١٩٨٠).

(٤) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٢٠١) (٦٧٧٠).

(٥) رواه البخاري (٤٦٢٠)، ومسلم (١٩٨٠) بلفظ: «فجرت في سكك المدينة».

(٦) العنـزة: أطـول من العصـا، وأقصر من الرمح، وفيـه زجٌّ (يعني: حديدة) كـزجِّ الرمح. «الصحاح»: (عنز).

«لا، إنَّ اللهَ تعالى لعنَ حاملَ الخمرِ، وغارِسَها لا يَغرِسُها إلَّا للخمرِ، ولعنَ مُجتَنيها، وحاملَها إلى المعصرةِ، وعاصرَها، وشاربَها، وبائعَها، ومديرَها، وآكلَ ثمنِها»(١).

وقوله: ﴿وَٱلۡمَيۡسِرُ﴾؛ أي: القِمار، وأصلُه الجَزور، وقد يَسَرَ الجزورَ(٢)؛ أي: جزَّأَهُ أجزاءً، ثمَّ يُقالُ للضَّاربين بالقِداح والمتقامرين على الجزور: ياسرون؛ لأنَّهم جازرون، ثمَّ يُقال للنرد: ميسِر؛ على التَّشبيه، أو لأنَّه قمارٌ كذلك.

وقال ابنُ عباس رضي الله عنهما: الميسرُ: القِمارُ كلُّه، حتَّى لعبُ الصِّبيانِ بالجوزِ والكِعاب(٣).

وفي «التأويلات»: قال النَّبيُّ ﷺ: «اجتنبوا هذا الكِعابَ(٤) الموسومةَ التي يُزجَرُ بها زَجْراً؛ فإنَّها مِن الميسِر»(٥).

---

(١) روى نحوه أبو داود الطيالسي في «مسنده» (٢٠٦٩)، ومن طريقه البيهقي في «شعب الإيمان» (٥١٨١) لكن من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، ولم يصرح فيه باسم حمزة رضي الله عنه. وفي إسناده محمد بن أبي حميد الأنصاري، وهو ضعيف، كما في «ميزان الاعتدال» (١/ ٥٤٢)، (٤/ ١٠٣)، وأبو توبة المصري، وهو مجهول، قال الحافظ ابن حجر في «لسان الميزان» (٩/ ٣٤): وفي حديثه، عن ابن عمر في لعن شارب الخمر زيادةٌ منكرةٌ، فقال فيه: «ولعن غارسها»، والراوي عنه ضعيف. انتهى كلام الحافظ رحمه الله.

(٢) «وقد يسر الجزور»: سقط من (ف).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٣/ ٦٧٤) من قول مجاهد وسعيد بن جبير. وأخرج عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: الميسر: القمار، كان الرجلُ في الجاهليَّة يُخاطِر على أهله وماله، فأيُّهما قمرَ صاحبَه، ذهبَ بأهلِه ومالِه.

(٤) في (ف): «الكعبان».

(٥) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤٢٦٣)، والطبراني كما في «مجمع الزوائد»: (٨/ ١١٣)، قال الهيثمي: رواه أحمد والطبراني، ورجال الطبراني رجال الصحيح. اهـ. وأخرجه موقوفاً على ابن =

وقال النَّبيُّ ﷺ: «مَن لعبَ بالنَّرد فقد عصى اللهَ ورسولَه»(١).

وقال عليٌّ رضي الله عنه: لأنْ آخذَ جمرتَين مِن نارٍ، فأقلبَهما في يدي؛ أحبُّ إليَّ مِن أنْ أقَلِّبَ كَعبتين(٢).

وقال عليٌّ رضي الله عنه: الشَّطرنجُ مَيسِرُ الأعاجم(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَنصَابُ﴾؛ أي: الأصنام؛ لأنَّها كانت تُنصَبُ، فتُعبَدُ مِن دونِ الله، وقد بيَّنَّا أصلَه في أوَّل هذه السُّورة(٤).

وقولُه تعالى: ﴿وَٱلۡأَزۡلَٰمُ﴾ جمع زلَم، وزلم بضمِّ الزَّاي وفتحِها.

قال صاحب «الغريبين»: هي قِداحٌ كانت زُلِمَتْ؛ أي: سُوِّيَت، وأُخِذَ من حُروفِها، وكانت لقريشٍ وغيرِها، مكتوبٌ عليها الأمْرُ والنَّهيُ، وكانت تُجعَلُ في وعاءٍ، فإذا أرادَ الرَّجلُ سفراً أو حاجةً، أدخلَ يدَهُ، فأخرجَ منها زلماً؛ فإنْ خرج الآمِرُ مضى لطِيَّتِه(٥)، وإن خرجَ النَّاهي كفَّ وانصرف(٦).

= مسعود عبدُ الرزاق في «تفسيره»: (٢٥٧)، والطبري: (٣/ ٦٧١)، وابن أبي حاتم: (٤/ ١١٩٦) (٦٧٤٦) وغيرهم، وصحح الدارقطني في «العلل»: (٥/ ٣١٥) الموقوف.

(١) رواه أبو داود في «سننه» (٤٩٣٨)، وابن ماجه (٣٧٦٢) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٢) في (ر): «كعبين»، وفي (ف): «الكعبين» والأثر رواه ابن أبي شيبة (٢٦١٥٦).

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٣/ ٦٠٢)، والخبر رواه عبد بن حميد كما في «الدر المنثور» (٥/ ٤٧٤).

(٤) عند تفسير الآية (٣).

(٥) أي: لنيته. انظر: «الصحاح» (مادة: طوى).

(٦) انظر: «الغريبين» للهروي (٣/ ٨٢٩) (مادة: زلم).

وقوله تعالى: ﴿رِجْسٌ﴾؛ أي: نَجَسٌ.

وقيل: أي: مستقذَرٌ، ووحّدَ، وهو صفةُ الجمعِ؛ لأنَّه على صيغةِ المصدر.

وقيل: أي: قبيحٌ.

وقيل: أي: إثم.

وقيل: أي سببُ عذابٍ، قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٠٠]، قيل: هو اللَّعنةُ في الدُّنيا، والعذابُ في الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾؛ أي: مما[1] يزيِّنُه ويُحسِّنُه، مع قبحِ عاقبتِه، كما قال في قصة موسى: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [القصص: ١٥]، يقول: هذه الأشياءُ ﴿رِجْسٌ﴾؛ أي: ممَّا ينبغي أن يُستقذَرَ ويُجتَنَبَ، وهو ممَّا يَدعو إليه الشَّيطانُ ويُحسِّنُه في الحال، ويُخفي قبحَه في المآل.

وقوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾؛ أي: كونوا مِن هذا الرِّجسِ بجانب، ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾؛ أي: على الرَّجاءِ للفوز والفلاح.

* * *

(٩١) ـ ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ فـ ﴿ٱلْعَدَٰوَةَ﴾: ما يُفضي إلى التَّعدِّي بالفعل، و﴿وَٱلْبَغْضَآءَ﴾: ما يَتمكَّن[2] مِن البُغض في القلبِ.

وقوله تعال: ﴿فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾؛ أي: في استعمالِهما.

---

(١) في (أ): «ما».

(٢) في (أ): «يمكن».

وقوله تعالى: ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾؛ أي: يَمنعَكُم عن ذلك، فمِن إيقاع العداوةِ والبغضاء ما رَوينا في حديث سعد بن أبي وقَّاص وضَرْبِ الأنصاريِّ أنفَه(١).

ورويَ أنَّ قبيلتين مِن الأنصارِ شَرِبوا حتَّى ثَمِلوا، فعبثَ بعضُهم ببعضٍ، فلمَّا أفاقوا رأوا الآثارَ في وجوهِهم ولحاهُم، فقال بعضُهم: لو لم يَكن لفلانٍ عليَّ ضغنٌ، لما فعل بي هذا، وقال آخرون: مثلَ ذلك، حتى كادَ يَهيجُ بينهم هَيْجٌ، فنَزلت الآيةُ(٢).

وقال قتادة: كان الرَّجلُ في الجاهليَّةِ يُقامر على أهلِه وماله، فيبقى حزيناً(٣) سليباً، يَنظرُ إلى مالِهِ في يد غيرِه، فكان يَقعُ بينهم عداوةٌ وبغضاءُ، فنزلَتِ الآيةُ في ذلك(٤).

وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ استفهامٌ بمعنى الأمر؛ أي: انتهوا، دلَّتِ الآية على تحريم الخمرِ قطعاً من عشرة أوجه:

أحدُها: أنَّه قرنَها بالميسِر، وذاك حرامٌ، فكذا ما قرنَ به.

والثَّاني: أنَّه قرنَها بالأنْصابِ، وهي كذلك.

والثَّالث: أنَّه قرنَها بالأزلام، وهي كذلك.

---

(١) سلف قريباً عند تفسير الآية (٩٠) من هذه السورة.

(٢) أخرجه النسائي في «الكبرى» (١١٠٨٦)، والطبري في «تفسيره» (٨/ ٦٦٠ ـ ٦٦١) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) في (ف) و«ذم الملاهي» لابن أبي الدنيا، «تفسير الطبري»، و«الدر المنثور» (٥/ ٤٧٧): «حزيناً»، والمثبت من (أ) و(ر)، وهو الذي رجحه العلامة محمود شاكر ـ رحمه الله ـ في تعليقه على «تفسير الطبري» (١٠/ ٥٧٣)، فقال: حرب الرجل ماله، فهو محروب وحريب: إذا أخذ حريبته، وهو ماله الذي يعيش به، وتركه بلا شيء.

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في «ذم الملاهي» (١١٣)، والطبري في «تفسيره» (٨/ ٦٦٢).

والرَّابع: أنَّه قال: ﴿رِجْسٌ﴾.

والخامس: أنَّه قال: ﴿مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾.

والسَّادس: أنَّه قال: ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ أمرٌ به وهو للإيجاب.

والسَّابع: أنَّه وعدَ الفلاحَ على ذلك، وإنَّما يُدرَكُ الفلاحُ باجتناب الحرام.

والثَّامن: أنَّه قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ وما يُؤدِّي إلى ذلك فهو حرامٌ.

والتَّاسع: أنَّه يَصُدُّ عن ذكرِ الله تعالى وعن الصَّلاة، وذلك حرامٌ.

والعاشر: أنَّه أمرَ بالانتهاء عن ذلك، وإنَّما يَجبُ الانتهاءُ عمَّا هو حرامٌ، ونظيرُ قوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ قولُه: ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾[1] [الأنبياء: ٨٠]، ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٤].

وقال الإمام القشيريُّ رحمَه الله: الخمرُ حرامٌ؛ لأنَّها تُزيلُ العقلَ، وتُورِدُ السُّكْرَ، ومَنْ سَكِرَ مِن خمرِ الغفلةِ فسُكرُه أصعبُ مِن سُكْرِ مَن شَرِبَ الخمرَ، وشربُ الخمرِ يُوجِبُ الحدَّ، وخمرُ الغفلةِ يُوجِبُ البُعدَ، ومَن سَكِرَ مِن الخمرِ فهو ممنوعٌ عن الصَّلاة، ومن سَكِرَ مِن الغفلةِ فهو محرومٌ عن الصِّلَات، وكما أنَّ السَّكرانَ لا يُقامُ عليه الحدُّ ما لم يفق، فالغافلُ لا يَنجعُ فيه الوَعْظُ ما لم يَنتبِه، وكما أنَّ الخمرَ سببُ كلِّ صغرٍ وذِلَّةٍ، فالغَفلةُ سببُ كلِّ بُعد وحَجْبةٍ[2].

***

---

(١) «قوله فهل أنتم»: زيادة من (أ).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٤٦).

(٩٢) - ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾؛ أي: في تحريمِ الخَمْرِ والميسرِ ونحوِهما[١]، ولا تُطيعوا الشَّيطانَ في شيءٍ،

وقوله تعالى: ﴿وَاحْذَرُوا﴾؛ أي: عقابَهُ في مخالفتِه.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: كلَّما كان العبدُ أعْرَفَ بربِّه، كان أخْوَفَ مِن ربِّه، وإنَّما يَنتفي الحذرُ عن العبدِ عند تَحقُّقِ الوعدِ بقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ﴾ [الأنعام: ٨٢]، وذلك عند دخولِ الجنَّةِ[٢].

وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾؛ أي: قال: فإنْ أعرضتُم فقد قامَت عليكم الحُجَّةُ بإبلاغِ الرَّسولِ ذلك، وبَرِئ الرَّسولُ عمَّا كان عليه، ولا يَملِكُ هو مِن أمرِكم[٣] إلَّا التبليغُ الظَّاهر، ثمَّ الحكمُ لله في إثابة المطيعين ومعاقبة العاصين، فاحذَروا نزولَ عِقابه، وحلولَ عذابِه، وهو أبلغُ وعيدٍ وتهديد.

* * *

(٩٣) - ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾؛ أي: ذاقوا مِن الخمر، كما في قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [البقرة: ٢٤٩].

---

(١) في (ف): «وغيرهما»، وليست في (ر).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٤٧).

(٣) في (ف): «من أموركم» بدل من «هو من أمركم».

قال مقاتل: لـمَّا نَزلَت الآيةُ في تحريمِ الخمر، قال حُيَيُّ بنُ أخطب: فما حالُ مَن ماتَ مِنكم وهم يَشربونها، فذكر المسلمون ذلك لرسولِ الله ﷺ، وقالوا: إخواننا ماتوا وقتلوا وهم يشربونَها، فأنزل اللهُ هذه الآية[١].

وقال ابنُ كيسان: لـمَّا نزلَ تحريمُ الخمر، قال أبو بكر الصِّدِّيقُ رضي الله عنه: يا رسول الله، كيف بإخوانِنا الذين ماتوا وقد شَربوا الخمرَ، وأكلوا القمار؟ وكيف بالغائبين عنَّا في البلدان، لا يَشعرون أنَّ اللهَ تعالى حرَّم الخمرَ، وهم يَطعَمونها؟ فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مِن الأموات والأحياء في البلدان إثمٌ ﴿فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾ من الخمرِ والقِمار[٢].

وقوله تعالى: ﴿إِذَا مَا ٱتَّقَواْ﴾[٣] ما حرَّم الله عليهم سواهما، وقيل: اتَّقوا الشِّركَ، ﴿وَّءَامَنُواْ﴾ بالله ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ في إيمانهم، ﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ﴾ يعني: الأحياءَ في البلدان الخمرَ والقِمار إذا جاءَهم تحريمُها، ﴿وَّءَامَنُواْ﴾ صدَّقوا بتحريمها، ﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ﴾ ما يُحرَّمُ عليهم بعد هذا بنصٍّ يَرِدُ في التحريم لبعض ما أُحِلَّ لهم، ﴿وَّأَحْسَنُواْ﴾ فيما تعبَّدهم الله به، ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فهذا معنى الأمر بالتَّقوى ثلاثاً في هذه الآية.

وقال بعضُ أهل المعرفة: ﴿إِذَا مَا ٱتَّقَواْ﴾؛ أي: الشِّركَ، ﴿وَّءَامَنُواْ﴾ بالله وحدَهُ، ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ﴾ في أعمالِهم الصَّالحة عن شهودِ الخَلْق، ﴿وَّءَامَنُواْ﴾ بأنَّ اللهَ يَعلمُ السِّرَّ والعلانيةَ، ﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ﴾ إعجابَ النَّفسِ؛ ليتحقق بذلك منهم الإحسان، ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٥٠٢ ـ ٥٠٣).

(٢) انظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٧/ ٥١٥).

(٣) بعدها في (ف): «وآمنوا أي اتقوا».

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: اتَّقى الشِّركَ فعرفَ، ثمَّ اتَّقى الحرامَ فانصرف، ثمَّ اتَّقى الشُّحَّ فآثرَ وما أسرفَ.

وقال: **الأوَّلُ** للعوامِّ؛ ﴿اتَّقَوا﴾ الشِّركَ والمعاصي، ﴿وَءَامَنُوا﴾ بأنَّ الأمرَ[1] والنَّهي لله، **والثاني** للخواصِّ؛ ﴿اتَّقَوا﴾ المنعَ، ﴿وَءَامَنُوا﴾ بالخلف؛ أي: الله يُخلِفُ[2]، **والثَّالثُ**: لأشرافِ الخواصِّ، ﴿اتَّقَوا﴾ شهودَ الخلق، ﴿وَأَحْسَنُوا﴾ العملَ لله، فالإحسانُ أنْ تَعبدَ الله كأنَّك تَراه[3]، ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ أعمالاً، والمحسنين أحوالاً، والمحسنين آمالاً[4].

قال ابنُ جريج: إنَّ أبا عبيدة كان بالشام، فوجدَ أبا جندل بنَ سُهيل بنِ عمرو، وضرارَ بنَ الخطَّابِ المحاربيَّ، وأبا الأزور، وهم مِن أصحابِ رسولِ الله ﷺ قد شَرِبوا الخمرَ، فقال أبو جندل: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾، فكتب أبو عبيدة إلى عمرَ: إنَّ أبا جندلٍ خاصَمني بهذه الآية، فكتب عمرُ: إنَّ الذي زَيَّن لأبي جندلٍ الخَطيئةَ هو الذي زيَّنَ له الخصومةَ، فاحددهم، فقال أبو الأزور: أتَحدُّنا؟! قال: نعم، قال: فدعْنا نَلقى العدوَّ غداً، فإنْ قُتلنا فذاك، وإن رَجعنا إليك تَحدُّنا[5]، فلقوا العدوَّ، فاستُشهِدَ أبو الأزور، وحُدَّ الآخران، وكتب عمرُ إلى أبي جندل: إنَّ الذي زيَّن لكَ الخطيئةَ، حظرَ عليك التَّوبةَ: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ

---

(١) في (ف): «بالأمر» بدل من «بأن الأمر».

(٢) قوله: «أي الله يخلف» من (ف).

(٣) رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه مسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٤٤٦ ـ ٤٤٧).

(٥) بعدها في (ر): «قال: نعم».

﴿ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ [غافر: ٢][1].

***

(٩٤) - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ﴾ لمَّا قال: ﴿لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْ﴾ فقد أمرَهُم أنْ يَقتصِروا فيما يأكلونَه، أو لا يأكلونَهُ[2] على ما حَرَّمَ الله تعالى وأحلَّ، ثمَّ بيَّن أنَّ مِن المحرَّماتِ: الخمرُ، والميسِرُ، وصيدُ البرِّ على المحرِمِ.

وقوله تعالى: ﴿لَيَبۡلُوَنَّكُمُ﴾؛ أي: بالنَّهيِ عن الاصطياد، والبلوى والابتلاء: الاختبارُ، وهو مِن الله تعالى لإظهار ما علمَ مِن العبدِ على ما علم، لا ليَعلمَ ما لم يَعلم، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً.

وقوله تعالى: ﴿بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ﴾ وهو للتبعيض فإنَّ الـمُحَرَّم هو صيْدُ البرِّ دون صيْدِ البحر، وصيْدُ الإحرامِ دون الإحلال، وصيْدُ الحرمِ دونَ الحِلِّ.

وقال الزَّجَّاج: ويجوزُ أن يكون للتَّجنيس، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾ [الحج: ٣٠][3].

وقوله تعالى: ﴿تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ﴾؛ أي: تُصِيبُه.

وقال الكلبيُّ وغيرُه: ﴿تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ﴾ البيضُ والفِراخُ وصغارُ الطَّير بغير سلاح،

---

(١) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (١٧٠٧٨).

(٢) في (ف): «بكونه» بدل: «يأكلونه».

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٢٠٦).

﴿وَرِمَاحُكُمْ﴾ جمع رُمْحٍ، وكذا غيره من السِّلاح، وهو كبارُ الطَّيرِ التي لا تُؤخذُ إلا بحيلةٍ، ولا تُصابُ إلَّا بسلاح.

وقوله تعالى: ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾؛ أي: ليعلمَ اللهُ خوفَ الخائف منه بالامتناعِ عن الاصطياد موجوداً، كما كان يَعلمُ قبل وجودِه أنَّه يُوجَد؛ ليُثيبَهُ على عملِه، لا على علمه فيه، وهو أيضاً يَقتضي ضدَّهُ؛ أي: وليظهرَ إقدامُ مَن لا يَخافُه على الاصطيادِ، فيعاقبَهُ على عملِه، لا على علمِهِ فيه.

وقوله تعالى: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾؛ أي: بالاستدلال، دونَ العلمِ الضَّروري الواقعِ بالعِيان ونحوِه، كما ذكر ذلك في الإيمانِ بالغيب، إذ لا خطرَ للإيمان ولا للخوفِ حالةَ العِيان.

وقيل: معناه: في حالة الغيبةِ عن النَّاس، وهو الخوفُ الحقيقيُّ دون ما يَظهرُ مِنه عند رؤيةِ النَّاس؛ فإنَّه يكون مُراءاةً لا حقيقة لها، كعمل المنافقين.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: اصطادَ بعد هذا الابتلاء؛ وهو النهيُ والبيان.

وقوله تعالى: ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: يُضْرَبُ على ظهرِه وبطنِه وتُنزَعُ ثيابُه(١).

واسمُ العذابِ يَقع على الضَّرب في الدُّنيا، قال تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢]، وقال تعالى: ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [النمل: ٢١].

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٢٠٤) (٦٧٩١).

وقيل: هو العذابُ في الآخرة مع الكفَّارةِ في الدُّنيا إذا لم يتب منه؛ لأنَّ الكفَّارةَ لا تَرفعُ الذَّنْبَ عن المُصِرِّ.

وقال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما والكلبيُّ ومقاتلُ بنُ حيَّان: كان ذلك عام الحُديبية حين انطلقَ رسولُ الله ﷺ معتمراً، فكانَت الوحشُ والطَّيرُ والصَّيدُ تَغشاهُم في رِحالِهم، لم يَروها قطُّ كذلك فيما خلا، فنَهاهُم عن أخذِها وهم مُحرِمون[1].

***

(٩٥) ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞ﴾ هو جمعُ حَرام، وهو الذي أحرمَ بحِجَّةٍ أو عمرةٍ، وهو أيضاً الذي دَخل الحرمَ، والنَّهيُ يَتناولُهما جميعاً، ﴿وَأَنتُمۡ﴾ الواو للحال، نَهى عن قتل الصَّيدِ في هذه الحالة، وهو في الحقيقةِ نهيٌ عن التَّعرُّض للصَّيدِ بكلِّ وجهٍ.

وخصَّ القتلَ بالذِّكر؛ لأنَّه هو معظمُ المقصود في الاصطياد، وسمَّاهُ قتلاً لا ذبحاً؛ لبيان أنَّه وإنْ ذبحَهُ لم يَحِلَّ، كما لو قتَلَهُ، والصَّيدُ أصلُه مصدرٌ، والمرادُ به هاهنا المَصِيد؛ لأنَّ القتلَ إنَّما يكونُ فيه، والمرادُ مِن الصَّيدِ ما يُقصَدُ اصطيادُه، فهو اسمٌ له قبلَ وقوعه فيه باعتبارِ العاقبة، ثمَّ هو اسمٌ للوحشيِّ الممتنعِ بقوائمِه أو جناحَيه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ أوجبَ الجزاءَ في

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٢٠٤) (٦٧٨٩) عن مقاتل بن حيان.

قتلِ كلِّ صيدٍ، فيَدخلُ فيه عندنا ما يُؤكلُ لحمُه وما لا يُؤكَلُ لحمُه، إلَّا الخمسَ الفواسِقَ المستثناةَ في الخبر، وهو قوله ﷺ: «خمسٌ فواسقُ يُقتلن في الحلِّ والحَرَمِ؛ الحيَّةُ، والعقربُ، والفأرةُ، والحدأةُ، والكلبُ العقور»(١)، ويُلْحَقُ بها ما ابتدأَ فعَدا على الآدميِّ، فقتلَهُ ذابًّا عن نفسِه.

وعند الشافعيِّ رحمه الله عنه: إذا قتلَ صيداً غير مأكول اللحمِ لم تَلزمهُ كفَّارتُه(٢)، وحُجَّتُنا فيه: قوله ﷺ: «الضّبع صيدٌ، وفيه كبشٌ إذا قتلَهُ المحرِمِ»(٣).

وإذا قتل الصيدَ متعمِّداً، فعليهِ الجزاءُ بالنَّصِّ، فأمَّا إذا قتلَهُ مخطِئاً، فقد قال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما وعطاءٌ وسالمٌ والقاسمُ ـ وهو مذهب داودَ بنِ عليٍّ ـ: لا شيءَ عليه؛ لأنَّ النَّصَّ في المتعمِّدِ(٤)، وقلنا: التَّنصيصُ لا يَدلُّ على التَّخصيص.

وقال الحسنُ ومجاهد: إنَّما يَجِبُ على مَنْ كان مُتعمِّداً لقتلِ الصَّيدِ، ناسياً لإحرامه(٥)، ولو كان ذاكراً لإحرامِه، فلا جزاءَ عليه في الدُّنيا، بل جزاؤهُ الانتقامُ في الآخرةِ؛ لآخرِ هذه الآية.

وقلنا: النَّصُّ مطلَقٌ، فإنْ كان في ناسي الإحرام فإنَّه في العمدِ يَدلُّ على الوجوبِ

---

(١) رواه البخاري في «صحيحه» (٣٣١٤)، ومسلم (١١٩٨) من حديث عائشة رضي الله عنه.

(٢) انظر: «الأم» للشافعي (٣/ ٤٩٦).

(٣) رواه ابن خزيمة في «صحيحه» (٢٦٤٨)، والدارقطني في «سننه» (٢٥٤١)، والحاكم في «المستدرك» (١٦٦٣) من حديث جابر رضي الله عنه.

(٤) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١٥٢٩٥) عن ابن عباس. وذكره عنه وعن عطاء وسالم والقاسم الجصاصُ في «أحكام القرآن» له (٤/ ١٣٣)، والماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٣/ ٦١٨). وانظر: «المحلى» لابن حزم (٥/ ٢٣٤).

(٥) روى قولهما الطبري في «تفسيره» (٨/ ٦٧٤ ـ ٦٧٦).

بالطَّريق الأَوْلى؛ لأنَّ الكفارةَ لرفعِ الإثم، والإثمُ في العمْدِ أكثرُ، ولا يَرِدُ عليه قتلُ العمدِ أنَّه لا كفَّارة فيه؛ لأنَّ الشَّرعَ أوجبَ القِصاص، وهو أغلظُ مِن الكفَّارة، ولا شيء هاهنا، فلا معنى لمنعِ[(١)] وجوب الكفارة مع تَغلُّظِ الإثم.

وعن إبراهيم النَّخَعيِّ ومجاهدٍ وعطاء أنَّهم قالوا: عمده وخطؤه سواء[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ قرأ عاصمٌ والكسائيُّ وحمزةُ بالتَّنوين، و﴿مِّثْلُ﴾ بالرَّفع. وقرأ الباقونَ على الإضافة؛ بحذف التَّنوين وخفض ﴿مثل﴾[(٣)].

واختلف الفقهاءُ في حكم هذه الآية، ويَختلفُ لذلك تفسيرُ الآية:

قال أبو حنيفة وأبو يوسف رحمهما الله: إذا قتلَ صيداً مأكولَ اللحم قوَّمهُ عدلان لهما بصرٌ في المكان الذي أصابَهُ، ثمَّ الخِيارُ بعد ذلك إلى القاتل، فإنْ بلغَتْ قيمتُه هَدياً؛ فإنْ شاءَ اشترى بها هدياً، فذبحَهُ في الحَرَمِ، فتَصدَّقَ به على الفقراء، وإنْ شاءَ اشترى بها طعاماً فتصدق به على كل فقير بنصف صاع، وإن شاء صامَ مكان كلِّ نصفِ صاعٍ يوماً، إن شاء متتابعاً وإن شاء متفرقاً[(٤)].

وقال محمَّدٌ والشَّافعيُّ رحمهما الله: الخيارُ فيه إلى الحكمَين؛ فإنْ شاءا حَكما عليه بالهَديِ، وإنْ شاءا بالطَّعام، وإنْ شاءا بالصِّيام[(٥)]، فإنْ حَكما بالهَدي أوْجَبا مثلهُ

---

(١) في (أ): «النفي».

(٢) هو قول الجمهور، ونسبه الجصاص في «أحكام القرآن» (٤/ ١٣٣) لعمر وعثمان، ورواية عن الحسن، وإبراهيم، وفقهاء الأمصار، ورواه الطبري في «تفسيره» (٨/ ٦٧٧) عن عطاء والزهري وسعيد بن جبير.

(٣) انظر: «السبعة» لابن المجاهد (ص: ٢٤٨)، و«التيسير» للداني (ص: ١٠٠).

(٤) انظر: «المبسوط» للسرخسي (٤/ ٨٢ ـ ٨٤).

(٥) انظر: «المبسوط» للسرخسي (٤/ ٨٤)، والصواب أن الشافعي قال: إن التخيير للمكفِّر. انظر: =

خلقةً مِن النَّعم الأهليِّ، فيجبُ في حمارِ الوحشِ بقرةٌ، وفي النَّعامةِ جملٌ، وفي الظَّبي شاةٌ، وفي الأرنب عناقٌ أو جَدْيٌ، وفي اليَرْبوع جَفْرة[1]، فإن لم يكن له مثلٌ صورةً، كالحمامةِ والطَّيرِ الآخرِ يُشترى بقيمتِه هديٌ، وإن حكما بالطَّعام أو الصَّوم ـ كما قال أبو حنيفة وأبو يوسف رحمهما الله ـ فصار الاختلافُ في موضعَين، فيمن له الخِيار، وفي معنى المثل، وعن عمر: أنه أوجبَ المثلَ صورةً، وجعل الخيارَ للحكمين.

وروي عن قَبيصةُ بنُ جابر: أنَّه أصاب ظبياً وهو مُحْرِمٌ، فسألَ عمرَ رضي الله عنه، فشاورَ عبدَ الرَّحمن بنَ عوف، ثمَّ أمرَهُ أنْ يَذبحَ شاةً، فقال قَبيصةُ بنُ جابرٍ لصاحبِه: واللهِ ما عَلِمَ أميرُ المؤمنين حتَّى سألَ غيرَهُ، فأقبلَ عمرُ رضيَ الله عنه يَضربُه بالدِّرَّةِ، ويقول: أتغْمَصُ[2] الفُتيا، وتَقتلُ الصَّيدَ وأنت محرم؟! قال الله تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾، فأنا عمرُ وهذا عبدُ الرَّحمن بنُ عوف[3].

ومذهبُ أبي حنيفة وأبي يوسف رحمة الله عليهما مرويٌّ عن ابنِ عبَّاسٍ[4] وجماعةٍ مِن الصَّحابة والتَّابعين، وهو أوفقُ للأصول والمعقول؛ لأنَّ النَّصَّ أوجبَ المِثلَ، والـمِثلُ المطلَقُ في الكتاب والسُّنَّة وإطلاقِ الأمَّة مقيَّدٌ بالصُّورة والمعنى، أو المعنى بلا صورة، فأمَّا الصُّورةُ بلا معنى، فلا، ولأنَّ التَّحكيمَ مع شرطِ العدالةِ لا يَليقُ بمعرفةِ الصُّورة التي لا تحتمِلُ الكذبَ، وإنَّما يَليقُ بمعرفةِ القيمة التي تَتفاوتُ، ولأنَّ القيمةَ مرادةٌ هاهنا في الذي لا مثلَ له صورةً بالإجماع، فلا يبقى غيرُها مراداً؛ لأنَّ الاسمَ المشتركَ لا عمومَ له.

= «الأم» (٣/ ٤٧٩ ـ ٤٨٠).

(١) الجفرة من أولاد المعز. انظر: «مختار الصحاح» (مادة: جفر).

(٢) الغمص: الاستصغار. انظر: «مختار الصحاح» (مادة: غمص).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٨/ ٦٩٠ ـ ٦٩١).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (٨/ ٦٨٣).

فإذا عُرِف هذا، فالتَّفسيرُ الصَّحيحُ على وَفْقِ هذا أن نقول: قوله: ﴿فَجَزَآءٌ﴾ بالتَّنوين؛ أي: فعليه جزاءٌ، **وقوله تعالى**: ﴿مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ هو تفسيرُ الجزاء.

وأمَّا قِراءةُ الإضافة: فمعناه: فعليه جزاءُ مثلِ المقتول، وجزاءُ مثلِهِ وجزاءُ عينِه سواءٌ، والجزاءُ ما يعادلُ الشَّيء ويُقاوِمُه، **وقوله تعالى**: ﴿مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾؛ أي: المقتول مِن النَّعم؛ فإنَّ الصُّيودَ نعمٌ وَحشيَّةٌ، كالنَّعم الأهلية، ولم يُرِد به أنَّ الواجبَ في الجزاءِ مِن النَّعم، كما قال محمَّدٌ والشَّافعيُّ رحمهما الله.

وقوله تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ﴾ أي: بالتَّقويم.

وقوله تعالى: ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا﴾ نُصب بقوله: ﴿فَجَزَآءٌ﴾: أي: يُجزى هدياً، أو حُذف باؤه؛ أي: يُجزَى بهديٍ.

وقوله تعالى: ﴿بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾؛ أي: الحرم، كما قال: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٣٣]؛ لأنَّ عينَ الكعبةِ ليس بمرادٍ[1] بالإجماع؛ لأنَّها تُصانُ عن إراقةِ الدَّمِ فيها، فأُريدَ بها ما حولَها مِن الحَرَمِ الذي له حرمتُها.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾ قرأ نافعٌ وابنُ عامرٍ على الإضافة، وقرأ الباقون بالتَّنوين فيهما[2]، وهو عطفٌ على قوله: ﴿فَجَزَآءٌ﴾؛ أي: فعليه كفَّارةٌ، وهو إطعامُ المساكينِ إنْ شاءَ على[3] ما فسَّرناه.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ و﴿أَوْ﴾ للتَّخيير في هذه الأشياء الثَّلاثةِ، فيَختارُ أيَّها شاءَ.

والعَدلُ: المِثل.

---

(١) في (أ): «غير مرادة».

(٢) انظر: «السبعة» لابن المجاهد (ص: ٢٤٨)، و«التيسير» للداني (ص: ١٠٠).

(٣) بعدها في (ف): «غير».

وقال الفرَّاء: العَدْلُ بالفتح: ما عادلَ الشَّيءَ مِن غيرِ جنسِه، فيَدخلُ فيه الفداءُ والقيمةُ، وعدل الشيء بالكسر: مِثلُه مِن جنسِه، تقول: عندي غلامٌ عِدْلُ غلامِك، فإنْ أردْتَ قيمتَهُ مِن غيرِ جنسِه، فَتَحتَ العين[1].

وقال أبو حاتم: العَدلُ بالفتحِ مصدرٌ، والعِدلُ بالكسرِ اسمٌ.

وقال الكسائيُّ: هما واحدٌ[2]، وقد قُرِئ بهما[3].

وقوله تعالى: ﴿صِيَامًا﴾ نصب على التَّفسير.

قوله تعالى: ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾؛ أي: ثِقَلَ ما جُوزيَ به في بدنِه أو مالِه، وأصلُ الوبال: هو ثقلُ الشَّيء المكروه، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٦]؛ أي: شاقًّا ثقيلاً، ويقال: اسْتَوبَلتُ الطَّعامَ؛ أي: استثقلته، والوبيل: خشبةُ القَصَّار، والعصا الثقيلة.

وقوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾؛ أي: في الجاهلية قبل النَّهي، وقيل: بالكفَّارة وقع العفو.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾؛ أي: فاللهُ يَنتقمُ منه، ولذلك رفعَ ولم يجزم، مع أنَّه جزاء الشَّرط، ومعنى هذا الكلام عند سعيدِ بن جبير وعطاء: أي: مَن عادَ إلى قتلِ الصَّيد بعد ورودِ النَّهي، فاللهُ تعالى يُوجِبُ عليه الجزاءَ بهذه الأشياء[4]، ولا يَعفو عنه[5]، وسمَّاهُ انتقاماً كما سمَّاه وبالاً؛ لأنَّه شاقٌّ.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٣٢٠).

(٢) انظر قول الكسائي في «معاني القرآن» للنحاس (٢/ ٣٦٢).

(٣) نسبها ابن خالويه في «مختصر في شواذ القرآن» (ص: ٤١) للنبي ﷺ وابن عباس رضي الله عنه.

(٤) انظر قولهما في «تفسير الطبري» (٨/ ٧١٥).

(٥) بعدها في (ر): «شيئاً».

وقال داودُ بنُ علي: لا جزاءَ عليه في الثَّانية والثَّالثة؛ لأنَّ اللهَ تعالى أوعدَ عليها الانتقامَ، وهو عقوبةُ الآخرةِ لا غير.

وعند عامَّةِ العلماء: يجبُ فيه الجزاءُ؛ لعمومِ قوله تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا﴾؛ فأمَّا الانتقامُ فقد بيَّنَّا أنَّه يَجوزُ أن يكون عبارةً عن الكفَّارة.

وتأويلٌ آخرُ ذكرَهُ عطاءٌ قال: كانوا يَستحِلُّونَ في الجاهليَّةِ قتلَ الصُّيود في حالةِ الإحرام، فقال الله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ في الجاهليَّة بالإسلام، ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ بعد الإسلام مستحلًّا، فاللهُ عزَّ وجلَّ يَنتقِمُ مِنه في الآخرة(١).

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾؛ أي: منيعٌ لا يُغالَبُ، منتقِمٌ ممَّن خالفَه لا يُعارَضُ.

وقال الإمام القشيريُّ رحمَهُ الله: حرَّمَ اللهُ تعالى الصَّيدَ على الـمُحرمِ الذي قصدَ زيارةَ البيتِ، والإشارةُ فيه أنَّ مَنْ قصد بيتَنا فيَنبغي أن يكونَ للصَّيدِ منه أمانٌ، ولا يَتأذَّى به حيوانٌ؛ فإنَّ البرَّ مَن لا يُؤذي الذَّرَّ، ولا يُضمِرُ الشَّرَّ، وكما أنَّ الصَّيدَ حرامٌ على المحرمِ إلى أن يَتحلَّلَ، فكذلك الطَّلبُ والطَّمعُ والاختيارُ حرامٌ على العارفِ ما دام مُحْرِماً بقلبِه، فإذا قَتلَ الصَّيدَ فعليه الكفَّارةُ، وإذا لاحظَ العارفُ الأغيارَ، أو طمعَ في شيءٍ، أو اختار، لزمَتْهُ الكفَّارةُ، لكن لا يُكْتَفى منه بجزاءِ المثلِ، ولا بأضعافِ ما تَصرَّف فيه، لكنَّ كفَّارتَه تَجرُّدَه عن كلِّ خيرٍ؛ قلَّ أو كثُرَ، صغُر أو كبُر(٢).

(٩٦) ـ ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾ وهو ما يُولَد ويَنشأ في الماء، والبَطُّ والنُّحام(٣)

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٨/ ٧١٣ ـ ٧١٤).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٤٨ ـ ٤٤٩).

(٣) في (ر) و(ف): «اللحام»، وهو تحريف. والنُّحام بضم النون طائر كالإوز. انظر: «القاموس المحيط» (مادة: نحم).

لا يَدخلان فيه؛ لأنَّهما يُولدان في البرِّ، والبَحرُ لهما مرعى، كما هو للنَّاس متجر[١].

وقوله تعالى: ﴿وَطَعَامُهُۥ﴾ رويَ عن أبي بكرٍ وعمرَ وابنِ عبَّاسٍ وابنِ عمر وقتادة رضي الله عليهم: أنَّ الطَّعامَ ما قذفَهُ البحرُ[٢].

ومِنهم مَنْ أحلَّ الطَّافي لظاهرِ هذا التَّفسير، ولا يَستقيمُ ذلك؛ فإنَّ الأحاديثَ وردَت في تَحريمِه، وهذا فيما قذفَ فماتَ بآفةٍ[٣].

وعن ابن عباسٍ في روايةٍ أُخرى: الصَّيدُ هو الطَّريُّ منه[٤]، والطَّعامُ هو المملَّحُ منه، ويَدلُّ عليه ما بعدَهُ، وهو قولُه: ﴿مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِلسَّيَّارَةِۖ﴾؛ أي: للعيرِ وهم القومُ المسافرون، **وقوله تعالى**: ﴿مَتَٰعٗا لَّكُمۡ﴾؛ أي: متعةً ومنفعةً، والطَّري منه منفعةٌ للحاضرين، والمملَّحُ مِنه للمسافرين، ثمَّ هذا يَقعُ على السَّمك[٥] خاصَّة.

وعند الشَّافعيِّ رحمه الله: كلُّ حيوانٍ في البحرِ فهو حلالٌ[٦] لإطلاقِ هذا النصّ، ولما روى جابرُ بنُ عبد الله قال: بعثَنا رسولُ الله ﷺ في سريَّةٍ، وأمَّرَ علينا أبا عبيدة بنَ الجرَّاح، نَتلقَّى عِيراً لقُريش، وزوَّدنا جِراباً مِن تمرٍ، وكان أبو عبيدة رضي الله عنه يُعطينا تمرةً تمرة، فكنَّا نَمَصُّها كما يَمَصُّ الصَّبيُّ، ثمَّ نشربُ عليها الماءَ، فيَكفينا يوماً إلى اللَّيل، فأصَبنا على ساحلِ البحرِ كهيئةِ الكثيبِ الضَّخم دابَّةً ميتةً تُدعى العنبر، فقال أبو عبيدة: نحن رُسُل رسولِ الله ﷺ، وفي سبيلِ الله، وقد اضْطُرِرتُم فكُلوا، فأَقمنا عليها شهراً، ونحن ثلاث مئةٍ، حتَّى سمِنَّا، ولقد رأيتُنا نَغترِفُ مِنْ وَقبِ عينِها

---

(١) كذا في النسخ، ولعل صوابها: «متجر».

(٢) روى أقوالهم الطبري في «تفسيره» (٨/ ٧٢٦ ـ ٧٣٠).

(٣) مذهب أبي حنيفة تحريم السمك الطافي. وانظر الخلاف حول ذلك في «تفسير القرطبي» (٨/ ٢١٠ ـ ٢١٣).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (٨/ ٧٢٣، ٧٣١).

(٥) في (ف): «المسافرين».

(٦) انظر: «روضة الطالبين» للنووي (٣/ ١٤٧).

بالقِلال الدُّهنَ، ونَقطعُ مِنها الفِدَرَ كالثَّور، ولقد أخذَ أبو عبيدة منَّا ثلاثةَ عشرَ رجلاً، فأقعدَهُم في وَقْبِ عينها، وأخذ ضِلْعاً من أضلاعِها، فأقامها، ثمَّ رَحَّل أعظمَ بعيرٍ لنا، فمرَّ تحتَها، فتَزوَّدنا مِن لحمها وشائق، فلمَّا قَدِمنا المدينةَ، أتينا رسولَ الله ﷺ، فذكَرنا ذلك له، فقال: «هو رِزقٌ أخرجهُ اللهُ لكم، فهل معكم مِن لحمِها شيءٌ»، فأرسَلنا إلى رسولِ الله ﷺ شيئاً مِنهُ، فأكله(١).

وقلنا: هذا نوعٌ مِن السَّمك، وهو أنواع.

وقال الإمامُ القشيريُّ رحمه الله: حكمُ البحر بخلافِ حكم البرِّ، وإذا غَرِقَ العبدُ في بحارِ الحقائق، سقطَ حكمُه، فصيدُ البحرِ مباحٌ له؛ لأنَّه إذا غرقَ صار محواً، فما دفع إليه ليس منه ولا به؛ إذ هو محوٌ في نفسه، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ [يوسف: ٢١](٢).

وقوله تعالى: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَرِّ مَا دُمۡتُمۡ حُرُمٗا﴾ فمنهم مَن حملَهُ على لحمِ صيدِ البرِّ مطلقاً حالةَ الإحرام، وإن لم يكن صادَهُ محرِمٌ، وعندنا هذا على الاصطياد والنَّهي عنه، فأمَّا ما صاده حلالٌ فلا بأسَ بأكلِه للمحرِم، وحديثُ أبي قتادة فيه مشهورٌ: قال جابرٌ رضي الله عنه: عقرَ أبو قتادةَ حمارَ وحشٍ، ونحن محرمون وهو حلال، فأكلنا معه، ومعنا رسولُ الله ﷺ(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: إنَّ بني مدلج أتوا رسولَ الله ﷺ، فقالوا: يا رسولَ الله، إنَّا نتكلَّفُ الصَّيدَ،

---

(١) رواه مسلم في «صحيحه» (١٩٣٥). والوقب: داخل عين الحوت. والقلال جمع قُلة، وهي الجرة الكبيرة التي يُقِلُّها الرجلُ بين يديه؛ أي: يَحملُها، والفِدَرُ: القطع. والوشائق: هو اللحم يؤخذ فيغلى إغلاء ولا ينضج، ويحمل في الأسفار. انظر: «شرح صحيح مسلم» للنووي (١٣/ ٨٧ ـ ٨٨).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٤٩).

(٣) رواه من حديث جابر أبو عوانة في «مستخرجه» (٧٦٣٥)، وروى نحوه البخاري في «صحيحه» (١٨٢٢)، ومسلم (١١٩٦) من حديث أبي قتادة رضي الله عنه.

فنصطادُ مِن صيد البحر، وربَّما مدَّ البحرُ حتَّى يعلوَ الماءُ كلَّ شيءٍ، ثمَّ يرجعُ، ويَبقى السَّمكُ بالأرضِ، ويذهبُ الماء عنه، فنصيبُه ميتاً فنأكلُه، فحلالٌ لنا أكله؟ فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ﴾ ما حسرَ عنهُ الماءُ وألقاه[1].

ولفظة ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ﴾ يقول: منفعة لكم ﴿وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ المسافرين، ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾؛ أي: في الاصطياد في الحرم والإحرام، ﴿ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ تُبعَثون فيَجزيكم بأعمالِكم.

***

(٩٧) ـ ﴿۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ لـمَّا حرَّمَ الاصطيادَ في الحرم والإحرام، وكان ذلك لحرمةِ البيتِ الحرامِ، عقَّبهُ ذكرَه.

والكعبة سُمِّيَت بها لتكعُّبها؛ أي: لتربُّعِها، قاله مجاهدٌ وعكرمة رحمة الله عليهما[2].

وقيل: لكُعوبها؛ أي: لنتوئها، من قولهم: جاريةٌ كاعِبٌ، إذا نتأَ ثدياها.

وقيل: لشرفها، مِن قولهم: أعلا اللهُ تعالى كعبَه؛ أي: شَرَفَهُ، وهو مِن كعب القناة، وهو أنبوبُها، وتكعُّبها[3]: علوُّها وارتفاعُها.

وقوله: ﴿ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ ترجمةٌ وبدلٌ عنها، والقِيامُ: العِماد والـمِلَاكُ، وكذلك القِوام، وهو ما يَستقيمُ به الشَّيء.

---

(١) لم أقف عليه عن ابن عباس، وأورده القدوري في «التجريد» (١٢/ ٦٣٦٣) (٣١٣٧٤) من قول أبي السائب.

(٢) روى قوليهما الطبري في «تفسيره» (٩/ ٥ ـ ٦).

(٣) في (أ) و(ر): «وبكعوبها».

وقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ﴾ هذا جنسٌ أريدَ به الجمعُ، وهو الأربعةُ الأشهر الحُرُم؛ رجب، وذو القَعدة، وذو الحِجَّة، والمحرَّم.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡهَدۡيَ وَٱلۡقَلَٰٓئِدَ﴾ فسَّرناهُما في أوَّلِ هذه السورة(١)، يقول: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ﴾ في حكمِه وشرعِه على ألسنةِ أنبيائه ﴿ٱلۡكَعۡبَةَ﴾ قِواماً لأمورِ النَّاس، ونِظاماً لها، وكذلك جعل الأشهرَ الحُرُمَ والهديَ والقلائدَ التي تُوجَّه(٢) إلى الكعبة، يأمنون بقصدِ الكعبةِ، ودخولِ هذه الأشهُر، وتوجيهِ الهدايا إلى مكَّة شرَّ كلِّ ذي شرٍّ.

ويَحتمِلُ قوله: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ﴾؛ أي: جَبَلَ القلوبَ على ذلك، وجمعَهُم عليه.

وقال مجاهد(٣): جعلَها اللهُ ﴿قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ﴾ حين لا يَرجون جنَّةً، ولا يَخافون ناراً، وشدَّدَ اللهُ تعالى ذلك بالإسلام(٤).

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾؛ أي: قد عَلِمَ اللهُ تعالى في الأزلِ أنَّ العربَ يكونُ بينَهم سفكُ الدِّماء والتَّباغي، فجعلَ الكعبةَ مأمناً؛ ليتوصَّلوا بها إلى إقامةِ معايشِهم ولا يَتفانوا(٥).

* * *

(٩٨) ـ ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾؛ أي: لمَنْ كفرَ وعصى، وأزالَ

---

(١) عند تفسير الآية الثانية منها.

(٢) في (ر): «يوجه بها» بدل: «توجه».

(٣) في (ر): «مقاتل».

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٨).

(٥) قوله: «ولا يتفانوا»: ليس في (ف)، وفي (أ) مكانها: «ويتفانوا».

الأَمْنَ عن النَّاس مع هذه المعاني الأربعةِ، واعتدى، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ أي: لمَن آمنَ واتَّقى، وحفِظ الحقوقَ وراعى.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ للخواصِّ إنْ زاغوا عن الشُّهودِ لحظةً، ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ للعوامِّ إنْ رجَعوا إليه بتوبةٍ وحسرة.

* * *

(٩٩) ـ ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾؛ أي: تبليغُ الأمرِ والنَّهي، والوعدِ والوعيدِ، وليس عليه الحملُ على الطَّاعة جبراً، والمنعُ عن المعصية كُرهاً.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾؛ أي: بالألسنة، ﴿وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ أي: بالأفئدة.

وقيل: ﴿مَا تُبْدُونَ﴾ مِن الطَّاعة، ﴿وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ من المعصية.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: أي: لا ضررَ عليه في تركِ القوم إجابتَه، وهو كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤].

قال: والآيةُ ردٌّ على مَن يقول: لا ينجع قول الواعظِ إذا لم يَعمَل بعلمِه، فإذا كان يَعملُ به ينجع قوله؛ فإنَّه ليس أحدٌ مِن الخلقِ أشدَّ استعمالاً للعلمِ مِن الأنبياء، ولم ينفع مواعظُهم في[١] قومهم؛ لشؤمِهم ولشِدَّةِ تعنُّتِهم.

وقال في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾؛ أي: من المكر له[٢]، والقصدِ إلى قتله، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنفال: ٣٠]، كلَّما همُّوا به،

(١) بعدها في (ر): «بعض».

(٢) في (ر) و(ف): «به».

أطلعَ اللهُ رسولَهُ عليه، وعصمَهُ، وردَّ كيدهم، وقال الله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ﴾ [المائدة: ٦٤][١].

***

(١٠٠) ـ ﴿قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِۚ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ قال السُّدِّيُّ رحمه الله: أي: لا يَستوي المشرك والمؤمن[٢].

ولمَّا أخبرَ أنَّه ﴿يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾، ذكرَ أنَّه لا يُسوِّي بين خبيثِهم وطيِّبِهم، بل يُميِّزُ بينهما، فيُعاقِبُ الخبيثَ، ويُثيبُ الطَّيِّبَ، وإن قلَّ الطَّيِّبُ، وكَثُر الخبيث، وذلك[٣] قولُه تعالى: ﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِ﴾، وهو خطابٌ لكلِّ واحدٍ مِن المخاطَبين، ونهيٌ له عن أنْ يُعجَبَ بكثرةِ هؤلاء.

وقال الكلبيُّ وعطاء: أي: لا يَستوي الحرامُ والحلال[٤].

وقوله: ﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِ﴾؛ يريد أنَّ أهلَ الدُّنيا يُعجِبُهم كثرةُ المال وزينةُ الدنيا، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [القصص: ٦٠].

وقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾؛ أي: العقولِ الخالصة.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾؛ أي: على رجاءِ الفوزِ بكلِّ مطلوبٍ، والأمنِ مِن كلِّ مرهوبٍ، والإطماعُ مِن الله تحقيقٌ.

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٣/ ٦٣٠).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ١٢ ـ ١٣)، وابن أبي حاتم (٤/ ١٢١٦) (٦٨٧٠)

(٣) لفظ: «وذلك» ليس في (أ).

(٤) انظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٧/ ٥٤١).

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: ﴿ٱلْخَبِيثِ﴾: ما اكتسَبَهُ العبدُ حالةَ الغفلةِ عن الحقِّ، ﴿وَٱلطَّيِّبُ﴾: ما اكتسبَهُ على شهودِ الحقِّ.

قال: ويُقال: ﴿ٱلْخَبِيثِ﴾: ما لَم يُخرَج منه حقُّ اللهِ تعالى، ﴿وَٱلطَّيِّبُ﴾: ما أُخرِج منه حقُّه.

قال: ويقال: ﴿ٱلْخَبِيثِ﴾: ما ادَّخرتَهُ لنفسِكَ، ﴿وَٱلطَّيِّبُ﴾: ما قدَّمته بأمرِ ربِّك[١].

(١٠١) - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ﴾ إنَّما لم يَصرِف[٢] ﴿أَشْيَآءَ﴾، وإن صرَفْتَ: أحياء، وأكفاء، وأسماء؛ لأنَّ أصلَه أشْيِياء، على وزن: أفعلاء.

وقالوا: كان أصلُ الواحدِ: شَيِيْء[٣] على وزن فَعِيل، وجمعه أفعلاء، كالنَّصيب والأنصباء، ثمَّ حُذِفت الهمزةُ تخفيفاً، وبَقيَت غيرَ منصرفةٍ لأجلها، فأمَّا الأحياء ونحوها فهي على وزن[٤]: أفعال، وهي منصرفةٌ.

وفي نزول هذه الآية أقاويل، منها ما روى أبو هريرة وأنسُ بنُ مالكٍ رضي الله عنهما أنَّهم[٥] سألوا رسولَ الله ﷺ، فأكثروا المسألةَ، فقامَ على المنبر فقال: «سلوني، فوالله لا تسألونني عن شيءٍ في مقامي هذا إلَّا لأحُدِّثنَّكم[٦]»، فأشفقَ أصحابُه أن يكون حدثَ أمرٌ، فبكوا، فقام عبدُ الله بنُ حذافةَ السَّهميُّ، وكان يُطعَنُ في نسبِه،

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٥٠).

(٢) بعدها في (ف): «عن».

(٣) في (ف): «أصلًا لواحد لشيء» بدل من «أصل الواحد شيء».

(٤) قوله: «على وزن» من (ف).

(٥) في النسخ الخطية: «أنهما»، والمثبت هو الصواب.

(٦) في (ف): «حدثتكم».

ويُدعَى إلى غيرِ أبيه، فقال: من أبي؟ فقال: «أبوك حذافةُ بنُ قيسٍ السَّهمي»، فأخبرَ أمَّه بذلك، فقالت: لقد عققتَني بسؤالِك هذا، فواللهِ ما رأيتُ ولداً أعقَّ منك، أكنتَ تأمنُ أنْ تكونَ أمُّك قارفَت ما قارفَت بعض نساء الجاهلية فتفضحها على رؤوس الناس[1]، فقال: ما كان يَطمئنُّ قلبي، فوالله لو ألحقَني رسولُ الله ﷺ بعبدٍ حبشيٍّ للَحِقتُ به، وقام آخرُ فقال: أين والدي؟ فقال عليه الصَّلاة والسلام: «مع والدي في النار»، ولم يَزل يُسأَلُ حتَّى اشتدَّ غضبُ رسولِ الله ﷺ، وقام عمرُ فقال: رضينا بالله ربًّا، وبالإسلام ديناً، وبمحمَّدٍ نبيًّا، نعوذُ بالله مِن غضب الله، وغضبِ رسول الله. ثمَّ قال: يا رسولَ الله، إنَّا قريب العهد بالجاهليَّةِ والشِّركِ، فاعفُ عنَّا، عفا الله عنك، فلم يَزل يَقولُه حتَّى سُرِّيَ عن رسولِ الله ﷺ، وسكنَ غضبُه، ونزلت هذه الآية[2].

وقال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما وجماعةٌ: إنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يَخطبُ ويُخبِر النَّاس بفرضية[3] الحجِّ، ويقرأ قولَهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾، فقامَ رجلٌ مِن بني أسدٍ ـ وقيل: هو الأقرع بن حابس ـ وقال: يا رسولَ الله أفي كلِّ عامٍ؟ فأعرضَ النَّبيُّ ﷺ بوجهِه، فأعادَ السُّؤالَ، فأعرضَ عنه بوجهِه، فأعادَ السُّؤال، فقال: «لو قلتُ: لكلِّ عامٍ، لوجبَ عليكم، ولو وجبَ عليكم ثمَّ تركتموهُ لضللتُم».

---

(١) في (ر): «الخلائق».

(٢) لم أقف على هذه الرواية بهذا السياق، وذكر مقاتل نحوها في «تفسيره» (١/ ٥٠٨) دون نسبتها لأبي هريرة وأنس، وحديث أبي هريرة رواه أحمد (١٠٥٣١) مختصراً، وفيه سؤال عبد الله بن حذافة وكلامه مع والدته، وأخرجه من طريق آخر الطبري (٩/ ١٧) وفيه سؤال عبد الله، وكلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه.
وحديث أنس رواه مختصراً ومطولاً البخاري في «صحيحه» (٩٣)، (٥٤٠)، (٧٠٨٩)، (٧٢٩٤)، ومسلم في «صحيحه» (٢٣٥٩).
ولم أقف على سؤال الرجل: أين والدي؟ وفي «تفسير مقاتل» أن رجلاً سأل: أين أنا؟

(٣) في (ف): «بفريضة».

ثم إنه[١] قال: «اتركوني ما تركتُكم، فإذا أمرتُكم بشيءٍ فأتوا منه ما استطعتُم، وإذا نَهيتُكم عن شيءٍ فاجتنبوه»[٢].

وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنَّه قال: «اتركوني ما تركتُكم، فإذا حدَّثتُكم فخذوا عنِّي فإنَّما هلكَ مَن كان قبلَكم بكثرةِ سؤالِهم واختلافِهم على أنبيائهم»[٣].

وقال القفَّالُ رحمَه الله: إنَّ المؤمنين كانوا يَسألون رسولَ الله ﷺ أشياءَ مِن الغيب ومن[٤] المعجزات بإشارة اليهود، كما قال: ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ﴾ [البقرة: ١٠٨]، فنُهوا عن ذلك، وهو السُّؤال عن أمورٍ لا حاجةَ لهم بها، وعن اقتراح آياتٍ بعد وقوعِ الكفاية بمعجزاتٍ ظهَرَت لهم مِن غير سؤال.

وقوله تعالى: ﴿إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾؛ أي: إنْ تَظهَر لكم تُحزِنكُم، كما ظهرَ لذلكَ السَّائِلِ أنَّ أباهُ في النَّار، وفي ظهور الآياتِ المقترحة أيضاً ما يَسوؤهم؛ فإنَّهم لو خالفوا بعدَ ذلك أُهلِكوا، كما قال في آخرِ هذه السُّورة: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ﴾ الآية.

وعلى هذا التفسير يكون قولُه: ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾ أي: ليس عليه إيرادُ الآياتِ على جهة الاقتراح.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ﴾؛ أي: وإنْ تَسألوا[٥] عن أشياء بعد نزولِ القرآن بها وفيها إشْكالٌ، ﴿تُبْدَ لَكُمْ﴾؛ أي: تَظهَر لكم، وهذا إطلاقٌ للسُّؤالِ عند الإنزالِ لحلِّ الإشكال، وتوبيخٌ لهم على السُّؤال فيما لا حاجةَ إليه في الحال.

---

(١) لفظ: «إنه» من (ف).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٢٠ ـ ٢١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما دون ذكر الأقرع بن حابس، ورواه مع تعيينه النسائي في «سننه» (٢٦٢٠) مختصراً.

(٣) رواه مسلم في «صحيحه» (١٣٣٧).

(٤) في (ف): «وعن».

(٥) في (ف): «واسألوا» بدل: «أي وإن تسألوا».

وقيل: فيه تقديمٌ وتأخيرٌ، وتقديره: وإن تسألوا عنها وهي مهمَّةٌ، تُبْدَ لكم حين يُنزَّل القرآنُ؛ أي: يظهرْ ذلك لكم في القرآنِ المنزلِ فيه بعد ذلك.

وقوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا﴾؛ أي: عفا اللهُ عنكم هذه السُّؤالاتِ التي سألْتُموها مِن غيرِ حاجة.

وقيل: بل هي صفةٌ لِتلك الأسئلةِ؛ أي: لا تَسألوا عن أشياءَ قد[1] عفا الله عنكم فيها؛ أي: خُفِّفت[2] عليكم[3]، فلم يُلزِمكم ذلك، وهو كقوله ﷺ: «عفوتُ لكم عن صدقة الخيلِ والرَّقيق»[4].

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ أي: لا يعاقِبُكم إلَّا بعد الإنذار.

وروى أبو ثعلبةَ الخشنيُّ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «إنَّ اللهَ تعالى فرضَ فرائضَ فلا تُضيِّعوها، ونهى عن أشياءَ فلا تَنتهِكوها، وحَدَّ حدوداً فلا تَعتدوها، وعفا عن أشياءَ مِن غيرِ نسيانٍ رحمةً لكم، فلا تبحثوها»[5].

(١٠٢) ـ ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾.

---

(١) في (ر): «فقد»، وليست من (أ).

(٢) في (أ): «خفف الله» بدل: «خففت».

(٣) في (ف): «عنكم»

(٤) رواه أبو داود (١٥٧٤)، والترمذي (٦٢٠)، والنسائي في «الكبرى» (٢٢٦٨)، وابن ماجه (١٧٩٠)، (١٨١٣) من حديث علي رضي الله عنه.

(٥) رواه الحاكم في «المستدرك» (٧١١٤)، ورواه موقوفاً على أبي ثعلبة رضي الله عنه الطبريُّ (٩/ ٢٤). وهذا الحديث حسنه النووي في «الأربعين»، وذكر ابن رجب في «جامع العلوم والحكم»: (٢/ ١٥٠) أن للحديث علتين؛ إحداهما أن مكحولاً لم يصح له السماع من أبي ثعلبة. والثانية أنه اختلف في رفعه ووقفه على أبي ثعلبة، ورواه بعضهم عن مكحول من قوله، لكن قال الدارقطني: الأشبه بالصواب المرفوع. قال: وهو أشهر. انتهى. وانظر: «علل الدارقطني»: (٦/ ٣٢٤).

وقوله تعالى: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ﴾؛ أي: سألوا آياتِ الاقتراح، كقوم صالحٍ سألوا النَّاقةَ، ثمَّ كفروا بها وعقروها، وقومِ طالوت قالوا لنبيهم: ابْعث لنا ملِكاً نقاتلْ في سبيلِ الله، فلمَّا كُتِبَ عليهم القتالُ تولَّوا إلَّا قليلاً منهم، وقومِ عيسى سألوا المائدةَ فقال لهم: اتَّقوا اللهَ إن كنتُم مؤمنين، ثمَّ كفروا بها.

وقيل: أي: سألوا، فلمَّا أُخبِروا بما كرِهوا، كذَّبوا الرُّسل.

وقيل: سألوا البيانَ، فلمَّا بيَّن لهم لم يَعملوا به، وكانوا شدَّدوا على أنفسِهم، كأصحابِ البقرةِ، فلمَّا شدَّد عليهم تَركوا.

وقال الإمامُ القشيريُّ رحمَه الله: ﴿لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾؛ أي: إذا أسبل عليكم سترَ اللُّطفِ، فلا تَتعرَّضوا لعلمِ ما أخفي عنكم، فيَتنغَّص بالتَّحسُّر عليكم عيشُكم.

ويقال: لا تَتعرَّضوا للوقوفِ على محلِّ الأكابر، ولا تستوجبون ذلك، فيَسوؤكُم تقاصرُ رُتبتِكُم.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ توهَّم قومٌ أنَّهم مُحرَزون عن التَّأثُّر[1] فيما يُصادِفُهم مِن فجأة المقادير، وذلك منهم ظَنٌّ، كما قال بعضهم:

تَبيَّن يومَ البينِ أنَّ اعْتِزامَهُ
على الصَّبرِ مِن إحدى الظُّنونِ الكواذبِ[2]

* * *

(١) في (ف): «التقاصر».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٥١). والبيت لعبد الله بن طاهر كما في «الأغاني» (٥/ ٤١٣) (مصورة الهيئة المصرية للكتاب)، و«تاريخ دمشق» (٢٩/ ٢١٧ ـ ٢١٨).

(١٠٣) ـ ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ﴾ أي: ما شرعَ اللهُ تعالى ذلك، وما جعلَهُ مِن أمورِ الدِّين.

والبَحيرةُ: النَّاقةُ التي تُشَقُّ أذنُها، بَحرتُ أذنَ النَّاقةِ أَبْحَرُها بَحْراً؛ أي: شققتُها شقًّا واسعاً، ومنه البحرُ، وهو اسمٌ لا صفة، ولذلك دخلَتْ فيها الهاءُ، كما في النَّطيحةِ والذَّبيحة والنَّسِيكة، وكانت النَّاقةُ إذا نَتَجَتْ خمسةَ أبطُنٍ، فكان آخرُها ذكراً، بَحروا أُذنَها، وامتنعوا مِن ركوبِها وذبحِها، ولم تُطْرَد عن ماءٍ، ولم تُمنَع عن مرعى، وإذا لقيَها الـمُعيى لم يَركبها.

وقيل: كانوا يَفعلون ذلك بها إذا ولَدَت سبعةَ أبطُن.

وقال مقاتلٌ رحمه الله: إن كان ولدُها الخامسُ ذكراً ذبَحوه للآلهة، وكان لحمُه للرِّجال لا للنِّساء، وإنْ كانت أُنثى شقُّوا أُذنها، لا يُجَزُّ لها وبرٌ، ولبنُها للرِّجال دون النِّساء(١).

وقيل: إذا ماتَت اشتركَ فيها(٢) النِّساءُ والرِّجال.

وقوله: ﴿مِنۢ بَحِيرَةٖ﴾ ﴿مِنۢ﴾ لتأكيدِ النَّفي على العموم؛ إذ لو قال: ما جعلَ اللهُ بحيرةً، وقعَ عند السَّامعِ أنَّه ما جعلَ بحيرةً واحدةً، بل جعل بحائرَ، فنفى بكلمةِ ﴿مِنۢ﴾ كلَّ بحيرةٍ.

والسَّائبةُ: المخلَّاةُ تَذهبُ حيث شاءَت، مِن قولِهم: سابَ الماءُ؛ أي: جَرى على وجهِه، وانسابَتِ الحيَّةُ كذلك.

وكان الرَّجلُ في الجاهليَّة إذا نذرَ لقدومٍ مِن سفرٍ، أو بَرِئَ مِن مرضٍ ونحوه، قال: ناقتي سائبةٌ، فكانت كالبحيرةِ، وكذلك كان من كثُرَ مالُه سيَّبَ واحدةً منها

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٥٠٩ ـ ٥١٠).

(٢) في (ر): «في لحمها» بدل: «فيها».

شُكراً، وكانت لا يَنتفعُ بشيءٍ منها، ولا تُمنَعُ مِن ماءٍ ولا[١] مرعى إلى أنْ تَموت، فيَشترِكُ في أكلِها الرِّجال والنِّساءُ، وكان الرَّجل إذا أعتقَ عبداً سائبةً، لم يكن بينهما عقلٌ ولا ولاءٌ ولا إرثٌ.

والوصيلةُ: هي الأُنثى مِن الغنم. قال قتادة: هي في البطن السابع[٢].

وقال السُّدِّيُّ: الشاة إذا ولدَتْ ثلاثةَ أبطُنٍ أو خمسة، وكان آخرُ ذلك جدياً، ذَبحوه، وأهدَوْهُ للآلهة، وإن كانَت عَناقاً استَحْيَوها، وإن كان جَدْياً وعَناقاً استحيوهما[٣] جميعاً، وقالوا: إنَّها وَصَلَتْ أخاها[٤]، فهي فعيلة بمعنى فاعلة.

والحامي: قال مسروق: كان البعيرُ إذا وُلِد وَلَدُ ولدِه قالوا: قد قَضى ما عليه، فلَم يَنتفعوا بظهرِه، وقالوا قد حماهُ[٥].

وقال قتادةُ وأبو الأحوص: إذا أدركَ مِن ولدِه عشرةَ فحولٍ قالوا: هذا قد حَمى ظهرَهُ، فلم يُزَمَّ ولم يُركَب، ولم يُمنَع من ماءٍ ولا مَرْعى[٦].

يقول: إنَّ الكفَّار قد التزَموا هذه الأشياءَ في أموالِهم، وليس ذلك بشرعٍ مِن الله تعالى يَلزمُهم الوفاءُ به كما يَلزمُهم الوفاءُ بالعقود، بل هي طيِّباتٌ حرَّموها على أنفُسِهم، وقد نَهى اللهُ عنها بقولِه: ﴿لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٧].

---

(١) لفظ: «لا» من (ف).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٣٥).

(٣) في (أ): «استحبوهما».

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٣٥ ـ ٣٦).

(٥) رواه الطبري (٩/ ٣٢).

(٦) رواه الطبري (٩/ ٣٥) عن قتادة، وأورده السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٥٥٧ ـ ٥٥٨) عن أبي الأحوص مطولاً، وعزاه لأحمد وعبد بن حميد والحكيم الترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في «الأسماء والصفات». ورأيت طرفه دون ذكر القطعة التي ذكرها المصنف عند أحمد (١٧٢٢٨)، والطبري (٩/ ٢٩ ـ ٣٠)، وابن أبي حاتم (٤/ ١٢٢٠) (٦٨٨٥)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٧٤٢).

وقيل: أوَّلُ مَن فعل كل ذلك عمرو بن لحي.

وقال مقاتل رحمه الله: هو عمرو بن رَبيعةَ بن لُحَيّ بن قمعة بن خندف الخزاعيّ[1].

وروى زيدُ بنُ أسلم عن النَّبيِّ ﷺ قال[2]: «إنِّي لأعلمُ أوَّلَ مَن سيَّبَ السَّوائبَ، وأوَّلَ مَن غيَّرَ عهدَ إبراهيم»، قالوا: مَن هو يا رسولَ الله؟ قال: «عمرو بنُ لُحَيّ، لقد رأيتُهُ يَجُرُّ قُصْبَهُ في النَّار، يُؤذي ريحُه أهلَ النَّار، وإنِّي لأعرف أوَّلَ مَن بحرَ البحائر» قالوا: مَن هو يا رسولَ الله؟ قال: «رجلٌ مِن بني مُدْلِج، كانت له ناقتانِ، فجدعَ آذانَهما، وحَرَّم ألبانَهما، ثمَّ شربَ ألبانَهما بعدُ، فلقد رأيتُه في النَّار وهما يَعضَّانِه بأفواههما، ويَخبِطانه بأخفافِهما»[3].

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾؛ أي: يَختلقون بقولِهم: إنَّ اللهَ تعالى أمَرَنا بتحريمِها ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أنَّ اللهَ تعالى لم يُحرِّمها، وهم عوامُّهم المقلِّدون رؤساءَهم.

* * *

(١٠٤) ـ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ أي: قيل لأتباعِهم: هلمُّوا إلى حكمِ الله تعالى ورسولِه بأنَّ هذه الأشياءَ غيرُ محرَّمةٍ.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾؛ أي: كافينا ذلك.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ الألفُ ألفُ الاستفهام بمعنى الاستنكار، والواوُ للعطفِ، وفي آخرِه مضمرٌ: يتبعونهم؛ أي: كيف يَجوزُ

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٥٠٩).

(٢) في (ف): «إني» بدل من «أنه قال».

(٣) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٧٥١)، ومن طريقه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٢٨). وهو مرسل.

تقليدُ قومٍ بما لا عِلم لهم به ولا اهتداءَ لهم فيه.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: أي: إذا هتفَ بهم[١] داعي الحقِّ بالجُنوحِ إلى الصِّدقِ، صدَّهُم عن الإجابةِ ما مَرَنوا عليه من سُهولة التَّقليد، وإنَّ أسلافَهم لم يكونوا إلَّا في ضلالٍ بعيد[٢].

***

(١٠٥) ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ ﴾ نصب على الإغراء، بمنزلة قوله: احفظوا أنفسكم، بيَّن اللهُ تعالى في هذه السُّورة الحلالَ والحرامَ، وما يَلزمُ الوفاءُ به مِن عقودِ الدِّين، وما لا يَلزم، وأخبرَ أنَّه ليس على رسولِه إلَّا البلاغُ، فإذا بلَّغَ فقد أدَّى ما عليه[٣]، وإذا قيل لهم تعالوا[٤] إلى حكمِ الله ورسولِه، فلم يَأتوا، لم يَضرَّهُ إصرارُ أولئك، وكذا لا يَضرُّ المؤمنين ضلالُ الكافرين؛ إذا كانوا في أنفسِهم مهتدين، وهو أن يكونوا مؤمنين بكلِّ الطَّاعات، مطيعين، وعن كلِّ المعاصي مُمتنعين؛ فإنَّ الهدايةَ تكونُ بالإيمان والطَّاعات، والاهتداءُ التام كذلك، وبه يَبطلُ قولُ مَن تَعلَّقَ بظاهرِ الآيةِ في أنَّه لا بأسَ بتركِ الأمر بالمعروف؛ فإنَّه[٥] لا يَضرُّ المطيعَ معصيةُ غيرِه؛ لما قلنا: إنَّ الاهتداءَ المطلقَ: هو العملُ بكلِّ الطَّاعات، ومِن ذلك الأمرُ بالمعروفِ والنَّهي عن المنكر.

---

(١) في (أ): «فيهم».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٤٥٢).

(٣) بعدها في (ر): «وقوله».

(٤) بعدها في (ر): «ما أنزل الله أي إلى».

(٥) في (ف): «وأنه».

وقوله تعالى: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾؛ لقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

وقال حذيفةُ: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾؛ أي: إذا أمرتُم ونهيتُم[١].

وقال أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه: أيُّها النَّاسُ، لا تَغرَّنَّكم هذه الآية، فيقولَ أحدُكم: عليَّ نفسي؛ فإنِّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لتأمُرُنَّ بالمعروفِ، ولتَنهَوُنَّ عن المنكر، أو ليَستَعمِلنَّ عليكم شرارَكُم، ثمَّ لتَدعونَّ اللهَ فلا يَستجيبُ لكم»[٢].

وفي روايةٍ قال في آخر هذا الحديث: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يَقول: «ما مِن قومٍ يُعمَلُ فيهم بالمعاصي، ولم يُغيِّروا، إلَّا أوشكَ أن يعمهم الله بعقابه»[٣].

وقال عبدُ الله بنُ المبارك رحمه الله: هذه الآيةُ أدلُّ دليلٍ على وجوبِ الأمر بالمعروف؛ فإنَّ قولَه تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ معناه: عليكم أهلَ دينكم[٤].

وسُئِل ابنُ مسعودٍ رضيَ الله عنه عن هذه الآية، فقال: ما دامَ يُقبَلُ مِنكم فقولوها، فإذا رُدَّت عليكم، فعليكم أنفسَكم[٥].

وذكر قتادةُ عن واحدٍ مِن الصحابة أنه في آخر الزمان[٦].

وقال أبو أميَّة: سألت أبا ثعلبةَ الخشنيَّ فقال: سألتَ عنها خبيراً، قال: سألتُ عنها رسولَ الله ﷺ، فقال: «بل ائتَمِروا بالمعروف، وتَناهوا عن المنكر، حتَّى إذا

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٥٠ ـ ٥١).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» (٢٣)، والطبري في «تفسيره» (٩/ ٥١ ـ ٥٢).

(٣) رواه أبو داود في «سننه» (٤٣٣٨)، وابن ماجه (٤٠٠٥).

(٤) انظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٧/ ٥٦١).

(٥) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٧٥٨)، ومن طريقه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٤٥).

(٦) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٤٥ ـ ٤٦).

رأيتَ شُحًّا مطاعاً، وهوًى متَّبعاً، ودنيا مؤثرةً، وإعجابَ كلِّ ذي رأيٍ برأيِه، فعليكَ نفسُك، ودعْ أمرَ العوامِّ، فإنَّ مِن ورائِكم أيَّاماً الصَّبرُ فيهنَّ كمثل قبضٍ على الجمر، للعاملِ فيه مثلُ أجرِ خمسين رجلاً يَعملون مثل عمله»، قالوا: يا رسولَ الله، أجرُ خمسين مِنهم؟ قال: «بل أجرُ خمسينَ مِنكم»[1].

وقيل: هذه الآيةُ تتَّصِلُ بما قبلها؛ أي: إذا دعَوتُموهم إلى حكمِ اللهِ، فلم يُجيبوا، وقلَّدوا آباءَهم، لم يضرَّكم ذلك إذا اهتديتُم أنتم.

وقال الكلبيُّ: إنَّ المنذر بن ساوَى ـ وقيل[2]: المنذر بن عمرو التميميّ[3] ـ كتبَ مِن هجرَ إلى رسول الله ﷺ: إنَّ اليهودَ والنَّصارى والمجوسَ قَبِلوا الجزيةَ، فرضيَ رسولُ الله ﷺ بذلك، فطعنَ في ذلك المنافقون وقالوا: عجباً مِن محمَّدٍ، يَزعُمُ أنَّ اللهَ بعثَهُ ليُقاتِلَ النَّاس حتَّى يقولوا[4]: لا إله إلا الله، وزعمَ أنَّه رُخِّص له في أنْ يُقاتِلَهم حتَّى يُعطوا الجزيةَ، فلا نرى محمَّداً إلَّا وقد قبِلَ مِن مشركي هجر ما ردَّ على إخوانِنا مِن العرب، فأنزل اللهُ تعالى: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾[5] دعوتم إلى الإسلام فقد أبلغتُم وأعذَرْتُم[6].

وقوله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ فيَجزي مَن ضلَّ ومَن اهْتدى؛ كلًّا على وفقِ حاله.

---

(١) رواه الترمذي (٣٠٥٨)، وابن ماجه (٤٠١٤)

(٢) بعدها في (أ): «أن».

(٣) في (ر): «الليثي»، وفي (ف): «اليمني».

(٤) في (ف): «يشهدوا أن».

(٥) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ١١٧ ـ ١١٨)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢٠٦) عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، وهو إسناد تالف.

(٦) في (ف): «عذرتم وأنذرتم» بدل: «أبلغتم وأعذرتم».

وقوله تعالى: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يُعْلِمُهم بما عَمِلوا، ثمَّ يَجزيهِم على ما عمِلوا.

(١٠٦) - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ﴾ اختلفَت الرِّواياتُ في قصَّة نزولِ هذهِ الآية وتأويلاتُ أهل العلم فيها:

قال ابنُ عبَّاسٍ وأبو موسى الأشعريُّ وسعيدُ بنُ المسيَّبِ وسعيدُ بنُ جُبَير وشُرَيح وإبراهيم وعَبيدةُ ومحمَّدُ بنُ سيرين ومجاهدٌ وابنُ زيد رضوان الله عليهم أجمعين: الآيةُ في المسلمِ يَحضرُه الموتُ في السَّفر، فيريدُ أنْ يُوصِيَ ويدفع مالَهُ إلى وصيٍّ، فإنْ حضرَهُ مسلمان، أشهدَهما على ذلك، وإنْ لم يَجِد مسلمَينِ أشهدَ كافرَين[١]، وشهادةُ الكافرِ على المسلمِ في مثل هذه الحالةِ جائزةٌ.

وقال بعضُهم: كان كذلك ثمَّ نُسِخ، وبقيَ شهادتُهم على جنسِهم بهذه الآية.

وقال الحسنُ وعكرمةُ وعَبيدةُ السَّلمانيُّ والزُّهريُّ: بل الآيةُ في شهادةِ المسلمين، **وقولُه تعالى:** ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾؛ أي: مِن قبيلتِكم وعشيرتكم، ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾؛ أي: مِن غيرِ قبيلتِكم وعشيرتِكم[٢].

ومنهم من حمل الشَّهادة فيها على الإيمان، واتِّصالُها بما قبلَها أنَّ اللهَ تعالى بيَّنَ في هذه السُّورةِ المحرَّماتِ والمحلَّلات، ومنها: الجنايات في الأمانات[٣]، والآيةُ فيها.

---

(١) انظر: في «تفسير الطبري» (٩/ ٥٦ ـ ٥٧، ٦١ ـ ٦٧، ٧٢ ـ ٧٣)

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٦٧ ـ ٦٩).

(٣) في (ر): «الخيانات والأمانات»، وفي (ف): «الخيانات في الأمانات».

قال ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما: نزلتِ الآيةُ في ثلاثةِ نفرٍ خَرجوا تجَّاراً مِن المدينة إلى الشَّام، وهم عَدِيٌّ بن بداء، وتميمُ بنُ أوسٍ الدَّاريِّ، وهُما نصرانيَّان، وبديلُ بنُ ورقاءَ ابنِ حارثة مولى عمرِو بن العاص السُّلميّ، وبُديل كان مسلماً مهاجراً، فلمَّا قدِموا الشَّامَ مرضَ بُدَيل بنُ ورقاء، فكتبَ كتاباً[1]، وأثبتَ فيه جميعَ ما معَهُ مِن الأمتعة والأموال، ودسَّه في رحلِهِ، ولم يُخبِر صاحبَيه بذلك، فلمَّا اشتدَّ وجعُه، أوصى إلى تميم، وأشهدَهُما على وصيَّتِهِ، وأمرَهُما بأنْ يَدفعا متاعَهُ إلى أهلِه إذا رجعَا، ومات، فلمَّا دفناهُ فتَّشا متاعَه، فأخذا منه إناءً مِن فضَّة منقوشاً بالذَّهب، وهو ثلاثُ مئةِ مثقالٍ مِن فضَّةٍ، فغيَّباهُ، فلما قضيا حاجتَهما، رجَعا إلى المدينةِ، ودفعا المتاعَ إلى أهلِه، فلمَّا فتحَ أهلُه متاعَه، وجدوا الصَّحيفةَ فيها تَسميةُ ما معه، وفيها الإناءُ فجاءهما المطَّلِب بن وداعة وعمرو بن العاص، وهما مسلمان مِن قرابةِ الميِّت، فسألاهما الإناء، فقالا: هذا الذي قبضناهُ ودفعَهُ إلينا، فقال المطَّلب وعمرو: هل باعَ بُدَيل شيئاً من متاعِه؟ قالا: لا، قال: فهل طالَ مرضُه، فأنفقَ على نفسِه شيئاً؟ قالا: لا، إنَّما مرضَ[2] حين قدمَ البلدَ، فلم يَلبَث أنْ ماتَ، قالا: فإنَّا قد وجدنا في متاعِه صحيفةً فيها تسميةُ متاعِه، وإنَّا قد فقدنا إناءً مِن فضَّة كذا صفتُه، قالا: لا ندري، ما دفعَ إلينا دفعناهُ إليكم، ومالنا بالإناءِ مِن علمٍ، فتخاصما إلى رسولِ الله ﷺ، فأنزلَ اللهُ تعالى هذه الآيةَ[3].

وفي رواية معمرٍ عن قتادة وابنِ سيرين، وحجَّاج عن ابن جريج عن عكرمة في هذه القصَّة ذكر ابن أبي مارية مولى عمرو بن العاص: أنَّه هو الذي مرضَ وأوصى ومات، دون بُديل بن ورقاء، قال: فأمرَ رسولُ الله ﷺ أن يَستحلِفوهُما بعد صلاة العصر باللهِ الذي لا إله إلَّا هو، ما قبضنا لهُ غيرَ هذا، ولا كتَمنا، قال: فمكثا ما شاءَ اللهُ

---

(١) بعدها في (أ) و(ر): «فيه».

(٢) بعدها في (ف): «من».

(٣) أوردها الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ١١٨ ـ ١١٩) عن الكلبي. وأصل القصة في «صحيح البخاري» (٢٧٨٠).

أنْ يَمكُثا، ثمَّ ظهرَ عليهما على إناءٍ مِن فضَّةٍ منقوشٍ، مموَّه بالذَّهب، فقال أهلُه: هذا مِن متاعِه، قالا: نعم، ولكنَّا اشتريناهُ منه، ونَسينا أن نذكرَهُ حين حلَفنا، وكرِهنا أنْ نُكذِّبَ أنفسَنا، فترافعوا إلى النَّبيِّ ﷺ، فنزلَت الآيةُ الأخرى: ﴿ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا ﴾ الآية، فأمرَ رسولُ الله ﷺ رجلين مِن أهل الميِّتِ أن يَحلِفا أنَّهما كتما، ثمَّ إنَّ تميم الدَّاريَّ أسلمَ، وبايعَ النَّبيَّ ﷺ، وكان يقول: صدقَ الله ورسوله، إنَّا أخذنا الإناء[1].

وفي رواية: اعترف تميمٌ بالخيانة قبلَ الإسلام، فقال له رسولُ الله ﷺ: أسلِم يتجاوزِ اللهُ عنك ما صنَعتَ في شِركك، فأسلمَ وحسُن إسلامُه، وماتَ عديٌّ نصرانيًّا[2].

والشيخُ الإمام أبو بكر الشَّاشيُّ القفالُ ـ رحمه الله ـ يَحمِلُ الآيةَ على استحلافِهما، ويقولُ في هذه الرواية: إنَّه استحلفَهما، وكذلك في سياقِ هذه الآية: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾، وقوله: ﴿أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ قال: والشهادة في القرآن جاءت لثلاثةِ معانٍ:

للبيِّنة على دعوى المدَّعي، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢] ونحوها.

وللحَلِف، قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾، ثم قال: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ [المنافقون: ٢].

وللحضورِ، قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾.

وتخرَّجُ[3] الآية وتفسيرُها على قوله هذا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ ﴾؛ أي: حَلِفُ ما بينكم، وإذا حذَفَ ﴿مَآ﴾، خفَضَ ﴿بَيْنِكُمْ﴾ على الإضافةِ، كقوله تعالى: ﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ﴾ [الكهف: ٧٨].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٨٩ ـ ٩٠).

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٥١٤).

(٣) في (ف): «وتخريج».

وقوله تعالى: ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ وهو المرض؛ لأنَّه مُقدِّمةُ الموتِ، ويُفضي إليه.

وقوله تعالى: ﴿حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ﴾؛ أي: وقتَ الإيصاء، وقتٌ ضُمَّ إلى وقت، كما في قولك: ائتني إذا زَالَتِ الشَّمسُ حين صلاةِ الظهر.

وقوله تعالى: ﴿ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾؛ أي: يَحلِفُ اثنانِ عدلانِ مِن أهلِ مِلَّتِكُم أيُّها المسلمون، إذا كانا هما الموصى إليهما والمدفوعُ إليهما مالُ المريض.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾؛ أي: مِن غير مِلَّتِكم[1]، إذا كانا هما المدفوع إليهما المالُ؛ لأنَّ الإنسانَ يَأتمن على مالِه مَنْ شاء؛ كافراً كان، أو مسلماً.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: سِرتُم وسافرتم، ﴿فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ﴾؛ أي: اتَّصلَ الموتُ بالمرض.

وقوله تعالى: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا﴾؛ أي: تَقِفونَهما للتَّحليف، أمرٌ خرجَ على صيغةِ الخبر.

وقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ قيل: هي صلاةُ العصرِ، وأهلُ الأديان كلِّها يُعظِّمون ذلك الوقت.

وقوله تعالى: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾ أي: يَحلفان به.

وقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾؛ أي: شككتُم في أمانتِهما، اعتراضُ شرطٍ هو[2] في تقديرِ التَّقديم.

وقوله تعالى: ﴿لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾[3] فهذا كلامٌ يَتكلَّمُ به الحالِف قبل حَلِفه تأكيداً لحالِه، فقد يقول له القاضي: اتَّقِ اللهَ، ولا تَحلِف بالله كاذباً، تشتري

---

(١) بعدها في (ف): «أيها المسلمون».

(٢) لفظ: «هو» من (أ).

(٣) بعدها في (ر): «قليلًا».

به ثمناً قليلاً، فيقولُ: معاذ الله أنْ أكونَ كذلك، لا أستبدِلُ بالحَلِفِ أو باسم الله عوضاً يسيراً من الدُّنيا، وإنْ كان هذا الميِّتُ قريباً.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَـٰدَةَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: لا نكتمُ شيئاً بالحلِفِ بالله، والإضافةُ إلى الله تعالى لما أنَّه ثبت بشرعِه، وهو كقوله: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ﴾ [نوح: ٤]؛ أي: الأجلُ الذي أثبتَهُ اللهُ تعالى. و﴿شَهَـٰدَةَ﴾ نُصِبَ بنزعِ الباء.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْـَٔاثِمِينَ﴾؛ أي: نأثمُ لو حلَفنا على الكذِبِ.

* * *

(١٠٧) ـ ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا﴾؛ أي: اطُّلِعَ على خيانتهما، وقد عَثَرَ على الشَّيءِ عُثُوراً؛ أي: اطَّلعَ عليه، وأعثرَهُ غيرُه عليه؛ أي: أطلعَهُ، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ [الكهف: ٢١]، وأصلُه: الوقوعُ على الشَّيءِ، مِن العثرةِ بالرِّجلِ، ويُستعمَلُ في الزَّلَّة أيضاً كذلك.

وقوله تعالى: ﴿فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾؛ أي: فإنْ ظهَرَت خيانةُ المدَّعى عليهما؛ كما[1] ظهرَ الإناءُ في أيدي هذين، وادَّعيا أنَّهما كانا اشترياهُ مِن هذا المريضِ قبلَ موتِهِ، وصارا مدعيين على الوارثين وهما منكران، فقد قاما مقام هذين في أنَّهما صارا مدعاً عليهما، وصارتِ البيِّنةُ على المدعيين، واليمين على هذين الوارثين، فقد قاما مقامَهما فيَصيرُ الحلفُ عليهِما.

---

(١) في (ر): «أي» بدل: «كما».

وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَـٰنِ﴾ قرأ ابنُ كثير في رواية قُرَّة[١]، وعاصم في رواية حفص: ﴿ٱسۡتَحَقَّ﴾ بفتح التاء والحاء، ومعناه: استحقَّ عليهِمُ الأَوْليان ردَّ الأيمان، والباقون: ﴿استُحِقَّ﴾ بضمِّ التَّاء وكسر الحاء، على ما لم يُسَمَّ فاعلُه.

وقرأ عاصمٌ في رواية أبي بكر وحمزة[٢]: ﴿الأَوَّلِين﴾ على الجمع، والباقون: ﴿ٱلۡأَوۡلَيَـٰنِ﴾[٣] على التثنية بالألف التي هي علامةُ الرَّفع.

وقال الزَّجَّاج: رُفِعَ لأنَّه بدلٌ عن الضمير في ﴿يَقُومَانِ﴾، على معنى: فليَقُمِ الأَوْليان مِن الذين استحقَّ عليهم[٤].

وقيل: هو نعتٌ لقوله: ﴿فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ﴾، وتقديره: آخران أولَيان، وإنَّما صحَّ النَّعتُ بالألف واللَّام، مع أنَّ المنعوتَ بغير الألف واللَّام[٥]؛ لأنَّهما غيرُ معَيَّنين، فأخرجَ الكلام على النَّكرة، ووُصِفا بالقِيام باليمين، فصارا كالـمُعرَّفَين، فنُعِتا بالمعرفة.

والأولى هي الأحقّ.

وقال سعيدُ بنُ جبير وابنُ زيد معناه: الأحقَّان بالوراثةِ مِن[٦] سائرِ أقرباءِ الميِّت[٧].

وقيل: أي: الأحقَّان باليمين.

وأما قراءةُ: ﴿الأَوَّلِين﴾ على الجمع، فتقديرُه: فآخران مِن الأوَّلِين الذين

---

(١) المتواتر من قراءة ابن كثير: «استُحِقَّ».

(٢) في (ف): «غير حفص وحمزة وخلف وسهل ويعقوب».

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٢٤٩)، و«التيسير» (ص: ١٠٠).

(٤) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٢١٦).

(٥) في (أ): «ألف ولام» بدل من «الألف واللام».

(٦) في (أ): «بين».

(٧) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ١٠٣) عن ابن زيد، وذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٢/ ٧٧).

استحقَّ عليهم يقومان مقام الوصيَّينِ في اليمين، وإنَّما كانوا أوَّلين؛ لأنَّ مِلْكَ الإناءِ كان للورثةِ في الظَّاهرِ، فكانوا هم المتقدِّمين في مِلك الإناء.

وقوله تعالى: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: الآخرانِ الوارثانِ يَحلفان ما نعلمُ أنَّ مورِّثنا كان باعَ هذا الإناءَ منهما.

وقوله تعالى: ﴿لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا﴾؛ أي: ليَمينُنا أحقُّ بالقَبولِ مِن يمين هذين الوصيَّينِ الخائنين.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ﴾؛ أي: ما تَجاوزْنا الحقَّ في يمينِنا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: إن حلَفنا كاذبين.

* * *

(١٠٨) ـ ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ﴾؛ أي: شرْعُ هذا الحكم أقربُ إلى أنْ يأتيَ الأوصياءُ بالأيمانِ على وجهِها؛ أي: بالحقِّ دون الباطل، وجمعَ ﴿أَن يَأْتُواْ﴾ مع أنَّهما كانا وصيَّين اثنين؛ لأنَّه ابتداءُ ذُكِرَ في حقِّ[1] الأوصياء.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ أي: وأن يخافوا إن حلِفوا كاذِبين، وظهرَ ذلك أنْ تُردَّ الأيمانُ على الورثةِ بعد أيمانِ الأوصياء.

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾؛ أي: في الخيانةِ أو اليمينِ الكاذبة.

وقوله تعالى: ﴿وَٱسْمَعُواْ﴾؛ أي: وعظَ اللهِ واعمَلوا به.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾؛ أي: لا يُرشِدُ الخارجين عن طاعتِه.

---

(١) بعدها في (ف): «كل».

والذين حمَلوها على الشَّهادةِ المعروفةِ، فتفسيرُ الآيةِ على ذلك أنْ يُقال:

قوله: ﴿شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ﴾ هذا المصدرُ في معنى النَّعت، وأضمر في أوَّله العددَ، وتقديرُه: عددُ الشهود فيما بينكم إذا حضرَ أحدَكم الموتُ وقتَ الوصية اثنان عدلان من أهل دينِكم، أو آخران مِن غيرِ أهل دينكم، فقد كان يومئذٍ مَن كان خارج المدينةَ كلُّهم كفَّاراً، فلا يوجدُ المسلمُ فيهم إلَّا على السَّفر، يقول: فإن لم[1] يوجد المسلمان يُستشهَدُ الكافران.

وقوله تعالى: ﴿فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا﴾؛ أي: هذين الشَّاهِدين الكافرين، ﴿مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: صلاة[2] العصر، ﴿فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾؛ أي: شككتُم في صدقِ شهادتهما، فهو شرطُ التَّحليف: ﴿لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا﴾؛ أي: يحلفان أنَّا لا نَستبدِلُ باسمِ الله عرضاً يسيراً من الدُّنيا، ﴿وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ﴾؛ أي: الشَّهادةُ الكاذبةُ تَقعُ إمَّا للرَّغبةِ في الرِّشوةِ، أو للميلِ إلى ذي القرابة، فيَنفيان هذين المعنيين؛ لإثبات صدقِهما في الشَّهادة، وتحلِيفُ الشَّاهِدِ كان في الابتداءِ ثمَّ نُسِخَ.

وقد رويَ عن عليٍّ رضي الله عنه أنَّه كان يرى ذلك عند الارتياب.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: الشَّهادةَ الحقَّ[3] التي شرَعَها اللهُ تعالى.

وقوله: ﴿إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ﴾؛ أي: بكتمان الشَّهادةِ وتغييرها، قال تعالى: ﴿وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

* * *

---

(١) بعدها في (أ): «يكن».

(٢) قوله: «الصلاة أي صلاة» من (ر).

(٣) لفظ: «الحق» ليس في (أ).

(١٠٧) ـ ﴿ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا ﴾؛ أي: فإنْ وُقِفَ على كذبِهما في شهادتِهما.

وقوله تعالى: ﴿فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا ﴾؛ أي: في الشَّهادة، وتقديرُه: فشاهدانِ آخرانِ يَقومانِ مقامَ الذين استَحَقَّ عليهمُ الإثم، و﴿ٱلْأَوْلَيَـٰنِ ﴾ نعتُهما؛ أي: هما الأحقَّان بالشَّهادةِ والقَبول.

وقراءة ﴿الأوَّلين﴾ على هذا التفسير نعتُ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ أيضاً؛ أي: يقومان مقامَ الأوَّلين الذينَ استحقَّ عليهم الإثمُ، وإنَّما جمع ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ﴾ وهما اثنان، وهما الوصيَّان؛ لأنَّه قال: ﴿مِنَ ﴾[1]؛ أي: هما من الذين استحقَّ عليهم الإثمُ.

وقوله تعالى: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ ﴾؛ أي: إنْ شهِدا، ووقعَ الارتيابُ في صدقِهما يَحلفانِ أيضاً: ﴿لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا ﴾ وما اعتدينا في شهادتِنا، ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾؛ أي: إنْ شهِدنا[2] بباطلٍ، ذلك أقربُ إلى أنْ يأتيَ الأوَّلون بالشَّهادةِ على وجهِها، فلا يَكتمون شيئاً، ولا يُخالِفون، ولا يُغيِّرون، وأن يخافوا أنْ تُرَدَّ أيمانُهم بأيمانِ الآخَرين وشهادتِهم، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ ولا تخالِفوا أمرَه ونهيَه، ﴿وَٱسْمَعُوا۟ ﴾ وعْظَهُ، والله لا يُرشِدُ إلى الإسلامِ القومَ الفاسِقين؛ أي: الخارجينَ عن طاعتِه المختارِين للكفرِ ما داموا على اختيارِ الكُفرِ.

* * *

---

(١) لفظ: «من» ليس في (ف)، ووقع مكانها في (أ): «آخرين»، والمثبت من (ر).

(٢) في (أ): «شهدا».

(١٠٩) ـ ﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ ذَكرَ مِن أوَّل السُّورةِ إلى هاهنا الأعمالَ، وذكرَ هاهنا يومَ جزاءِ الأعمال.

و﴿يَوْمَ﴾ نصب على الظرفِ لما قبله؛ قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى﴾؛ أي: لا يَهدي إلى الجنَّةِ ﴿ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ في ذلك اليوم.

وقيل: أضمر فيه: واتَّقوا يومَ يَجمعُ؛ عطفاً على قوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١].

وقيل: أضمر فيه: واذكروا يوم يَجمعُ الله الرسل.

وقوله تعالى: ﴿فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾؛ أي: ماذا أجابتكم أُممُكم، وهذا للاستشهاد؛ فإنَّهم شهداءُ على الأمم، قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، ولا يقول في الابتداء للأمم: ﴿مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ إهانةً لهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨ ـ ٩]، وقال لعيسى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦]، وقال للملائكة: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ [سبأ: ٤٠].

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ﴾؛ أي: يقولون، وذكر بصيغة الماضي؛ لأنَّه كائنٌ لا محالةَ، فهو كالموجود الآن، وإنما قالوا: لا علم لنا، عند بعضهم؛ لغلبةِ الهيبة؛ لما ذكرَ من الأهوال ومَخوْفِ الأحوال.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله[1]: لو كان كذلك لم يتهيَّأ لهم الإجابةُ

---

(١) في (ف): «القشيري» بدل: «أبو منصور رحمه الله»، وهو سبق قلم.

بقولهم: ﴿قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾، ولأنَّهم شهداء[١]، ولا تَصِحُّ الشَّهادةُ إذا زالَ العقلُ وخفيَ الحال، ولكن لهذا وجهان:

أحدهما: أنَّهم سُئلوا عن حقيقةِ إجابتِهم لهم بالضمائر، فقالوا: إنَّك لم تُطلِعنا على الضَّمائر والغيوب[٢]، فأنت أعلمُ بذلك.

والثاني: أنَّهم كانوا أحدثوا أموراً مِن أنفُسهم وابتدَعوها، ونَسبوا ذلك إلى الرُّسل، كما قال: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ﴾ الآية [المائدة: ١١٦]، فيقولون: لا علم لنا بذلك الذي ابتدَعُوه، ولم نأمرهُم بذلك[٣]، فيُقطع به احتجاجُهم، وإنْ لم يكن لهم الحِجاج.

وقيل: يجوزُ ذلك في أوَّلِ الوهلة؛ لأنَّ طبعَ الإنسان على أنَّه إذا رأى أمراً مخوفاً دَهِشَ، وعلى ذلك خَرَّ[٤] موسى صَعِقاً حين دُكَّ الجبلُ، ويوم القيامة يُجاءُ بجهنَّم ولها زفيرٌ وتَغيُّظٌ، فلا يَبقى مَلَكٌ مقرَّبٌ، ولا نبيٌّ مرسلٌ إلَّا جثا بركبتيه، فلا يَبعُدُ أنْ يَلحقَهم دهشةٌ حينئذٍ، ثمَّ تَزولُ، فيجيبون بما علموا[٥]، ويَشهدون على ما شاهدوا.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: يُكاشِفهُم بنعتِ الجلال، فتَنْخَنِسُ[٦] فهومُهم وعلومُهم، حتَّى يَنطقوا بالبراءةِ عن تحقُّق العلمِ في الحال، وكذا يكون الحالُ غداً، مَنْ قال بشيءٍ أو صال[٧] بشيءٍ ممَّا يكونُ نعتاً لمخلوق، فعند ظهور أوائل التَّعزُّر[٨]

---

(١) في (ف): «شهدوا».

(٢) بعدها في (ف): «فلهذا قالوا إنك أنت علام الغيوب أي».

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٣/ ٦٤٥).

(٤) في (أ): «خرور».

(٥) في (ر) و(ف): «عملوا».

(٦) في (أ): «فتنخس» وفي (ر): «فتنحبس»، والمثبت موافق للمصدر.

(٧) في «لطائف الإشارات»: «مال».

(٨) في (ف): «التعذر»، وفي «لطائف الإشارات»: «وابل التعزز».

تتلاشى الجملةُ؛ فالملائكة يقولون: (ما عبدناك حق عبادتك)، والأنبياء يقولون: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾[(١)].

* * *

(١١٠) ـ ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾؛ أي: يُعدِّدُ اللهُ على عيسى يومئذٍ نِعَمَه، فيُقِرُّ بذلك كلِّه، ويَتبيَّنُ بذلك بُطلانُ قولِ النَّصارى في اتِّخاذِه واتخاذِ أمِّه إلهين.

والنِّعمةُ اسمُ جنسٍ أُريدَ بها الجمعُ؛ فإنَّه ذكرَ بعده أعدادَ نعمِ الله تعالى، والنِّعمةُ عليه ما ذَكرَ في أوَّلِ[(٢)] هذه الآية وفي غيرها، وفي حقِّ والدتِه ما ذَكرَ في سورة آل عمران: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ الآيات [آل عمران: ٣٧].

ودلَّت الآيةُ على أنَّ الشُّكر يَجِبُ على الولد بنِعَم الوالدَين؛ لأنَّ النعمةَ عليهما نعمةٌ عليه.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾؛ أي: قوَّيتُك بجبريلَ عليه السلَّام.

وقيل: أي بالاسم الأعظم، وقد فسَّرناه في سورة البقرة على الكشف.

وقوله تعالى: ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ﴾ وهو ما قال: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الآية [مريم: ٣٠].

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٥٣ ـ ٤٥٤).

(٢) لفظ: «أول» ليس في (أ).

وقوله تعالى: ﴿وَكَهْلًا﴾؛ أي: بعد ثلاثين سنةً، حين أَوْحى إليكَ بالرِّسالة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ قيل: الكتابُ والحكمةُ هما التَّوراةُ والإنجيل، وفي كلِّ اسمٍ معنًى آخرُ لمسمًّى واحدٍ.

وقيل: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: كُتُب الأوَّلين؛ قيل[1]: التَّوراة والإنجيل.

وقيل: هو الكتابةُ بالقلم، والحكمةُ: فهمُ الكُتب.

وقيل: العملُ بها مع علمِها.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ﴾؛ أي: تُصوِّرُ وتُقدِّر ﴿كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى﴾؛ أي: على صورةِ الطَّير.

وقوله تعالى: ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى﴾؛ أي: بتَخليقي، كما قال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٤٥]؛ أي: بتخليق الله موتَها.

وقوله تعالى: ﴿وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى﴾؛ أي: تُصِحُّ المولودَ أعمى، والذي به برصٌ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى﴾؛ أي: تُخرِجُهم مِن قبورِهم أحياءً، وقد عددناهم في سورة آل عمران[2].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾؛ أي: وإذ منعتُ اليهودَ عن قتلِك حين همُّوا به؛ إذ أتيتَهم بالعلاماتِ الدالَّة على نُبوَّتِك.

وقوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾؛ أي: فقال الجاحدون مِن بني إسرائيل: ما هذا الذي أتيت به إلَّا سحرٌ[3] ظاهر.

---

(١) في (ر): «قبل».

(٢) عند الآيات (٤٨ ـ ٥٠) منها.

(٣) بعدها في (ر): «ظاهر».

وقرأ حمزة والكسائي وخلف[١]: ﴿ساحِرٌ﴾ وهو إشارةٌ إلى عيسى عليه السلام، وقرأ الباقون: ﴿إِلَّا سِحْرٌ﴾[٢]، وهو إشارةٌ إلى ما أتى به. وكيفيَّةُ كفِّ بني إسرائيلَ عنه ما حكيناه في سورة آل عمران.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: تذكيرُ وجوهِ النِّعم يَستخرِجُ خلاصةَ الحبِّ والهيمان في حديثِ المذكور، وكل وقتٍ للأحباب يمضي، صار لهم حديثاً يُتلى مِن بعدهم؛ إمَّا عليهم وإمَّا عنهم[٣].

* * *

(١١١) ـ ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ ﴾ فسَّرنا الحواريين في سورة آل عمران[٤]، وهذا الوحيُ إلهامٌ، أو وحيٌ إلى نبيِّهم وبلَّغهم، فصار كقوله: ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ [الزمر: ٥٥]؛ أي: إلى نبيِّكم، فبلَّغكم.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾؛ أي: عيسى.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾؛ أي: واشهد[٥] يا عيسى ﴿بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾؛ أي: مؤمنونَ مخلِصون.

وقيل: أي: واشهد؛ أي[٦]: يا ربَّنا، وكان هذا دعاءً منهم، وهذا من جملةِ ما عدَّدَ اللهُ على عيسى من النِّعم.

---

(١) لفظ: «وخلف» من (ف).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٢٤٩)، و«التيسير» (ص: ١٠١)، و«النشر» (٢/ ٢٥٦).

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٥٤).

(٤) عند تفسير الآية (٥٢).

(٥) لفظ: «واشهد» من (ف).

(٦) لفظ: «أي» ليس في (ف).

قال عبيدُ بن عمير: كان قولُه: ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾ إلى آخره في الدُّنيا، ولمَّا خاطبَه بهذهِ النِّعم، لبسَ مِن الشَّعر، وأكلَ مِن الشَّجر، وباتَ حيثُ أمسى، ولم يَرفع غداءً لعشاء، ولا عشاءً لغداء، وكان يقولُ: مع كلِّ يومٍ رزقُه[١].

* * *

(١١٢ ـ ١١٣) ـ ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١١٢) قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ قرأ الكسائيُّ والأعشى في اختياره[٢]: ﴿تَستطيعُ﴾ بتاء المخاطبة لعيسى[٣]، ومعناه: هلْ تَقدِرُ أنْ تسألَ ربَّك، على الإضمار. وقيل: هل تَستدعي إجابةَ ربِّك، والسينُ للسُّؤال، وسؤالُ الطَّوعِ هو سؤالُ الإجابة، فإنَّ قولك: سألتُه كذا فطاعَ لي؛ أي: أجابَني وفعلَه طائعاً غيرَ كارهٍ.

وقرأ الباقون: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ﴾[٤] بياء المغايبة، و﴿رَبُّكَ﴾ بالرَّفع؛ أي: هل يُجيبُ ربُّك، وقد طاعَ[٥] له طبعُه؛ أي: أجابَهُ، ولم يَكُن هذا شكًّا مِنهم في[٦] قدرةِ

---

(١) رواه ابنُ أبي شيبة في «المصنف» (٣١٨٧٧) بنحوه.

(٢) «والأعشى في اختياره»: زيادة من (ف)، وهي قراءة الأعشى في اختيار أبي بكر كما في «جامع البيان» للداني (ص: ٤٨٧).

(٣) قراءة الكسائي في «السبعة» (ص: ٢٤٩)، و«التيسير» (ص: ١٠١).

(٤) بعدها في (ف): «ربك».

(٥) في (ف): «أطاع».

(٦) في (أ): «على».

عيسى على السُّؤال، أو شكًّا في قدرةِ الله تعالى على الإعطاء، ولكنَّه تلطَّف في السُّؤالِ والرَّجاء، كقولك لآخر: أتستطيعُ أنْ تَقضيَ حاجتي، أو يَستطيعُ فلانٌ أنْ يَقضي حاجَتي بشفاعتِك، ويُفهَمُ منه أنَّك تكرهُ هذا السُّؤال، أو لا تكرهه؟ وفلانٌ يَكرهُ الإجابةَ أو لا يكرهها، وعلى هذا قوله: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ [هود: ٢٠]؛ أي: يكرهونه.

وقوله: ﴿أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ قراءة التخفيف[(١)] وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو وسهل ويعقوب[(٢)] على أصل الإنزال[(٣)]، وقراءةُ التَّشديد ـ وهي قراءة الباقين ـ على إنزالِها مرَّةً بعد مرَّةٍ، على ما رويَ، أو على إنزالِها من سماءٍ إلى سماء.

والمائدة: الخوانُ عليها الطَّعام، ويقال معناها: المعطية، وقد ماده؛ أي: أعطاه، قال رؤبة:

نُهدي[(٤)] رؤوسَ المترفين الأنداد إلى أميرِ المؤمنين الممتاد[(٥)]

أي: المستعطي، يُقال: امتادَ فلانٌ سيِّدَه، فمادَهُ؛ أي: استعطاهُ فأعطاه[(٦)].

وقيل: ماد؛ أي: تحرَّك، قال تعالى: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥]، ومعنى المائدة: المُميَّدة، فاعلةٌ بمعنى مفعولة[(٧)]؛...............................

---

(١) في (ف): «بالتخفيف» بدل من «قراءة التخفيف».

(٢) «وسهل ويعقوب»: زيادة من (ف).

(٣) انظر قراءة ابن كثير وأبي عمرو في «السبعة» (ص: ١٦٤ ـ ١٦٥)، و«التيسير» (ص: ٧٥)، وهي عنهما وعن يعقوب في «النشر» (٢/ ٢١٨).

(٤) في (ر) و(ف): «تهدي»، ولم ينقط حرف المضارعة في (أ)، والمثبت من المصادر.

(٥) انظر: «ديوان رؤبة» (ص: ٤٠)، و«معاني القرآن» للأخفش (١/ ٢٩٢). وفي الديوان: «الصُّدَّاد» بدل: «الأنداد».

(٦) في (ف): «ما أعطاه».

(٧) في (ر): «مفعلة».

أي: المحرَّكة، أو التي تميدُ[1] النَّاسَ حولَها، أو هي[2] على حقيقتِها؛ أي: متحرِّكةٌ[3] قابلةٌ للتَّحريك والنَّقل.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾؛ أي: احذروا أنْ يكونَ سؤالُكم سؤالَ شكٍّ.

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾؛ أي: إذْ كنتُم مؤمِنين.

وقيل: هو على ظاهرِه، ومعناه: أنَّ الإيمانَ يوجِبُ التَّقوى، وقالوا: الحكمةُ في هذا الجواب مِن عيسى لهم كي يَقولوا ما يَدلُّ على إخلاصِهم وتَصديقِهم، وأنَّ سؤالَهم لم يكن عن ارتيابٍ، فلا يقعَ عند السَّامعين أنَّهم شاكُّون أو متعنِّتون، وذلك قوله تعالى: ﴿قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأۡكُلَ مِنۡهَا وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ كما قال إبراهيمُ عليه السلام حين قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِي﴾؛ أي: تَزولَ الخطَراتُ والوَساوِسُ والشُّبهات.

قوله: ﴿أَن نَّأۡكُلَ مِنۡهَا﴾؛ أي: نكونَ مخصوصين بهذه النِّعمة.

وقوله تعالى: ﴿وَنَعۡلَمَ أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا﴾؛ أي: نَعلمَ صِدْقَك عِلْمَ عِيان، كما كنَّا علمناها علمَ استدلال.

وقوله تعالى: ﴿وَنَكُونَ عَلَيۡهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾؛ أي: على المائدةِ ونزولها شاهدين على الجاحدين؛ بوقوع العلم بالمشاهدة.

(١١٤) ـ ﴿قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَۖ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

---

(١) كذا في (ر)، ولم ينقط حرف المضارعة في (ر).

(٢) في (أ): «أي هو» بدل من «أو هي».

(٣) من قوله: «أو التي تميد» إلى هنا ليس في (ف).

ولمَّا كان السُّؤالُ سؤالَ زيادةِ العلم، لا سؤالَ التَّعنُّتِ، أجابَهم إلى ذلك، وهو قولُه تعالى: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: قال عيسى لبني إسرائيل: هل لكم أنْ تَصوموا لله ثلاثين يوماً، ثمَّ تَسألونَه، فيُعطيَكم ما سألتُم، فصاموا[1].

ثمَّ إنَّ عيسى عليه السَّلام لبسَ الشَّعر وقام وصلَّى، ونُبيِّنُ كيفيَّةَ ذلك بعد هذا في القصَّةِ إنْ شاءَ الله تعالى.

ثم دعا عيسى، فقال: ﴿ٱللَّهُمَّ﴾؛ أي: يا الله ﴿رَبَّنَآ﴾؛ أي: يا ربَّنا، ﴿أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾.

﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ ﴿تَكُونُ﴾ رُفِع لأنَّه مستقبلٌ ذُكِر بطريقِ الصِّفةِ لا الجزاء، ولو كان جزاءً لجُزِم، وفي قوله تعالى: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ﴾ [مريم: ٥ ـ ٦] قرئ بقراءتَين؛ بالجزم للجزاء، وبالرَّفع للصِّفة[2]، وتقديرُه: مائدةً كائنةً لنا عيداً.

وقوله: ﴿عِيدًا﴾؛ أي: طعاماً يُعادُ إليه مرَّةً بعد مرَّةٍ.

وقيل: أي: يكونُ ذلك اليومُ الذي تَنزِل فيه المائدةُ عيداً باقياً، كالأعيادِ لأهل كلِّ شريعةٍ؛ تعظيماً لذلك اليوم، وأضافَهُ إلى المائدة، فقال: ﴿تَكُونُ﴾؛ لثبوت ذلك اليوم بسببها[3].

وقيل: إنَّها نَزلَت في يوم الأحد، وهو عيدُ النَّصارى.

وقوله تعالى: ﴿لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ على القولِ الأوَّل[4]؛ أي: يأكلُ منها

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ١٢١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٢٤٤) (٧٠١٦).

(٢) «يرثْني ويرثْ» بالجزم هي قراءة أبي عمرو والكسائي، وقرأ الباقون بالرفع فيهما. انظر: «السبعة» (ص: ٤٠٧)، و«التيسير» (ص: ١٤٨).

(٣) في (ر) و(ف): «تشبيها» بدل: «بسببها».

(٤) يعني: على القول بأنها طعام يعاد إليه مرة بعد مرة.

الأوَّلـون، وهـم الحاضـرون، والآخِـرون؛ أي: الذيـن يَأتـون مِـن بعـد.

وقيل: أي: تكونُ المائدةُ طعاماً دائماً لنا.

وقيل: أي: يَجتمعُ أهلُ مِلَّتِنا عليه قوماً بعد قومٍ، كما في الولائمِ العظيمة.

وقوله تعالى: ﴿وَءَايَةً مِّنكَ﴾؛ أي: علامةً شاهدةً على صِدقي، وإزالةً للشُّبهةِ والوَسواسِ.

وقولـه تعالـى: ﴿وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾؛ أي: أعطِنـا مـا سـألناكَ، وأنـت خيرُ المعطِيـن؛ تَبتـدِئ بالعطيَّـة قبل الاسـتحقاق.

ختمَ الدُّعاءَ بالثَّناءِ، كما بدأ به[1] توسُّلاً إلى الله تعالى بطلبِ الإجابة.

* * *

(١١٥) ـ ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ وعدَ الإنزالَ، وشرط عليهم شرطاً وهو قـولُـه تعـالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وهذا وعيدٌ بالعذابِ بأبلغِ ما يكون، ثم قيل: أرادَ به عالمي زمانِهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٢].

وقيل: أرادَ به كلَّ العالم؛ فإنَّه مسخهَم خنازير، ولم يمسخ قوماً كذلك قبلَهم ولا بعدَهم.

وقال الحسنُ البصريُّ وقتادةُ ومجاهدٌ رحمهم الله: لـمَّا سَمِعوا الشَّرْطَ خافوا فاستَعفَوا وقالوا: لا نُريدُها، فلم تَنزِل[2].

وقال الحسن: لو نزلَت لكانت باقيةً إلى يوم القيامة؛ لأنهم قالوا: ﴿تَكُونُ لَنَا

---

(١) في (ف): «بدأه» بدل من «بدأ به».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ١٣٠) عن الحسن ومجاهد.

﴿عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾[١]. وأكثرُ النَّاسِ على أنَّها نَزلَتْ، وعليه الأخبارُ المشهورة.

رويَ عن سلمان الفارسيِّ رضي الله عنه أنَّه قال: إنَّ الحواريين سألوا عيسى عليه السلام أنْ يَسألَ اللهَ أنْ يُنَزِّلَ لهم مائدةً، فقام عيسى ابنُ مريمَ، وألقى الصُّوفَ عنه، ولبسَ جبَّةً مِن شعر، ولحافاً مِن شعر، ثمَّ وضعَ يمينَهُ على شِماله، وصفَّ بين قدميه وألزق[٢] كعبَ إحدى قدميه مع الأخرى، وسوَّى الإبهامَ مع الإبهام، وطأطأ رأسَهُ خاشعاً لله تعالى، وأرسلَ عينيه بالبكاءِ حتَّى سالَت الدُّموعُ على لِحيتِه وصدرِه، وهو يَدعو ويتضرَّعُ إلى ربِّه، ثمَّ قال: ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّٰزِقِينَ﴾.

فنزلَتْ سفرةٌ حمراءُ بين غمامَتين؛ غمامةٍ فوقَها، والأُخرى تحتَها، منقضَّةٌ في الهواءِ، والنَّاسُ يَنظرون إليها، وعيسى عليه السلام يَبكي، ويقولُ: إلهي، اجعلْها رحمةً، ولا تَجعلها عذاباً، إلهي، كم أسألُك من العجائبِ فتُعطيني، إلهي، أعوذُ بك أنْ يكونَ نزولُها غضَباً ورِجْزاً، وأسألُك أنْ تَجعلَها عافيةً وسلامة، ولا تَجعلْها مُثلةً أو فتنة.

فما زال يَدعو ويَتضرَّعُ حتَّى استقرَّت بين يدي عيسى عليه السَّلام، والنَّاسُ حولَهُ يَجِدونَ طيبَ ريحِها، لم يَجدوا قطُّ ريحاً أطيبَ منها، فخرَّ عيسى ساجِداً، وخرَّ[٣] الحواريُّون معَه.

وبلغَ ذلكَ اليهود، فأقبلوا مَغمومين مَكروبين، ونَظروا إلى أمرٍ معجِبٍ، فإذا سُفرةٌ مغطَّاةٌ بمنديلٍ، فرفعَ عيسى رأسَه، واستوى قاعداً، فقال: لينظر مَن كان خيرَنا، وأحسنَنا عملاً عند ربِّه وأوثَقَنا بنفسِه؛ فليَكشِفَ عن هذه الآيةِ حتَّى نَنظرَ إليها، ونحمدَ إلهَنا عليها، ونأكلَ مِنها، فقال الحواريون: فأنتَ أوْلانا بذلك، وأحقُّنا يا روحَ الله وكلمتَه،

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٣/ ٦٥١).

(٢) في (أ): «وألقى».

(٣) في (أ) و(ف): «وسجد».

فقام عيسى وتوضَّأ وضوءاً حَسَناً وصلَّى صلاةً حسنةً، وبكى بُكاءً طويلاً، ثمَّ أقبلَ حتَّى جلسَ عند السُّفرةِ، ثمَّ قال: بسم اللهِ خيرِ الرَّازقين، وكشفَ المنديل، فإذا سمكةٌ مشويَّةٌ، ليس لها فلوسٌ، ولا فيها شوكٌ، يَسيلُ السَّمنُ مِنها سيلاناً، وقد وُضِع[١] حولها من ألوانِ البُقول إلَّا الكرَّاث، وخلٌّ عندَ رأسِها، ومِلْحٌ عند ذنبِها، و[حول البُقول] خمسةُ[٢] أرغفةٍ، على كلِّ رغيفٍ زيتونٌ وخمسُ رمانات وتميرات[٣].

فقال شمعون وهو رأسُ الحواريين: يا روحَ الله وكلمتَهُ، أمِنْ طعامِ الدُّنيا هذا، أم مِن طعامِ الجنَّة؟ فقال عيسى: ما أخوَفني عليكم أن تُعاقبوا، فقال شمعون: لا وإلهِ بني إسرائيلَ، ما أردتُ بما سألتُك عنه سوءاً، فقال عيسى: نزلَتْ وما عليها مِن السَّماءِ شيءٌ، وليس شيءٌ مِنها مِن طعام الدُّنيا، ولا مِن طعامِ الآخرة، وهو ممَّا ابتدعَهُ اللهُ تعالى بالقُدرةِ البالغة، فقال له: كن، فكان، فكُلوا ممَّا سألتُم، واذكروا اسمَ اللهِ عليه، واحمَدوا إلهَكم، واشكروهُ يَزِدكُم؛ فإنَّه القادرُ على ما يَشاء.

فقال الحواريُّون: يا روحَ الله، كُن أنت أوَّلَ مَن يأكلُ مِنها، ثمَّ نأكلُ نحن، فقال عيسى: معاذَ الله، بل يَأكلُ مِنها الذي سألَها وطلبَها، وفرِقَ الحواريُّون أن يكون نزولُها سُخْطةً، وفيها مُثْلَة، فلم يأكلوا منها، فدعا عيسى عليه السَّلام أهلَ الفاقةِ والزَّمانةِ، مِن العميانِ والمجذومِين والمختَلِّين والمجانين، ونحوِ ذلك مِن أنواعِ أهل البلاء مِن النَّاس، فقال: كُلوا مِن رزقِ ربِّكم، ودعوةِ نبيِّكم، وآيةً[٤] مِن ربِّكم، وليَكن مَهنؤها لكم، وبلاؤها لغيرِكم، فأكَلوا، فصدرَ عن تلك السَّمكةِ والطَّعامِ ألفٌ وثلاثُ مئةٍ؛ ما بين رجلٍ وامرأةٍ شباعاً، مِن بين فقيرٍ جائع، وذي فاقَةٍ وعيب، فنظرَ عيسى إلى السُّفْرةِ، فإذا هي كهيئتِها حين نزلَت مِن السَّماء، ثمَّ رُفِعَت إلى السَّماء،

---

(١) بعدها في (ر): «خواناً».

(٢) لفظ: «خمسة» ليس في (ف)، وما بين حاصرتين من المصادر.

(٣) في المصادر: «على واحد منها زيتون وعلى الآخر ثمرات وعلى الآخر خمس رمانات».

(٤) في (ف): «وإنه».

وهم ينظرون إليها صاعدةً، ويَنظرون إلى ظلِّها حتَّى توارَتْ، فاستَغنى كلُّ فقيرٍ[١] أكلَ مِنها يومئذٍ حتَّى مات، وبَرِئ كلُّ مبتلًى، فلم يَزل صحيحاً عتيًّا حتَّى مات.

وندمَ الحواريُّون وسائرُ الناس ندامةً شابَت منها[٢] حواجبُهم وأشفارُ أعينِهم[٣]، فكانت إذا نزلت بعد ذلك، أقبلوا إليها مِن كلِّ مكانٍ يَسعون، يُزاحِمُ بعضُهم بعضاً؛ الأغنياءُ والفقراء، والنِّساء والرِّجال، والصِّغارُ والكبار، وكلُّ صحيحٍ ومريضٍ، يَركبُ بعضُهم بعضاً، فلمَّا رأى ذلك عيسى، جعلها نوائب بينهم، ثم كانَت بعد ذلك تَنْزِلُ غِبًّا[٤]؛ تَنزِلُ يوماً، ولا تنزل يوماً، كناقة صالح[٥] ثمود، ترعى يوماً وتَرِدُ يوماً، فلَبثوا بعد ذلك أربعين يوماً، تَنزِلُ ضحًى، فلا تَزالُ موضوعةً يُؤكَلُ منها، فإذا فاء الفيء[٦]، ارتفعَت صاعدةً في[٧] السَّماء يَنظرون إليها وإلى ظلِّها في الأرض، حتَّى تَتوارى عنهم.

ثمَّ أوحى اللهُ تعالى إلى عيسى عليه السلام: أن اجْعَل مائدتي ورزقِي لليَتامى والزَّمْنى والفُقراء، دون الأغنياءِ مِن النَّاس، فتَعاظَم ذلك عند الأغنياء، وأذاعوا القبيحَ، وارتابوا، وشكَّكوا النَّاسَ فيها، حتَّى وقعَت الفتنةُ في قلوبِ المرتابين، وحتَّى قال قائِلُهم: يا روحَ الله وكلمتَه، إنَّ المائدةَ لحقٌّ أنَّها تَنزِلُ مِن عند ربنا؟ فقال عيسى عليه السلام: ويْلَكُم هَلَكتُم، العذابُ نازِلٌ بكم، إلَّا أنْ يَعفو اللهُ عنكم[٨] ويرحم.

---

(١) في (ف): «من».

(٢) لفظ: «منها» من (ف).

(٣) وقع في «تفسير ابن أبي حاتم» (٧٠٤٠): «سألت منها أشفاءهم» كذا وهو تحريف، ونص العبارة في «العظمة» و«الدر المنثور» (٥/ ٥٩٦): «سالت منها أشفارهم».

(٤) قوله: «تنزل غباً» ليس في (ف).

(٥) قوله: «صالح» من (أ).

(٦) في (ف): «اكتفوا»، بدل: «فاء الفيء». وفي «تفسير ابن أبي حاتم» و«العظمة»: «إذا قاموا»، وفي «الدر المنثور»: «إذا قالوا»، والمثبت موافق لما في «فوائد» أبي بكر الشافعي.

(٧) في (ف): «إلى».

(٨) لفظ: «عنكم» من (ف).

فأوحى اللهُ تعالى إلى عيسى أنّي آخِذُهُم بشَرطي الذي اشترطتُ عليهم، وأنّي معذِّبٌ مِنهم مَن كفرَ بعد نزولِها عليهم بعذابٍ لا أعذِّبُه أحداً من العالمين.

فقال عيسى عليه السَّلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، فأخبرَهم بنزولِ العذابِ عليهم، فمسخَ الله تعالى منهم ثلاثةً وثلاثين رجلاً - وفي روايةٍ: ثلاثَ مئة وثلاثة وثلاثين رجلاً - خنازيرَ فأصبحوا يأكلون العَذِرة في الحُشوش ويتبعون الزِّبلَ في الطُّرق.

وكانوا باتوا أوَّل اللَّيلِ على فُرُشِهم مع نسائِهم في دورِهم آمِنين، في أحسنِ صورةٍ وأحسن رزقٍ، فأصبَحوا خنازيرَ، فأصبحَ النَّاس ومَنْ بقيَ منهم فَزِعين خائفين مِن عقوبةِ الله تعالى، وعيسى عليه السَّلام يَبكي ويَتضرَّعُ، وأهلوهم يَبكون معه عليهم، وكانت الخنازيرُ تَسعى إلى عيسى عليه السلام إذا أبصرَتْهُ، ويَطيفون حولَه[(١)]، ويَنظرون إليه، ويَشمُّون ريحَهُ، ويَسجدون له، وأعيُنُهم تَسيلُ دموعاً، لا يَستطيعون كلاماً، ويَقومُ عيسى عليهم، فيناديهم بأسمائِهم[(٢)]: يا فلان ويا فلان، فيقول برأسه: نعم، فيقول: ألَمْ أُنذِركم عقوبةَ الله وأُحذِّركُم؟ فيقولون برؤوسهم: نعم، وذلك قولُه تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ الآية [المائدة: ٧٨]، وأنزلَ اللهُ تعالى على نبيِّه محمَّدٍ عليه الصَّلاة والسلام: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾ [الرعد: ٦].

ثمَّ إنَّ عيسى عليه السلام سألَ ربَّه أنْ يُميتَهُم، فأماتَهُم اللهُ بعد ثلاثةِ أيَّام، فما رأى أحدٌ مِن النَّاس لهم جِيفةً في الأرض، غير أنَّ العقوبةَ إذا نزلَت مِن السَّماء استأصَلَت[(٣)].

---

(١) في (ف): «به».

(٢) بعدها في (ر): «فيقول».

(٣) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٢٤٤ - ١٢٤٥، ١٢٤٦ - ١٢٤٧، ١٢٤٩ - ١٢٥٠، ١٢٥١) (٧٠١٩) (٧٠٢٠) (٧٠٢٩) (٧٠٤٠) (٧٠٤٢) (٧٠٤٤)، وأبو بكر الشافعي في «فوائده» (١٠٩٧)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٩٩٩)، وذكره ابن كثير في «تفسيره» عن ابن أبي حاتم، وقال: هذا أثر غريب =

واختلفَت الرِّواياتُ في قدرِ الطَّعام الذي كان فيها وفي نوعه:

رويَ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «نَزلَت وعليها حيتانٌ وأرغفة»(١).

ورويَ عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما: خبزٌ وسمكة(٢).

وقال وهبٌ: أقرصةٌ مِن شعيرٍ وحيتان(٣).

وقال عمارٌ وكعبُ الأحبار: نزلَت وعليها ثمرٌ مِن ثمارِ الجنَّة(٤).

وقال عطيَّةُ العوفيُّ: نَزلت وعليها سمكةٌ فيها طعمُ كلِّ شيء.

وقيل: كان عليها كلُّ شيءٍ إلَّا اللحم(٥).

وقيل: إلَّا اللَّحمُ والخبز.

وفي رواية: خمسةُ أرغفة على أحدِها زيتونٌ، وعلى الثَّاني عسلٌ، وعلى الثَّالث سمنٌ، وعلى الرابع جبنٌ، وعلى الخامس قَدِيد، فقالوا: لو أريتنا في هذه الآيةِ آية أخرى، فدعا اللهَ تعالى، فأحيا الحوتَ، وعادَ فيها فلوسُها وشوكُها، ثمَّ قال: عودي بإذنِ الله كما كنتِ، فعادت(٦).

وفي رواية: أكل منها ألفُ رجلٍ، وفي روايةٍ: خمسةُ آلافِ رجل.

وروي أنَّها نزلت يوماً، ورويَ أنَّها نَزلت ثلاثةَ أيَّام، وروي: سبعة أيام، وروي: أربعين صباحاً.

= جدًّا، وذكره أيضاً الشيخ محمد أبو شهبة في «الإسرائيليات» (ص: ١٩٢ ـ ١٩٤)، وطعن فيها.

(١) روى نحوه الترمذي في «سننه» (٣٠٦١) من حديث عمار مرفوعاً وموقوفاً، وذكر أن الموقوف أصح.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ١٢٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٢٤٥) (٧٠٢٥).

(٣) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٧٦٤)، ومن طريقه الطبري (٩/ ١٢٦)، وابن أبي حاتم (٤/ ١٢٤٦) (٧٠٢٧).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ١٢٨) وابن أبي حاتم (٤/ ١٢٤٥) (٧٠٢٣) عن عمار رضي الله عنه.

(٥) رواه ابن أبي حاتم (٤/ ١٢٤٦) (٧٠٢٦).

(٦) هذه الرواية قطعة من رواية سلمان التي سلفت قريباً.

وفي حديث الكلبي: فلمَّا أكلوا منها، ورَجعوا إلى قُراهُم ومنازلِهم، ونَشروا هذا الحديثَ، ضحكَ الذين لم يشهدوها، وقالوا: ويحكم، إنَّما سحرَ أعينُكم. فمَن أرادَ الله به[١] الخيرَ يُثبِّتُهُ على بصيرتِه، ومَن أرادَ فتنتَهُ، رجعَ إلى كفرِه، فمُسِخوا خنازيرَ، ومكثوا ثلاثةَ أيَّامٍ، ثمَّ هلكوا[٢].

وقال ابنُ عمر[٣] رضي الله عنهما: أشدُّ النَّاس عذاباً يومَ القيامة ثلاثةٌ: آلُ فرعون، ومِن كفر من أصحاب المائدة والمنافقون.

ومن أهل النَّظم[٤] مَن قال: لـمَّا قال اللهُ تعالى: ﴿فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، قال عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ الآية، وله وجهٌ آخرُ نَذكرُه في موضعِه إنْ شاءَ الله.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: قيل: إنَّ قوماً مِن غيرِ الحواريين سَألوا الحواريِّين أنْ يَسألوا عيسى أنْ يسألَ ربَّه ذلك؛ لأنَّهم خواصُّه، وهو كمَن كان له إلى السُّلطان حاجةٌ، فيَرجِعُ إلى خواصِّهِ ليَرفعوه إليه.

وقيل: إنَّ الحواريِّين سألوا ذلك، ولكن له وجوهٌ:

أحدها: ما ذكرنا أنَّهم أرادوا الطُّمأنينةَ.

والثاني: أنَّ عيسى عليه السَّلام أخبرَهم أنَّ لهم منزلةً عند الله تعالى، فأحبُّوا أنْ يَعرِفوا ذلك بالإجابة.

والثالث: أنَّهم أحبُّوا أنْ يَعلموا به منزلةَ عيسى عليه السَّلام عند الله[٥].

---

(١) في (ف): «له».

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ١٢٨).

(٣) كذا في النسخ الخطية، والصواب أنه قول عبد الله بن عمرو، أخرجه عنه الطبري في «تفسيره» (٨/ ١٣٢)، وأورده السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٦٠٤ ـ ٦٠٥).

(٤) في (ف): «النظر».

(٥) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٣/ ٦٤٩ ـ ٦٥٠).

وقال القشيريُّ: طَلبوا المائدةَ لِتسكُنَ قلوبُهم، وكلٌّ يَطلُب على قدرِ حالتِه، فمِنهم مَن كان سكونُه في مائدةٍ مِن المطاعمِ يَجِدُها، ومِنهم مَن كان سكونُه في مائدةٍ مِن المواردِ يَرِدُها، ومِنهم عزيز، مَنْ يَجِدُ الغِنى عن برهانٍ يتأمَّلُه، أو بيانٍ يَتطلَّبُه.

وقال: شتَّانَ بين أمَّةٍ طلبَ نبيُّهم لهم سُكوناً بإنزال المائدةِ عليهم، وبين قومٍ بَدأهم اللهُ تعالى بإنزالِ السَّكينةِ عليهم مِن غير سؤالِ أحدٍ في حقِّهم.

وقال: لمَّا وعدَهم الإنزالَ حذَّرَهم العذابَ؛ ليَعلمَ العالِمون أنَّ المرادَ إذا حصلَ، فالخطرُ أشدُّ، والحالُ مِن الآفة أقربُ، ومهما كانت الرُّتبة أعلى كانت الآفةُ أخْفى(١).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ قيل: انتظامُها بقوله: ﴿فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾، ويقول لعيسى هذا يومَ القيامة، وما بينهُما بيانُ شرفِ عيسى، وأنَّه مع منزلتِه هذه يُخاطَب يوم القيامةِ بهذه الهيئة.

وقال السُّدِّيُّ وقطرب: قال الله تعالى له ذلك حين رفعَهُ إلى السَّماء(٢).

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: يحتمل هذا ثلاثةَ أوجه:

أحدُها: أنَّه كان وهو في الأرضِ بين أظهرِهم؛ ليكون ذلك حجَّةً لمن اتَّبعَه على مَنْ زاغَ عن طريقته؛ لأنَّه تبرَّأ أنْ يكونَ قال لهم ذلك.

ويَحتملُ أنَّه قال له ذلك حين رفعَهُ إلى السَّماء، وقرَّرَ عندَه أنَّ قومَه يقولون ذلك بعد مفارقتِه.

ويَحتمل أنَّه يقول ذلك يوم القيامةِ، ويكونُ ﴿قَالَ﴾ بمعنى: يقول، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ [غافر: ٤٩](٣).

وأكثرُهم على هذا؛ لأنَّ ما قبلَهُ، وهو قولُه تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾، وما

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٥٥ ـ ٤٥٦).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ١٣٣) عن السدي.

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٣/ ٦٥٢ ـ ٦٥٣).

بعدَه وهو قوله جل جلاله: ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾، وهو في يوم القيامة.

وعن ابن عبَّاسٍ وعطاءِ بن السَّائب كذلك، قال عطاء: فأرعدَ عيسى حتَّى سقطَ إلى الأرض، وهو يقولُ: سبحانك.

وروي أنَّه تَتخلَّعُ مفاصِلُه، وتَسقطُ مِن كلِّ شعرةٍ منه قطرة دمٍ.

وهذا حالُ مَن لم يُذنِب، ويَعلمُ أنَّ اللهَ تعالى يَعلَمُ منه أنَّه لم يُذنِب، فكيف حالُ مَن غرِقَ في الذُّنوب إذا خاطَبه بالعِتاب علَّامُ الغيوب؟!

وقوله تعالى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وإنَّما خاطبَ بذلكَ عيسى دون النَّصارى؛ لأنَّهم في غاية البغضِ عند الله؛ لغاية فحشِ ما تَكلَّموا به، قال تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ [الكهف: ٥]، وقال تعالى: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ [مريم: ٩٠]، وهذا كقولِه تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨ ـ ٩]، ولأنَّ عيسى عليه السَّلام أصدقُ النَّاسِ كلِّهم عند النَّصارى، فألزمَهم كذبَهم بقولهم، ثمَّ عذَّبَهم.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾ نزَّهَ اللهَ تعالى عن كلِّ سوءٍ أوَّلاً، ثمَّ قال: ﴿مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾؛ أي: ما يَنبغي لي أنْ أقولَ ذلك، وهو ظاهرُ البطلان، وقد قلتُ في الصِّغرِ: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٣٠]، فكيف أقول بخلافه في الكِبَر؟

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾ وهذا اعتذارٌ حسنٌ واضح.

وقوله تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى﴾؛ أي: في ذاتي، ﴿وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾؛ أي: في ذاتك[(١)].

وقال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: تَعلمُ ما في غيبي، ولا أعلمُ ما في غيبِك[(٢)].

---

(١) قوله: «أي في ذاتك»: من (ر).

(٢) ذكره البغوي في «تفسيره» (٣/ ١٢٢).

وقال المبرِّدُ: أي: تَعلمُ ما أعلم، ولا أعلمُ ما تَعلم[١]، وتعلم ما أُخفي ولا أعلمُ ما تُخفي[٢]؛ أي: لا أطَّلِعُ على معنى خطابك هذا.

وقيل: تَعلمُ ما عندي، ولا أعلمُ ما عندك.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ وهو اسمٌ للمبالغة.

* * *

(١١٧) ـ ﴿مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡ﴾؛ أي: وحِّدوهُ وأطيعوهُ، وكذلك أخبرَ الله تعالى عنه بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡ﴾ [المائدة: ٧٢]، وقال في سورة الزخرف: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُ﴾ [مريم: ٣٦]، ونحوُه في سورة مريم.

وقوله تعالى: ﴿وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡ﴾؛ أي: شاهداً على ما يفعلون ويقولون ﴿مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡ﴾ مدَّةَ كوني فيهم، آمرُهم بالمعروف، وأنهاهم عن المنكر.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي﴾؛ أي: قبضتَني ورفعتَني إلى السَّماء.

وقوله تعالى: ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡ﴾؛ أي: الحفيظَ والمطَّلِعَ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ مِن قولي وفِعلي، وقولِهم وفعلهم.

* * *

(١١٨) ـ ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَ﴾ إن حُمِل هذا على خطابِه حين رُفِعَ إلى

---

(١) «ولا أعلم ما تعلم»: ليس من (أ).

(٢) هو قول الزجاج في «معاني القرآن» (٢/ ٢٢٣).

السَّماء، فالكنايةُ راجعةٌ إلى الكلِّ، ومعناه: إنْ تُمِتهُم[١] على الكفرِ، وتُعذِّبهم بالنَّار لذلك، فلك الحكمُ في مَلكِكَ[٢] ومِلكك.

ووجهٌ آخر: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾ للحال[٣] ﴿فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾، ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾؛ أي: وإنْ تُؤخِّر العذابَ عنهم في الحال إلى الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾؛ أي: المنتقمُ مِنهم في الآخرة، وتأخيرُ العذابِ يُسمَّى مغفرةً، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦]، قيل: على كفرهم، وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ [الكهف: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦] على ذلك.

وقيل: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾؛ أي: وإن تَهدِهم وتغفرْ لهم بذلك، فإنَّك أنت المنيعُ في سُلطانِك ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أمرك، لا مانعَ لك عن مغفرتِهم، ولا شيءَ منك إلَّا وفيه الحكمةُ البالغة.

وإن حمل هذا على خطابه يوم القيامة، فمعناه الخصوص مِن العموم، فإن قوله: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ هذا عامٌّ، وقوله: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ﴾ كذلك، ثمَّ مِنهم مَن ثبتَ على مقالتِه الشَّنيعة، ومنهم من أسلمَ ورجعَ عن ذلك، وحضرَ الفريقان جميعاً يوم القيامة، فيكون قوله: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾ إشارةً إلى الكفَّارِ منهم، ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ إشارةً إلى المؤمنين منهم، ثمَّ في قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: (وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم)[٤]، وهو ظاهرُ المعنى في نظم الآية.

---

(١) في (أ): «تميتهم».

(٢) في (أ): «ملك».

(٣) من قوله: «لذلك فلك الحكم» إلى هنا ليس في (ف).

(٤) انظر القراءة في «تفسير أبي الليث» (١/ ٤٦٩)، و«تفسير البغوي» (٣/ ١٢٣).

فأمَّا قوله: ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾؛ أي: مع مغفرتك أنت العزيزُ الحكيم، و﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ في صفة الخَلق: المنتقمُ، وظهورُ العزِّ في الانتقام، فيقول هاهنا: عِزُّك ظاهرٌ، وسلطانُكَ قاهرٌ، وبرهانُك باهرٌ، مع عفوِك عن عبادِك، ومغفرتِك ذنوبَ خلقِك، وعفوُ ملوكِ الدُّنيا قد يكونُ لضعفٍ وعجزٍ، وعفوك لا يكونُ إلَّا لفضلِك وإحسانِك[1]، وكمالِ قدرتك وسلطانِك، فأنت حكيمٌ في كلِّ أمورِك.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ المعِزُّ لهم بمغفرتِك لهم.

وقيل: ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يضرُّك ذنوبُهم.

وقيل: ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ القادرُ على الانتقامِ منهم، والعفوُ عن[2] القدرة سِمَةُ الكرم.

وقيل: ﴿أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾؛ أي: أعزُّ مِن أنْ يَتجمَّل بطاعةِ مطيعٍ، أو يتضرَّر بزلَّة عاصٍ، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ تَضعُ كلَّ شيءٍ موضعَهُ[3].

* * *

(١١٩) ـ ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ قرأ نافع[4]: ﴿يومَ﴾ بالنَّصب على الظَّرف؛ أي: يقولُ الله للأنبياء: ﴿مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾، ولعيسى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ في يوم القيامة.

---

(١) من قوله: «وعفو ملوك الدنيا» ليس في (أ).

(٢) في (ف): «عند».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٥٨).

(٤) في (ف): «عاصم».

وقرأ الباقون بالرَّفع على الابتداء[(١)]؛ أي يقول الله: إنَّ هذا اليومَ يوم ينفعُ الصَّادِقين فيه صدقُهم في الدُّنيا.

وقال مقاتل رحمه الله: الصادقون: النَّبيُّون يَنفعُهم صدقُهم، وكان عيسى صادقاً في الدَّنيا فيما قال، فيَنفعُه ذلك، فكذلك يَنفعُ النَّبيِّين فيما شَهِدوا به على أممِهم يومئذٍ[(٢)].

وقال الكلبيُّ: أي: يَنفعُ المؤمنين إيمانُهم، والصَّادقون مِن أسماءِ المؤمنين، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ إلى قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾.

وقيل: الصادقون: هم الموفُّون بالعقودِ التي أمرَ اللهُ تعالى بها في أوَّل هذه السورة.

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾؛ أي: رضي الله عنهم[(٣)] بالسَّعيِ المشكور، ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾؛ أي: بالجزاءِ الموفور.

وقيل: أي: بتوفيقِه إيَّاهم على السَّعيِ المشكور.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ فإنَّه في الآخرة، وهو باقٍ، والفوزُ في الدُّنيا غيرُ باقٍ.

* * *

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٢٥٠)، و«التيسير» (ص: ١٠١).

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٥٢٢).

(٣) قوله: «رضي الله عنهم» من (ف).

(١٢٠) ـ ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌۢ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌۢ﴾؛ أي: عيسى وأمُّه مِن جملةِ ذلك، فهما مملوكانِ له، فكيف يَكونان إلهين، وهو قادرٌ عليهما، فهما مقدوران له، فكيف يكونان ربَّين.

وقال الإمامُ القشيريُّ رحمه الله: تَمدَّحَ اللهُ تعالى بقدرتِه القديمةِ، الشَّاملةِ لجميع المقدوراتِ، الصَّالحةِ لإيجادِ المصنوعات، فهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ؛ مِن التَّقرُّبِ والإبعاد، والإشقاء والإسعاد، والقَبولِ والرَّدِّ، والإقبالِ والصَّدِّ[١].

وروي عن عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «مَن قرأَ سورةَ المائدةِ شَفِعَ له عيسى عليه السَّلام، وأُعطيَ مثلَ أجور[٢] حواريي عيسى، وكُتِبَ لهُ بِكُلِّ آيةٍ قرأَها مثلُ ثوابِ عُمَّار بيتِ المقدس»[٣].

والحمدُ لله ربِّ العالمين[٤]، وصلَّى اللهُ على سيدنا محمَّدٍ وآله وصحبِه وسلَّم تسليماً كثيراً.

***

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٥٩).

(٢) في (ر) و(ف): «أجر».

(٣) لم أقف عليه مسنداً، وأورده الفيروزأبادي في «بصائر ذوي التمييز» (١/ ١٨٥).

(٤) بعدها في (ف): «ربنا آمنا من خوف المشركين».